غير مخصص للبيع

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية ـ العدد 241 ـ رجب 1417 ـ نوفمبر/ ديسمبر 1996
ALFAISAL MAGAZINE ISSUE 241 _ NOV./DEC. 1996

Mngool
Com

هدية العدد

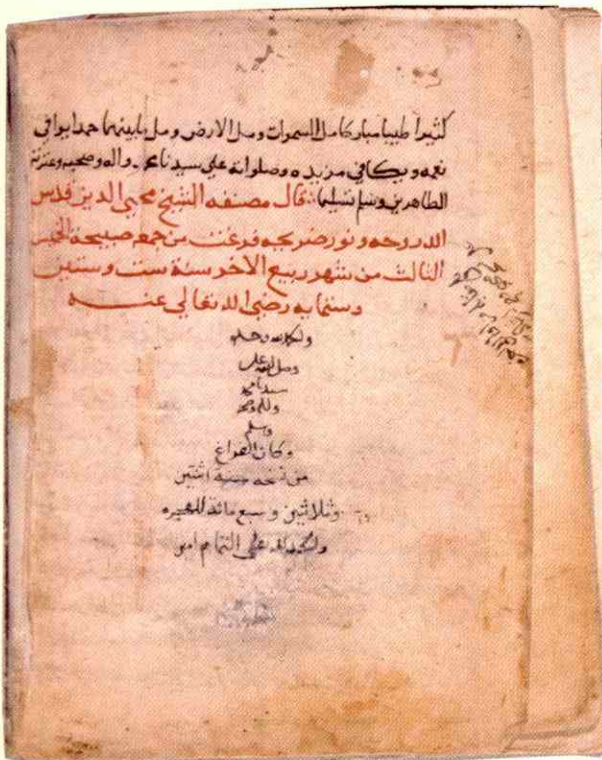


- اللغة بين الإنسان والحيوان
- ملح الطعام: كثيره وراء قليله!
- هل يموت الشعر في العصر الحديث؟

هونج كونج

من حرب الأفيون إلى اقتصاد النمور


كتاب التبيان
في اداب حملة القران تصنيف الشيخ الامام العالم
العلامة الزاهد العابد محيي الدين
ابي زكريا يحيى بن شرف بن مري
النواوي قدس الله
روحه ونور ضريحه
امين


كثيرا طيبا مباركا ملء السموات وملء الارض وملء ما بينهما حمدا يوافي
نعمه ويكافي مزيده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وعترته
الطاهرين وسلم تسليما قال مصنفه الشيخ محيي الدين قدس
الله روحه ونور ضريحه فرغت من جمعه صبيحة الخميس
الثالث من شهر ربيع الاخر سنة ست وستين
وستمائة رضي الله تعالى عنه
والحمد لله وحده
وصلى الله على
سيدنا محمد
وآله وصحبه
وسلم
وكان الفراغ
من نسخه سنة اثنتين
وثلاثين وسبعمائة للهجرة
والحمد لله على التمام

التبيان في آداب حملة القرآن

تأليف:

أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف بن مُرِّي النووي، المتوفى سنة 676 هـ.

رتب الإمام النووي كتابه هذا على عشرة أبواب: الأول في فضيلة تلاوة القرآن وحمله، والثاني: في ترجيح القراءة والقارئ، والثالث: في إكرام أهل القرآن، والرابع: في آداب المعلم والمتعلم، والخامس: في آداب حامل القرآن، والسادس: في آداب القراءة، والسابع: في آداب الناس مع القرآن، والثامن: في الآيات والسور المستحَبَّة في بعض الأوقات، والتاسع: في كتابة القرآن وإكرام المصحف، والعاشر: في ضبط ألفاظ الكتاب (كشف الظنون 340/1).

وهذه النسخة من الكتاب تقع في 42 ورقة، وكتبت سنة 732هـ.

والمخطوطة من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برقم 10080.

إعداد: إبراهيم باجس عبدالجيد

في العدد القادم:

- الاستشراق والغزو الثقافي
- ثغر طرسوس بين عصر الرشيد والاحتلال البيزنطي
- يوسف الشاروني: النقد غرم لا غنم.. لماذا؟!

رئيس التحرير
د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن دار الفيصل الثقافية



عن العدد الماضي

حفل عدد شهر جمادى الآخرة من مجلة «الفيصل» بمقالات متنوعة تناولت مختلف جوانب الفكر الإنساني؛ فمن موضوعات تربوية اجتماعية، إلى أخرى علمية وطبية، ومن أدب ولغة وفكر، إلى تاريخ وتراث وبيئة.

فقد ضم العدد بين دفتيه جملة من المقالات المهمة لكتّاب بارزين، منها «الدعوة الإسلامية ومُثُلها في رسائل النبي - صلى الله عليه وسلم - وكتبه وعهوده» للدكتور يوسف عز الدين. وآخر للدكتور خلف محمد الجرّاد عن هجرة الأدمغة العربية، وثالث عن إنزال النورماندي وعظة التاريخ للدكتور خالص جلبي.

كما عطّر العدد بطاقة شذية من القصائد الشعرية والقصصية القصيرة، بله الأبواب والزوايا الثابتة.

وكان مع العدد هدية ثمينة، هي نص محاضرة الدكتور ناصرالدين الأسد عن «النهج الفيصلي في معالجة القضايا الإسلامية».

وقد امتاز معظم مقالات العدد بالموضوعية والمنهجية والعمق؛ ففي إطلالة رئيس التحرير الدكتور زيد بن عبدالمحسن الحسين، حديث قيم عن التربية التي لا تغتال العقل. وقد عالج الدكتور زيد هذا الموضوع الحيوي والخطير معالجة معمقة شاملة، مبينا دور التربية في نهضة المجتمعات ورقيها، مما يتطلب تقويمًا مستمراً للنظام التربوي. وكان الدكتور زيد منهجيًا في طرحه، فبعد أن بين أهمية التقويم، وضّح سبله ووسائله، معتمداً في ذلك كله على اطّلاع عميق في هذا الباب، إن في الفكر العربي وإن في التراث الإسلامي، ورأى، بثاقب نظره، أنه لا بدّ من تضافر جميع الطاقات العربية للتوصل إلى تقويم موضوعي لمسيرة التربية.

أما الدكتور حسن ظاظا فقد عرى اليهود، وكشف زيفهم في مقالته «خلفاء موسى أضاعوا شريعته». وقد اتبع الدكتور ظاظا - كعادته - منهجًا علميًا يقوم على دراسة النصوص وتحليلها، واستخلاص الأحكام المدعّمة بالأدلة اللائحة والبراهين الفاضحة.

ومما نلاحظه على هذا العدد، أن موضوعاته جاءت - إلى حد بعيد - متوازنة منسجمة، فقد كان لكل موضوع حظه من الدراسة والمعالجة، بيد أننا لا نرى للموضوعات الاقتصادية مكانا فيه، على ما لهذه الموضوعات من أهمية ومكانة في الفكر الإنساني.

وكذلك نرى أن القراءة النقدية في الشعر طغت على ما سواها من قراءات في الأجناس الأدبية الأخرى من قصة ورواية ومسرحية، وغني عن القول ما لهذه الأجناس من منزلة في دنيا الأدب والفكر.

وأخيراً، لا يسعني إلا أن أعبر عن بالغ إعجابي وتقديري للعاملين في هذه المجلة، على ما يبذلونه في سبيل إخراجها بهذا المستوى الرائع والمشرف.

د. أحمد مطر العطية
كلية الآداب، جامعة الملك سعود

ملاحظات عامة :

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كُتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

1 - أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدَّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

2 - ألا يكون الموضوع منشورًا من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

3 - حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

4 - أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري - إن وجد - وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة، إضافة إلى صورة ملونة حديثة.

5 - الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

العنوان ص.ب (3) الرياض 11411 - المملكة العربية السعودية
هاتف 4653026 - 4653027 - 4647884 - فاكسملي: 4647851

ردمد 1140 - 0258 رقم الإيداع 14/0542

الاشتراكات السنوية :

للأفراد 150ريال سعودي، للمؤسسات 250 ريال سعودي.

الإعلانات :

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

الأسعار

السعودية 8 ريالات - الكويت 650 فلس - الإمارات 7 دراهم - قطر 7 ريالات - البحرين 750 فلس - عُمان 750 بيسة - الأردن 500 فلس - اليمن 40 ريالاً - مصر جنيهان - السودان 150 جنيه - المغرب 8 دراهم - تونس 600 مليم - الجزائر 10 دنانير - العراق 400 فلس - سورية 30 ليرة - ليبيا 800 درهم - موريتانيا100أوقية - الصومال 2000 شلن - جيبوتي 150 فرنك - لبنان مايعادل 4 ريالات سعودية - الباكستان 20 روبية - المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

البريد

الملك عبدالعزيز يعتز به كل بيت عربي

لقد حمل العدد 239 معلومات مكثفة عن تأسيس المملكة العربية السعودية وتطورها، والنهضة التي تعيشها. فقد كان ملف اليوم الوطني شاملاً ووافيًا، وكم وددت لو أنكم أهديتم مع العدد صورة مكبرة للملك عبدالعزيز - رحمه الله -. وليت الصورة التي جاءت في الصفحة 76 كانت كبيرة، لأنها صورة رجل نادر وقائد فذ، وكل بيت عربي يعتز بالاحتفاظ بصورة لمثل هذا القائد الكبير.

لطفي بن عبدالقادر الصرجان

ولاية توزر 2200، تونس.

صفحة ثالثة لـ «إطلالة»

لديَّ ملاحظة حول «إطلالة» رئيس التحرير، فأنا أتبع مسيرتها منذ أشهر، لما تتميز به من جودة في الطرح الفكري الواقعي، والإيضاح، وبراعة التحليل والتركيز، واستجلاء المعاني بأدلة وشواهد. وقد غدت هذه الزاوية فصلاً من حياة مجتمعنا، إذ تضع أيدينا على جانب من مجريات حياتنا، لندرك مسارها بعمق، ونفهمها فهمًا مؤسسًا، ونسترشد حيالها بالفكر الثر. وفي كل شهر أقف طويلاً عند هذه الزاوية، أسوة بغيرها من كتابات بعض مفكرينا البارعين، ولكني أخشى على «إطلالة» من ضيق المساحة المخصصة لها، فالطرح مكثف لكن الكتابة مزدحمة والحروف صغيرة..

وترونني أتساءل: أهو الحرص على إفساح المجال للكتابات الأخرى، ألذلك تكون مقالة رئيس التحرير محصورة في مكان أحسبه ضيقًا؟ حقيقة يزيغ بصري، وتنال مني قراءة إطلاله جهدًا كبيرًا، لا تناله بقية موضوعات المجلة، لأن حروف الأخيرة واضحة. ما رأيكم في أن تفتحوا صفحة ثالثة لـ «اطلالة» حتى نقرأها بارتياح.

محمود غزي بن حسن

القامشلي، مزارع الدولة، سورية.

أين ظاظا؟!

فوجئت عندما لم أجد الدكتور حسن ظاظا في العدد 238 من «الفيصل». فقد عودتمونا أن يطل على قراء الفيصل كل شهر من خلال مقالاته القيمة، وغيابه فجأة جعلنا نتساءل: ما الظروف التي منعته من الكتابة في العدد المذكور؟ ولماذا لم تخبرونا عن سبب غيابه؟

أحمد علي الغيث

ص.ب 20908، صنعاء، اليمن.

إنني من المعجبين بالمقالات المتتابعة التي تنشرونها للدكتور حسن ظاظا، الذي يتناول موضوعات مهمة للقارئ العربي المسلم. ولقد فوجئت بخلو العدد 238 من مقالته، فما الذي منعه؟ أرجو ألاَّ نفقد هذا العالم المتمكن.

عماد محمد القحطاني

طالب بجامعة الملك عبدالعزيز

جدة 21465 - ص.ب 4523

التحرير:

الدكتور حسن ظاظا - متعه الله بالصحة والعافية - ما يزال يواصل عطاءه من خلال صفحات المجلة، وقد شارك في العدد الخاص بملف الترجمة بدراسة تضمنها الكتيب المرفق مع هذا العدد. أما مقالته التي تعوَّد القراء مطالعتها في كل عدد فهي مستمرة إن شاء الله.

ألقوا مراسيكم قبالة هونج كونج

الاستطلاعات المصورة التي تفردها الفيصل تغطي جوانب مهمة من الاحتياجات الثقافية لدى القراء، ولا شك في أن الموضوعات التي تمت تغطيتها حتى الآن تمثل زادًا ثقافيًا، ونوافذ لتعرف ثقافات الشعوب. واسمحوا لي أن أعرض اقتراحين بخصوص الاستطلاعات، الأول: حبذا لو كشفتم موضوعات تتناول واقع المسلمين في الدول الشيوعية السابقة.. والاقتراح الآخر: أن تسلطوا الضوء على قضية هونج كونج التي ستعود إلى الصين خلال العام القادم 1997م: ما مستقبل هذه المدينة (الدولة)؟ وهل في العالم قضايا وقصص مماثلة لموضوع هونج كونج؟ أعتقد أن الموضوع يستحق تناولاً متعمقًا يُجَلِّي بعض غوامضه.. فأرجو أن تلقوا مراسيكم قبالة هذه المدينة المثيرة للجدل.

سُهى هاشم عبدالكريم

عمان، الأردن.

التحرير:

يسعدنا كثيرًا أن تلتقي جهود المجلة مع رغبات قرائها. ففي هذا العدد استطلاع عن هونج كونج يتناول ماضيها ويستقرئ مستقبلها. وهاهي الأخت سهى تطالب بموضوع عنها؛ فنأمل أن يكون الموضوع المنشور مستجيبًا لما رمت إليه الأخت القارئة.

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على بعضها الآخر للقراء يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بعض

الفن التشكيلي غائب..
لماذا؟

على الرغم مما تقدمه الفيصل من موضوعات جديدة وعميقة وشائقة، إلا أنني لاحظت أن التوازن مفقود في جانب مهم، هو الفنون، والفن التشكيلي على وجه الخصوص.
فساحة الفيصل تسجل شبه اختفاء لموضوعات الفنون. لذا أرجو أن تولوا الفن التشكيلي الاهتمام الذي يليق به، بوصفه ضرورة ثقافية وليس ترفًا.

صديق علامي يحيى كشاف
ص.ب 156 أبها،
محايل عسير، السعودية.

التحرير:

نوافق الأخ صديق على رأيه. فأثر الفنون، ومن بينها الفن التشكيلي، ليس محلاً للجدل. وكل ما هو حولنا من عمارة وتصميمات في شتى مجالات الحياة يشهد بهذا الأثر. وهذا ما لم يغب عن بالنا، ففي المرحلة التطويرية الثانية - إن شاء الله تعالى - سيكون هناك مجال رحب للفن التشكيلي وغيره من الفنون الراقية.

خلل في توزيع الفيصل باليمن

أسترعي أنظار المسؤولين عن التوزيع إلى أن «الفيصل» لا تصل إلى مدينة تعز، فهي تُوزَّع في العاصمة صنعاء فقط وتنفد بسرعة، ويحدث كثيرًا ألا يحصل عليها القارئ المتابع. وأنا إذ أنقل إليكم هذه الملاحظة، لآمل في حل هذه المشكلة باعتماد وكيل توزيع في تعز وغيرها من مدن يمنية، وزيادة الكمية المرسلة من كل عدد.

أميرة مارش قحطان
تعز، ص.ب 4580، الجمهورية اليمنية.

«قصة قصيدة» في كتاب

لديَّ اقتراح حول الزاوية التي يكتبها د. محمود جبر الربداوي بعنوان: «قصة قصيدة». فيا حبذا لو تم جمع المادة الغزيرة التي تحتوي عليها هذه الزاوية، في كتاب يحمل الاسم نفسه، لما في ذلك من اجتماع رائع بين فنَّيْن من أجمل الفنون الأدبية: القصة والشعر، وأظن أن هذه المبادرة منكم ستكون إضافة جيدة إلى المكتبة العربية التي تفتقر إلى مثل هذا العمل المهم.

عبدالله علي محمد الأسمري
جامعة الملك سعود، ص.ب 5194، الرياض 11422

«نوادر التصنيف» وجرعة التراث

إنني من المعجبين بباب «من نوادر التصنيف»، الذي يأتي دائمًا في صفحة 99 من «الفيصل»، ونظرًا لما يُعرض في هذا الباب من موضوعات شائقة تكشف عمق التراث العربي الإسلامي وثرائه، فإنني أود أن تفسحوا له صفحة أخرى، حتى يُعرض أكثر من موضوع واحد، وتعم الفائدة. أقول هذا وأنا أعلم وأقدر جهودكم في تقديم أعداد متوازنة من حيث نوعية الموضوعات، ولكنه يظل رجاء في زيادة جرعة التراث.

دفع الله محمود عبدالله
كلية الآداب، جامعة أم درمان الإسلامية، ص.ب 91 الحصاحيصا، السودان.

كشاف «الفيصل» في أقراص حاسوب

أشكركم على جهدكم الرائع في إخراج الفيصل، فهي، في نظري، من أرقى المجلات العربية، لرصانة الأسلوب، ودقة اختيار الموضوعات والكُتّاب، وبُعدها من الإسفاف والابتذال.
حقيقة بدأت متابعة «الفيصل» وأحرص على اقتناء أعدادها، منذ نحو سنتين، ومن خلال المتابعة، وبحكم تخصصي في مجال الحاسب الآلي، وددت أن أتقدم ببعض الاقتراحات:
أولاً: إصدار دليل موضوعات الفيصل وفهرس المجلة على أقراص «دسكات» حاسب آلي، وليكن مبدئيا من النوع العادي FLOPPY 3,5، على أن يصبح مستقبلاً على أقراص ضوئية CD- ROM، بشكل مطور وصيغة أفضل.
ثانيًا: إصدار كل مجموعة من أعداد المجلة - كل سنة أو سنتين مثلاً - على أقراص ضوئية، كما هو الحال في بعض المجلات الأمريكية الراقية المتخصصة. أرجو أن تنال اقتراحاتي استحسانكم، وقبول القراء.

محمد صالح الغفيلي
معهد إعداد المدربين ومركز الوسائل، الرياض.

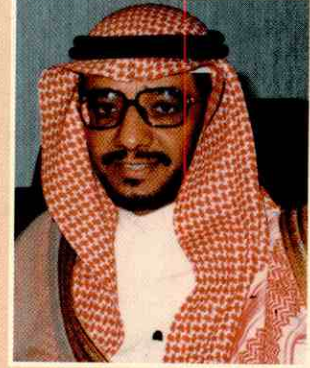
التحرير:

نرحب كثيرًا باقتراحات الإخوة القراء، وهي تجد منا كل تجاوب ما دام القصد منها التطوير وتقديم أداء معرفي أفضل. وفيما يتعلق بجمع موضوعات بعض أبواب المجلة في كتيبات، فهذا الأمر محل دراسة منذ مدة طويلة. وعندما تكتمل الدراسة سوف تتوالى الكتيبات التي تضم هذه الموضوعات. أما الاقتراح الخاص بوضع كشاف الفيصل في أقراص حاسوب، فهو يستحق منا أن نهتم به، ولاسيما أن النية معقودة على وضع أعداد المجلة على أقراص CD- ROM في المستقبل بمشيئة الله.

الرسائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١

الاستشراق

إطلالة



للمعلومات قوة كبيرة تدركها الأمم المتحضرة أو تلك التي تبتغي النهوض الحضاري؛ لأن من يملك المعلومات، يكون أقدر على اتخاذ القرار الذي يخدم مقاصده وغاياته، وقد أدركت أوربا هذه الحقيقة، وهي تحاول الانعتاق من قيود القرون الوسطى، التي رسفت فيها زمنًا طويلاً.

وكان من الطبعي أن تتجه أوربا ـ وهي تحاول أن تنفض عنها غبار قرون التخلف والجهل ـ إلى الحضارة الإسلامية تستقي منها العلوم والآداب وشتى صنوف العلم والمعرفة، وذلك من غير أن تنسى أن الإسلام هو التحدي الذي يواجهها، ولاسيما بعد أن أقام حضارة مزدهرة في جزء من القارة الأوربية، ألا وهي الأندلس. وكان توجسها شديدًا من أن يتواصل الزحف الإسلامي إلى بقية أرجائها، ناظرة إليه بوصفه مهددًا لدينها ولغتها، ولم يكن أمامها من سبيل لإيقاف هذا الزحف إلا بإدراك سر قوة الإسلام، وأسباب ازدهار حضارته، فجاءت من أجل هذا القصد أفواج الطلاب من جميع أنحاء أوربا، ليتتلمذوا على أيدي العلماء المسلمين الذين لم يبخلوا عليهم بما عندهم من علم؛ بل كانت حلقات العلم في جامع قرطبة متاحة لكل راغب في العلم، يؤمها اليهود والنصارى، بلا أدنى تمييز بسبب الجنس أو الدين.

وما كان هدف أوربا من امتلاك ناصية العلم أن تنهض حضاريًا فحسب، وإنما كان من أهدافها أن تُجَرِّد الأمة الإسلامية من كل أسباب قوتها، وأن تقوِّض مقومات حضارتها، وقد جربت لتحقيق هذا الغرض الحل العسكري متمثلاً في الحروب الصليبية، فلم يُجْدِها ذلك فتيلاً، فكان لا بد من تغيير الأساليب والوسائل، مع الاحتفاظ بالغايات حية في الذاكرة.

وكان من أهم تلك الوسائل المضي قدمًا في دراسة الإسلام، وتحليل أوضاع المسلمين، فجاء المستشرقون يجوبون أنحاء العالم الإسلامي، مخالطين أهله، ممعنين النظر في كل جانب من جوانب حياتهم، وباحثين في كل ما يتعلق بتاريخهم؛ فدرسوا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، واللغة العربية، والأدب، وتراجم الأعلام، والفِرَق في تاريخ المسلمين، وجغرافية العالم الإسلامي، وكلِّ ما يمتُّ بصلة إلى هذا العالم الذي يمثل التحدي الحقيقي لحضارتهم. ولا غرابة في هذا، فمن حق أصحاب كل حضارة أن يدرسوا أحوال الحضارات الأخرى، ليقفوا على مقومات قوتها، إلى جانب نقاط ضعفها، ولكن الغرابة تكمن في أن المستشرقين الذين قاموا بهذه الدراسات يَدَّعون الموضوعية والعلمية في مناهجهم التي قاموا على أساسها بدراساتهم عن الحضارة الإسلامية، وهم ـ بلا شك ـ قد حادوا عن هذه الموضوعية من لحظة أن تحددت غايتهم، وانطلقت جهودهم لخدمة أطماع بلادهم التوسعية في أراضي الدولة الإسلامية، فمن أجل ذلك أُنشئت كراسي تدريس اللغة العربية في الجامعات الأوربية، وأقام المستشرقون في ديار الإسلام، يستطلعون أخبارها، ويسبرون أغوارها، ويستكنهون أسرارها، ولا أدلَّ على هذا الارتباط الوثيق بين الاستشراق والاستعمار من أن وثيقة إنشاء كرسي تدريس اللغة العربية في جامعة كمبريدج نَصَّت على أن القصد منه خدمة الملك والتجارة مع الأقطار الشرقية وتوسيع حدود سلطان الكنيسة.

وقد أشار الدكتور جون سبوزيتو في محاضرة له في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بعنوان «أقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية ومناهجها في عرض الإسلام» إلى الارتباط الوثيق بين الاستشراق والاستعمار؛ فيذكر أن «الواقع أنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ الموقف يتغير، حيث حصل المزيد من المعاملات التجارية والمزيد من الاحتكاك بين أوربا والعالم الإسلامي، ولم يعد الأوربيون يدرسون الإسلام لدحضه وتفنيده ومهاجمته مع أنه بقي شيء من ذلك، إلا أن دافعهم قد تغير، وأصبح لصالح المعاملات التجارية والسياسية والطموحات العسكرية، وهذا ما أدى إلى عهد الاستعمار الأوربي».

ولم يكن من سبيل لتحقيق غايات دول أوربا في استعمار العالم الإسلامي، مادامت قيم الإسلام وتعاليمه تسري في وجدان الأمة الإسلامية، فهذه الحقيقة أدركها المستعمرون قبل البدء في تنفيذ خططهم الاستعمارية، وتيقنوا من صدقها حين شرعوا في التنفيذ، وواجهوا المسلمين وجهًا لوجه في عقر دارهم.

وإذا كان إدراكهم لتأثير القرآن الكريم في نفوس المسلمين واضحًا وبيِّنًا، فهم أكثر إدراكًا لأثر الإسلام في غير المسلمين، فقد وقفوا على ذلك من دراسة أسباب الانتشار السريع للإسلام في أرجاء المعمورة، ومن بينها أوربا التي ازدهرت في جزء منها حضارة عظيمة أفادوا منها، ودرسوا جوانب عظمتها، التي تتصل ـ بلا شك ـ بعظمة الإسلام، وسماحته، وموافقته للفطرة الإنسانية السليمة المجبولة على قيم الحق والخير والفضيلة، مما يجعلها رسالة عالمية. ولأنهم عرفوا هذه الحقائق المتصلة بالإسلام، وحيوية حركته، فقد عملوا على محاصرته في دياره، ومحاربته في مواطن ازدهاره وقوته، وهم بذلك يحققون أكثر من غرض في آن واحد، فمن جانب يزعزعون العقيدة في قلوب المسلمين، ويبثون في نفوسهم الشكوك حول دينهم، ومن جانب آخر يحمون مواطنيهم من التأثر بالإسلام، بل تجاوز الأمر ذلك عندما تصوروا أن السبل ستمهد لهم ـ حينئذ ـ لتنصير المسلمين.

وتوجهت سهامهم مباشرة إلى منابع الفكر الإسلامي الأصيل، فشككوا في مصدر القرآن الكريم، وجعلوه من عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وزعموا أنه لفَّقه من التوراة والإنجيل، ولكنه خالف هذين المصدرين في بعض الجوانب حتى يبدو مستقلاً. ويمضون في مزاعمهم، ويدّعون أن القرآن خاضع للتأويل، وأن أحكامه مرتبطة بواقع كان قائمًا، ومن ثم لا يصلح لغيره. يقول جولدتسيهر: «القرآن نفسه لم يعط من الأحكام إلا القليل ولا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلها، مما جاء من الفتوح، فقد كان مقصورًا على حالات العرب الساذجة ومعنيًا بها». ويعني هذا الحكم على التشريع الإسلامي أن تأخذ الشعوب الإسلامية أحكامها وشرائعها من قوانين غيرها من الشعوب، وأن تقتبس منها كما يشاء لها الاقتباس؛ فهي لا تملك شريعة متكاملة تستند إليها. وقد كان هذا من أهم المداخل التي ولجت منها دعوات العلمانية في عالمنا الإسلامي، ولم يكن ذلك على يد المستشرقين والمستعمرين فحسب، وإنما تبنت هذه الدعوات فئة ليست قليلة من أبناء المسلمين، نشأت على كتب المستشرقين، وتتلمذت على أيديهم، وقنعت بتصديق دعاواهم ومزاعمهم، واكتفت بأن ترى الحياة والكون بعيونهم، بلا أي محاولة للتمحيص والنقد.

ومادام القرآن الكريم بألوهية مصدره، تَعَرَّض لتشكيك المستشرقين، وشبهاتهم، فلم يعد مستغربًا أن تكون السنة النبوية المطهرة محل تشكيكهم ـ كذلك ـ؛ فصَوَّر معظمهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صورة الرجل الطموح أو المصلح الاجتماعي، واتخذوا الروايات الشعبية ونوادر المجالس مصادر لدراسة السنة النبوية، حتى باتت في ظنهم أفكارًا مستقاة من اليهودية والنصرانية ومن ديانات أخرى. وبدا واضحًا إسهام المستشرقين اليهود في ترسيخ فكرة تأثر الإسلام باليهودية، واتخاذها وسيلة لتوكيد وجودهم في جزيرة العرب منذ أقدم العصور، تحقيقًا لمآربهم وتسويغًا لاغتصابهم الأراضي

ورسالته الاستعمارية

العربية. وأفرغ المشككون في القرآن الكريم والسنة النبوية بمزاعمهم الدينَ الإسلاميَّ من أي مضمون، حتى رأى بعضهم في عقيدة التوحيد تحقيرًا للإنسان، فيقول رينان: «عقيدة التوحيد تحقير لشأن الإنسان وحط من كرامته، إذ تجعل الإنسان ذليلاً، مهينًا، حقيرًا، عبدًا لإله جبار على كل شيء قدير». ويبدو التناقض واضحًا في مثل هذه الآراء التي تجافي الموضوعية، إذ كيف يتفق أن تأخذ أوربا علومها وأسباب نهوضها من أمة الإسلام، التي لم يكن لها أن تعز إلا بعز دينها، تستمد منه مقومات وجودها، وتقيم عليه ركائز حضارتها، فكان أساس مجدها، ورقيها، وعلو شأنها بين الأمم، بعد أن كانت نسيًا منسيًّا؟ كيف يتفق هذا، مع اتهام العقيدة الإسلامية بتحقير شأن الإنسان والحط من كرامته؟ ولكنه سوء النية الذي جعل بعض المستشرقين يتدثرون بثوب العلم للنيل من الإسلام والمسلمين.

ولم ينج تاريخ الإسلام من محاولات التشكيك والافتراء، فتمت دراسته بانتقائية مغرضة بإبراز عصور التخلف وإسقاط عصور الرقي والازدهار، والتركيز على نواحي الفرقة والاختلاف، والاهتمام بشكل خاص بدراسة الفرق في تاريخ المسلمين، وإعلاء شأن المارقين من المسلمين، وتصويرهم على غير حقيقتهم، بل الأدهى أن هؤلاء المدَّعين العلمية لجؤوا إلى ألف ليلة وليلة، والأغاني، وغيرهما من المصادر غير الموثوقة لاستقاء تاريخ الإسلام، والحكم عليه، فكان من الطبعي أن تأتي صورة المسلمين بدائية شوهاء، فعملت الدراسات - للأسف - على دعمها وتعزيزها، بدلاً من تصحيحها.

ولم يُبْق بعض المستشرقين فضلاً للمسلمين حين طالت مزاعمهم كل مقومات حضارتهم، إلى درجة أن عُدَّت اللغة العربية سببًا من أسباب ضعف المسلمين لأنها غير قادرة على مواكبة التطور، فاتجهت النوايا إلى تشجيع العاميات، واتخاذ الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية، وترافق مع ذلك محاولات لإحياء الحضارات الشرقية السابقة للإسلام كالفينيقية والفرعونية والأشورية، وغيرها، لتكتمل بذلك حلقة التآمر على الإسلام، لإقصائه عن الحياة، حتى تصبح مبادئه وقيمه تراثًا من الماضي مطمورًا بين صفحات الكتب.

ولا يبقى مجال بعد ذلك لإنكار ارتباط الاستشراق بالاستعمار، لأن طلائع المستشرقين بما قاموا به من جهود في توهين الشعور الديني في وجدان المسلمين، وتعزيز نزعات العنصرية في نفوس الأوربيين، الذين تصوروا أنهم أرقى الأجناس وأكثرها تحضرًا، سوغوا لهم استباحة أراضي الآخرين بحجة ترقيتهم ليسلكوا بهم سبل المدنية والتحضر. فيقال إن كتاب «رحلة إلى مصر وسورية» للكونت دي فولفي كان سببًا مباشرًا لحملة نابليون بونابرت على مصر، كما أن المستشرق فانتور كان مرجع نابليون في القرارات التي اتخذها إبان الحملة، وقد عاش فانتور أربعين عامًا في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية، ظل طوالها وفيًّا لبلده، موجهًا جهوده لخدمتها في تكتم شديد، إلى حد أن الجبرتي الذي أرخ لهذه الحقبة لم يعرف عنه شيئًا إلا بعد الحملة، مما يدل على السرية التي أحاط بها المستشرقون نشاطاتهم.

وهناك كثيرون من المستشرقين الذين عملوا بصورة مباشرة في الأجهزة التي أنشأها المستعمرون لخدمة مقاصدهم وغاياتهم، وتعددت جنسيات هؤلاء تعددًا يتوافق مع عدد الدول الاستعمارية، وتنوعت أساليبهم، ومع ذلك فقد اتفقوا في القصد والغرض، إلا أن ذلك كله لم يمنع بعضًا من الدارسين العرب والمسلمين من اعتماد أعمال المستشرقين - بلا أي تحفظ - مصدرًا من مصادر معرفة تاريخهم واستصدار أحكام على حوادثه وشخصياته، قانعين بدعاوى العلمية والمنهجية التي تشاع عن هذه الأعمال. بل يرى هؤلاء أن جهود المستشرقين في تحقيق التراث العربي والإسلامي جديرة بالتقدير والتعظيم، وغاب عنهم أن معظمهم لم يقم بتلك الجهود إلا خدمة لغاية أمتهم، وتحقيقًا لطموحاتها وتطلعاتها وأطماعها.

ويشير الأستاذ محمود محمد شاكر إلى هذه الحقيقة في كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، فيقول: «لا تصدق من يقول لك إن الاستشراق قد خدم اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها؛ لأنه نشر هذه الكتب التي اختارها مطبوعة، فهذا وهم باطل. كانوا لا يطبعون قط من أي كتاب نشروه أكثر من خمسمئة نسخة - ولم تزل هذه سنتهم إلى يومنا - توزع على مراكز الاستشراق في أوربة وأمريكة، وما فضل بعد ذلك، وهو قليل جدًا، كانت تسقط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر، لم يسعوا إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين، كما يسوقون بضائعهم وتجارتهم وسائر ما ينتجون، بين هذه الملايين طلبًا لربح المال. هدفهم كما قلت لك لا غير». إذن، تبدو حقيقة الاستشراق وعلاقته بالاستعمار وأهدافه واضحة، فهي ليست من نسج نظرية «المؤامرة»، كما قد يرى بعض الدارسين والباحثين العرب.

ولكن، ماذا ينبغي أن يكون موقفنا تجاه هذا التراث الضخم من أعمال المستشرقين، وهذه الدراسات التي ما تزال تدور في الغرب حول الإسلام والمسلمين؟

إن واقع الأمر يقتضي منا المبادرة والمبادأة في طرح وجهات النظر والرؤى التي تعكس جوهر الإسلام، بدلاً من أن نظل نراوح في موقف الدفاع عنه والاستماتة فيه. وتتطلب الإيجابية في الحركة أن ننطلق في علاقاتنا مع الغرب من استقراء عميق للصورة التي يكونها عنا، لا من واقع الصورة التي لدينا عن أنفسنا وعن حضارتنا، وإلا انقطعت سبل التواصل، وفقدت الرسالة التي نريد إبلاغها لهم مدلولاتها وقيمتها، مما يستدعي أن يتركز اهتمامنا على امتلاك المعلومات، فهي - كما سبق الذكر - قوةٌ تعتمد عليها الأمم في حسم الصراع الحضاري لصالحها، أو على الأقل الحيلولة دون الوقوع تحت وطأته، إذ تقوم بتحليلها، وتمييز غثها من سمينها، واستخلاص النتائج منها وصولاً إلى تحديد السبل التي تحقق لها غاياتها. والأمة الإسلامية حين تمارس هذه المهمة التاريخية، فإنها - بلا شك - ستسترشد بقيم دينها ومبادئها التي ترفض التشويه وتزييف الحقائق، خلافًا لما تعرضت له حضارتها من جانب الغرب.

ومع كل ما يمكن أن يقال عن افتراءات المستشرقين، فإنه لا يجوز لأي منصفٍ أن ينكر وجود مستشرقين تميزت دراساتهم في كثير من جوانبها بالموضوعية، ومن ثم ينبغي أن نبذل جهودنا لدعم الاتجاهات الإيجابية بالحقائق التي تعين على فهم الإسلام في صورته الأصيلة، لأن بعض أسباب الصورة الزائفة في أذهان الغربيين تنبع من اعتماد الدراسات الإسلامية في الغرب على مفهوم غربي بحت، قوامه المادية في تفسير التاريخ، وعدم إدراك ما للإسلام من أثر في تشكيل تصورات المسلمين وصياغة حياتهم، على نحوٍ يهيئ لهم العزة والمنعة، على عكس ما في أذهانهم من تصورات عن الدين بوصفه عائقًا للتطور، استنادًا إلى تجربة الغرب مع الأصوليين النصارى الذين حاربوا العلم والفكر، وكبَّلوا عمل العقل، وبذلك سيطروا على مجريات الحياة في الغرب. وقد أشار الدكتور جون سبوزيتو إلى خطورة فرض تصورات بعينها على حضارات الآخرين، وذلك في محاضرته التي سبق ذكرها، إذ يقول: «إذا ما اعتقدت أن نظرتك العلمانية هي الأفضل للجميع، فإن الخطر يكمن في أن تتصور أن أسلوبك هو المعيار الصحيح والنموذج الصحيح، والمسلك الذي تحكم بموجبه على الآخرين، وما دام أن طريقتي هي المعيار الصحيح، فطريقتك هي الشاذة. إن ذلك انحراف عن جادة الصواب، وشيء غير عقلاني».

وتفرض ضرورات التفاعل مع الآخرين أخذ هذه النقطة في الحسبان، وعدم إسقاط أوجه الاختلاف التي تظل قائمة بين الثقافات والحضارات، وتباين طرائق التفكير من حضارة إلى أخرى، مع أهمية إجراء نقد واع للذات، فلا نغفل عن كثيرٍ من النواقص التي تتصف بها مسيرة الأمة، وتقعد بها عن بلوغ مراتب الأمم المتقدمة، حتى تكون هذه المراجعة النقدية للذات أساسًا لأي إصلاح يُرتجى، وإلا كان التعامي عن نواقص الذات في مرتبة واحدة مع افتراءات الآخرين، إن لم يفقها في آثارها السلبية في الحاضر، وتداعياتها المتوقعة في المستقبل.

د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

الفيصل
العدد 241 ـ السنة 21 ـ رجب 1417هـ ـ نوفمبر/ ديسمبر 1996م

القنفذ: عدو الأفاعي وصديق الفلاح



يعج عالم الحيوان بمخلوقات ذات أشكال وألوان وطباع مختلفة، والقنفذ أحد الحيوانات التي تنفرد بخصال معينة؛ فهو صغير الحجم، يتمتع بالهمة والنشاط، ومع ذلك، فإن له قدرة فائقة على الدفاع عن نفسه، فعندما يشعر بالخطر يغور رأسه الصغير داخل كرة شائكة يصعب لمسها. وقد عرف العرب هذا الحيوان منذ أمد بعيد، فله تعريفاته وأوصافه في التراث العربي، بل هناك أشعار قيلت فيه. وكنية البري منه أبو سفيان وأبو الشوك، والأنثى أم دلدل، وقال عنه الجاحظ إنه مولع بأكل الحيات، لذلك وصف العرب النمام والدَّسيس بالقنفذ.

د. منير مصطفى البشعان يصف حياة هذا الحيوان وطباعه.

طالع ص 13

ملح الطعام: قليله دواء وكثيره داء



ملح الطعام.. هذا الذي لا يخلو منه بيت، لا تتجلي نعمة الله وبديع صنعه في كونه مادة أساسية في تركيب دم الإنسان فحسب، بل تتجلى نعمته ـ تعالى ـ فيما أودعه هذا الملح من خاصية غذائية لا تستقيم حياة الجسم إلا بها. وقال عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «سيد إدامكم الملح».

وكان الملح سببًا في إشعال حروب، واندلاع ثورات، وإتخام خزائن بعض الحكام القدامى بالمال، وله أكثر من ألف وخمسمئة استعمال.

الكيميائي زياد أبو غنيمة تناول بتوسع الجوانب الطبية والكيماوية والاقتصادية، بل التاريخية المرتبطة بملح الطعام.

طالع ص 70

هونج كونج: مناورات السياسة تقلق رجال الاقتصاد



دارت رحى حرب الأفيون بين بريطانيا والصين على مرحلتين، وانتهت بإجبار الصين على التنازل عن هونج كونج، التي خضعت ـ وما تزال ـ لبريطانيا وفق ميثاق بكين عام 1899م الذي يسرى مدة 99 عامًا، تنتهي في يوليو/ تموز من العام القادم.

وتدور المفاوضات والمناورات السياسية حاليًا حتى تعود هونج كونج إلى السيادة الصينية، وقد توصل الطرفان إلى إطار عام لهذه العودة، ولكن القلق يساور رجال الأعمال خوفًا مما تضمره الصين تجاه الإقليم.

قسم الدراسات والاستطلاعات أعد استطلاعًا شاملاً عن تاريخ أرخبيل هونج كونج أو «الميناء المعطر» ومستقبله.

طالع ص 84

أدب وفكر

لغة وبلاغة

إعلام

تربية واجتماع

مسرح

تراث وتاريخ

من كتاب العدد



د. عبدالإله أحمد نبهان

- من مواليد حمص، سورية 1945م.
- أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية، جامعة البعث بحمص.
- من مؤلفاته: ابن يعيش النحوي، بحوث في اللغة والنحو والبلاغة، ومن كتبه المحققة: إعراب الحديث النبوي للعكبري، غوامض الصحاح للصلاح الصفدي، الأشباه والنظائر النحوية للسيوطي ج1، اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري ج2، الأعمال الكاملة للشهيد عبدالحميد الزهراوي ج1، 2، الملاحن لابن دريد.
- له مقالات وبحوث منشورة في الصحافة المحلية والعربية.



د. بشير مصطفى العيسوي

- من مواليد سيناء، مصر 1954م.
- حاصل على الدكتوراه في اللغة الإنجليزية وآدابها، تخصص أدب أمريكي 1990م، جامعة عين شمس.
- عمل مدرسًا مساعدًا بكلية الألسن، جامعة عين شمس، ويعمل حاليًا مدرسًا للغة الإنجليزية، بكلية اللغات والترجمة، جامعة الملك سعود.
- قام بأعمال الترجمة الفورية لمؤتمر «من بحر إلى بحر» الذي عُقد في جدة عام 1995م
- من مؤلفاته: بالعربية: الترجمة إلى العربية: قضايا وآراء، بالإنجليزية: هنرك إبسن: الرمزي الواقعي.
- له مقالات ودراسات منشورة في الصحف والمجلات الخليجية.



الزبير مهداد

- من مواليد الحسيمة، المغرب 1960م.
- حاصل على دبلوم التربية، كلية الآداب، جامعة محمد الأول.
- عمل في حقل التدريس والإشراف التربوي من عام 1979- 1992م، ويعمل حاليًا مشرفًا على قطاع التوثيق والمكتبة.
- شارك في عدد من المؤتمرات، ومن مؤلفاته: تأملات تربوية في مشكلات الأطفال السلوكية، موسوعة التربية الإسلامية، دراسات في تاريخ الفكر التربوي في الغرب الإسلامي، دراسات في الفكر التربوي للأطباء المسلمين، دراسات في ثقافة الطفل.



د. صلاح محمود غانم

- من مواليد صافيتا، سورية 1957م.
- حائز على شهادات D.U - D.I.S - C.E.S من جامعتي غرونوبل وبوردو في فرنسا.
- استشاري في الأذن والأنف والحنجرة وجراحة الوجه والفك، وقد عمل رئيس قسم مساعد في مستشفيات منطقة بوردو الفرنسية.
- زميل الجمعية الوطنية الفرنسية ومعهد بورتمان، وعضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم عند العرب.
- له ثلاثة مؤلفات طبية: بلوغ الأرب في أمراض الملتحمة عند العرب (مشترك مع د. مؤنس غانم)، تظاهرات الإيدز في الأنف والأذن والحنجرة، وحروق الوجه.

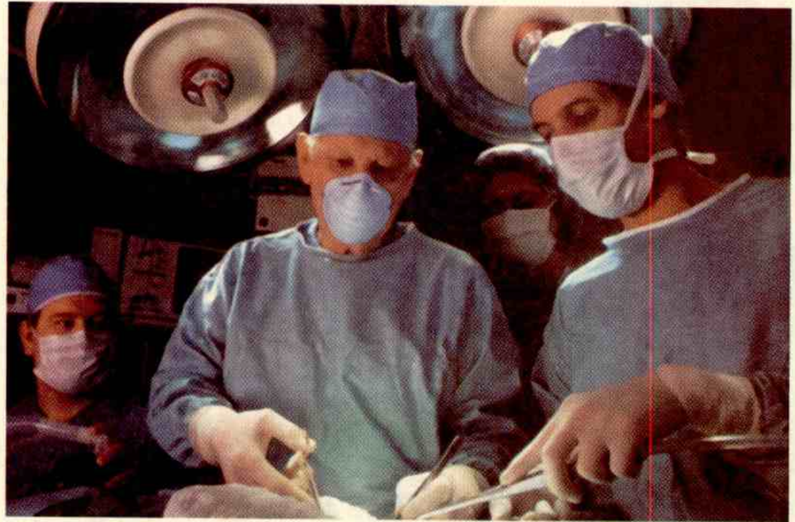


تدخل جراحي للقلب أقل تكلفة وتجريحًا

منذ وقت ليس ببعيد حجّمت الكشوف العلمية دور القلب الإنساني، وضيّقت من حدود الهمهمات المرتبطة بالمشاعر والأحاسيس، وردود الأفعال، التي كان يُعتقد أن القلب هو المسؤول عنها، وحصرت دور القلب في أنه: مجرد «مضخة» تدفع الدم إلى أجزاء الجسم، وإلى المخ؛ ضابط الإيقاع والمدير المسؤول عن تنظيم العمل. كما أن العلم أثبت أن توقف القلب قد لا يعني الوفاة، مادام المخ يرسل إشارات تدل على «بصيص حياة».. ولكن على الرغم من هذا وذاك، يصبح تطوير أية وسيلة للتدخل في عمل القلب، وخاصة التدخل الجراحي، موضوعًا مثيرًا. ومن ذلك ما أنجزه فريق من جراحي القلب الهولنديين الذي توصلوا إلى أسلوب جراحي جانبي لا يستلزم توقيف قلب المريض واستخدام الأجهزة الاصطناعية لتشغيل القلب والرئتين للإبقاء على حياة المريض في أثناء إجراء العملية.

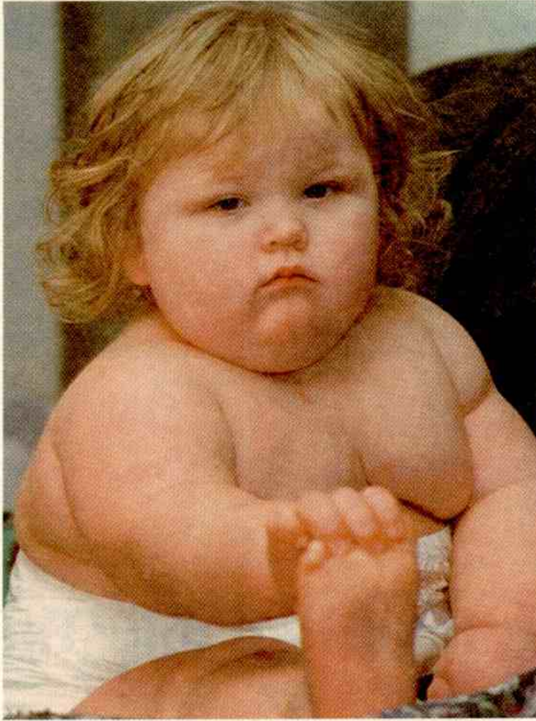
يقول مطورو هذا الأسلوب: إنه سيكون أقل تكلفة، وأقل تجريحًا، ففي الجراحة التقليدية يُوقَف القلب مؤقتًا، وتتم تعبئته بسائل بارد غني بالبوتاسيوم، ثم يتم إحلال جهاز محله يحافظ على الدورة الدموية، وقد تنتج من هذا الأسلوب التقليدي مشكلتان: حرمان القلب من الأكسجين خلال إجراء العملية، وأن السطوح الخارجية التي يمر الدم من فوقها داخل الجهاز البديل للقلب والرئتين، يمكن أن تثير استجابة مناعية التهابية لدى المريض.

الأسلوب الذي طوره كورنيليوس بورست وزملاؤه من جامعة «أوترنجت أسلوتا» يُعرف بالأسلوب الأخطبوطي، وتقوم الفكرة على محاولة تجاوز المشكلتين المذكورتين. فبدلاً من إيقاف القلب يتم تثبيت الجزء الذي ستجري عليه الجراحة من طريق تثبيته في مكانه، بكوبي شفط صغيرين يثبتان بقوة إلى منضدة العمليات، كما يُثبَّت كوبا الشفط على جانبي أحد الشرايين القلبية بالقرب من المكان الذي يحتاج إلى فتح مجرى جانبي فيه، مع تحديد حركة الغشاء النسيجي في حدود مليمتر واحد. وكانت مجلة نيو سينتست NEW SCIENTIST ذكرت في عدد يونيو الماضي أن زهاء 23 مريضًا أُخضعوا لهذا الأسلوب «الأخطبوطي»، وقد غادروا المستشفى بعد قرابة أربعة أيام من إجراء العملية، وبعضهم عاد إلى عمله بعد ثلاثة أسابيع، ويكونون بذلك قد اختصروا تكلفة الإقامة في المستشفى التي قد تستغرق أسبوعًا في الأسلوب التقليدي، كما أن المريض يوفر المبلغ الذي يدفعه مقابل جهاز القلب والرئة البديل.



غير أن جرّاحين آخرين يتخذون جانب الحذر تجاه هذا الأسلوب، ومن هؤلاء باس موشتار جراح القلب في مستشفى ديكزجت في جامعة روتردام الذي يود أن يرى ما إذا كان الإجراء الجديد يوازي النجاح الذي تحققه عمليات القسطرة؛ حيث يُدخل بالون في الشريان، ثم يُنفخ داخل الشريان لإزالة الانسدادات. ويقول موشتار: يجب أن يحقق عملهم - أي الفريق المطور للأسلوب الجديد - النجاح الذي يحققه الأسلوب الاعتيادي، وإذا استطاعوا فعل ذلك فقد نجحوا.

لئلا نخجل من وجود طفل غير طبيعي بيننا

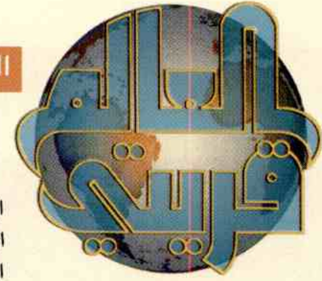


ما السبيل إلى تجاوز الأسرة نقطة الحرج أو الخجل من وجود طفل ذي حالة غير طبيعية في وسط الأسرة؟، ربما كانت حالة الطفل الأمريكي العملاق زاك سترينكرت - الذي شغل وسائل الإعلام مؤخرًا - موضوعًا مناسبًا لإثارة مشكلة موجودة بالفعل، وتعاني منها أسر تحتضن أطفالاً مماثلين. فمشكلة أسرة زاك أن طفلهم ينمو نموًا غير عادي: ضعف نمو الطفل الطبيعي، فلدى بلوغه الشهر الثامن عشر من عمره صار طوله ثلاثة أقدام، ووزنه نحو 32 كيلو جراما، وهو يرتدي مقاس 14، كما الكبار، ويسير حافي القدمين لأن كاحل قدميه لا يلائمه أي حذاء، وهو لا يستطيع ركوب «عربة المهد» المخصصة للأطفال، أو أية عربة أطفال اعتيادية، ولذلك خصصت له أسرته عربة من النوع الذي يستخدمه المعاقون، ولما كانت (الحفاظات) أيضًا مشكلة تواجه أسرة زاك، فإنها اتجهت إلى استعمال ذلك النوع المصنوع خصيصًا للكبار الذين يعانون من سلس البول.

ومشكلة زاك - كما تقول مجلة ستار STAR الأمريكية - ليست ناجمة عن شراهة، كما ظن الأطباء بادئ الأمر، فوالدة زاك - السيدة لوري - تصر على أن طفلها يتناول الطعام بالقدر الذي يتناوله الطفل الطبيعي.. ومع أن حالة زاك شاذة لدرجة أن الطفل احتل موقعه في سجل الأرقام القياسية؛ إلا أن والدته سرعان ما استوعبت مشكلة طفلها، وبدأت تتعامل معها بهدوء، ودونما خجل أو شعور بحرج، من كثرة التساؤلات. وقد كشفت والدة زاك، بأسلوبها القائم على المواجهة الصريحة لمشكلة طفلها، أن هناك أطفالاً آخرين يعانون المشكلة ذاتها، لكن آباء أولئك الأطفال وأمهاتهم يمارسون إخفاء المشكلة خجلاً، وكأن وجود طفل بهذه الحالة بينهم يُعدّ عارًا وسُبَّة. فقد قالت السيدة لوري: إن آباء وأمهات الأطفال مثل زاك أصابوني بالصدمة. فإحدى الأمهات قالت لي إنها أخفت ابنها عن الناس حتى بلغ سن المدرسة. ومع أن لوري تقدر إحساس تلك الأم التي يحدوها الأمل في حماية طفلها «حيث إن الناس لا يرحمون» إلا أنها - أي لوري - لا تعد مثل هذا السلوك هو السبيل إلى حل المشكلة. فحل مثل هذه المشكلة يكون بالتعايش معها ومواجهتها وليس بإخفائها.

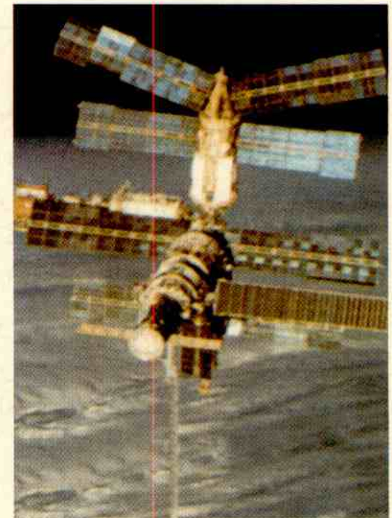
ماذا بعد هذا الاكتشاف

أضحى لدى العلماء دليل قوي بوجود عامل مشترك، يرقى إلى درجة التماثل بين التبغ (السجائر)، والكوكايين المخدر. فقد توصل فريق من العلماء الإيطاليين إلى ما يجعل تصنيف النيكوتين الذي يحتويه التبغ ضمن المخدرات التي تسبب الإدمان ممكنًا. ولقد أُجريت التجربة على الفئران المعملية التي حُقنت أوردتها بجرعة صغيرة من النيكوتين الموجود في التبغ - تعادل مجة (شفطة) واحدة من سيجارة -، ثم قام الفريق برئاسة جيتانو كيار، طبيب الأعصاب بجامعة كاجلياري، بمراقبة التغيرات الحيوية الكيماوية التي حدثت في أحد مراكز الدماغ، الذي يبدو أنه يتحكم في عملية الإدمان. وقالت مجلة NATURE «الطبيعة» إن ما توصل إليه الباحثون كان مثيرًا، فقد وجدوا أن مستويات إحدى المواد الكيماوية القوية الكائنة في الدماغ، والتي تدعى دوبامين، قد ازدادت بشكل لافت للنظر في القشرة الخارجية لنوى مركز الدماغ، الذي يتحكم في عملية الإدمان، وهي المنطقة المتصلة بكثافة مع أحد المراكز العاطفية في الدماغ، والتي تُعرف باسم لوزة أميغدالا AMYGDALA..



نفايات فضائية تهدد رحلات المركبات المأهولة

يزدحم الفضاء الخارجي بأقمار صناعية متنوعة الأحجام أطلقت لأغراض إعلامية، وتجسسية، ورصد جوي، إلخ. ويستقبل الفضاء باستمرار في مداراته المتعددة أقمارًا جديدة. وما يقلق العالم، والدول التي أصبحت عضوًا في النادي الفضائي خاصة، ليس تنظيم مرور هذه الأقمار، لأنها موضوعة في مدارات محددة وبسرعات معروفة.. وإنما الواقع الذي قد ينشأ نتيجة انتهاء العمر الافتراضي للأقمار الدائرة في مداراتها. فثمة مخاوف لها مسوغاتها، من أن تصبح بعض المدارات في الفضاء الخارجي «منطقة هلاك»؛ فقد حذر مجلس البحوث الوطني الأمريكي من مثل هذا الاحتمال المميت لمركبات الفضاء المأهولة التي تجوب الفضاء صعودًا وهبوطًا لأداء مهمات.



ومع أن العوامل الطبيعية مثل توسع جو الأرض وانكماشه تسهم في إزاحة مئات الأطنان من حطام الأقمار الهالكة من المدارات المنخفضة كل عام؛ إلا أن الخطر يظل قائمًا في المدارات العليا، إذ لا يوجد ما يزيل منها أجزاء الحطام، وفي حال اصطدام هذه الأجزاء بسرعة عالية سينجم عنه وابل من القطع الصغيرة، وقد ينفذ أي منها في جسم سفينة فضاء، أو بدلة رائد فضاء يقوم بإصلاح عطل في قمر صناعي أو يؤدي مهمة خارج المركبة.

وكان مجلس البحوث الأمريكي قد ذكر في تقرير له العام الماضي، وأوردته مجلة نيو سينتست NEW SCIENTIST: إن الروبوت «الإنسان الآلي» أو أي تقنيات أخرى لالتقاط «الحطام الفضائي» لا يرجح أن تصبح حقيقة واقعة في المستقبل، وما إن تزدحم هذه المدارات بالحطام حتى يصبح من الصعب جدًا التخلص منها. هذا ما يقوله جورج كليجورن رئيس اللجنة التي أعدت التقرير. ويضيف: إنه ينبغي على العالم أن يتحمل مسؤولياته حيال ما يفعل.

تقول اللجنة التي تضم خبراء من الولايات المتحدة واليابان وكندا وروسيا وألمانيا: إنه من دون مثل تلك التقنية فإن أفضل خطة هي العمل على تقليل كمية الحطام الذي يُطرح في الفضاء.

وفي الوقت الراهن توجد أربعة أقمار صناعية ميتة في كل مدار مُستخدَم. وقد ترتطم الأقمار الصناعية الميته بأجزاء من حطام أقمار صناعية أخرى، أو قد تنفجر تلك الأقمار الصناعية ذاتيا فينجم عن ذلك سحابة من الحطام. ويقترح الفريق أن تُنقل الأقمار الصناعية التي تقترب من نهاية عمرها الافتراضي إلى مدارات أخرى تكون محجوزة للسفن الفضائية الميته.

أما المدارات التي ستُنقل إليها تلك الأقمار فتعتمد على مدى ارتفاعها، ويمكن تعديل مدارات الأقمار - في المستويات المنخفضة - التي في حالة احتضار قبل أن تفقد طاقتها بالكامل وتحتضر بحيث تنزل إلى جو الأرض خلال مدة تتراوح من 20 - 30 سنة ومن ثم تحترق وتتلاشى.

وفي مقابل ذلك فإن أقمار الاتصالات التي تدور على ارتفاع ستة وثلاثين ألف كيل فوق خط الاستواء يمكن برمجتها بحيث تطلق صواريخها لمرة واحدة وأخيرة؛ فتنتقل إلى مدار جديد أعلى من المدار السابق بثلاثمئة كيل، فتدور في مدار آمن خارج مدارات الأقمار العاملة.

اعترف نيكولاس جونسون الخبير في الحطامات الجوية لمجلة نيو سينتست بأن مثل هذا الاقتراح قد يواجه معارضه من شركات الاتصالات التي تُشغّل أقمار اتصالات؛ حيث إن نقل الأقمار التي تحتضر إلى مدارات جديدة سوف يستهلك وقود الصاروخ الذي يمكن أن يشغل القمر بضعة أشهر أخرى.

وتناشد اللجنة البلدان المعنية أن تتخذ احتياطات إضافية لمنع الصواريخ الميتة من أن تنفجر مبعثرة شظايا في الفضاء، ذلك أن الصواريخ التي انفجرت في المدارات تشكل ما نسبته 25٪ من حطام الفضاء المعروف، على الرغم من أن معظم البلدان تقوم بتفريغ الوقود المتبقي من مراحل الصواريخ البالية لمنع انفجارها ذاتيا. ومن الاحتياطات التي توصي بها اللجنة: أن تُصنع البطاريات بشكل آمن، ففي أثناء دوران القمر الصناعي في الفضاء تحتشد عليه الكهرباء الساكنة (الاستاتيكية)، كما أن البطاريات يمكن أن تعمل على تراكم شحنات أكثر مما تحتمل وهذا يمكن أن يسبب تفريغًا كهربائيًا كبيرًا بحيث يُفجّر البطارية. وتقول اللجنة: ينبغي تفريغ بطاريات الأقمار المحتضرة تمامًا ومن ثم تقصير الدارة لمنع الانفجار، ويرى جونسون أن لا أحد يقوم بذلك فعليًا في الوقت الحاضر.

وهناك خطر آخر يواجه المسافرين في الفضاء هو تقشر طلاء المركبات القديمة الذي يُعتقد أنه مصدر رئيس للحطام، ومن شأن اعتماد التصاميم والمواد الأفضل لصنع مركبات الفضاء أن يوقف مصدر هذا الحطام.

ولكن حتى الآن لم يعمل القانون الدولي على معالجة مشكلة الحطام في الفضاء، ولذلك يقول جونسون: إن اللجنة ليس بوسعها إلا أن تقدم اقتراحات، إلا أن التقرير يمكن أن يشكل قاعدة لقوانين دولية متفق عليها لإيقاف تواجد الحطام في الفضاء. ويضيف: إنه يأمل أن يتبنى معظم مجتمع الفضاء الدولي هذا التقرير ويقبله.

البيئة تلوث البيئة!

مصدر تلوث غير عادي يهدد بعض أفضل البيئات النباتية في أوربا. فقد أوضح الباحثون الأسكتلنديون أن التلوث الناتج من تبخر بول بعض الحيوانات، وهو ما أسموه بـ «التلوث المحمول جوًا»، يسبب تراكم النيتروجين في أنسجة النباتات التي تنمو في بيئات مثل مستنقعات الأسفغنوم (نوع من الطحالب)، والمروج المنخفضة. ويعتقد علماء البيئة أن تراكم النيتروجين سوف يجذب الحشرات، ويؤدي إلى نمو أنواع أخرى من النباتات، الأمر الذي يحدث غزوًا للنباتات الأصلية. ويقول العلماء إن معظم النيتروجين يأتي إلى هذه الأماكن من الأمونيا المتبخرة من بول الحيوانات.

وقد قام باحثون برئاسة كارول بتكايرن من معهد تبيؤ الحياة البرية، في بينكويك بالقرب من أدنبرة، بدراسة كمية النيتروجين في طحالب المستنقعات في بريطانيا وطحالب المروج التي جُمعت على مدى أربعين عامًا، ووازنوا بين هذه المقادير وقياسات المُركّبات التي تحتوي على النيتروجين، فوجدوا أنها تؤثر في فئتين من النباتات التي تنمو في المنطقة.

يشير بتكايرن إلى أن مقادير النيتروجين تتباين بشكل كبير من مكان إلى آخر، ففي أسكتلندا يأتي معظمه من أماكن بعيدة؛ حيث يتأكسد النيتروجين من محطات الكهرباء وعوادم السيارات التي تنتشر في الهواء ثم تسقط على هيئة أمطار حمضية.

أما في الأجزاء الجنوبية الشرقية من إنجلترا - التي تعد من المناطق الملوثة بصورة كبيرة كما يقول بتكايرن - فإن الأمونيا هي المتهم، والمصدر الأكبر لهذا العنصر في المنطقة هو تبخر بول الحيوانات من الخزانات الطينية الموحلة، والحقول، وتنتج البقرة الواحدة من أبقار المزارع ما مقداره 40 لترًا من البول يوميًا. في مدينة كامبريا وجد أن كمية النيتروجين زادت في طحالب الأسفغنوم بنسبة 62٪ خلال ثلاثين عامًا، وقد تأثر نبات الخلنج المعروف بـ «كالونافو لجاريس» أكثر من غيره، كما وجد أن أعلى نسبة نتروجين - 2. 6٪ من الوزن الجاف - وُجدت في شرق إنجلترا، وبلغ معدل سقوط النيتروجين السنوي 30 - 40 كغم في الهكتار الواحد، وهذا المعدل أكبر بستة أضعاف عما هو في المناطق غير الملوثة الواقعة شمال غربي أسكتلندا.

القنفذ وفن الدفاع عن النفس

د. منير مصطفى البَشْعان

ما من إنسان إلاّ ويسترعي انتباهه القنفذ - ذلك الحيوان العجيب الخلقة - عندما يكون في أحد المتنزهات، أو في الحدائق، أو في البساتين والمزارع المتناثرة هنا وهناك، أو عندما يكون قريبًا من الأنهار والبحيرات، وذلك في أيام الصيف الحارَّة، ولاسيما في أوقات الغروب مع حلول الظلام وأوائل الليل أو في أواخره. فإنه يشاهد - عندئذ - حيوانًا صغيرًا في حجم الجرذ أو أكبر منه قليلاً يتحرك يمنة ويسرة، أو يقف أحيانًا بهدوء وثبات، أو يعدو أحياناً أخرى على نحو سريع - وبخطى ثابتة - على قوائمه القصيرة.


قنفذ يطلق صرخة في مواجهة عدوه

وهو في هذا كله يبدو حيوانًا يتمتع بكل النشاط والهِمّة، ويتنقل من مكان إلى مكان في مألفه range، أو مكان معيشته، فإذا ما قابله إنسانٌ مرة ووقف أمامه وبدأ بتفحصه والتأمل في خلقته، عندها يبطئ القنفذ في المشي أو العدو ويقف مشدوهًا تجاهه ورأسه قريب من الأرض. وقد يطول وقت الوقوف وقد يقصر. وما إن تمضي لحظات أو دقائق حتى يكون هذا الرأس الصغير قد غار واختفى في داخل كرة شائكة يتفنن القنفذ في تكويرها وصنعها. ومهما حاول أي إنسان أو أي حيوان لمسه أو ضربه في محاولة لإخراج هذا الرأس، فإن كل المحاولات تبوء بالإخفاق الذريع، لأن القنفذ إذ ذاك يكون قد شعر بالخطر الداهم،

فيحاول قدر المستطاع إخفاء رأسه تمامًا، اللّهم إلاّ إذا استعمل العدو المهاجم من الحيوانات أساليب متنوعة، أو استخدم الإنسان الساعي لفحص هذا الحيوان وسائل خاصة لإخراج ذلك الرأس، كأن يسكب في فتحة الكرة الشوكية ـ التي صنعها القنفذ ـ ماءً أو يُقرِّب منها دخانًا أو نارًا أو ما شاكل ذلك، حينها يستشعر القنفذ الخطر المحيق به، فيخرج رأسه لاستطلاع ما قد أحاط به من خطر. وما إن يترك الحيوان المهاجم، أو الإنسان المترصد هذا القنفذ لحظات؛ حتى يتوارى هذا الأخير عن الأنظار لائذًا بالفرار من بطش الحيوان الغريب المهاجم المتربص به الدوائر بعيدًا من عيون الرقباء.

القنفذ في التراث العربي

وقد ذكر الدميري في كتابه «حياة الحيوان الكبرى»، أن القنفذ ـ بالذال المعجمة وبضم الفاء وفتحها ـ البري منه هو حيوان كنيته «أبو سفيان» و«أبو الشوك»، والأنثى «أم دلدل»، والجمع: قنافذ، ويقال لها العساعس لكثرة ترددها بالليل. كما يُقال للقنفذ أنقد، وهو صنفان: قنفذ يكون بأرض مصر قدر الفأر، ودلدل يكون بأرض الشام والعراق في قدر الكلب القلطي، والفرق بينهما كالفرق بين الجرذ والفأر. ومما ذكره الدميري في كتابه: قالوا: إنَّ القنفذ إذا جاع يصعد الكرم منكسًا فيقطع العناقيد ويرمي بها، ثم ينزل فيأكل منها ما أطاق، فإن كان له فراخ تمرّغ في الباقي ليستبك في شوكه ويذهب به إلى أولاده، وهو لا يظهر إلاّ ليلاً. قال الشاعر:

قنافذ هداجون حول بيوتهم
بما كان إياهم عطية عَوَّدا

ومما أورده الجاحظ في كتابه «الحيوان» أن القنفذ حيوان مولع بأكل الحيَّات، ويظهر في الليل، ولهذا قال الراجز أبو محمد الفقعسيُّ:

قُنفذ ليل دائم التَّجْآب

وقد شبَّه العرب النَّمَّام والمُداخل والدَّسيس بالقنفذ لخروجه بالليل دون النهار ولاحتياله للأفاعي، قال عَبْدة بن الطبيب:

اعْصُوا الذي يُلقي القَنافِذَ بَيْنَكُمْ
مُتَنَصِّحًا وهوَ السِّمامُ الأنْقَعُ
يُزْجي عَقَارِبَهُ لِيَبْعَثَ بينكم
حَرْبًا كما بَعَثَ العُرُوقَ الأخْدَعُ
حَرَّان لا يَشْفِي غَلِيلَ فُؤاده
عَسَلٌ بماء في الإنَاءِ مُشَعْشَعُ
لا تأمَنُوا قومًا يَشِبُّ صبيهم
بَيْنَ القَوابِلِ بالعَدَاوَةِ يُنْشَعُ

وقال الأوديُّ ـ واسمه صلاءة بن عمرو ـ وهو من من كبار الشعراء في الجاهلية:

كقنفذ القِنِّ لا تخفى مَدَارِجُهُ
خبٌّ إذا نامَ عَنْهُ الناس لم ينمِ

ولعل ما أوردناه عن القنفذ من أقوال يكفي كي نعرف أن هذا الحيوان جوَّاب في الليل، والناس نيام. ومن ناحية ثانية فلئن كان مشهد الحيوان وخاصة مشهد الناقة، ومشهد الخيل، ومشهد الشاء... إلخ، قد أثرى خيال الشعراء وألهب عواطفهم وحفَّز قرائحهم، فإنه على ما يبدو أن مشهد القنفذ نادر في القصيدة العربية، والقصيدة الجاهلية منها خاصة، على شهرته في بادية العرب مثل الأفاعي.

ومن الأمثال التي قيلت في القنفذ ـ كما ذكر الدميري في كتابه ـ: قالوا: أسرى من قنفذ،





بعض القنافذ المختلفة الألوان والأحجام التي تُوجد في سورية



الفطر (المشروم) من الأطعمة المفضلة لدى القنفذ

وقالوا: ذهبوا أسراء قنفذ، يعني ذهبوا ليلاً؛ لأن القنفذ يسري بالليل كثيرًا.

وحقيقة الأمر أن هناك الكثير مما كُتب عن القنفذ في تراثنا العربي، لكننا سنقف عند بعض صفات هذا الحيوان وطباعه وأمور حياته من النواحي (البيولوجية)، كي نعرف حينها نوعًا من الحيوان - المدهش حقًا في معيشته وسلوكه وخلقته - لا نعرف إلاّ القليل عنه. فهلمّوا بنا لنعرض شيئًا عن هذا الكائن العجيب، العدو الحقيقي للأفاعي والصديق الوفي للفلاح والمزارع.

الوصف العام للقنفذ وحياته وطباعه

توجد القنافذ في بقاع مختلفة من العالم، ولاسيما في أوروبا وآسيا وإفريقيا، على أنواع عديدة ومختلفة. وهي حيوانات صغيرة الحجم، طولها أقل من ثلاثين سنتيمترًا، وأشكالها متشابهة إلى حد كبير، وإن تعددت أماكن ومواضع معيشتها. والقنفذ Hedgehog، أو القُنْفُذ الأوربيّ Erinaceus Europaeus خاصة، حيوان من الفصيلة القنفذية ورتبة الحشريَّات، أي آكلات الحشرات، وذلك بحسب ما جاء في معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية. والقنافذ عمومًا حيوانات تغطيها أشواك صغيرة Smal spines أو أشواك حادة Quills، وهذه الأشواك التي منحها الله - سبحانه وتعالى - هذه الحيوانات هي الأسلحة التي تدافع بها عن نفسها، والدروع الواقية التي تحميها وتقيها من أعدائها، ولاسيما الحيوانات التي تهاجمها وتحاول النيل منها، أو قتلها لأكلها. وهذه الأشواك الحادة التي تغطي أجسام هذه القنافذ وأعضاءها تكون أكثف وأكبر على ظهر القنفذ وجوانبه. أما رأس القنفذ فصغير، ووجهه مغطى أيضًا بالأشواك على نحو أقل كثافة مما في جسمه، وعيونه صغيرة، وخطمه مدبب Snout pointed، كما أنّ أوصاله (أطرافه) قصيرة وذات مخالب، وهي أداة مهمة يستطيع بها حفر الأرض في أماكن معيشته ليتسنى له الاختباء في الحفر التي يصنعها هربًا من أعدائه. أما ذيل القنفذ فصغير ومكتنز ومُدَمَّج أيضًا. وتختلف أحجام القنافذ بشكل عام من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، ومن بيئة لأخرى، وكذلك بحسب أعمارها أيضًا. ويؤدي الغذاء دورًا مهمًا في الحفاظ على القنفذ بحالة جيدة. وليس هناك حيوان يماثل القنفذ في إجادته فن التكوير على نفسه وتطويع جسمه بالشكل الذي يريد، وكذلك في الحيل المختلفة التي يستخدمها ويطبقها للدفاع عن نفسه وحماية ذاته من الأعداء. فهو يتحول إلى شكل كرة أو أسطوانة يسهل دحرجتها وقذفها هنا وهناك من قبل أي إنسان، أو أي حيوان مناوئ أو غريب. والعجيب في الأمر أن هذه الكرة القنفذية تكون إذ ذاك لا حراك فيها، كأن لا روح فيها، حتى ليظن العدو أن هذا الكائن الحي قد فارق الحياة لكونه يبقى ثابتًا بعد أن يقذف عدوه به مرات متعددة من دون أن يتحرك أو يبدي استجابة تجاه ما يتعرض له من ضر، وغيره من أذى. وهذا العمل إن هو إلاّ حيلة من القنفذ ليوهم عدوه أنه قد مات وفارق الحياة، عندئذ ينصرف عدوه عنه، ومن ثم يلوذ هو - أي القنفذ - بالفرار ليختبىء في حفرة يحفرها في الأرض هنا وهناك.

والقنفذ حالما يحس بالخطر والرعب تبدأ أشواكه التي على جسمه بالانتصاب في كل الجهات، وهذا الأمر يُعدّ الخطوة الأولى لتفادي هجوم أي عدو مباغت قبل أن يُكوِّر القنفذ نفسه. وهكذا، فإن القنفذ عندها يكون بمنأى من أذى الأعداء وضررهم. ومن جهة ثانية يفيد تكوير القنفذ على نفسه بهذا الشكل الكروي في حماية أي عضو في جسمه، كما يكون الجانب السفلي الناعم لهذا الحيوان في هذا الوضع الغريب بعيد المنال من يد العدو أو فكوكه أو ضرباته. وهو في هذا الوضع يجعل رأسه بين قائمتيه الأماميتين، ويلتف على نفسه تمامًا، وبذلك تكون الكتلة الممتلئة بالأشواك المنتصبة الواخزة هي المُعرَّضة لأعداء القنفذ الذين يحاولون النيل منه، أو قتله أو أكله. عندها يشعر القنفذ بالأمان والاطمئنان وهو في هذه الغابة الكثيفة من الأشواك، وقليلة هي الحيوانات التي تهاجم القنفذ وهو ملتف كالكرة.

وكما قلنا سابقًا، فإن القنفذ حيوانٌ ليليٌّ Nocturnal في سلوكه وعاداته، فهو ينشط في الليل ويعمل حُفَرًا Pits صغيرة يخفي نفسه فيها، ويحتجب عن الأنظار، كما يختبىء أيضًا خلال أوقات النهار ضمن الأسيجة والوشيعات، حيث الأشجار المتشابكة الملتفة على بعضها بعضًا، وحيث الأعشاب والحشائش الخضراء الكثيفة التي




صغار القنافذ بعد الولادة.. أشواك لم تتصلب بعد

تحجب عنه رؤية عيون الغرباء والرقباء المتربصين به.

ومن جانب آخر، فإن القنافذ - جملة - هي حيوانات ليست بذات قرابة بالحيوانات المعروفة بالشَّيْهَم أو النَّيْص Porcupines، لكنها - على نحو آخر - أكثر قرابة بحيوان يُعرف بالزَّبابة Shrew وبحيوانات الخُلْد الأوربي (الطَّوْبَيْن) Moles.

يكون قدّ القنفذ الأوربي European Hedgehog (Erinaceus europaeus) قدر قدّ السنجاب. وعندما يدخل القنفذ مرحلة السبات الشتوي Hi-bernation - شأنه شأن بعض الثدييات Mammals الأخرى كمرموط الخمائل Woodchuck والفئران الوثّابة Jumping Mice والجُرذ السِّنْجابي Dormouse (myoxus-glis)، وسناجيب أرضية معينة Certains ground squirrels والهَمسْتَر Ham-ster، وتلك الخفافيش التي لا تهاجر جنوبًا في الشتاء - أو عندما يفزع ويخاف من شيء، أو حيوان ما، فإنه يتكور على نفسه ويتخذ شكل كرة شوكية محكمة الإغلاق، وفي هذه الكرة يكون رأس القنفذ موجودًا، وتكون أقدامه مثنية على مقربة من جسمه. وهكذا يقضي القنفذ وقت سباته الشتوي، ولهذا فإن سباته يكون حقيقيًا، وبمعنى آخر فإن القنفذ - وتلك الحيوانات التي ذُكرت آنفًا - تصبح خلال هذه المدة خاملة غير نشيطة.

أقرباء القنفذ

هناك أقرباء كثيرون للقنفذ، ومن هؤلاء حيوانات التنرِيق Tenrec، وهي حيوانات ثديية آكلة للحشرات ترتبط بقرابة شديدة بالقنفذ، ويوجد بمدغشقر منها أجناس مختلفة ومتعددة، منها: سنتيت Centetes، ونصف السنتيت Hemicen-tetes والإيريكيولوس Ericu-lus، وكذلك في أماكن متفرقة بعيدًا من اليابسة على بعد من الساحل الجنوبي من إفريقيا. وبعض حيوانات التنريق لا تكون أكبر من الفئران ولها أذناب صغيرة، أو أنها لا تمتلك أذنابًا مطلقًا. وبعض هذه الحيوانات كذلك لها كساءات أو أغطية ثخينة من الأشواك، وتتغذى في الدرجة الأولى على الحشرات.

ويرتبط القنفذ أيضًا بصلة قرابة بحيوان من آكلات الحشرات يشبه الفأر يدعى بالزّبابة. والزّبابة أصلًا: جنس حيوان من الحشريات، أي آكلات الحشرات ومن فصيلة الذباب، وهي في قدّ الفأرة وتكثر في أوربا الشمالية وتعدّ مفيدة إجمالاً. والنوع الشائع منها هو سوريكس أرانيوس Sorex araneus.

ومن أقرباء القنفذ أيضًا الخُلْد الأوربي (الطوْبَيْن) Mole (Talpa europaea)، وهو حيوان من الحَشريّات، ومن الفصيلة الطوبينية، وهو غير الخُلد في بلادنا.

أعداء القنفذ

للقنافذ أعداء كثيرون، ومن هؤلاء: الغُرَيْر (الغُرَيْراء - زَبْزَب) Badger (meles taxus)، وهو حيوان من الفصيلة السُرْعُوبية ورتبة اللواحم. ومن أعدائه أيضًا الثعلب والجرذ وبعض الحيوانات الأخرى.

ويستطيع الغرير في بعض الأحيان أن يأكل القنفذ، كما أن الثعلب قد يتمكن من ذلك أيضًا، لكنهما لا يفعلان ذلك إلا إذا كانا شديدي الجوع مستعدين لمواجهة أي خطر للحصول على طعام. وما إن يرى الثعلب القنفذ، حتى يشرع بالسير حوله وهو يشم رائحته. ولكنه يبقى على أتم استعداد للابتعاد منه، ولاسيما إذا صادف أن مسّ أنفه الحساس أحد الأشواك في جسم القنفذ ولو مسًا خفيفًا. كذلك لا نعلم إلاّ القليل جدًا عن طريقة معالجة الغرير والثعلب لهذه الكرة الشائكة؛ لأن هذه الحيوانات الثلاثة كلها حيوانات ليلية تقوم


بزاق يشاكس قنفذًا، وهو لا يدري أنه يُساق إلى حتفه؟!

بعمليات الصيد في الليل حيث لا يمكن مراقبتها بسهولة. وهناك حكايات كثيرة عن طرائق خداع الثعلب للقنفذ ليعدل عن تكويره وليعود إلى وضعه الطبيعي، حتى يتمكن من الإجهاز عليه، ومن ثم أكله. وإحدى هذه الطرائق هي جرّ القنفذ الملتف على نفسه إلى جدول ماء، حيث لا بدّ له من الانبساط وإخراج رأسه كي يستطيع أن يسبح. وقد يكون هذا صحيحًا، ولكن المرجح هو أن الثعلب حين ينقر بمخلبه القنفذ يقلبه بالمصادفة في جدول ماء قريب. وهنا يستطيع الثعلب المائي أن يهاجم القنفذ في الماء بأن يغطس تحته قبل أن يتمكن من العودة إلى ضفة الماء والالتفاف على نفسه ثانية.

كذلك يمكن القول إنك إذا رأيت جلد قنفذ مرميًا في مكان ما فبوسعك أن تعرف ما إذا كان الغرير هو الذي قتل القنفذ أم لا؛ لأن الغرير ينظف الجلد تنظيفًا تامًا ويتركه مقلوبًا على الأرض. وفي بعض الأحيان يستطيع الجرذ أن يقتل القنفذ، لكن القنفذ أيضًا يستطيع التغلب على الجرذ في أحيان أخرى؛ لأن الحيوانين متعادلان في القوة إلى حد كبير.

القنفذ والأفاعي

لعلنا لا نبعد من الحقيقة إذا قلنا إن القنفذ هو عدو الأفاعي الأول، فهو يشتهي أكلها ويستطيب لحومها. وقد وهبه الله من الحيلة وفن القتل شيئًا كثيرًا للقضاء عليها، حتى ولو كانت الأفعى سامة. وفي كل الأحوال، فإن القنفذ لا يبالي على أي موضع قبض من الأفعى. وذلك أنه إذا قبض على رأسها أو على قفاها، فهي مأكولة على أسهل الوجوه، وإن قبض على وسطها أو على ذنبها، جذب ما قبض عليه فاستدار وتجمع، ومنحه سائرَ بدنه، فمتى فَتَحَتْ الأفعى فاهَا لتقبض على شيء منه، لم تصل إلى جلده، مع شوكه النّابت فيه.

والأفعى تهرب منه، وطلبه لها وجرأته عليها يكون بحسب هربها منه وضعفها تجاهه. أما الأفعى السامة الكبيرة، فإن القنفذ - في واقع الأمر - أقدر منها. فهو يسرع إلى عض الأفعى في ظهرها، ثم يلتف على نفسه متحولاً إلى كرة شائكة، فتأخذ الأفعى بضرب القنفذ على أشواك جسمه، ولكن فعلها يذهب هباء؛ إذ تُجرحُ الأفعى وتُنهَكُ قواها وتخور. وعندئذ ينبسط القنفذ ويحل استدارته ويقتل الأفعى الجريحة نتيجة الصدام الدامي بينها وبينه. ثم يلتهمها بما في ذلك عظامها ابتداء من ذيلها. ويُذكر أن في بريطانيا نوعًا من الأفاعي تُسمّى Adders (Vipera berus)، وهي الأفاعي الوحيدة السامة الخطيرة فيها. ولهذا النوع من الأفاعي انتشار واسع في أوربا وآسيا، والمنطقة القطبية الشمالية، وصولاً إلى الصين، في حين أنها غير موجودة في جنوبي أوربا. وهذا النوع من الأفاعي يُعدّ الإنسان عدوها الرئيس، فهو يقتلها على نحوٍ غير مقصود، وذلك من طريق تخريب مواطنها وهدمها عند القيام بعمليات تنظيف الأرض أو شق الطرقات أو البناء في أماكن تواجدها. لكن مع ذلك كله يظل القنفذ هو العدو القاتل لهذه الأفاعي السامة. فهو يتفنّن في قتلها ويجهز عليها تمامًا، ثم يلتهمها. أضف إلى هذا - وهو صنع إلهي - أن القنفذ تكون لديه - على سُمية تلك الأفاعي - مناعة مؤكدة ضد



قنفذ يأكل بعض الثمار المعلقة على الأغصان



الأم تحمل أحد صغارها كي تؤمن له عشًا يقيه من أعدائه

القنفذ
وفن الدفاع عن النفس

سم الأفعى التي يتناولها بكل نهم حتى لو لدغته! وهذا في الواقع إن دلّ على شيء؛ فإنما يدل على بديع صنع الله في هذه المخلوقات العجيبة.

أماكن تواجد القنافذ وغذاؤها وبعض طباعها الأخرى وتوالدها

من الممكن أن توجد القنافذ في كل مكان تقريبًا إلاّ في المستنقعات. ويمكن لها أن تعيش في البساتين والحدائق والمزارع، أو حتى في قلب المدن. وفي أمسيات أيام الصيف تخرج قبل اشتداد الظلام، وعند ذلك يمكن أن نراها وهي تركض أو تقف ساكنة. إنه لمدهش حقًا أن يستطيع هذا الحيوان القصير القوائم أن يركض بمثل هذه السرعة، حتى إذا وصل إلى مراكز طعامه أخذ يسير متمهلاً، ثم يبدأ بالبحث عن حيوانات بطيئة وبزاق وحشرات وديدان، وهي التي تشكل طعامه الرئيس. والبستاني والمزارع والفلاح يحبون القنفذ؛ لأنه يقضي على الحشرات الضارة وعلى الحيوانات البطيئة وبعض الكائنات الحيَّة الأخرى التي قد تضر زرعهم وثمارهم ومحاصيلهم. ويتغذى القنفذ - بشكل أساسي - على الحشرات والفئران - ولاسيما الصغيرة منها - والأفاعي والجرذان وبعض الثمار، كما أنه يأكل اللحوم بما في ذلك الطيور الصغيرة. ولهذا فليس غريبًا أن نرى القنافذ بأعداد كبيرة في المداجن وأماكن الطيور المختلفة، حيث تتوافر بيئة ملائمة لمعيشة القنافذ؛ من أشجار كثيفة وأعشاب وشجيرات متناثرة وطيور متنوعة. والقنفذ مولع جدًا بالبيوض ويحب أكلها، وهذا سبب آخر يجعل من المداجن أو المزارع أماكن تحيا فيها القنافذ حياة هانئة، بعيدًا من أعين الأعداء من الحيوانات، وحيث تتوافر هذه البيوض على نحو كبير. ويُبقي القنفذ أنفه الصغير الحاد شديد القرب من الأرض، ويستدل على طعامه بحاسة الشم الحادة لديه، التي يعتمد عليها أكثر من اعتماده على حاسة الإبصار.

ومن جهة أخرى، تعيش القنافذ منفردة نائمة طوال النهار في حفرة أو بين الأعشاب والحشائش، إلا في أوقات التناسل، فهي تبني عُشها من أوراق يابسة تنام فيها. وقد عُرف عنها أنها تمزق أوراق الصحف نتفًا صغيرة لتصنع منها عشًا لها.

وتضع القنافذ صغارها في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو، ثم إنها قد تلد ثانية بين شهري تموز/ يوليو وأيلول/ سبتمبر، وحين يقترب موعد ولادة الصغار، تعمد أنثى القنفذ إلى بناء عش لها تلد فيه ما بين ثلاثة إلى سبعة صغار عراة بلا شعر أو شوك، مسدودي العيون والآذان. وسرعان ما تأخذ الأشواك بالظهور في الجلد لينة بيضاء لا جدوى فيها، لكنها تأخذ بالتصلُّب بعد ثلاثة أسابيع من الميلاد. ثم إنه لا بد من مرور بعض الوقت قبل أن تتمكن القنافذ الصغيرة من الالتفاف على نفسها كرات صغيرة، كما تفعل القنافذ الكبيرة. وبذلك تبقى القنافذ الصغيرة طوال هذا الوقت عاجزة عن الدفاع عن نفسها. والأم لا تفعل شيئًا لحماية صغارها، إذ إنها تلتف كرة شوكية، حين تحس بالخطر غير آبهة بهؤلاء الصغار. ولا يعني هذا التصرف انعدام عاطفة الأمومة لديها، وإنما لكونها لا تملك سلاحًا فعالا يقيها ويقي أبناءها من أي عدو غريب؛ اللهم إلا تلك الأشواك الموجودة على جسمها وحدها. بيد أنها بعد زوال الخطر تقوم بنقل صغارها واحدًا واحدًا إلى مكان آمن حاملة كل قنفذ صغير من جلده الرخو عند عنقه أو بطنه، أو أن تقبض عليه من إحدى قوائمه.

وفي أوائل فصل الخريف تأكل القنافذ كل ما تستطيع أكله وتسمن. وحين يأتي فصل البرد تدخل في بيات شتوي لتنام طوال موسم الشتاء. وفي خلال البيات الشتوي تكون القنافذ ساكنة أنفاسها ودقات قلبها بطيئة جدًا.



أم تبني عشًا لصغارها من أوراق الشجر

المصادروالمراجع:

1- كمال الدين محمد بن موسى الدّميري: حياة الحيوان الكبرى، ج2، دار الألباب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ دمشق، ص 208 - 210، بلا تاريخ.

2- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، ج4، ط2، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ص 166 - 169. 1385هـ - 1966م.

3- د. حسين جمعة: مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية، ط1، دانية للطباعة والنشر، دمشق/ بيروت، ص 317، 1990م.

4- موريس برتون: الموسوعة العلمية الحديثة (6)، الحيوانات، ج1، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ص 18 - 19، 1981م.

5 - The Hamlyn Children's Animal world Encyclopedia In Colour. Thirteenth impression, The Hamlyn publishing Group Limited. London... etc. pp. (248-249), 1981.

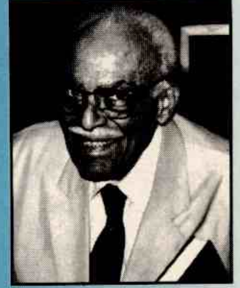
6 - Sharma., M.L. and kapur., S.S: Zoology. pre-Medical. Tenth Edition, R. Chand & Co. publishers-New Delhi, pp. (575-576), 1980.

7 - Bouchner., M: A field Guide in colour to Animal. Tracks and traces. First published, octopus Books Limited. London, Artia Prague, Czechoslovakia, p. (78), 1982.

8 - معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية (إنجليزي - عربي، مع مسرد عربي - إنجليزي)، إعداد: أحمد شفيق الخطيب، نواة المادة العربية في المعجم هي من وضع وتحقيق الأمير مصطفى الشهابي، ط2، مكتبة لبنان، بيروت 1982م.

9 - منير البعلبكي: المورد (قاموس إنجليزي - عربي)، ط19، دار العلم للملايين، بيروت1985م.

القدس (أورشليم) في التلمود



د. حسن ظاظا

يقابلنا في كل دين، بل في كل مذهب في داخل كثير من الأديان، مكان مقدس، وأحيانًا أكثر من مكان، يعتقد المتدينون بهذا الدين أو ذاك المذهب في بركته، وتميزه من سائر بقاع الأرض؛ فيجعلونه معبدًا مركزيًا، يقصدونه للزيارة أو الحجّ أو العبادة أو تقديم القرابين والصدقات، أو ليكون ترابه مثواهم الأخير بعد موتهم. وترشّح بعض الظواهر الجغرافية أو الحوادث التاريخية هذا الموقع، أو ذاك، لذلك التميز والتكريم، فإذا أوصى مؤسس الدين باعتبار المكان المذكور ملتقى عامًا للناس، تأكدت صفته الدينية، وأصبح تقديسه وإجلاله فرضًا على كل مؤمن بهذا الدين.

موسى - عليه السلام - لم يسكن القدس قط!

وموسى - عليه السلام - مؤسس الشريعة اليهودية، والرسول الكريم إلى بني إسرائيل، لم يعرف أورشليم (القدس)، ولم يرها، فضلاً عن أن يحتلّها هو وأتباعه، ولم يطأها بقدمه، لا حيًا ولا ميتًا، ولم يأمر في كل توراته باتخاذها مكانا للحج، أو قبلةً لليهود أو معبدًا مركزيا لهم. واليهود جميعا، حتى المتمذهبين بالصهيونية منهم، يعرفون ذلك تماما من توراة موسى التي بين أيديهم، وكل ما يتعللون به أن جدّهم الأعلى - وهو جدّ العرب أيضا - سيدنا إبراهيم - عليه السلام -، قد مرّ بها ذات ليلة، وهو عائد برجال عشيرته من معركة مع أمير سوري «كدُرْ لَعْمُر» بعد أن خلّص لوطًا من الأَسْر. وتقول التوراة عن لوط إنه «أخو» إبراهيم، وقد تكون أخوّة قبيلة فقط، لا أخوة نسب من أب أو أم، أو هُمَا معًا. فقد وصفته القصة نفسها بأنهُ «ابن أخي إبراهيم» (التوراة - سفر التكوين 14:12)، ثم عادت فقالت عن لوط إنه «أخو إبراهيم» (رقم 16 من الفصل نفسه). والتقى إبراهيم وأمير مدينة «شالمْ»، وكان هذا هو اسمها في ذلك الوقت، قبل أن تصبح «أورشالم» أو «يبُوسْ» أو «القدس» أو «بيت المقدس»... الخ. وكان أميرها رجلاً فلسطينيا مؤمنًا، يوحّد الله ولا يشرك به، واسمه (مَلكي صادق)، ومعناه في اللغات الساميّة القديمة (مَلْكي: ربّي، وصادق: عادل)، وكان الأمير إذا ذكرَ الله تعالى أشار إلى السماء ودعاه باسم «الله العلي». فاستضاف هذا الأمير إبراهيم ومَن معه ليبيتوا عنده؛ فقدّم لهم طعامًا ونبيذًا، «كان كاهنًا لله العليّ، فباركه وقال: مباركٌ أبرام من الله العلي، ملك السماوات والأرض، ومبارك الله العليّ الذي أوقع أعداءك في يدك» (الفصل نفسه 14: 18-20). ثم عاد إبراهيم إلى فلسطين، بعد رحلات شاسعة، فأقام في منطقة «حبْرون»، وهناك ماتت زوجته السيدة سارة - أم إسحق -. فاشترى من ملك حبرون مغارة مزدوجة - أي ذات فجوتين - إحداهما لدفن النساء والأخرى للرجال؛ لأن إبراهيم - وكان قد طعن في السن - قرر بعد موته أن يكون مثواه الأخير بقرب سارة. واشتهرت المدينة باسم «الخليل»، عند المسلمين، تبرُكًا بسيدنا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً. ومن هنا انطلقت الصهيونية وقررت قسمة الحرم الإبراهيمي مناصفةً بين المسلمين واليهود، بعلّة أنهم «أبناء إبراهيم»، ولهم حق في أن يرثوه، مع أن الصفقة بين إبراهيم وأمير حبرون قد تمت ودُفع ثمنها قبل نزول التوراة، بل قبل ولادة موسى بأربعمئة سنة، ثم إن الحرم بمرافقه ومبانيه قد شُيِّد بمال المسلمين، وما يزال - فيما أعلم - ملكًا للأوقاف الإسلامية، ولكنها الفوضى الصهيونية التي تستبيح اغتصاب كل شيء!

ثم إن إبراهيم اشترى من أمير حبرون الفلسطيني - من عشيرة الحتّيين - المغارة المزدوجة فقط، وليس إقليم الخليل بأجمعه، هو وما حول مدينة حبرون من القرى والمزارع. وقارئ التوراة يشعر بأن سارة لم تسكن حبرون، ولا موضعا قريبا منها، بل الراجع أنها سكنت مع إبراهيم في صحراء النقب في جنوب فلسطين، في «جرار» بين غزة وبئر سبع، وهما المدينتان الكبيرتان في ما تسميه التوراة إقليم «برّيّة فاران» وكانت كلها للفلسطينيين، فارتبط إبراهيم بأمير بئر سبع واسمه «أبيملك». وكان لإبراهيم في جرار بئر خاصة به وبعشيرته. ويرجُح عندي أن سارة توفيت في حبرون في أثناء رحلة مع إبراهيم الذي خرج من العراق إلى سورية مرورا بالأردن وفلسطين، ثم إلى مصر، ويعود، ثم يرحل إلى مكة المكرمة، ليترك زوجته هاجر وابنهما اسماعيل، ثم يعود إلى مكة لرؤية هاجر وابنهما، وفي بداية شباب إسماعيل يعاون أباه في عمارة الكعبة المشرفة، ثم يعود إلى سارة، وفي رحلة معه تدركها الوفاة في حبرون وعمرها مئة وسبع وعشرون سنة (التكوين 23: 1، 2).

القضاة.. يعيثون فسادًا في الأرض!

فموسى وقبله إبراهيم، لم يسكنا مدينة القدس، ولا سكنها أحد من خلفاء موسى؛ لا يوشع بن نون

ولا إسحق ولا يعقوب ولا يوسف أو غيره من أبناء يعقوب، ولا الذين واجهوا الفلسطينيين من خلفاء يوشع بن نون، الذين عُرفوا باسم «القضاة»، وهم الذين كانوا رؤساء عشائر أو شيوخ عصابات تقتل في فلسطين كل من ليس من بني إسرائيل، بلا شريعة ولا محكمة ولا تنظيم ديني أو مدني! لا شيء إلاّ النهب والقتل والاستعباد.

ويشغل حكم القضاة من منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد حتى القرن العاشر قبل الميلاد، أي نحو أربعة قرون من العنف والفوضى والعبث فساداً في أرض فلسطين، بحيث كان ضرورياً أن يظهر في هذا المجتمع نبيٌّ جديد، فكان «صمويل» الذي يصفونه بأنه آخر القضاة، وأول الأنبياء، لأن موسى - عليه السلام - لم يكن يُسمّى نبيا، بل «رجل الله» أي رسول الله، ويوشع بن نون كانوا يصفونه بأنه «خادم موسى»، والقضاة كانوا يُذكرون بأسمائهم، وعددهم تسعة، أزمانهم تشغل الحقبة من وفاة يوشع بن نون إلى نبوّة صمويل، الذي يرجع إليه تنظيم هذا المجتمع الإسرائيلي، وإخضاعه لسلطة سياسية عليا - أو مملكة - وضع على رأسها شاؤول، ولم يكن ذلك بوحي إلهيّ إلى صمويل أو بني إسرائيل.

كان اختيار صمويل لشاؤول سطحيّاً عشوائيّاً، توسّم فيه (طول) قامته، وقد سمّاه القرآن الكريم «طالوت»، كما رشحه لهذه المهمة، في نظر صمويل، وجاهة هيئته، وسهولة انقياده لهذا النبي، وتصديقه لكل ما يقال له.. وكان أبوه تاجر حمير في منطقة بيت لحم، وكان واحداً من عشرة أبناء، يشهد أبوه أنه كان أغباهم! وقد تعرّف إليه صمويل أول مرة عندما كان يجوس في المساء، ومعه عبد من عبيد أبيه، بين تلك الجبال والوديان بحثاً عن حمار له شرد عن القطيع.

ولنقرأ القصة في الكتاب الديني لليهود - سفر القضاة، الفصل التاسع عشر، رقم 1-: «وجاء إلى مقابل يبوس، وهي أورشليم»، ثم يقول: «وفيما هم عند يبوس، والنهار قد انحدر جدا، قال الغلام لسيده: هيا بنا نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها! فقال له سيده: لا نميل إلى مدينة غريبة، حيث لا أحد هنا من بني إسرائيل» رقم 11، 12 من الفصل نفسه. ونحن معهما وقد مضى أكثر من أربعة قرون على وفاة موسى - عليه السلام -، وقد تغيّر اسم شالم إلى يبوس، باسم العشيرة الفلسطينية التي تقيم فيها، وليس بها أحد من بني إسرائيل كما يقول النص. إن شهادة كتابهم هنا تبصق في وجوههم، وتشهد أن تحويل القدس إلى (أسطورة) ما يزال يزعج السياسة العالمية، ورغبة الناس في السلام إلى الآن!

كل هذا وصمويل يهيئ لتتويج شاؤول، ويعقد عليه الآمال الكبار في كسر شوكة السكان الأصليين في فلسطين. واعتلى شاؤول أول عرش لدولة يهودية في التاريخ، وحسب وصية صمويل راح يقاتل الفلسطينيين، ويعود من القتال خاسرا مهزوماً. أما صمويل فقد يئس من هذا الشاب الذي فرضه على قومه فرضاً، وهذه سابقة لكل انتخاب أو استفتاء شعبي يتعرض للتلاعب أو الخداع حتى يومنا هذا. وكم من دكتاتور في هذا العالم العريض ظل السنين الطوال يفوز بأصوات رعيّته في الانتخابات والاستفتاءات، إمّا خوفا منه، أو طمعاً في فوائد يغدقها عليهم، أو جهلاً كثيفاً بالسياسة، أو إيماناً بأن تلك الأصوات المؤيدة لا تدل على شيء! وحاول صمويل أن يعالج الموقف علاجا جذريا قبل أن يموت فبايع داود - عليه السلام - وأوصى له سرّاً بالعرش. وكان داود راعي غنم في صحراء بئر سبع، اشتهر بشعره الغنائي (المزامير) وبمواهبه السياسية والحربية بتأييد من الله له، وكان قد وصل إلى صحبة الملك شاؤول، والفوز ببعض الانتصارات له على الفلسطينيين؛ مما أثار غيرة شاؤول منه. فقرر أن يخوض معركة ضدّ الأعداء، وينتصر عليهم وحده، ولكنه انهزم هزيمة منكرة، وانتحر بعد تلك الهزيمة، ففاز داود بالملك.

عندما يلتقي اليهودي صاحبه يوم العيد، فإنه يهنئه بقوله: العام القادم في أورشليم، وهو ما يعني، في أحلامهم المريضة، أن أورشليم ستكون ملكا خالصا لليهود، وتطهيرها عرقيا من غيرهم!

داود - عليه السلام - ليس نبيًا في زعمهم!

والملك داود - في عقيدة اليهود - لا يُعدّ في الأنبياء، لا هو ولا ابنه سليمان، فقد عاصرهما أنبياء، لهم هذه الصفة عند الرواة اليهود. وأراد داود أن يختار له - وهو قائد حربي ممتاز - عاصمة تكون محمية من معظم نواحيها، وتكون متوسطة في فلسطين، حتى لا تثور بعض الأسباط اليهودية بسبب بعدها من قاعدة الحكم، وكان داود من نسل يهوذا بن يعقوب، ومنذ حكمه أصبح بنو إسرائيل يُسمون (اليهود) تذكيراً بسلف الأسرة الحاكمة: يهوذا بن يعقوب الذي هو إسرائيل.

وفي مقال كتبته عن تاريخ مدينة القدس في الحقبة اليهودية، بدأته بأسمائها، مثل: شالم أي مدينة السلام، أو السلامة، أو أورشالم التي وردت في بعض النصوص المصرية والمسمارية القديمة، أشرت إلى أن التسمية (أورشليم) - من الناحية اللغوية - ليست عبرية. وقرأ ذلك أحد محرري صحيفة «ها آرِصْ = الأرض أو الوطن»، فشكَّ في صحة ما أقول، واتصل بأستاذ اللغويات المقارنة في الجامعة العبرية بالقدس، فأجابه بأن ذلك صحيح، وظهرت عليه الدهشة حتى اضطر الأستاذ الذي أجابه إلى أن يشير عليه بأن «بيت المقدس» عند المسلمين ليست تسمية عربية بل هكذا جاء اسمها في التلمود، وكتب بذلك مقالاً طويلاً في جريدته.

وحاز داود معظم الأراضي في أورشليم. ثم فكر في أن يجعل منها عاصمة لحكمه، وكان لا بد من تشييد معبد مركزي، كما جرت بذلك العادة في كل الشعوب القديمة. وكان من المواقع التي حازها داود (جبل صهيون)؛ إذ طرد منه عشيرة من اليبوسيين كانت قد شيّدت عليه حصناً في غرب أورشليم، لأن غرب المدينة كان ضعيفاً في تحصيناته الطبيعية، وبعد استيلاء داود على صهيون، تفرغ لقتال بقية الفلسطينيين.

مزاعم اليهود في بناء الهيكل

وفي وقت جوع ووباء شديدين فكر داود أن يتقرب إلى الله بناء مذبح للقرابين على جبل القدس، بناءً على نصيحة نبي من أنبياء بني إسرائيل المعاصرين له واسمه «جاد». قال الراوي - سفر صمويل الثاني - الفصل الرابع والعشرون -: «ولما قام داود في الصباح، كان كلام الرب إلى جاد النبي - منجم داود - فقال: اذهب، وقل لداود: هكذا قال الربّ: ثلاثة أمور أعرضها عليك، واختر لنفسك واحدا منها فأنفذه عليك، فأتى جاد إلى داود وقال له: أتأتي عليك سبع سنين من القحط في أرضك؟ أم ثلاثة أشهر في مواجهة أعدائك وهم يطاردونك وأنت هارب منهم؟ أم ثلاثة أيام من الوباء في بلادك؟ فاعرف الآن وانظر الجواب الذي أردّ به على من أرسلني! فقال داود لجاد: لقد حزنني الأمر جداً، فلنستسلم لدين الربّ، لأن

مراحمه كثيرة، ولن استسلم لأي إنسان! فضرب الرب وباءً في إسرائيل من الصباح لمدة الميعاد، فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع سبعون ألف رجل! - أي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب -، ومدّ الملاك يده على أورشليم ليهلكها؟! فندم الرب عن الشرّ(!!) وقال للملاك المأمور بإهلاك الشعب: كفى! الآن ردّ يدك! وكان ملاك الربّ عند بَيْدَر (أرونة) اليبوسي - وجاء اسمه في نص آخر من كتابهم (أورنان) - فكلم داود الرب عندما رأى الملك المهلك لـلشعب، وقال: إنني أخطأت، وإنني أذنبت، لكن هؤلاء الخراف ماذا فعلوا؟ فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي! فجاء جاد في ذلك اليوم إلى داود وقال له: اصعد، وأقم للرب مذبحا في بيدر أرونة اليبوسي! فصعد داود حسب كلام جاد كما أمر الرب، فتطلّع أرونة، ورأى الملك وعبيده قاصدين نحوه. فخرج أرونة، وسجد للملك على وجهه إلى الأرض، وقال أرونة: لماذا جاء سيدي الملك إلى عبده؟ فقال داود: لأشتري منك البيدر، لكي أبني مذبحًا للرب، فترتفع النقمة عن الشعب! فقال أرونة لداود: فليأخذه سيدي الملك: وليُقرِّب ما يروق له من المحْرَقات! انظر! البقر للمحرقة، والنوارج وأدوات البقر للحطب! الكلّ دفعه أرونة المالك إلى الملك! ثم قال أرونة للملك: الرب إلهك يرضى عنك! فقال الملك لأرونة: لا! بل اشتري منك بثمن، ولا أُصْعد للربّ إلهي مُحْرَقات مجانية (أي مغتصبة من أصحابها، كعادة اليهود) فاشترى داود البيدر والبقر بخمسين مثقالاً من الفضة، وبنى داود هناك مذبحًا للرب! (سفر صمويل الثاني 24: 11- 25).

وبسرعة تحول بناء مذبح لإحراق القرابين للرب إلى مشروع معماري لمدينة تكون عاصمة للمملكة اليهودية القديمة التي بدأ داود تحصينها ثم من بعده ابنه سليمان الذي أراد لها أن تكون عاصمة تنافس أفخم عواصم المنطقة: ممفيس في مصر، وبابل في وسط العراق، ونينوى في شماله.

وبانتهاء بناء الهيكل، وتزيينه، وتخطيط مدينة أورشليم، وإحكام تحصينها، ورفع أسوارها وتنظيم زيارتها وطقوسها، واختيار كهنتها وخُدّام معبدها، من المنشدين والعازفين، والحرّاس والعمال، وجد اليهود - بعد خمسة قرون من وفاة موسى - عاصمة ينتمون إليها، ويفخرون بها، ويستمدون منها شعورا بالحضارة، وبوحدة الدولة، وبقوة الجيش الذي يدين لعبقرية داود بما وصل إليه من مقدرة على الدفاع عن الأمة، وردع من يحاول الاعتداء عليها من الداخل أو الخارج.

انقسام المملكة الواحدة قسمين وضياعهما معًا!

ويلاحظ المتتبع لتفاصيل الحياة في هذه المملكة اليهودية - الأولى في التاريخ -، كثرة الدسائس والمؤامرات والأحقاد والمنافسات، مما عرَّضها إلى حياة هشة، وأدّى إلى ثورات يهودية عامة من أهم أسبابها فداحة الضرائب المفروضة على الشعب، لتغطية نفقات الدولة بما كان يستهويها من بذخ حرصًا على أن تبدو أمام الدول الأخرى في أرقى صورة حضارية ممكنة. فتم شطر مملكة داود وسليمان نصفين: مملكة يهوذا في الجنوب، ومملكة إسرائيل في الشمال. وانكمشت أورشليم، ونافستها «السامرة» عاصمة الشمال، ومنعت كل مملكة حُجّاجها من زيارة معابد المملكة الأخرى أو الصلاة فيها. وكان لكل مملكة منها كهنتها.. وأنبياؤها! وكانت مملكة إسرائيل في السامرة أقصرهما حكمًا (من نحو عام 970 إلى 720ق.م)، أي قرابة مئتين وخمسين سنة، حيث سقطت أمام الغزو العراقي الأشوري الزاحف من نينوى (الموصل) بقيادة الإمبراطور سَلْمَا نَصَّر. وتعاقب على عرش السامرة في تلك الحقبة عشرون ملكًا أولهم يُربعام بن نباط، وآخرهم هُوشَعْ (وهو غير هوشع النبي، ويوشع بن نون). أما مملكة يهوذا في أورشليم فأول من أسسها هو داود - عليه السلام - نحو عام 1040ق.م. وأعقبه سليمان - عليه السلام -، نحو 1014ق.م إلى وفاته نحو 975ق.م. حيث قامت مملكة إسرائيل الشمالية. أما ملوك يهوذا فقد استمر حكمهم منكمشًا في جنوب فلسطين، إلى سقوط أورشليم في يد بختنصر البابلي القادم من العراق، بعد حصار مرير دُمِّرت فيه أسوار المدينة وأبراجها، وأحرق (هيكل سليمان) بأمر القائد البابلي نبوزردان. كما قبض على جميع القادة والمسؤولين في مملكة يهوذا وقتلهم جميعا. أما آخر ملوك يهوذا - وهو العشرون من السلسلة المتعاقبة على عرش داود - واسمه صدقياهو؛ فقد قُبض عليه وهو يحاول الهرب بأولاده. والمنظر يستحق الوقوف عنده، لأن المؤرخين اليهود جعلوا منه جمرًا يؤجج نار الحقد على جميع شعوب العالم من ذاك الوقت (نحو عام 590 ق.م) ربما إلى يومنا هذا!

قال الراوي - سفر الملوك الثاني، الفصل الأخير، رقم 25 - في الكلام عن صدقياهو، الذي خلف ابن أخيه «يهوياكين» على عرش اليهود، وهو يتحدث عن الزحف الأخير إلى أورشليم بأمر بختنصر (الذي تسميه كتب اليهود «نبوخذناصر» ملك الكلدانيين في بابل)، يقول: وفي السنة التاسعة لملكه، في الشهر العاشر، في عاشر الشهر، جاء بختنصر ملك بابل، هو وكل جيشه على أورشليم، ونزل بها، وبنوا عليها أبراجًا حولها، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشرة للملك صدقياهو. وفي تاسع الشهر اشتدّ الجوع في المدينة، ولم يعد خبز في الأرض، وهرب جميع رجال القتال ليلاً، من الباب الذي بين السورين من جهة بستان الملك، وكان الكلدان يطوقون المدينة، فأخذ اليهود طريق البراري. ولكن جيوش الكلدان تعقّبت الملك، فأدركته في صحراء أريحا، وقد تفرق عنه جميع جنوده، فأخذوا الملك وساقوه إلى ملك بابل في «ربلة» (يقول النبي إرميا في وصف هذه الأحداث إنها قرية في إقليم «حماة» بسورية)، وتركوا له حُكمه فيه، فقتلوا أبناء صدقياهو أمام عينيه، ثم سملوا عينيه، وكبّلوه بسلسلتين من نحاس، وأحضروه إلى بابل (من أول الفصل إلى رقم 7). واستمر التدمير وإشعال الحرائق في مباني أورشليم، بأمر نبوزردان، حتى تركها جنوده خرابا يبابا، بعد أن سوّوها بالأرض.

أورشليم (القدس) فلسطينية منذ فجر التاريخ

فمن هذا السرد السريع المستفاد كله من نصوص العهد القديم (التوراة - الأنبياء - كتب الحكمة) يتضح لنا أن أورشليم (القدس) لم تكن إلا أرضا فلسطينية خالصة، يحكمها أمراء فلسطينيون منذ فجر التاريخ، وأنها كانت مقدسة عندهم لله العلي، وأن إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط لم يسكنوها، وأن موسى - عليه السلام - لم يعرفها ولم يرها، وأنه لم يأمر بتقديسها ولا باتخاذها معبدا أو قبلةً، وأن استيلاء داود عليها كان عملاً سياسيا وَعسكريا محضًا، وأن تفكيره في بناء معبد مركزي فيها كان عملاً من أعمال السيادة المدنية عندما وقع اختياره - بوصفه المحارب المنتصر - على بلد يجعله عاصمة له، وأن بناء المعبد فيها بأمر سليمان لم يكن إلا استكمالا لمشروع معماري شامل، لتشييد عاصمة فخمة، لعل المعبد أقل ما فيها فخامة وضخامة بالموازنة مع الاستحكامات العسكرية بالأسوار والأبراج، وثكنات الجند والحرس، والقصر الملكي، ومباني الحكومة، ومئات الديار الرشيقة الأنيقة، والمباني الملحقة بالمعبد من إدارية وكنهوتية.

من هنا لم يكن بناء الهيكل حدثا يهز المشاعر بقدر ما هزتها حادثة إحراقه وتدميره التي تركت اليهود يبكون عليه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا،

ولم يهتموا بذكرى استكمال بنائه على حين جعلوا ذكرى تدميره يوم حزن وبكاء ودعاء، يُسمَّى عندهم «يوم التكفير» أو «يوم الغفران»، وهو أهم صوم لهم في عامهم، واختاروا من بقايا الأسوار قطعة من جدار يسمونه الجدار الغربي يذهبون إليه في يوم الذكرى هذا ويبكون بحرارة لعل الباعث عليها خمسة وعشرون قرنًا من الذلة والمسكنة وغضب الله عليهم. وكَثُر الشعر في أدبهم منذ عصور الأنبياء المتأخرين إلى يومنا هذا، والجدار الغربي الذي يرمز إلى الهيكل اشتهر عند غير اليهود باسم «حائط المبكى» أو «جدار المناحة» في ترجمة اسمه من لغات النصارى.

ومن أشهر ما يترنم به اليهود في ذكرى تدمير الهيكل في يوم «كِبُّور» أي يوم الكفّارة، مرثية مرويَّة في العهد القديم عن النبي إرميا الذي شهد هذه الأحداث، ثم ترك القدس لاجئًا إلى مصر فطاردته عصابة من المتطرفين اليهود تتهمه بالخيانة والدعوة إلى عدم المقاومة، وقتلوه بالقرب من مدينة المحلة الكبرى في دلتا النيل.

يقول إرميا في مطلع شعره في رثاء أورشليم: كيف باتت وحيدة.. المدينة الزاخرة بالناس؟ أمست كأرملة.. العظيمة بين الأمم! سيدة المدائن وُضعت تحت الجزية! في الليل، تبكي بكاءً ودموعها على خديها، ولا مُعَزّي لها من كل محبيها! كل خلانها غدروا بها!. صاروا لها أعداء!. أما يهوذا فقد أُسرت، وذلّت، واشتدت عبوديتها! إنها تقيم بين الكفار، ولا تجد راحة.. أدركها كل مطارديها في المضايق.. طرق (صهيون) تنوح لعدم القادمين للعيد (مراثي إرميا 1:1 - 4). وهي مرثية طويلة سُقتُ منها مطلعها فقط بترجمتي أنا عن الأصل العبري. لكن من أهم هذه البكائيات، أنشودة ترجع إلى اليهود بعد الهزيمة، وهم في السبي بأرض بابل، ألحقها كُتّاب تراثهم الديني ضمن مزامير داود! مع أنها ترجع إلى خمسمئة سنة بعد موته، لكنها دعوة إلى الثأر ممن هزموهم وأسروهم. وقد أنشدها المجتمعون في المؤتمر الصهيوني العالمي وراء هرتسل - زعيمهم - عام 1897م، وهم يكررونها في أكثر اجتماعاتهم ومؤتمراتهم. تقول الأنشودة (المزامير رقم 137): «هناك، على أنهار بابل جلسنا.. ثم بكينا كذلك عندما تذكرنا صهيون.. وعلقنا قيثاراتنا بين خمائل الصفصاف.. إذ هناك أمرنا الذين أسرونا بمقاطع غناء.. ومُعذّبونا قالوا لنا فرحين: أنشدوا لنا وغنّوا من ألحان صهيون! كيف نغني أغنية الرّب في أرض غريبة. إن نسيتك يا أورشليم فلتفارقني يميني! ليلتحم لساني بحنكي إن أغفلت ذكرك! إن لم أرفع أورشليم على أعلى أفراحي! اذكر يارب لبني (إدوم) إذ قالوا يوم أورشليم: اهدموا! اهدموا حتى أساسها! يا بنت بابل المخرَّبة! طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا! طوبَى لمن يمسك بأطفالك فيضرب بهم الصخر»!

يتحدثون دومًا عن التخريب لا عن التعمير!

وكان اليهود معتقلين في أرض بابل في مكان يسمى «تل أبيب»، وعندما جرى تخطيط تل أبيب في فلسطين، أخذ اليهود اسم مُعْتَقَلهم فأطلقوه على مدينتهم الجديدة التي خططها المهندس الصهيوني «ديزنجوف» تذكيرا بالشتات والتشريد وانهيار المملكة القديمة. أما فلسطين فلم يكن فيها مكان اسمه تل أبيب على الإطلاق، ولكنها الرومانسية الصهيونية المتخلِّفة التي أوحت بذلك بعد إفلاس الرومانسية في الغرب. فسقوط القدس (أورشليم) كان عند اليهود أهم بكثير من بنائها، وأكثر ما تحدَّث به شيوخ التلمود هو عن أسباب السقوط، أما البناء فتجنَّبوا الإكثار منه لاشتراك فنيين أجانب فيه. ولأن الشعور العام بين اليهود أنه كان صرحا لتمجيد الملك الحاكم لهم وليس لتمجيد الربّ. فلما زال الملك أحسّوا بمرارة الهزيمة فبكوا بكاءً مرًا، وما زالوا يبكون إلى الآن، على الرغم من اعتقادهم بأن الربّ حي لا يموت وموجود في كل مكان.

تقول (المشنا) وهي مجموع المأثورات الفقهية اليهودية الشفهية - مثل السُّنّة عند المسلمين، مع الفارق في صدق الرواية ورسوخها -: «كيف كانوا يصنعون في أورشليم لإقامة الصلاة؟ كان كل سكان البلدان يقومون الليل حول رئيس جماعتهم، وفي الصباح الباكر يتلو الرئيس: فلنقُم ولنصعد فوق صهيون إلى الله إلهنا (من سفر النبي إرميا 6:31). وهي شطحة من شطحات إرميا في أثناء تدمير أورشليم، يحيي فيها الآمال على شكل بشري أو نبوءة؛ إذ يبدأ هذا الفصل بقول إرميا: في ذلك الزمان، يقول الربّ سأكون إلهًا لكل عشائر إسرائيل وهم يكونون لي شعبا... إلخ. فبنى على هذه الجملة المذكورة في المشنا وجوب الحج إلى صهيون، واعتبار أورشليم ملكًا لليهود وقبلة لهم. هكذا بلا نص ولا دليل!

حقوق المسلمين هي الأقوى

ولو قابلنا هذا الاعتقاد باعتقاد النصارى وحقهم في أورشليم، لتبيَّن لنا أن حجة النصارى أقوى بكثير. فالمسيح - عليه السلام - عاش في القدس، وولد في بيت لحم (من ضواحي القدس) وجادل شيوخ اليهود في القدس، ولما دعاهم إلى دينه قبضوا عليه، وحاكموه، وحكموا عليه بالصلب، لولا أنه عند تنفيذ القتل شُبِّه لهم، ورفعه ربه إليه. أما المسلمون فإن حقهم فيها واضح، فقد استولى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صُلحًا بحصار انتهى بمفاوضات، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أُسْري به إليها، وأدّى الصلاة فيها، ثم جعلها قبلة المسلمين إلى أن نزل الوحي بأن تحل الكعبة المشرفة محلها قبلة للمسلمين. ومما يذكر أن عمر بن الخطاب ترك مفاتيح كنيسة القيامة لكبير بطارقتها فنازعه عليها من القسيسين والرهبان من يقيمون فيها وليسوا على مذهبه، فاختار عمر رجلاً مسلما أمينًا، وأمره بإغلاق الكنيسة وهو راجع من صلاة العشاء بالمسجد الأقصى، وفَتْحها وهو ذاهب لصلاة الفجر، وكان الرجل من آل نَسيبة العرب، وورثوا هذه السدانة أبا عن جد إلى أيامنا هذه. فالمسلمون والنصارى لهم حق تاريخي وديني قويّ جدا في هذه المدينة المقدسة، على حين أن الإسرائيليين ليست عندهم إلا مملكة قديمة ما لبثت أن تفسّخت، ثم الكثير من الخرافات، منها هذه التي يرويها التلمود البابلي - خاصة - عن مفاتيح هيكل سليمان، في الجزء الخاص بالصيام: حكى شيوخنا أن الحريق لما اشتعل في الهيكل بأمر ملك بابل، صعدت جماعات من شباب الكهنة فوق السطح، فلما أدركتهم النار صاحوا: يارب العالمين، لقد فشلنا في الحفاظ على معبدك، إذ لم تكن لنا الجدارة بذلك، ونحن نرد لك مفاتيحك، ثم رموها نحو السماء، فأخذت تعلو وامتدت يد من السماء فتلقفتها! وسقط الكهنة في اللهب! (إشعياء 22:1)، ووجد التلمود الرقاعة الكافية ليؤول كلاما لنبيّهم يقول: «وَحْيٌ من جهة وادي الرؤي؛ مالكُم قد صعدتُم جميعا على السطوح؟».

ويظل المعبد اليهودي بأورشليم فرصة للبكاء على المجد الضائع، وتغذية لهيب الثأر. ثم أُعيد بناء المعبد بإذن الإمبراطور الإيراني «قورش» الذي اكتسح إمبراطورية بابل، وسمح لكل المُبعَدين من ديارهم بالعودة إليها. وعاد إلى فلسطين من أراد ذلك منهم، وكانوا قليلين، وأشرف على الهجرة وعملية البقاء نبيان يهوديان عائدان من السبي، هما: نحميا وعزرا، ويُنسب إلى الثاني حبه للتوراة وكتابتها، لذا اشتهر بين اليهود باسم «عزرا الكاتب»، وهذه النسخة متأخرة عن عصر موسى - عليه السلام - بما يقرب من ألف سنة، ولكنها ضاعت أيضًا، ولا أثر لها. ولكن المعبد الجديد - الثاني - بقي على الرغم من الكوارث، فقد اقتحمه أحد خلفاء الإسكندر على سورية، وهو أنطيوخوس

إيفانس الرابع، واسترده اليهود وأعادوا فتحه بعد تدشينه وتطهيره، وعاد منبعًا لقصص الخوارق والمعجزات، على الرغم مما يُرتكب فيه من الموبقات.

خرافات لا يصدقها عاقل!

من ذلك ما يقصه التلمود في الجزء الخاص بالصيام. قال الراوي في وصف هجمة للرومان على هيكل أورشليم بقيادة الروماني الوثني «تورنوس روفوس»، وسمعه الربّي جمالئيل يصيح: ابحثوا عن كل من له أنف معقوف! فلما سمعه جمالئيل لاذ بالفرار، فلحقه روفوس فسأله ساخرا: لو أنني أطلقت سراحك هل تهيئ لي مكانًا في نعيم الآخرة؟ قال: نعم! قال: أقسم على ذلك! فحلف له، فصعد القائد على سطح الهَيكل وألقى بنفسه أرضًا ومات! وهكذا نجا جمالئيل، وخاطبه صوت من السماء يقول: إن القائد وجد حظًا من نعيم الآخرة!!

وأرسل نيرون حملة تأديبية لليهود في أورشليم، ثم جاءت حملة كبيرة بقيادة القيصر «فسبازيان» وابنه «تيتوس» فدُمِّرت المدينة المقدسة من جديد، وصار حكماء اليهود وفقهاؤهم يبحثون في أسباب هذا الغضب الإلهي، وتكررت في أحاديثهم الأسباب الآتية:

جاء في التلمود ـ الجزء الخاص بزكاة البواكير ـ أن خراب أورشليم كان بسبب استحلال اليهود حرمة السبت واستشهدوا بالمأثور عن النبي حزقيال في هذا الصدد (حزقيال 22 ـ 26).

واستدركوا بأن سبب تدميرها هو ترك الصلاة في الصباح والمساء استنادا إلى النبي إشعيا (11:5) ويرى النبي إرميا (11:6) أن دمار أورشليم يرجع إلى إهمال تعليم الدين للأولاد، ثم أضاف إرميا أيضًا أن اليهود في أورشليم كانوا بلا حياء (إرميا 15:6)، وأن عامة الناس كانوا لا يوقرون الكبير لسنّه. ويعود النبي إرميا في رثائه أورشليم فيؤكد انعدام حياء اليهود، وأنهم كانوا أشبه بالحيوانات (المراثي 6:1)، ويؤكد ذلك إشعيا بما معناه أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه (إشعيا 2:24). وجاء في الجزء الخاص بالسبت أن أورشليم كلها لم يكن فيها رجل واحد مستقيم، ولو كان لغفر الله به لهم جميعا، واحتجُوا بقول (إرميا 10:5) حول الإباحية والزنا في أورشليم لتأكيد تلك الفكرة، وكان الربّي يهودا هنّاسيّ كاتب المشنا يقول: إن تعليم النشء يجب ألا يعوقه أي عائق، حتى بناء الهيكل.

ولم يتكرر مُلك كمُلك سليمان في تاريخ اليهود منذ بدايته إلى الآن، لذلك كان لسقوط أورشليم وتدميرها رجة هائلة، في داخل المجتمع اليهودي، وكان الحلم الذي يداعب روح كل واحد منهم، هو أن تعود المدينة ـ بالهيكل أو من دونه ـ إلى أيدي اليهود، وعندما يلتقي اليهودي صاحبه في العيد فإنه يهنئه بقوله: العام القادم في أورشليم. وليست العبارة في تصورهم مثل قول المسلمين: «العام القادم في مكة». فهذه أمنية بالحج الذي هو ركن من أركان الإسلام الخمسة، لمن استطاع إليه سبيلا. أما هذه التحية في تصوُر اليهود «السنة القادمة في أورشليم» فإنها تعني أن أورشليم ستكون ملكا خالصا لليهود، مع أن الحج إليها ليس من أركان الدين اليهودي، وهذا ما يفسر لنا موقف كثير من الأحزاب والطوائف اليهودية المتطرفة التي تحلم بإخلاء أورشليم من أي أثر لأمة غير اليهود منها، وأن ينفرد اليهود بحكمها والقيام بعملية تطهير عرقي بالقتل والتشريد والاغتصاب والهدم لكل ما هو غير يهودي حتى المسجد الأقصى وقبة الصخرة للمسلمين، وكنيسة القيامة، وبستان الجسمانية وسكة الآلام للنصارى. كل هذا على المدى الطويل مقدر للإزالة، أو ربما يبقون عليه للمباهاة بأن المسلمين والنصارى قد حكموا هذه المدينة، ثم ذهبوا عنها إلى الشتات بفضل «الصهيونية» التي تعلن على لسان مسؤوليها أن القدس هي مدينة داود، كما يتغنى بذلك النشيد القومي الصهيوني. وكل صهيوني في العالم ـ ولاسيما المتخلفين منهم ـ لا يستحون من أن يجأروا بأن أورشليم هي عاصمة الدولة الصهيونية قديما وحالا ومستقبلاً إلى أبد الآبدين. وأصغر الناس قدرًا ومعرفة يعلم أن تلك الأيام يداولها الله بين الناس، وأبد الآبدين محال وهيهات أن يكون في هذه الدنيا الفانية! ويرّد فقهاء الصهيونية بأن الآخرة ـ هي أيضا ـ فيها أورشليم، وهي أعظم وأفخم من أورشليم الأرض، وأسأل الله العون حتى أتحدث مع قرائي الأعزاء عن كل ما أحاط بأورشليم من خيالات ودروشات وأوهام، يغصّ بها التلمود وأساطير المتصوفين اليهود.

المسلمون لهم حق تاريخي وديني قوي في مدينة القدس، على حين أن اليهود ليست لديهم سوى مرويات خرافية ترويها كتبهم «المقدسة»، يعتسفون تأويلها كي يثبتوا لأنفسهم حقوقا في فلسطين!

ولا أريد أن أضع القلم قبل أن أشير إلى أن (أورشليم ـ الأسطورة) ركزت عليها الصهيونية اهتمام اليهود في العصر الحديث، نثرا وشعرا ومسرحا وغناء، على نحو يذكرنا بالدعاية الأوربية لطرد العرب والمسلمين منها في أثناء الحروب الصليبية، في العصور الوسطى، وهي حروب استغرقت قرنين من الزمان، وذهب ضحيتها مئات الآلاف من الأنفس وما لا يُحصى من الأموال. وأذكر من ذلك مثالين اثنين. الأول منهما اسمه موسى مونتفيوري، وهو يهودي إيطالي الأصل، بريطاني الجنسية، صهيوني النزعة ـ قبل الصهيونية العالمية ـ. وكان في القرن الماضي من أغنى أغنياء بريطانيا، وكان عضوا في مجلس اللوردات، فوافقت ملكة بريطانيا ـ في ذاك الوقت ـ على سفره ضمن وفد ثلاثي يهودي من: المحامي الفرنسي «أدولف كريميه» عضو البرلمان الفرنسي، والمستشرق الفرنسي المتخصص في الفكر العربي والإسلامي «سالومون مُونْك» لمفاوضة محمد علي ـ والي مصر ـ لإلغاء التهمة الموجهة إلى يهود دمشق ـ لأنه كان واليا على الشام أيضا ـ، مع توصية سرية من الملكة للحصول على امتيازات سياسية واقتصادية لبريطانيا، وعاد هذا اللورد بعد تمام رحلته بما يُسعد كل يهود العالم، وما يسرّ ملكة بريطانيا وإمبراطوريتها التي لا تغرب عنها الشمس. ووصل سرورها بالنتائج التي حققها اللورد مونتفيوري للاستعمار البريطاني في مصر إلى حدّ أنها تركت له أن يختار لنفسه الوسام الذي يحلم بأن يتحلّى به، فأجاب: وسام لم يسبق له مثيل (وسام أورشليم) بالحرف العبري، واستجابت الملكة لما أراد! وكان من حُسن حظ اليهود أن يعيش هذا الصهيوني الثري أكثر من مئة سنة: من 1874م إلى 1885م.

والمثال الثاني هو تيودور هرتسل مؤسس الصهيونية العالمية، وكان قد صار صهيونيا (بالمصادفة)؛ إذ كان مراسلاً لجريدة تصدر بالألمانية في فيينا (النمسا) يعمل في باريس في أثناء التحقيق في تهمة ظالمة بالخيانة لضابط يهودي هو «ألفريد دريفوس»؛ فألف هرتسل كتابه الشهير «دولة اليهود»، وكان يبحث لدى اليهود عن «مموّل» لنشر الكتاب. وكان إذا سُئل: أين دولة اليهود؟ أخرج من حقيبته أصل الكتاب والراية الصهيونية بنجمتها السداسية وصرة من تراب أورشليم.

الاستشراق

مؤامرة.. أم قناة لحوار الثقافات؟!

د. عبده يونس عبود

ما أكثر ما كتبه العرب وقالوه إبّان العقود القليلة الأخيرة في نقد الاستشراق! عشرات الكتب، مئات الأبحاث والمقالات، وعدد لا حصر له من الندوات والمحاضرات! فلو شاء المرء أن يضع فهرسًا تصنيفيًا (ببليوجرافيًا) خاصًا بهذه المسألة لخرج بمجلد كبير. ما الأمر؟ هل تحوّل الاستشراق إلى تحدّ رئيس تجابهه الثقافة العربية؟

وهل بات الاستشراق يشكّل خطرًا جدّيًا يحدق بالأمة العربية وثقافتها؟ أم إن هذه المعركة التي تُخاض ضد الاستشراق ليست سوى واحدة من تلك المعارك الخاسرة، وتلك المبارزات الهوائية (الدونكيشوتية) الخيالية، التي خاض العرب الكثير منها في تاريخهم الحديث؟ أم إنها معركة تُخاض ضدّ طرف ليس للعرب أيّة مصلحة في أن يدخلوا في صراع معه، ولهم كلّ المصلحة في تحويله إلى حليف لهم، وإلى جسر يربطهم بالمجتمعات الغربية وثقافتها في زمن كَثُر فيه الحديث عن حرب الثقافات؟

الحملة المناهضة للاستشراق

باديء ذي بدء لا بدّ من الإشارة إلى أن للحملة العربية الموجّهة ضدّ الاستشراق دوافعَ فكريّة وعقائدية ومصالح معرفيّة مختلفة ومتنوعة. فمن العرب من يناهض الاستشراق لأسباب ودوافع دينية، ومنهم من يهاجمه لاعتبارات سياسية، قومية في الغالب... إلخ. ولكن مهما تكن تلك الخلفيات والدوافع والمصالح فإنّ نُقّاد الاستشراق من العرب متّفقون على أن الاستشراق نشاط علمي وفكريّ معاد للعرب والمسلمين، نشاط يرمي للإساءة إلى ثقافتهم. ولا يتردد قسم كبير من هؤلاء النقّاد في أن يعدّ الاستشراق حلقةً من حلقات «المؤامرة» الغربية الصهيونية الهادفة إلى تقويض الأسس الفكرية للإسلام والعروبة. إن الربط بين الاستشراق من جهة والاستعمار الغربي والصهيونية من جهة أخرى هي نغمة تتردد بلا انقطاع في أدبيّات الحملة العربية المناهضة للاستشراق(1). وما دام الأمر كذلك فمن الطبيعي ألاّ يرى المشاركون في تلك الحملة في الجهود العلميّة والثقافية الاستشراقية أيّة عناصر إيجابية يمكن أن تعود على العرب والمسلمين بالفائدة. فكيف يمكن أن ينطوي الاستشراق - في رأي هؤلاء - على ما هو إيجابيّ، وهو في الأصل تعبير عن مصالح وأهداف ونوايا استعمارية غربية، وصهيونية خبيثة، لا تريد للعرب والمسلمين إلاّ الأذى والشرّ؟! إنّ الاستشراق - من وجهة نظر هؤلاء النقّاد - نشاط علمي وثقافي يصدر عن جهة معادية، ولا يمكن - من ثم - إلاّ أن يكون ضارًا وخبيثًا. إلاّ أنّ نقاد الاستشراق من العرب لم يتمكّنوا من تجاهل جهود استشراقية أنصف أصحابها العرب والمسلمين وقدّروا دورهم الحضاريّ التاريخي حقّ قدره، وأولوه ما يستحق من احترام. أما أشهر تلك الحالات فهي حالة المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه Sigrid Hunke صاحبة الكتاب الشهير: «شمس العرب تسطع على الغرب»(2)، وهو كتاب تُرجم إلى العربية وحظي باهتمام عربيّ واسع النطاق. إلاّ أنّ مناهضي الاستشراق من العرب عدّوا حالات كهذه استثنائية اعترفوا بفضلها،

من دون أن يدفعهم ذلك إلى إعادة النظر بصورة جذريّة في موقفهم من الاستشراق ودوره.

إنّ الحالات التي أنصف فيها المستشرقون العرب والمسلمين هي - والكلام لنقاد الاستشراق - حالات استثنائية قليلة. أمّا القاعدة فهي أنّ الاستشراق هو، في جوهره، نشاط مُعاد للإسلام والعروبة، وجزء من المؤامرة الغربية الصهيونية الهادفة إلى تخريب الثقافة العربية وهدم أسسها، وفي المقدّمة منها الإسلام. وإذا كان ذلك هو شأن الاستشراق، فمن الطبيعيّ، لا بل من الضروريّ، أن تُشنّ ضده الحملات، وأن تؤلف الكتب والمقالات، وأن تُقام المؤتمرات والندوات، للتحذير منه، وكشف «النوايا الخبيثة» الكامنة وراءه، ودرء خطره. وهذا ما حدث فعلاً على امتداد العقود الأخيرة، حيث شهد الوطن العربي معركة حامية الوطيس حول الاستشراق، معركة استقطبت جهوداً علميّة وفكرية ضخمة، شاركت فيها جهات عربية وإسلامية كثيرة، وندب لها عدد كبير من الباحثين والمفكّرين أنفسهم، وذلك بغرض درء خطر الاستشراق وحماية الإسلام والعروبة من شروره المُفترَضة.

وجهة نظر مختلفة

ومع احترامي الشديد لكلّ من شارك في الحملة العربية المناهضة للاستشراق، فإنّ لي في هذه المسألة وجهة نظر تختلف جذريًا عن وجهة نظرهم. فأنا أرى أن خصوم الاستشراق يغفلون عن حقيقة جوهريّة، ألا وهي أن المستشرقين ليسوا عربًا ولا مسلمين، بل هم علماء وباحثون غربيّون، ينتمون قوميًا إلى الأمم الغربية، وينتمون دينيًا إلى النصرانية أو اليهودية، وقد لا يكون لهم انتماء دينيّ محدّد. وعندما يدرسون الثقافة والمجتمع العربيين فإنهم يفعلون ذلك انطلاقًا من أفق يختلف جذريًا عن أفق أي باحث عربيّ ومسلم.

إنهم يمارسون جهودهم الاستشراقية مدفوعين باهتمامات ومصالح معرفية، ومناهج وأرضية ثقافية تختلف من مستشرق لآخر، ومن جامعة لأخرى، ومن بلد لآخر، ومن جيل لآخر، ومن مرحلة لأخرى. لذا فإنّ كلّ حكم أو تقويم تعميميّ للمستشرقين ينطوي بالضرورة على إجحاف وظلم، ويجانب الحقيقة. فالمستشرقون علماء وباحثون، لكلّ منهم اهتماماته وعقليّته ومنهجه واقترابه. صحيح أنّ هناك اهتمامات وتوجّهات مشتركة بين بعض المستشرقين، ولكنّ ذلك لا يعني أن الاستشراق كتلة واحدة، تتحرك ضمن مخطّط استعماريّ وصهيوني معاد للعرب وللمسلمين. فلو كان الأمر كذلك لما كانت تلك الفوارق الكبيرة بين البحوث الاستشراقية. أما حقيقة أنّ الحكومات الغربيّة قد استفادت، ومازالت تستفيد، من الدراسات الاستشراقية في وضع سياساتها المتعلّقة بالعالَمَين العربيّ والإسلامي، فتلك مسألة أخرى، لا يجوز أن يُستنتج منها أن المستشرقين يتحمّلون مسؤولية تلك السياسات. إنّ المستشرقين علماء وباحثون تحرّكهم في الغالب دوافع ومصالح واهتمامات علميّة صرف.

أمّا عاطفيًا فإن القسم الأعظم منهم يهتمّ بالشرق لأنه يحبّه ويقف منه موقف المحبّ المتفهّم، بحسب تعبير المستشرقة الألمانية أنّا ماري شيمّل Annemarie Schimmel(3)، ولولا ولعهم بالشرق لما وقف هؤلاء المستشرقون حيواتهم على دراسته والاشتغال به.

صحيح أنّ بين المستشرقين من يحمل في صدره عداء وحقدًا، مما ينعكس في أبحاثه ونشاطاته العلميّة. ولكن مستشرقين كهؤلاء قلّة، ولا يمثلون بأيّة حال السواد الأعظم من المستشرقين، الذين يحرّكهم حب الشرق والولوع به. ولا نبالغ البتّة إذا قلنا إنّ بعض المستشرقين مولع بالشرق إلى درجة الهيام. إنّهم عشّاق الشرق بحق.

إنجازات المستشرقين

خلافًا لخصوم الاستشراق من العرب أرى أنّ المستشرقين قد حققوا إنجازات علمية ومعرفية وثقافية هي بصورة عامة لصالح العرب والمسلمين. فالمستشرقون هم الذين عرّفوا الثقافة العربية الإسلامية وقدّموها إلى المجتمعات الغربية والعالم، مما رفع مكانة العرب والمسلمين، حيث أخذ العالَم ينظر إليهم بوصفهم أمةً ذات حضارة عريقة. لقد أسهمت جهود المستشرقين بصورة جوهرية في تحسين صورة الشرق، وذلك بتقديمه إلى الرأي العام الغربي والعالمي موطنًا لشعوب ذات حضارة راقية، لا شعوب همجية بربرية، مثلما تدّعي الأوساط الاستعماريّة والصهيونية.

وبهذا الخصوص كان هناك تعارض صارخ بين جهود المستشرقين التي أبرزت منجزات الحضارة العربية الإسلامية، والمساعي الاستعمارية والصهيونية التي صوّرت العرب والمسلمين همجًا متوحّشين، وسوّغت بذلك قيامها باستباحة بلادهم واحتلالها ونهبها. ولا أظنّ أنّ أحدًا يجهل ما قاله مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتزل بخصوص الدولة اليهودية، التي ادّعى أنها ستكون قلعة للحضارة والديمقراطية وسط بحر من الهمجية والبربرية السائدتين في الشرق.

أما أبرز الإنجازات الاستشراقية التي جاءت لصالح العرب والمسلمين، فهي:

1 - دراسة التراث العلمي والأدبي والثقافي العربي الإسلامي وصيانته وحفظه من الضياع والتلف، وذلك بفهرسة المخطوطات العربية وتحقيقها ونشرها والتعريف بها، مما نبّه الرأي العام الغربي والعالميّ إلى أنّ هذه الأمة التي تتعرّض للاستعمار والاحتلال والتمزيق هي أمة ذات حضارة عريقة تستحق الإعجاب والتقدير.

2 - ترجمة روائع الأدب العربي، قديمه وحديثه، إلى اللغات الأوربية، وتقديم العرب والمسلمين للرأي العام في الغرب من خلال آدابهم، مما كان له أكبر الأثر في تحسين صورتهم، وهذا ما شكّل مقدمة لتفهّم قضاياهم والتعاطف معهم. فالأدب خير رسول ينقل صورة أية أمّة من الأمم إلى العالم(4).

3 - تعليم اللغة العربية لغير أبنائها والناطقين بها مما شكّل قناة إضافية مهمة لتعرّف الثقافة العربية وفهمها(5). ولقد بتنا اليوم نعي أنّ تعليم أيّة لغة للناطقين بغيرها هو مكوّن رئيس من مكوّنات النشاط الثقافي الخارجي.

4 - وضع الدراسات والأبحاث حول مختلف جوانب المجتمع العربي والإسلاميّ: التاريخية والاجتماعية واللغوية والدينية والحقوقية.. الخ، مما وفّر للمجتمعات الغربية معلومات غزيرة حول العالمين العربي والإسلامي، وأوجد فهمًا وتفهّمًا لهما، وشكّل مساهمة كبيرة في معرفة الحضارة العربية والإسلامية. قد نختلف مع ما توصّل إليه المستشرقون في أبحاثهم كليًا أو جزئيًا، وهذا

من حقّنا، ولكنّ أحدًا لا يستطيع أن ينكر دور الاستشراق في التعريف بحضارتنا، ولا أن يتجاهل أنّ وجود تلك البحوث هو لصالحنا في حقيقة الأمر. فهي تعبير عن اهتمام بنا، والتفاتة نحونا وهي تثير نقاشًا حول قضايانا. إنّ أسوأ ما يمكن أن يحصل لنا هو أن يتجاهلنا العالم ويهملنا، وأن تنجح الأوساط المعادية في التعتيم علينا وحجب الأضواء عنا ثقافيًا وعلميًا؛ لأنها إذا نجحت في مخططها التعتيميّ فإنها تستطيع أن ترتكب ضدّنا أبشع الجرائم السياسية والعسكرية، دون أن ينتصر لنا أو أن يتضامن معنا أحد في العالم.

«المؤامرة» الحقيقية

ولأولئك الذين يقولون بوجود مؤامرة غربيّة ترمي إلى تشويه الحضارة العربية وتقويض أسسها أقول: إنّ «المؤامرة الحقيقية»، إنْ وُجدت «مؤامرة» كهذه(6)، لا تكمن في الاستشراق، بل في الصمت والتعتيم الثقافي على العالَمين العربي والإسلامي، وفي إبعادهما من مركز الاهتمام الثقافي وتعريضهما للنسيان ثقافيًا. أما الجهة التي اخترقت تلك «المؤامرة» وجعلتها تخفق جزئيًا فتتمثّل في المستشرقين الذين أعادوا الثقافة العربية الإسلامية إلى دائرة الضوء، واسترعوا أنظار شعوبهم إلى ما للعرب والمسلمين من إنجازات ثقافية.

إنّ أحدث مثال يمكن أن نوضّح تلك الحقيقة من خلاله هي المعركة الإعلامية والثقافية التي رافقت منح «جائزة السلام للناشرين الألمان» للمستشرقة الألمانية الكبيرة آنّا ـ ماري شيمّل An-nemarie Scimmel عام 1995م، فقد بذلت الأوساط المعادية للعرب والمسلمين جهودًا لا يتصور المرء قوّتها وشراستها وخبثها وتنوّعها بغرض حجب تلك الجائزة عن المستشرقة المذكورة التي وقفت حياتها على دراسة الثقافة الإسلامية وإظهار غناها وتنوّعها، مركزة على جوانبها وأبعادها المهمَلة(7)، ولم تتمكّن تلك الأوساط المعادية من أن تنال من آنّا ماري شيمّل علميًا، لأنها جاهلة بالحقل العلمي الذي اشتغلت به هذه المستشرقة أشدّ الجهل، وهي غير قادرة لذلك على مجابهتها في تلك الساحة. لذا عمدت إلى استدراجها إلى ساحة جانبيّة هي الساحة السياسية، حيث أمّلت بأن تتمكّن من أن تسدد لها هناك ضربة قاضية(8). لماذا عارضت تلك الأوساط منح «جائزة السلام» الألمانية هذه المستشرقة المشهود بإنجازاتها العلميّة؟

لقد عارضت تلك الأوساط تكريم السيدة شيمّل بكلّ شراسة لسبب رئيس هو أنّها مستشرقة، تهتمّ بالعالم الإسلامي وتحبّه وتفهم أوضاعه وقضاياه. لقد أرادوا معاقبتها لأنها قامت بتسليط الأضواء على الحضارة الإسلامية ومنجزاتها، وهم يريدون أن تُحجَب الأضواء عن تلك الحضارة، وأن تُحتكَر من قبل جهة تسعى إلى تجيير الإنجازات الحضارية للإنسانية لنفسها. ولئن كانت معركة «جائزة السلام» الألمانية قد حُسمت في نهاية الأمر لصالح المستشرقة السيدةَ شيمّل بعد صراع إعلامي قلّ أن شهد الرأي العام الألماني مثيلاً له، فإنّ ذلك النجاح قد تمّ بفضل تضامن المستشرقين الألمان وغيرهم مع زميلتهم، ودفاعهم عنها بصورة فعّالة. لقد كانت معركة ثقافية كبرى خاضها المستشرقون نيابةً عن العرب والمسلمين الغافلين عن مصالحهم الثقافية الخارجية، الذين تصرّفوا وكأن تلك المعركة لا تعنيهم، وواصل بعضهم حملته المناهضة للاستشراق(!!).

صراع الثقافات

وازدادت الحملة العربية المناهضة للاستشراق خطورة في المرحلة التي أعقبت انهيارالعدوّ التقليدي للغرب، أي الشيوعية والمعسكر الاشتراكي، إذ أخذت الأوساط الغربية المسيطرة تتلفّت ذات اليمين وذات الشمال بحثًا عن عدوّ جديد يسوّغ ذلك التسلّح الهائل الذي تمارسه، ويساعد المجتمعات الغربية في كبت تناقضاتها الداخلية ورصّ صفوفها بحجّة وجود عدوّ خارجي يتهددها. ولم تكن تلك الأوساط بحاجة؛ لأن تطيل البحث، إذ سرعان ما عثرت على ذلك العدوّ، ألا وهو «الإسلام»، الذي أُعلن أنّه العدوّ الجديد للغرب استنادًا إلى التناقض الأساسي القائم بين قيمه الاجتماعية والسياسية والقيم التي تشكّل أساسًا للحضارة الغربية. وهكذا برزت في الغرب دعوة قويّة لإحلال «صراع الثقافات» محل صراع الاتجاهات الفكرية (الأيديولوجيات) والطبقات، ولجعل «الإسلام» العدوّ الأكبر للغرب في هذا النمط الجديد من الصراع. وممّا سهّل على الدوائر الغربية المعادية للعرب والمسلمين مهمّتها تلك الممارسات الإرهابية التي ترتكبها المنظّمات والجماعات السياسية المتطرفة في العالمين العربي والإسلامي باسم الإسلام. لقد كانت تلك الممارسات والنشاطات الإرهابية البشعة هديّة مجانية قُدّمت للدوائر الغربية السالفة الذكر، حيث ساعدتها في إقناع الرأي العامّ الغربي بأن (الإسلام) يشكّل مصدر خطر عليه. بعد ذلك كان من السهل أن تُوجَّه الجهود الإعلامية والسياسية والاستخباراتية للغرب إلى محاربة هذا العدو الجديد. وهذا ما يحدث حاليًا على امتداد العالمين العربي والإسلامي، وفي الغرب نفسه. وهذا وضع شديد الخطورة على العرب والمسلمين. فصورتهم في العالم مشوّهة أشد التشويه، والعالم غير مستعدّ لأن يتفهم قضاياهم أو أن يتضامن معهم حتى عندما يتعرّضون لأشكال بشعة من العدوان. لقد وقف الرأي العام العالمي موقفًا اتسم بقدر كبير من اللامبالاة عندما شنّت إسرائيل في أبريل/ نيسان 1996م حربًا جوية وبحرية ضد لبنان، وهي الحرب التي أُطلقت عليها تسمية (عناقيد الغضب). وحتى عندما ارتكب الجيش الإسرائيلي مجزرة (قانا) الشهيرة، فإن التضامن العالمي كان دون الحدّ الأدنى، بينما قامت الدنيا ولم تقعد، وتداعى زعماء العالم بأقصى السرعة إلى قمة «شرم الشيخ» في أعقاب العمليات التي قامت بها حركة (حماس) داخل إسرائيل. وذلك يدلّ على مدى العزلة التي يعاني منها العرب والمسلمون في عالم اليوم نتيجة لتشويه صورتهم وتعبئة الرأي العام العالمي ضدّهم.

إن هذا الوضع البالغ الخطورة يتطلب من العرب والمسلمين أن يراجعوا حساباتهم، وأن يقفوا وقفة متأنية انتقادية من أنفسهم أوّلاً، بعيدًا من المزايدات والعنتريات والخطابيات والغوغائية. وعليهم أن يفكّروا في السبل التي يمكن أن تؤدي إلى رفع حبل المشنقة الدولي عن رقابهم وإلى الخروج من هذا الطوق الثقافي والإعلامي القاتل الذي يُفرض على العرب والمسلمين بتخطيط من الدوائر المعادية، وبتسهيل من الجماعات المتعصبة المتطرفة داخل المجتمعات العربية الإسلامية نفسها. ولن يكون

الخروج من ذلك الحصار الثقافي والإعلامي ممكنًا إلاّ إذا تبنَّينا في العالمين العربي والإسلامي نهجًا جديدًا في سلوكنا الاجتماعي والسياسي والديني، بحيث نستبعد من ذلك السلوك كلّ ما يمكن أن تستغلّه الأوساط المعادية وتوظّفه في تشويه صورتنا وتأليب الرأي العام العالمي ضدّنا. إننا نعيش في عالم تحوّل إلى «قرية كونية»، مما يترتب عليه أن نتصرف نحو الداخل والخارج بصورة مقبولة من جانب شركائنا في هذه القرية، وأن نُقلع عن كلّ أشكال السلوك المرفوضة من قبلهم. لقد آن لنا، في العالمين العربي والإسلامي، أن نتخلّى عن الاستهتار بالرأي العام العالمي، وأن نتصرف بطريقة لبقة تقبلها الشعوب الأخرى، تلك الشعوب التي يجب علينا أن نسعى لكسب تفهّمها وتعاطفها وتضامنها واحترامها. وهذا يتطلب مراجعة شاملة لمجمل سلوكنا وتصرفّنا أفرادًا وجماعات ومؤسسات ومنظّمات وحكومات ودولاً، وهيَ عملية صعْبة ينبغي أن تشاركَ فيها النُّخب الثقافية والاجتماعية والسياسية للأمّة(*). أليس جهاد النفس هو الجهاد الأكبر؟

حاجتنا إلى حلفاء

إنّ معركتنا الثقافية الإعلامية المعاصرة هي معركة من نوع جديد، معركة تتطلب منّا أن نتصرّف بذكاء وحساسيّة وحذر، وأن نتحلّى بنفَس طويل ورؤية نافذة مخطَّط لها (استراتيجية). فالجهود التي نبذلها في هذه المعركة لا تؤتي ثمارها إلا على المدى الطويل، ولكنها في كلّ الأحوال جهود من الحيويّ أن تُبذل لأنها استثمار لصالح أجيالنا القادمة. وفي معركة ثقافية شاملة كهذه نحن في أمس الحاجة إلى حلفاء ثقافيين، أي إلى أطراف ثقافية خارجية، تهتمّ بنا وتفهم أوضاعنا وتتفهّم مشكلاتنا وتساعدنا في تصحيح صورتنا في العالم. وفي مقدّمة تلك الأطراف تأتي المؤسسات والشخصيات العلمية الأجنبية التي درست لغتنا وثقافتنا، ألا وهم المستشرقون، فهم الجهة الأجنبية التي يمكن أن نتحاور ونتفاهم معها قبل أيّ جهة أجنبية أخرى. وإذا لم نكن قادرين على التفاهم مع هذه الجهة، فكيف نتفاهم مع جهات وأوساط أجنبية أخرى؟ إنّ المستشرقين يمكن أن يشكّلوا همزة وصل بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية، وبين المجتمعات العربية والإسلامية والمجتمعات الغربية، لأنهم مؤهلون لهذا الدور علميًا وثقافيًا. ولكن من أجل أن يتمكّنوا من أداء دورهم بصورة فعالة لا بدّ لنا أن نساعدهم في ذلك، بأن نكثّف اتصالنا وتواصلنا معهم، فنطلعهم باستمرار على ما يستجدّ في ثقافتنا ومجتمعنا، ونتحاور معهم حول قضايانا، ونظهر التشجيع والتقدير لجهودهم العلمية والثقافية، ونقدّم لهم الدعم الماديّ الممكن(9). وفي حوارنا مع المستشرقين علينا أن نحترم آراءهم ووجهات نظرهم عندما تختلف عن آرائنا ووجهات نظرنا وتقويماتنا، لا أن نسعى لفرض وجهات نظرنا عليهم بحجّة أننا أدرى منهم بثقافتنا ومجتمعنا. فالتطابق في وجهات النظر بيننا وبين المستشرقين أمر غير ممكن لأسباب كثيرة، وهو غير ضروري أيضًا. يكفينا أن يفهم المستشرقون ثقافتنا وواقعنا وقضايانا بصورة دقيقة وموضوعية، وأن ينقلوا ما فهموه إلى مجتمعاتهم وثقافاتهم. عندما نتعامل مع المستشرقين على هذا الأساس فإننا سنتوقف عن مؤاخذتهم على اختلافهم معنا في وجهات النظر، وتصبح كلّ تلك الحملة التي تشنّها بعض الأوساط العربية ضدّ الاستشراق حملة ليس لها أي موضوع أو مسوّغ، لا بل تصبح عملاً ضارًا بالمصلحة الثقافية العربية والإسلامية. إنّ تعاملنا السليم مع الاستشراق سيساعده في أن يؤدي دوره بوصفه جسرًا بين الثقافة العربية والإسلامية والثقافة الغربية، وأن يكون عاملاً رئيسًا من عوامل درء «صراع الثقافات» وتحويله إلى «حوار ثقافات» يقوم على احترام كلّ طرف لثقافة الطرف الآخر والسعي لفهمها(10). فحوار الثقافات هو الطريق الوحيدة التي تؤدي إلى المحافظة على التعايش الثقافي في العالم، وتُجنّب البشرية أخطار صراع جديد يتخذ الاختلاف الثقافي ذريعة لتأجيجه. إنّه صراع ليس للأمّتين العربية والإسلامية أيّة مصلحة فيه. فنحن لسنا بحاجة إلى أن نكون طرفًا في حرب باردة (أو ساخنة) جديدة، بل إلى أن نفرغ جهودنا كلّها للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كي نتجاوز ذلك التأخر الذي ألمّ بمجتمعاتنا إبّان عصور الانحطاط الطويلة، ولنرتقي إلى مصاف الأمم والمجتمعات المتقدمة التي نتعامل معها من موقع التكافؤ والندّية، لا من موقع الضعف والتخلّف والتبعية. إننا بحاجة إلى أن نعيش في هذا العالم أمّة متقدمة حرّة، تتعايش مع الأمم الأخرى وتبادلها الاحترام الذي لا يلغي الاختلاف وخصوصيّة الهويّة الثقافية. وفي سعينا للوصول إلى ذلك الهدف نحتاج بالضرورة إلى المستشرقين، بوصفهم الجسر الذي يصل بين ثقافتنا ومجتمعنا والثقافة والمجتمع الغربيين، ويساعدنا في إحلال حوار الثقافات محلّ صراعها. فلماذا يحاول بعضنا أن ينسف ذلك الجسر الذي تقتضي مصلحتنا الثقافية والمجتمعيّة أن نوسّعه وندعمه؟

الهوامش والإحالات:

1- قدّم كتاب إدوارد سعيد: الاستشراق، المعرفة - السلطة - الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت 1981م، دعمًا قويًا لوجهة النظر هذه.

2- ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط8، بيروت 1986م. وللسيدة هونكه كتاب آخر مترجم إلى العربية تدحض فيه الأحكام المسبقة المنتشرة في الغرب حول العرب. عنوان هذا الكتاب هو: «الله ليس كما يزعم الغرب - تفنيد ألف حكم وحكم منحاز ضد العرب». ترجمة نوال حنبلي، دمشق، 1993م.

3- راجع: Annemarie Schimmel: Im Geiste des liebevollen Verstehens. In: FAZ, 16. Okt., 1995.

4- لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة راجع بحثنا: دور التربية الأدبية في تشكيل صورة العرب في العالم: في: هجرة النصوص، دمشق، 1995م، ص 55 - 85.

5- حول هذه المسألة راجع مقالنا: تعليم العربية للأجانب ومستقبلها في صراع اللغات. الفيصل، العدد 230، ديسمبر 1995م، ص 30 - 34.

6- حول دور نظرية (المؤامرة) في الفكر العربي المعاصر، راجع: B. Tibi: Die Verschwoerung. Das Trauma arabischer Politik. Hamburg 1994.

7- إنّ الإنجاز العلميّ الأهم للسيدة شيمل هو كتابها «الأبعاد التصوفية للإسلام».

8- لمزيد من المعلومات حول تلك المعركة راجع مقالنا: معركة في حرب الثقافات، في الأسبوع الأدبي، العدد 485، 1995/10/26.

(*) التحرير: لقد طرحنا وجهة نظر الكاتب، من دون تدخل منا، إيمانًا بحرية الرأي. وعلى الرغم من عدم تقبلنا الكثير مما ورد في مقالته، وعدم موافقتنا عليه؛ إلا أننا آثرنا نشر رأيه؛ ليقيننا أن الرأي لا يُقارع إلا بالرأي، والحجة تقابلها الحجة. ونحن في انتظار تعقيبات الإخوة القراء على ما ورد في هذه المقالة من آراء. فإن غايتنا هي الحق وحده، ولن يصح في النهاية إلا الصحيح.

9- راجع تفصيلات ذلك في بحثنا المشار إليه في الهامش الرابع.

10- حول ما بات يعرف بصراع الثقافات أو الحضارات راجع: صموئيل هاتينغتون: الإسلام والغرب - آفاق الصدام، ترجمة مجدي شرشر، القاهرة 1995م.

هل الشعر يموت

سؤال تطرحه التجربة الأدبية الأمريكية

د. نعيم عطية

يقول الناقد جوزيف إبيشتاين أستاذ الأدب بجامعة نورثوسترن في إلينوي: إن الشعر في الولايات المتحدة ينمو في فراغ. إن حلقات قراءة الشعر تزداد عددًا، ويتسع عدد المقبلين عليها، بل إن كثيرًا من الناس يكسب رزقه من تدريس الشعر بالمعاهد والكليات، ولكن لا يبدو أن الشعر مع ذلك يؤدي دورًا رئيسًا في الثقافة الأمريكية.

وفي قول لأحد الشعراء الشبان تجده يسجل بحزن أن الشعر قد أضحى شكلاً فنيًا ظاهريًا فحسب. ولهذا فقد تساءل جوزيف إيبشتاين على صفحات مجلة «ديالوج» الثقافية الفصلية التي تصدر في واشنطن: هل الشعر فنّ في طريقه إلى الاندثار؟

من قتل الشعر؟

وفي حين يهتف الشاعر الأمريكي المعاصر دونالد هول قائلاً: «عاش الشعراء»، يمضي إيبشتاين متسائلاً: «من الذي قتل الشعر؟»؛ فيدين عزلة الشعراء وتركيزهم على عواطفهم الذاتية بدلاً من مخاطبة الناس. ويؤكد أن الشعراء الحاليين سوف لا يمكنهم أن يكتبوا قصائد مثل تلك التي أبدعها الشعراء المعاصرون الكبار من أمثال والاس ستيفنز وت. س. إليوت. ويعارضه في ذلك الشاعر دونالد هول، الذي يؤكد أن الشعراء الحاليين إنما يدعون من منطلق الذاتية التي ينبذها إيبشتاين ويعزو إليها عزلة الشعر الحديث. ويقول دونالد هول: إن هذا الحديث عن وفاة الشعر يدور على ألسنة المتباكين على الشعر الحديث منذ ما يقرب من مئتي عام، ومع ذلك يولد كل يوم شاعر جديد، ويكتب شعرًا لا تلبث الأجيال اللاحقة عليه أن تشيد بعطائه وتعدّه إبداعًا يستحق التقدير. ويقول دونالد هول: إن الشعر الحديث في حاجة إلى قُرّاء فحسب، وإلى قُرّاء يستطيعون بثاقب النظرة ورهافة الحس أن يتبيّنوا الغث من السمين. والشاعر الحديث بحاجة إلى قارئ، بقدر احتياج القراء إلى العطاء الشعري.

ويمضي إيبشتاين فيقول: «إنني لن أقول لـلقارئ كما سبق أن قالت الشاعرة الأمريكية ماريان مور من أنها لا تحب الشعر. لن أقول ذلك، لأنني تعلمت الكثير من الشعر، فما من أداة من أدوات التعبير بقادرة أن تسمو بالفكر والروح قدرَ ما يستطيع الشعر. وإني لأرى الشعراء أكثر قربًا من السماء، لتحليقهم بفضل الإبداع الشعري، في الأجواء العالية. ويتحدث الشعراء عن ممارستهم الشعر كما لو كانوا يمارسون عبادة من العبادات، أو طقسًا من الطقوس». ويضيف روبرت فروست الشاعر الأمريكي أنه باختياره التعبير الشعري قد اختار لنفسه جرحًا لا يندمل، يعكف بالشعر على رعايته والسهر على اندماله.

ولقد كان الإقبال على الشعر أيام الشاعر براونينج والشاعر تنيسون الإنجليزيين أكبر مما هو عليه الآن. ويعزو إليوت ذلك إلى أن الشعر «أضحى أكثر صعوبة من ذي قبل». فالعطاء الشعري أضحى الآن أكثر تأملية، وأقل مباشرة، ويعلل إليوت هذه الصعوبة التي لحقت بالشعر الحديث، بأن «الحضارة» التي يُعدّ الشعر أحد مقوماتها، صارت أكثر تعقيدًا، وهو ما جعل الشعر يتراجع عن متناول الجماهير العريضة، ويضحي انشغال فئة صغيرة، هم الصفوة المختارة، التي تجد سعادتها الحقة، في التعامل مع هذه الأداة الأدبية المتجهة قُدُمًا إلى التجريد والذاتية، والعكوف على فنها في صمت وعزلة للإصغاء إلى هواتف النفس الداخلية، محاطة بدائرة محدودة على أيّ حال من النقاد والمريدين والدارسين. وهكذا تمضي حياتهم، ويظل عطاؤهم في انتظار الإقبال عليه من دائرة أوسع من الجماهير، ولكن من دون أن يعول الشاعر على تلك «الجماهير» كثيرًا على أي حال، فإن أتت فمرحبًا بها، وإلاّ فالشاعر المتفرد في صومعته يستلهم حوريات العشق والجمال، كي يكتب صفحات هي أقرب إلى الصّلوات والنجاوى الداخلية.

هل في الأمر ثمة خطأ؟

إن المتتبع للحياة الإبداعية لأمثال جاريل، ولويل، وشوارتز، وبيريمان من الشعراء الأمريكيين، سوف يلاحظ أن هؤلاء كانوا أناسًا ذوي طموح، ولو أنهم مارسوا طموحاتهم في مجالات أخرى من مجالات الحياة العامة، كالمهن والتجارة والوظائف، لحققوا لأنفسهم حياة أفضل بكثير مما أوصلهم إليه التعلق الشديد بفن الشعر، ولأدركوا نجاحات كانت تغنيهم وتقيهم مما ترددوا فيه من إدمان الشراب، وانهيار الأعصاب، بل محاولة الانتحار أكثر من مرة في بعض

في العصر الحديث؟

الأحيان، والموت المبكر. وعلى الرغم مما أصاب هؤلاء، ويُعزَى ذلك للشعر إلى حد بعيد؛ فقد كان أمامهم أمل في أن بالإمكان تقديم عطاء شعري جدير بالتقدير. على أن هذا الأمل بدوره راح يتبدد بين أيدي الشعراء الشبان الذين أتوا من بعدهم، فعلى كل ما لديهم من صلاحيات، فما زالت هناك عقبة كؤود تقف أمام النجاح. ولقد تيقن هؤلاء الشبان من أن في الأمر ثمة ما هو خطأ. وهم في ذلك على حق.

ويستطرد إبيشتاين فيقول: «وقبل أن أحاول الدخول إلى ما أعتقد أنه حدث، ربما كان عليّ أن أصف وأحدّد ما أعتقد أنه الوضع الحقيقي للشعر المعاصر. ومن قبيل الإيجاز أعود فأقول: إن الشعر المعاصر في الولايات المتحدة ينمو في فراغ، فاليوم هناك أكثر من مئتين وخمسين جامعة أمريكية، تدرّس برامج الكتابات الإبداعية، وكل هذه الجامعات لديها أقسام للشعر. وهو ما يعني أنهم لا يدربون شبانًا يريدون أن يصبحوا شعراء فحسب، بل يستأجرون أيضًا رجالاً ونساء ممن نشروا شعرًا للتدريس لهم. وهو ما يفضي إلى أن ينتقل هؤلاء من دراسة الشعر إلى تدريس الشعر من دون أن تتاح لهؤلاء الفرصة الحقيقية لترسيخ أقدامهم على أرض صلبة. وقد أصبح تدريس كتابة الشعر من المواد الجذابة للجماهير التي ترغب في تعلم هذه الصلاحية، وأصبح الكثيرون في هذا المقام حرفيين، من غير أن يكون لهذا كله فعالية في ظهور شاعر حقيقي.

وبعبارة أخرى نجد أنفسنا إزاء سيل من الكتابات من دون أن نلقى في هذا كله شعرًا أصيلاً بحق. فثمة فرق بين الشعر الحقيقي والشعر المصنوع. وربما كان بالإمكان أن نقرب ما نقوله إلى الأذهان بأن نشير إلى أن ظاهرة انتشار آلات التصوير (الكاميرات) في العصر الحديث لم تكن بقادرة على أن تخلق فنانًا مطبوعًا مثل أولئك العباقرة الكبار في العصور السابقة. فالكاميرا تنتج سيلاً من الصور. ولكن هذه الصور قلما وجدت فيها اللوحة الإبداعية. لدينا الآن آلاف من مُحترَفات التصوير، ولكن لا يوجد لدينا رمبرانت أو رينوار».

ويمضي إبيشتاين فيقول: إن روبرت فروست الشاعر الأمريكي الكبير عندما كان في الثمانين من عمره، وعاين ظاهرة انتشار منتديات قراءة الشعر، قال: «إنه لَشَيء حسن أن أضحى الشعراء معلمين للشعر في ألف أو ألفي كلية منتشرة في الولايات المتحدة». وأضاف: «إن هذه المنتديات والكليات قد أتاحت أفضل الفرص لقراءة الشعر على مر التاريخ». وفي عام 1985م أشار الشاعر دونالد هول إلى أنه خلال الثلاثين عامًا السابقة، أصبحت ندوات قراءة الشعر - التي كانت نادرة فيما مضى - هي الصورة الرئيسة من صور نشر الشعر بالنسبة للشعراء الأمريكيين. وفي كل عام يستمع آلاف من الجماهير إلى مئات الشعراء ينشدون لهم قصائدهم.

ويثور الجدل حول ما إذا كانت قراءة الشعر قد أفسدت الشعراء حقًا. ويدَّعي بعضهم في خضم هذا



ت.س. اليوت



والاس ستيفنز

الجدل أن ذيوع قراءة الشعر يميل بالشاعر إلى كتابة قصائد أكثر سهولة وخفة كي تكون مُتقبَّلة ومفهومة من الجماهير المستمعة إليها، وهذا العيب يتداركه الشاعر الذي يكتب قصائد تُنشر وتُقرأ في كتاب، وهكذا لا يتردى في عيوب الضحالة والسطحية. وقد لوحظ أن القصائد التي تكون أكثر تعقيدًا وأعمق معنى، مثل قصائد الشاعر والاس ستيفنز، لا تحقق قراءتها النجاح الذي تحققه قصائد ضحلة سطحية عند قراءتها في ندوات الشعر الحديث. ولكن قراءة الشعر قد ساعدت على أي حال عديدًا من الشعراء على العثور على وظائف في سلك التدريس، مما كفل لهم كسب لقمة العيش. كما ظلت المصدر الوحيد لإقامة أَوَد شعراء ليس لهم من مورد رزق سوى الاشتراك في هذه الندوات المدفوعة الأجر، وخاصة إذا ما وضعنا في الحسبان إعراض الناشرين عن التحمس لنشر الأعمال الشعرية، وعدم تحقيق دواوين الشعر المنشورة لشعراء شبان لأي دَخْلٍ ماديّ يذكر، أو لأي اكتراث بها من نقاد المجلات الأدبية.

ولا تُقبل دور النشر بصفة عامة على نشر دواوين الشعر. صحيح أن ثمة دواوين تصدر كل عام، لكنها لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من قوائم مطبوعات دور النشر التجارية. وإذا سُئل واحد من هؤلاء الناشرين عما إذا كانت دواوين الشعر تجد قراءً، يجيب «ليس بالكثير»: ما استطاع شاعر في الولايات المتحدة أن يحيا من دخل دواوينه إلا روبرت فروست، ولكنه هو أيضًا لم يتحقق له ذلك إلا في سن متأخرة. على أننا يجب ألاّ نغمط في هذا المقام قدر جهود بعض الكليات والمعاهد في نشر دواوين الشعر، بل التخصص بعض الأحيان في نشر السلاسل الشعرية.

ويجب أيضًا أن نقرر أن منافذ نشر الشعر متوافرة. وتنشر المجلات الفصلية والشهرية، وفي مقدمتها «النيو يوركر» كمًّا لا بأس به من الأعمال الشعرية. وفي عام 1912م تأسست مجلة «شعر» وما زالت تواصل الصدور. ومن خلف دوريات الصف الأول هذه، توجد أيضًا مجلات أخرى صغيرة تنشر الشعر، وهي توزع بضع مئات من النسخ. ومجلات الشعر في الولايات المتحدة تتلقى المعونات، بل إنه من الممكن أن نقرر بصفة عامة أنه ما من عطاء شعري يصدر في الولايات المتحدة بغير دعم مالي، سواء من بعض الجهات الحكومية، أو المؤسسات المعنية بالنشاط الإبداعي، وهو من هذه الزاوية يلقى الازدهار والانتشار.

عزلة الشعر الحديث

ولكن الشعر المعاصر يحيا في فراغ. ذلك أنه مهما تزايد المقبلون على كتابة الشعر، واتسع نطاق المعونات التي تُقدَّم إليه، فإن تلقي هذا النشاط الإبداعي ما زال مقصورًا على دائرة ضيقة من المتذوقين، وما عاد الشعر جزءًا من وجبة الغذاء الثقافية للأغلبية العظمى من الجماهير. لقد أُقصي الشعر، وربما أَقصَى هو نفسه بنفسه، عن مركز الأحداث، وانزوى متخذًا مظهر النشاط الهامشي، ولكنه مع كل غربته ما يزال له أتباع متمسكون به، وإن كانوا قلة قليلة، وربما أيضًا متناقصة.

ويجب على المرء أن يضع في حسابه مغامرة الحداثة التي أوى إليها الشعر، إن الذي كان يقود أولئك الشعراء الطموحين الذين اقتحموا ميادين تلك المغامرة هو اعتقاد بأن طبيعة الحياة قد تغيرت تغيرًا جذريًا، وأنه يجب على الفنانين الآن أن يتغيروا بدورهم تبعًا لهذا

التغير. وفي مجال هذا التجديد لجؤوا إلى الشعر الحر، والتراكيب المفككة، والعبارات غير المتواصلة، والأساليب العامية، واختيار الموضوعات التي كانت تُعدّ غير قابلة لأن يتناولها الشعر. كما أن مواقفهم من القارئ أيضًا تغيرت، فقد أضحوا لأول مرة في تاريخ الكتابة الأدبية يتجاهلونه ولا يعيرونه أدنى اكتراث، فهو بالنسبة لهم ما عاد المتلقي الذي يُنتَظَر منه الفهم والاعتراف. وإذا كان ما كتبوه في هذا المقام قد اتصف بالغموض وعدم الفهم، فليس ذلك في نظرهم مشكلتهم هم، بل مشكلة القارئ. وقد كان في تمسكهم بأسلوبهم الجديد في الكتابة، بل إصرارهم عليه، بحيث انعكس أثره في حياتهم، وكَلَّفهم كثيرًا من التضحيات، ما جعل «الشعر الحديث» ظاهرة يجب الاعتداد بها مهما اختُلفَ حوله شكلاً وموضوعًا.

وفي عام 1941مَ كتب ويلمور شوارتز في مقالة بعنوان «عزلة الشعر الحديث» يقول: «إن الذي يستوقفنا - في المقام الأول - ليس افتقاد الشاعر جمهوره؛ لأن هذا مجرد نتيجة وليس سببًا، بل الذي يجدر أن يستوقفنا هو صعوبة الشعر الحديث على الفهم أيضًا». على أن شوارتز يعود في مقاله المنشور بمجلة «ديالوج» فيُهوِّن من هذا الأمر قائلاً: إنه إذا كان يجب على من يريد أن يفهم الشعر الحديث أن يبذل جهدًا، فإن هذا الجهد لن يزيد على نصف الجهد الذي يحتاج إليه لتعلم لعبة جديدة، أو مهارة جديدة. كما أن الشعر الحديث - مع مراعاة استثناءات قليلة - قد تزايدت سهولته، ومع ذلك فإن الجمهور ما زال مُفتَقَدًا.

وفي محاضرة بعنوان «غموض الشاعر» ألقى راندال جاويل اللوم في ذلك على هبوط المستوى العام للثقافة. «فإن الشاعر يعيش اليوم في عالم حَطَّمت صُحُفُه ومجلاته وكتبه وأفلامه السينمائية وإذاعاته وتلفازاته، في نفر كبير من الناس، حتى القدرة ذاتها على تفهم الفن الحقيقي من أي نوع كان»، كما اتخذ شعراء الحداثة في السنوات الأخيرة هذه المقولة ذريعة لإلقاء اللوم على التيار المناوئ للثقافة الذي تفشّى في الحياة الأهلية بصفة عامة، وقد حظيت دور النشر بنصيبها من النقد في هذا المقام لإعراضها عن نشر دواوين الشعر، معطلةً بذلك تنمية ملكات الجماهير على تقبل الشعر الجيد. كما لقيت النزعة المفرطة إلى «الربحية التجارية» في سوق الثقافة أشد اللوم لعدم تشجيعها تسويق الكتب الجادة تارة، ولمؤازرتها النماذج السيئة والهابطة من العطاءات الفكرية تارة أخرى.

وعلى مستوى أعلى من ذلك، ومن زاوية أكثر تاريخية، فهناك أولئك الذين يدَّعون أن اللعبة انتهت بالنسبة للشعر، وذلك بمقولة أنه بمجيء الرومانتيكية انفرد الشعر بالموضوعات الكبيرة، ولكن من خلال مصفاة الذات أيضًا. ولما كانت الذوات الكبيرة قد انقرضت، فإن كل ما بقي للشعر الآن هو مجرد ذوات باهتة. وقد كتب الناقد إيفور وينترز في هذا الصدد يقول: إن الرومانتيكية تنامت منذ القرن الثامن عشر. وفي ظلّها أُسيء فهمُ ماهية الشعر إساءة بأن جُعِلَ منه مستودعًا للفكر والبصيرة. ولكن حدث بعد ذلك تحوُّل في الاتجاه المضاد، فقد تزايد الميل إلى حذف ما هو عقلاني في الشعر والمضي بالعاطفية إلى العزلة.

ما أسباب الانحدار إلى العزلة؟!

ما الذي جعل الشعر الحديث ينحدر إلى «العزلة» ويقيم هوة فاصلة بينه وبين الجمهور العريض من القراء والمثقفين؟ ألم يكن الشعر في أيام الشعراء (الكلاسيكيين) القدامى - ابتداء من هوميروس منشد الملاحم الإغريقية في أزمان ما قبل التاريخ إلى الشعراء الرومانتيكيين الكبار من أمثال شيلي وبايرون وكيتس، بل تنيسون أيضا، من شعراء الإنجليز، وجوته وشيلر من شعراء الألمان - لسان الشعوب وآذانها، وقلبها النابض بالأحاسيس والآمال في تلك الأيام الخوالي؟ ما الذي حدث إذن على مستوى الشعر في العالم كله، وعلى مستوى الشعر الأمريكي المعاصر على وجه التحديد؟

يقول الناقد الأمريكي المعاصر جوزيف إيبشتاين في هذا الصدد: إن العلوم والرياضيات والتقنية (التكنولوجيا) الحديثة قد شُحنت من أجل استنزاف البهجة من الشعر وحرمانه من متعة الأوزان والقوافي، ومن ثم حرمانه من متعة جرسه الموسيقي، وذلك بالحماسة الشديدة للشعر الحر.

وقد ألقى فيليب لاركين مغبة انكسار الرابطة بين الشعراء والقراء على ما سماه «ضلال الحداثة التي أمرضت الفنون كلها»، وقد قصد بذلك - على وجه التحديد - الميل الحديث إلى ترسيخ الفنان فنّه لفنِّه. وفصل الفن عن كل التزام على عاتق الكاتب أن يقدم للجمهور معلومةً أو ترفيهًا. وإذا مضينا أبعد من ذلك فإننا سنجد فريقًا يؤمن بأن انحدار الشعر في أيامنا هو مواكبة لا مفر منها للعوار الذي لحق اللغة بصفة عامة. وفي هذا يقول ويندل بيري، وهو شاعر وكاتب مقال: «إن انطباعي هو أننا رأينا طوال مئة وخمسين عامًا تضخمًا في اللغة، إما خاويًا من كل معنى، أو مدمرًا لكل معنى. وإني لأعتقد أن هذا التدهور في اللغة يوازي الانحلال الذي لحق - في المرحلة ذاتها - بالأشخاص والجماعات. ولهذا فإن المرء يحصل من الشعر الحديث على ركام من القيم أكثر بكثير مما هو متوقع».

ويكاد كل تفسير يُعْطى لوضع الشعر في عصرنا الحديث - محاولاً أن يواجه عزلته - يكاد كل تفسير من هذا النوع يخلص في المقام الأول إلى عدم تجاوز هذا الشعر مستوى ثقافة الجماهير العريضة، وفي المقام الثاني إلى أن ما وصل إليه هذا الفن الأصيل من هامشية بالنسبة لانشغال الجماهير، هو ما أفضى إلى الالتقاء بالشعراء خارج الحلبة، وإقصائهم عن دائرة الأضواء أيضًا. وقد يكون ثمة صواب فيما قرره الشاعر الأمريكي والت ويتمان من أنه «كي يكون هناك شاعر كبير، يجب أن يكون هناك جمهور كبير أيضًا» ولكنَّ ثمة صوابًا أيضًا في قول الناقد ويلمور شوارتز من أنه «كي يكون هناك شعر عظيم يجب أن يكون هناك شعراء كبار أيضًا».

ولا يدّعي أحدٌ أن عصرنا هو عَصْرُ موات للشعر العظيم، فإنه ما من عصر خلا من عدد ولو صَغير من الشعراء الممتازين، ولكن - على حد قول كارل شابيرو - فإنه حتى لو كان من حولنا شعراء كبار في الوقت الحاضر، فإننا لن نعرف من هم. ويكفي أن نشير إلى أن مجلة مثل «لوس أنجليس تايمز» أذاعت عام 1987م أنها لن تعرض مستقبلاً أي ديوان من دواوين الشعر، وذلك على أساس أنه أضحى من المستحيل أن تحدِّد ما الدواوين ذات الأهمية منها. وبالمثل فإنه لا يكاد يوجد اتفاق بين الآراء على: مَنْ الأفضل من الشعراء الذين يتوالى ظهورهم واختفاؤهم كل يوم.

الشعر المعاصر يحيا في فراغ، ولم يعد يشكل جزءًا من الغذاء الثقافي للأغلبية العظمى من الجماهير؛ فقد أقصى نفسه عن مركز الأحداث، وأصبح هامشيًا في حياة الناس

هل نضرب صفحًا عن الشعر؟

ولكن الساحة الأدبية في أمريكا تتساءل إزاء ذلك عما إذا كان معنى ذلك الإعراضَ تمامًا عن عطاءات الشعر؟ وقد كتب إدموند ويلسون في هذا الموضوع مقالة باكرة عام 1932م بعنوان «هل الشعر أداة تحتضر؟»، وكانت إجابة ويلسون عن سؤاله أن «نعم»، وأن النثر أغرق الشعر وطغى عليه. ومنذ أيام فلوبير، فإن الدانتيين - ويعني بذلك الشعراء الكبار - أضحوا يعبرون عن رؤاهم نثراً، ويفرغونها في مسرحيات وروايات بدلاً من اللجوء إلى الملاحم الشعرية. ويخص ويلسون بالذكر فلوبير؛ لأنه أول من عكف على العناية التي كان يوليها الشعراء الكبار قصائدهم من قبل. ويمضي فيقول: «إنَّك ما عدت تستطيع أن تعرض حدثًا من الأحداث المعاصرة في قصيدة مثلما كان يفعل تنيسون أو ماثيو أرنولد في أيامهما».

ويعترف ويلسون أن شعراء الاتجاه الغنائي (الليريكية) يمكن المقابلة بينهم وبين أقرانهم الذين كتبوا

هل الشعر يموت في العصر الحديث؟

سؤال تطرحه التجربة الأدبية الأمريكية

ويكتبون في أي زمان ومكان. ولكنه يضيف: إننا لا يمكن أن نغفل أيضًا الأوضاع التاريخية التي أبدع كل من شيكسبير ودانتي فيها أعماله الشعرية. ولكن الأمر المقطوع به أنهما كانا يبدعان في أوضاع تختلف كثيراً عن الأوضاع التي يتحرك فيها شعراؤنا المعاصرون. وقد استشعر إدجار آلان بو الكثير من أوضاع هذا العصر عندما قال في مقالته الباكرة عام 1848م بعنوان «المبدأ الشعري»، إنه «إذا كانت بعض القصائد الطويلة صارت جماهيرية بالفعل، فإن الأمر البيّن أنه لن تتحقق لأية قصيدة طويلة مثل هذه الجماهيرية بعد الآن». وهو ما يعني أننا سوف نواصل قراءة هوميروس ودانتي وشيكسبير وميلتون، وربما أيضًا بايرون وبراونينج، لذكراهم الطيبة أحيانًا، أو لملامسة متعة كبرى من إبداعاتهم أحيانًا أخرى، إلا أنّ ذلك سيكون بمراعاة أن هؤلاء إنما قصّوا علينا قصصًا وروايات في قالب شعري، وأن هذا حدث في عصور أخرى ولن يتحقق هذا الأمر مرة أخرى.

ولم يكف الشعراء اليوم تمامًا عن قص حكايات في قصائدهم على أي حال. وعلى سبيل المثال، فإن بعضًا من أفضل قصائد روبرت فروست تنطوي على أقاصيص حياتية. وحتى قصيدة ت. س. إليوت «الأرض الخراب» تحكي قصة، وإن كانت قصة ممزقة وغير متصلة. وهذا ما تفعله أيضًا قصيدة والاس ستيفنز بعنوان «صباح الأحد». كما سنجد الشاعر الأمريكي روبرت لويل في خضم كتابه النثري «دراسات للحياة» عام 1957م يسرد لنا بعضًا من ذكرياته نظمًا. على أنه قد أضحى من الملحوظ أيضًا، أن الجزء الأكبر من الإبداع الشعري المعاصر قد ابتعد كثيرا من «ملحمية» شعراء سابقين من أمثال هوميروس وميلتون. ويعني هذا أن القصيدة الحديثة قد مالت بشكل ملحوظ إلى «الإيجاز»، بحيث لوحظ - بصفة عامة - أنّها في الغالب لا تزيد على أربعين بيتًا، وتسجل عادة واقعة، أو حدثًا من الحياة، أو ظاهرة من الطبيعة، أو عملاً من أعمال الفن، أو علاقة، أو عاطفة إنسانية، في لغة تتفاوت تميُّزًا، وينزع الوصف مرارًا - وإن لم يكن دائمًا - نحو رؤيا داخلية معتمة.

وقد كتب صموئيل جونسون عن ملحمة «الفردوس المفقود» لميلتون، يقول: إن «ما من أحد أرادها أطول من ذلك»، ثم استطرد يقول: إن كل ما يمكن أن تبلغه «القصيدة القصيرة»، هو «الرشاقة»، و«الملاحة»؛ إذ يتبنى الشعر الحديث هذا القالب، ويُعرض عن غيره. فقد ضيق من آفاقه كثيراً بأن انغلق الشاعر على نفسه انغلاقًا شديدًا. وذلك بالأخص؛ لأنه تخلّى عمّا يمكن أن يجعل الشعر، بل الأدب عمومًا، نشاطًا ذا أهمية بارزة في حياة الناس، ألا وهو القدرة على المخاطبة والتوصيل ورصد كيف يحيا الناس، أو كيف كانوا يحيون؟ والجهاد من أجل الحقائق الأكثر رحابة عن الحياة الإنسانية، واكتشاف ما هو المسوّغ النهائي للقراءة. ولهذا أضحى الشعر اليوم - على حد قول الشاعر والناقد الشاب براد ليتهاوزر - «شكلاً فنيًا سطحيًا إلى حد يبعث على الأسى».

استكشاف جوانب الخلل

وفي صدد استكشاف جوانب الخلل في الشعر المعاصر بصفة عامة، يجدر الرجوع إلى مقالة على غاية من الأهمية في هذا المقام بعنوان «ضد الشعراء»، للروائي البولندي ويتولد جومبرويز الذي توفي في باريس عام 1969م؛ وفيه يعيب الكاتب على الشعراء المعاصرين أنهم يريدون أن يأخذوا الشعر مأخذ الاحتراف تمامًا مثل أي حرفة، أو صناعة. وفي هذا المقام يقول: «في هذه الأيام، فإن المرء يريد أن يكون شاعراً مثلما يكون مهندسًا، أو طبيبًا، وهو ما سلب الشعر تلقائيته، وجعل الشعر يبدو مصطنعًا، وأحال الشاعر إلى مخلوق أدنى من الكائن الإنساني. ويميل

إن مغبة انكسار الرابطة بين الشعراء والقراء تقع على ضلال الحداثة التي أمرضت الفنون كلها. ولكي يكون هناك شعر عظيم يجب أن يكون هناك شعراء كبار أيضًا

الشعراء إلى أن يبقوا في صحبة شعراء آخرين، مما يؤدي إلى تقوية نواياهم في ممارسة «سياسة النعامة»، ودفن الرأس في الرمال إزاء الحقيقة»، كما يؤدي إلى منعهم من رؤية عيوبهم. إذ ينزع الشعراء إزاء ذلك إلى كتابة الشعر أساسًا لأجل الشعراء من أمثالهم، وهو ما يُعدّ في نظر جومبرويز عيبًا آخر أيضًا. وفي هذا المقام، يسجل أنه لا يطلب منهم أن يكتبوا بطريقة مفهومة من الجميع، ولكنه يرجو فحسب ألاّ يقيّدوا أنفسهم بوضعهم كفنانين، بحيث يتجاهلون حقيقة أن هناك أناسًا كثيرين خارج الإطار المحدود لعالمهم، لا يقلون إثارة للاهتمام عنهم.

ومهما كان موقف جومبرويز مبالغًا فيه، فإنه ما من أحد يلقي نظرة متعمقة على الشعر الجديد يستطيع أن يتخلص من الميل إلى مشاركة ذلك الكاتب في بعض تحامله على الشعراء المحدثين، وسوف يكتشف جزءاً من الحقيقة فيما قاله في مهاجمة هؤلاء. فمن المعتاد أن يرى الشعراء المعاصرون أنفسهم كأنهم قد عيَّنوا أنفسهم في جماعة أرستقراطية الذوق، مقفلة على نفسها. وآخر شيء يكترثون له أن يقال لهم إنهم يكتبون ما لا يرغب مَنْ ليسوا على شاكلتهم وخارج إطارهم أن يسمعوه. أما فيما بينهم فإنهم يعدّون من لا يشاطرهم الإعجاب بما يبدعونه شخصًا قاصر الحس، فاقد الذوق. وهكذا يمضون في التقوقع، وفي الابتعاد من الجماهير. ومع إصرارهم على التمسك بموقفهم هذا تزداد الهوة الفاصلة بين شعرهم والناس، ويترددون بعد ذلك في متاهات اليأس وعدم التفاهم، ويمضون يلقون اللوم على المتلقين الذين أعرضوا عنهم، وينسبون إليهم فساد الذوق وضحالة الإحساس، في حين أن تبعة كل هذا إنما تقع عليهم - أي أولئك الشعراء - وحدهم.

ولكن مهما يكن من أمر، فإن المشكلة أبعد من ذلك في نظر الناقد جوزيف إيبشتاين، فهناك شبه اعتراف أليم في أوساط الشعراء الجادّين بينهم، وبين المتلقين المعنيين بالشعر على أن ثمة شيئًا ما قد حدث، كما لو كان الشعر قد فقد ثقله، ومن ثم فقد حقيقته، وفقد أيضًا قيمته. ويمضي الناقد جوزيف إيبشتاين فيقول: «أعجبتُ كثيراً من ناحيتي بعديد من الشعراء المعاصرين، ولأكتف بالإشارة إلى من فقدناهم مؤخرًا: إليزابيث بيشوب، وآيل سيسمان، وفيليب لاركين»، ولا يلبث إيبشتاين أن يستطرد مقرراً أنه «ما من أحد منهم استطاع على أي حال أن يغرس لغته في أعماقي كما فعل شعراء من أجيال سابقة»، ثم يتساءل: «أين ذهبت تلك اللغة الفعّالة؟أو بعبارة أدق: أين ذهبت تلك القدرة على ابتكار مثل تلك اللغة؟». وإذا عدنا إلى خواطر ماريان مور عن الشعر، نقرأ قولها: «أنا بدوري، لا أحبه، ولكن قراءته على أي حال بمطلق الازدراء له، توصل المرء إلى أن يكتشف فيه، بعد كل شيء، موضعًا للأصالة».

بل يمكن القول إن المرء يكتشف فيه ما هو أكثر من «الأصالة»، وذلك على الرغم من أن عملية الإبداع الشعري تبدو اليوم مهدَّدة بتلك العطاءات التي جرفته خارج دنيا الناس، وجمَّدته في «الثلاجة الأكاديمية». وأولئك الذين لا يكتبون الشعر عن موهبة وعشق، بل لمجرد حصولهم على رخصة بذلك، مثل أي رخصة حرفية أخرى، وأقصد بالرخصة، المؤهلات الدراسية التي تمنحها (ورش) الشعر لشبان وشابات أرادوا اتخاذ الشعر حرفة لهم، فالتحقوا بالفصول التي تدّعي إعدادهم لهذا. وقد وصف والاس ستيفنز الشعر ذات مرة بأنه «ديك بري يختفي عن الأنظار في الغابة»، ويتاح للمرء أن يلمحه بين الفينة والفينة في إبداعات أفضل شعرائنا المعاصرين، ولكن من غير المتصور أن أحدًا سوف يكون بإمكانه إجبار ذلك الطائر الجميل الذي يجوس الغابة حرًا على الخروج من مكمنه إلى الأبد.

النص الإسلامي والقراءة التاريخية

سعيد شبار

تُعدّ «المسألة التاريخية» مادة ومنهجًا، من المسائل التي ما تزال مطروحة بحدة، وبأشكال مختلفة على ساحة الفكر العربي والإسلامي المعاصرة. وخاصة أن إعادة كتابة التاريخ الإسلامي باتت من القضايا المسلم بها في الوقت الراهن بالذات. ولم تعد تكفي في ذلك الجهود الفردية المحدودة ـ على أهميتها ـ أمام سيل الكتابات الانتقائية، التجزيئية، النفعية والمذهبية الفكرية (الأيديولوجية)، التي تنهش هذا التاريخ من هذا الجانب أو ذاك، متوسلة بوسائل الغرب أو الشرق، أو كليهما معًا.

وهذه إطلالة تذكيرية على هذه المسألة «المشكلة» في فكرنا الراهن.

لم يكن للمفكر الحر (الليبرالي)، ولا للمفكر الشيوعي (الماركسي)، تاريخ يستمد جذوره من التراث العربي والإسلامي؛ بل كان كل منهما يجد في تجربة المجتمع الغربي تاريخه. ودليله، بل ذاته.

فالليبرالي العربي «أخذ يتخلى تدريجيًا عن إطاره المرجعي الأصلي... إنه الآن يعيش الدولة القومية، بل يتحدث باسمها. فلماذا لا يتخذ من التاريخ القومي إطارًا مرجعيًا جديدًا له؟ ذلك ما حدث بالفعل، لقد تسلم، بل انتزع الليبرالي العربي التاريخ من يد السلفي. ولكن لا التاريخ الإسلامي، بل التاريخ العربي... لقد أصبح الليبرالي العربي ذا تاريخ بعد أن لم يكن له من قبل»(1).

الماركسية تفرض قراءة معينة!

وهذه الصورة نفسها ـ التي سكت عنها الكاتب ـ تصدق على المفكر الماركسي أيضًا. كما أن الأمر لم يبق منحصرًا في التاريخ العربي، بل أصبح التاريخ الإسلامي بدوره إطارًا مرجعيًا، ومكونًا فكريًا، لهذا المفكر أو ذاك على حد سواء.

والعودة إلى قراءة التاريخ الإسلامي، لم تكن وفق منهج من صلب هذا التاريخ، ولا بمبادئه ومعطياته المسطرة في مصادره الأصلية، بل بقيت تجربة مجتمع الإنسان الأوربي «معطى تجريديًا مفارقًا للتاريخ ـ بلغة أخرى معطى إلهيًا منزهًا ـ في قراءة المجتمعات البشرية المختلفة ووصفها، بحيث أصبح كلٌ من «لا يعبد» هذا الصنم خارجَ التاريخ، وخارج مقولة التطور والتقدم والحضارة»(2).

كما «فرضت الماركسية على أتباعها قراءة انتقائية للوقائع التاريخية، حيث يلجأ الباحث الماركسي إلى منهج انتقائي في قراءة التاريخ... وبذلك ينفي شرعية أي مجتمع أو منهج مخالف..»(3). كان الانفصال إذن على مستوى الموضوع، وبقي الاتصال على مستوى المنهج.

«طرح الإسلام بعدًا غائيًا في قراءة التاريخ، بتركيزه ونشره عقيدة التوحيد، لكنه جعل من مفهوم التوحيد معطى منزهًا، ولا يمكن لفرد أو لطبقة، أو لمجتمع معين في التاريخ مصادرة هذه العقيدة، وجعلها متطابقة وحالته، إذ إن هناك استحالة لذلك. فالتوحيد معطى منزه ومطلق، لا يتطابق مع حالة تاريخية بعينها... فهو لم يحقب التاريخ البشري وفق منظومة تطورية، بل أعطى الإنسان عبر التاريخ شرعيته الكاملة دون تمييز مسبق... واعتبر «مفاهيم»، التوحيد والعدل والتقوى... مقاييس التقدم والتأخر. وبذلك قدم مقاييس مجتمعية أكثر قدرة على التقاط الزمن التاريخي ـ زمن الناس ـ وتصنيفه في التقدم والتأخر، وفق مقاييس إنسانية

ومجتمعية، تجعل الباحث قادرًا على قراءة التاريخ البشري بدقة لا لبس فيها»(4).

التفسير الإسلامي.. رؤية شاملة

التفسير الإسلامي للتاريخ «يتجاوز مواضعات العصر النسبية.. ينظر إلى الأحداث ويسلط الأضواء على مساحتها جميعًا... إن رؤيته للأحداث رؤية واقعية شاملة في امتداداتها الزمنية الماضية والحاضرة والمستقبلية..»، «وتبدو نزعة الإسلام الشمولية والموضوعية في الوقت نفسه، بانفتاحه الكامل على القوى الفاعلة كافة في التاريخ، المنظورة وغير المنظورة، العقلية والوجدانية، الروحية والمادية، الطبيعية والغيبية. وبعدم تجزيء الرؤية، وعزل الأرض عن موقعها الصحيح في الكون، وارتباطاتها الشاملة بما حولها»(5).

يقول التفسير الإسلامي للتاريخ «إن هناك سننًا ربانية تحكم حياة البشر على الأرض، وإنها سنن دائمة غير قابلة للتبديل ولا للتحويل: *فلن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولن تجدَ لسُنَّة الله تحويلاً*. فاطر: 43. وسنّة الله هي الحتمية الوحيدة في هذا الكون، والكون كله خاضع لهذه الحتمية بما في ذلك الإنسان.

ولكنّ هناك فارقًا أساسيًا - بالنسبة للإنسان - بين حتمية السنن الربانية، والحتميات المادية والاقتصادية والتاريخية التي يزعمها التفسير المادي للتاريخ.

إن حتمية السنن الربانية لا تفرض سلوكًا قهريًا معينًا على الإنسان، ولا تقع بمعزل عن إرادته، إنما هي تفرض نتائج حتمية على السلوك الذي يتخذه الإنسان باختياره: *ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسَبَتْ أيدي النَّاس ليُذيقهُم بعضَ الذي عَمِلوا لَعَلَّهُم يَرْجِعُون*. الروم: 41. *ولو أنَّ أهْلَ القُرَى آمَنوا واتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركاتٍ مِنَ السَّماءِ والأرضِ ولكنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ*. **الأعراف: 96**»(6).

القرآن يقدم منهجًا متكاملاً

«إن القرآن الكريم يقدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية... وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء، وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود سنن ونواميس تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال»(7).

لا أحد ينكر أن الوحي مرتبط بالواقع، وأن وضع الشرائع إنما هو لمصلحة العباد، ولكن من دون إغفال أن هذه الأمور ترجع في مجملها إلى أصلين ثابتين: القرآن والسنة

نجد «مساحات كبيرة في سور القرآن وآياته، قد خُصِّصت للمسألة التاريخية التي تأخذ أبعادًا واتجاهات مختلفة، وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي الواقعي لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكشافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان»(8).

«وعروض القرآن التاريخية لم تنصب على الأنبياء (كأفراد) فحسب، بل اتجهت إلى الأقوام المختلفة (الجماعات) التي تؤدي دورها الحاسم في حركة التاريخ كذلك»(9).

وأخيرًا يبقى الهدف من إيراد القصص والعروض التاريخية هو: «إثارة الفكر البشري ودفعه إلى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق، وتقديم خلاصات التجارب البشرية عبرًا يسير على هديها أولو الألباب: *قد خَلَتْ مِنْ قبلِكُمْ سُنَنٌ فَسيرُوا في الأَرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ المُكذِّبينَ. هذا بيانٌ للناس وهُدًى وموعظةٌ للمتقين*. **آل عمران: 137- 138**»(10).

هذه باختصار الخطوط العريضة للمنهج أو الرؤية القرآنية لتحليل ودراسة التاريخ البشري. التاريخ الماضي، والحاضر، والمستقبل. وهي رؤية من أهم مميزاتها:

- الواقعية: لأنها تخاطب الإنسان داخل مجتمعه، محاطًا بظروفه..
- الشمولية: لأنها تأخذ بالحسبان جميع المكونات النفسية والمادية والروحية لهذا الإنسان.
- الموضوعية: لأن عناصرها ومفاهيمها لا يمكن أن تُصادَر أو تُوظَّف مذهبيًا (أيديولوجيًا).

وهذا بخلاف المناهج الأخرى التي تبقى قاصرة عن الإحاطة بالإنسان وتاريخه، كما تبقى الأحادية - التركيز على جانب واحد في الإنسان -، والانتقائية - التركيز على حقب معينة في التاريخ - من أهم نقائص هذه المناهج. وهذا ما يميز الأبحاث الموسومة بـ «التاريخانية» و«التاريخية»، التي لا تعترف بوجود شيء خارج إطار الزمان والمكان، على ما بينها من فروق طفيفة.

إسلام واحد لا يتجزأ

يزعم البعض، أن الفكر العربي المعاصر، بدأ الانتقال «من مرحلة عدم المبالاة بالتاريخ الواقعي الأرضي، الذي لا علاقة له بالمستقبل الأخروي، إلى مرحلة الإحساس المتزايد بتاريخية فعالة وقاهرة. من هنا يمكن أن نتحدث عن اكتشاف التاريخية الحديثة... المتعلقة بالوضع البشري في هذا العالم، والمنفصلة عن الرؤية الدينية (الثيوقراطية).. المركزية التي كانت قد ميزت تاريخية الإسلام الأصلي (الكلاسيكي)(11).

«إن إدخال البعد التاريخي في التحليل سوف يضطرنا إلى التفريق بين الإسلام المثالي.. وبين الإسلام التاريخي، المتشكل هو ذاته نتيجة التجاوز والتتابع الزمني للإسلامات الاجتماعية (السوسيولوجية)(12).

وعلى الرغم من التأكيد، بأن التاريخانية «ليست مذهبًا فلسفيًا تأمليًا، وإنما هي موقف أخلاقي يرى في التاريخ - بصفته مجموع الوقائع الإنسانية - مخبرًا للأخلاق وبالتالي للسياسة، إذ لا يُعنى التاريخاني بالحقيقة بقدر ما

النص الإسلامي والقراءة التاريخية

يعنى بالسلوك، بوقفة الفرد بين الأبطال، والتاريخ في نظره هو معرفة عملية أولاً وأخيراً»(13).

وأنها ـ التاريخانية ـ «تقول بأن كل شيء وكل حقيقة تتطور مع التاريخ»(14)، فإنه ينبغي تجاوزها لكي نصل إلى التاريخية التي تسمح وحدها بتجاوز الاستخدام الفكري المذهبي (الأيديولوجي) للتاريخ»(15). «فالتاريخية تتيح لنا أن نبقى دائمًا في مستوى التساؤل، في حين أن التاريخانية تغذي الوهم بوجود اتجاه محدد أو معين، أو معنى وحيد ومعروف للتاريخ»(16).

«إننا ـ بتأمل التاريخية ـ لن نتجمد كما فعل التاريخيون Histori-cistes عند مشكلة صحة النص المشكل في ظل الخليفة عثمان، والنقد التاريخي الخاص به»(17). هذا في الوقت الذي يُعدّ فيه الفكر التاريخاني مرحلة الصدر الأول كلها بأحكامها وشرائعها، مرحلة ملغاة، ومتجاوَزة تاريخيًا.

فليس الإسلام ـ كما جاء على لسان أحدهم ـ: «مجموعة القواعد الفقهية المأخوذة من القرآن والسنّة، كما يفعل المسلمون والمستشرقون على السواء»(18)، وأنه قد «تغلغل فينا الفكر الفقهي حتى أصبحنا لا نعتد بعدم التطبيق، وإن دام قرونًا وقرونًا، معنى ذلك أننا منذ البداية نجعل التاريخ بين قوسين، ونعتبر عمر بن الخطاب معاصراً لنا تمام المعاصرة»(19).

وإذا كانت الدعوة إلى تجاوز التاريخانية، بمواقفها الواضحة تلك، فإن الدعوة إلى تبني التاريخية تنذر بخطر جديد ومرحلة شائكة شديدة الالتواء. فهي تطرح نفسها من خلال النص ذاته، فتتبناه ظاهريًا، وتعمل على نسفه داخليًا، بتوظيف علومه ومعارفه لتأكيد توجهها المادي على حساب الجانب الغيبي(*).

«فقد ظهر التاريخ في هذه العلوم ـ العلوم النقلية: تفسير، حديث، سيرة، فقه ـ كتاريخ للرواية، وتاريخ للنص وتاريخ للتدوين، وليس كتاريخ للشعور أو تاريخ للشعوب»(20). «ففي علوم القرآن تدل أسباب النزول على ارتباط الوحي بالواقع والآية بالتاريخ، فالوحي ليس مُعطى من الله في: «لا زمان ولا مكان»، بل هو تنزيل إلى البشر، وحلول في التاريخ وتوجيه للوقائع وحلول للمشاكل»(21).

«وكان يمكن للأصوليين إدراك أهمية الزمان داخل الوحي وقانون الارتقاء والأهلية، وذلك بتحليلهم موضوع النسخ وهم بصدد الحديث عن الدليل الأول للشرع وهو القرآن»(22). «فالشرع ـ حينما كان ينزل به جبريل عليه السلام على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ليس ثابتًا دائمًا أبديًا لا يتغير، بل يواكب التشريع تطور المجتمعات وتغير الواقع»(23). «فالواقع يفرض نفسه على الفكر، والمصلحة تفرض نفسها على القانون، والتطور يفرض نفسه على الثبات، والتقدم جوهر الزمان، وتلك هي غيبية (ميتافيزيقا) التاريخ»(24).

«كان يمكن للتاريخ أن يظهر من خلال الأصل الثالث وهو الإجماع... وإن عدم التزام كل عصر إجماع العصر الذي سبقه، لَيعطي دفعة جديدة للتاريخ، ويؤكد عنصر التجدد الدائم فيه»(25).

و«كان يمكن إعادة النظر في ترتيب الأدلة الأربعة، والبداية بالاجتهاد، أي بالواقع وحياة الناس. ثم بالأمة والجماعة كذاتية أكبر... وبدلاً من الانتقال من النص إلى الواقع يتم الذهاب من الواقع إلى النص، فينشأ علم التاريخ كعلم استقرائي، ولا ينشأ من نصوص مكتوبة تخضع لتأويل اللغة واختلاف التفسيرات..»(26).

هذه النصوص السابقة ترمي في الجملة إلى إعطاء الأسبقية للواقع على النص، للعقل على النقل. وكما ترى من خلال النص ذاته.

فلا أحد ينكر أن الوحي مرتبط بالواقع، وأن النسخ، وأسباب النزول والاجتهاد.. إلخ، أمور تعالج حركة المجتمع. وأن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد. لكن من دون إغفال أن هذه الأمور ترجع في مجملها إلى أصلين ثابتين، هما: الكتاب والسنّة، وأنها منهما تستمد وجودها. وأن حركة التطور ينبغي أن تقاس بتعاليم الإسلام، لا أن يقاس الإسلام بحركة المجتمعات. وإلا أصبح عندنا في ظل «التاريخية» إسلامات متعددة، يمكن حصرها في الإسلام المثالي= المُوحَى، والإسلام التاريخي= الوضعي، البشري، الاجتماعي..

فالأول تجريدي مفارق، والثاني واقعي بشري، ومن ثم، وجب التخلي عن الأول والاهتمام بالثاني. ولا أدري بأي معنى يتم الحديث عن «الإسلام المجتمع» إذا تم استبعاد «الإسلام الوحي»، إلا أن يلزم من نفي الأصل بقاء الفرع؟. ثم لا نعلم من وراء هذا كله إسلامًا، إلا ما ارتضاه الله لعباده دينًا: *ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ دينًا*. **المائدة**: 3. *إن الدين عند الله الإسلام*. **آل عمران**: 19. *ومن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ*. **آل عمران**: 85.

وأخيراً، لابد من وضع هذه الأمور في إطارها الإسلامي الكلي بدلاً من بتره وتجزيئه، فحركة المجتمعات محاصرة بالغيب بدءًا وانتهاءً.

ذلك أن مصدرها إلهي غيبي، ونهايتها حقيقة أخروية غيبية كذلك. فالغيب إذن ركن ركين في أية معرفة إسلامية، وليس هذا قدحًا في واقعيته أبدًا، لأن الواقع بما فيه هو أول الطرق الموصلة إلى الإيمان والاقتناع بهذا الغيب.

الهوامش:

1ـ الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة بيروت، ط 2، 1985م، ص66، 67.

2ـ4ـ حسن الضيقة، تجربة الكتابة التاريخية الماركسية، قراءة في أزمة المنهج والنظرية، كتاب الفكر العربي 1، ط1، 1981م، معهد الإنماء العربي، ص15، 16، 15.

5ـ عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، ط3، 1981م، ص 14،15.

6ـ محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط2، 1407هـ ـ 1987م، ص407.

7ـ عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ ص8 ـ 9. يشير الكاتب هنا إلى محاولة ابن خلدون الرائدة في هذا المجال، الأمر الذي حدا بمعظم المفكرين إلى عدّه أول من مارس هذا المنهج، مع اشتمال القرآن على خيوطه وعناصره كافة. وأجحف بعضهم في عدّه ممهداً للفكر المادي الماركسي، وآخرون لنظرية التطور الداروينية...إلخ. هذا في الوقت الذي يؤكد فيه الباحث هنري لاووست Henri Laoust أن ابن خلدون أسس منظومته الفكرية في مختلف مجالاتها على الكتاب والسنّة؛ «فمن القرآن يستقي ابن خلدون.. وبعد القرآن يعتمد على السنّة. إنه يعرف سلطة الكتب الستّة». وهو ما تؤكده بالفعل أبواب المقدمة وفصولها. انظر = La pensee politique d'Ibn Khaldoun pages : 461 - 462 في أعمال ندوة ابن خلدون، منشورات كلية الآداب بالرباط، ص14 ـ 17.

8ـ10ـ عماد الدين خليل، مرجع سابق، ص5، 102، 106.

11ـ12ـ محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، مركز الإنماء القومي، 1987م، ترجمة هاشم صالح، ص135، 115.

13ـ عبدالله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط1، 1983م، ص16.

14ـ17ـ محمد أركون، الفكر الإسلامي، ص 139 (هامش رقم 14)، 117، 125.

18ـ 19ـ عبدالله العروي، العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي، ط 2، 1985م، ص 156، 157 (هامش رقم 15).

(*) في هذا الإطار تندرج كل القراءات اليسارية الجديدة للتاريخ والتراث الإسلاميين.

20ـ26ـ حسن حنفي، دراسات إسلامية، دار التنوير، ط1، 1982م، 336، 334، 335.

الاحتكام إلى النص الشعري

د. عبدالله التطاوي

اتّهام درجنا على ترديده، وقبوله، والاستسلام له، والتنادي به، حتى أصبح كأنه مسلمة نقدية - أو قريبًا من ذلك - في حقل الدرس الأدبي، فترانا نصمت أمام القول بأن القصيدة العربية القديمة ممزّقة عضويًا أو موضوعيًا، وكأنما فقدت لَبِناتٍ من معمارها الفني، وتجاوزت حد السياق النفسي الواحد إلى مساقات تبدو متباينة متعددة، وربما متناقضة، حتى ليمكن انتزاع البيت منها من دون خلل يصيبها معنًى أو صورة، وكذلك ما يجوز من التغيير في ترتيب أبياتها من دون إرباك ملموس، وقياسًا عليه يمكن الإضافة إليها بما قد لا يتجانس معها، أو لا يتسق مع مساقاتها إلا من حيث الأداء الشكلي فحسب.

ويظل محك الاتهام هنا مشكلةً تخص بنية القصيدة عبر رحلة شعرنا القديم، وربما شارك في تبيّنها ذلك التشبث بالترويج لتيارات الشعر المعاصر، وكأنه - وهذه مغالطة - لابد أن يعيش على حسابات موت القديم، أو لابد أن يظل ثباته - من واقع هذه المغالطة - على أساس من تدني القديم ورفضه.

وربما شارك في إذاعة هذه المقولة والترويج لها - مقولة افتقاد الوحدة العضوية - فريق من أصحاب مناهج التعليم المدرسي يوم أن رسّخوا في ذهن الدارس من خلال اختياراتهم الشعرية إمكان أن يدرس كمًّا من أبيات قصيدة طويلة تحت مسمى «عنواني» يُوضع لها من قِبَل من قام على اختيارها، وينتهي الأمر إلى طرح قضايا غاية في الخطر من هذا المنظور الفني، أو - بمعنى أدق - غير الفني. فإذا ضاق الأمر بالمؤلف - على مستوى الموضوع - لم يتورع أن ينتزع أبياتًا - مثلاً - في الزهد لأبي نواس، وكأنه لم يجد في دواوين الشعر العربي - وما أكثرها - سوى أبيات ختم بها الشاعر إحدى خمرياته، وعندئذ يوقع المتلقّي في وَهْم أن أبا نواس كان زاهدًا في عصره، وما كان الرجل كذلك على الإطلاق. ولو أن الباحث استقرأ سيرته، واستقصى قصة حياته، وسبر أغوار أخباره، واستغرقته قراءة ديوانه لخرج بنتيجة أخرى مؤكدة، خلاصتها أن الشاعر كان شعوبيًا، وزنديقًا ماجنًا، له في سلم اللهو والعربدة ما فاق به كل شباب عصره، حتى حمل لواء الزعامة لهم في هذه الاتجاهات كلها، وما كان زاهدًا - بحال - حتى وإن أعلن توبته مرددة عبر بعض أبياته، فهي مجرد لحظات ندم مؤقتة سرعان ما ينفلت منها - متجاهلاً ومتعاميًا عنها - إلى حانات الخمر سعيًا وراء مادة عالمه الذي يجد فيه ذاته من واقع عربدة السكارى وعبث المخمورين فحسب.

وهنا لا يصبح من حقنا أن نجتزئ في إصدار الأحكام كمًّا من الأبيات، أو أن نتغافل عن القاعدة لنأخذ بالاستثناء، خاصة إذا تراءت لنا صحائف سوابق أبي نواس - مثلاً - وقد غشتها النقاط السوداء المحسوبة عليه، بما لا يسهل محوه بأبيات تمثل - مجرد تمثيل - لحظة تراجع - أو لحظات - عارضة. سرعان ما ندم الشاعر فيها على ندمه! عودًا إلى سيرته الأولى التي يحن إليها من أعماق ذاته، وكأنه لا يعيش إلا من خلالها(1). ومثل هذا الخطأ يقع ويتكرر في مواقف مضادة، كأن يتوقف درس أدبي عند حد التشكيك في زهد شاعر آخر مثل أبي العتاهية بصرف النظر عن معاصرته لأبي نواس، حيث تبدو مواد التشكيك مطروحة على المستوى النظري أكثر من سواه، لمجرد ورود مواقف وآراء يجعل بعضها من زهد أبي العتاهية «أسطورة» ليس لها رصيد على أرض الواقع، أو يتوقف بعض منها عند مرحلة مجونه وعربدته قبل توبته النصوح التي عُرفت عنه، وغيّرت مسار حياته، أو ما يتردد لدى غيرها من اتهامه في مصادر زهده انتماءً من خلالها إلى أصول غير إسلامية، وهي اتهامات يسهل ترديدها إذا لم نحتكم إلى ديوان الشاعر في مجمله وعبر قراءة تفاصيله، ومن خلال تعدد قراءتنا له، فلعل ديوانه يعكس غلبة المسلك، أو يكشف طبيعة الاتجاه، من دون السماح بتأكيد فرية عليه من خلال أيٍّ من الصور المفتعلة حوله(2).

فإن ثبت أنه شُغل بالتثليث المسيحي أو قال بالثنوية المجوسية، أو بفكرة تعذيب الجسد، أو الخطيئة، أو الرهبنة أو تحريم الطيبات على النفس، أو ترديد فكرة المَطْهر، أو الجنوح إلى العزلة المطلقة عن البشر، أو استساغه التسول مسلكًا، أو التواكل والتكاسل عن العمل، أقمنا عليه الحجة، ورفضنا صدق إسلامية زهده، أما إذا نطق الديوان بغير ذلك، أو سجل حرص مبدعه على تأكيد قضية «التوحيد» الإلهي، أو الانشغال بالبحث عن أدلة عقلية قطعية تدل عليها، أو الانشغال بقضية المصير والخوف من اليوم الآخر أمام مشاهد البعث والحساب والجنة والنار، أو الترقب الدائم للحظة الموت وتصوير سكراته، أو اتخاذ تاريخ الأمم السابقة والقصص الديني مادة وعظية تنتهي به - بوصفه زاهدًا - إلى الاعتبار بماضي تلك الأمم، وما كان من صور الغضب الإلهي عليها وإهلاكها، أو التوقف عند قضية «الأرزاق» بحسبانها قدرًا إلهيًا يستدعي العمل والقناعة دون تكفُّف الناس، أو إراقة ماء الوجه على أعتابهم، أو

إلى ندمه في نهاية كل مجلس خمريّ، كما نسب إليه - فنيًا - دور المجدد الأول في العصر العباسي من خلال قياسات تحتاج أيضًا إلى إعادة نظر وتأمل، وإن كانت - نقديًا - بدت غير متوازنة، وإن توازنت بدت أحادية الرؤية؛ لأنها تغفل ما قبل تاريخ الشاعر من نماذج تجديدية رائعة خلَّفتها العصور الأولى منذ العصر الجاهلي ذاته عبر حركة الصعاليك المبكرة، فلم يكن أبو نواس هو الرائد الأول الذي تنكب طريق التجديد كما نُسب إليه وأُلحق به، ولا كانت الوحدة العضوية التي تميزت بها إبداعاته الشعرية بدءًا لديه من فراغ؛ فقد سُبق إليها مرارًا عبر منظومات القدماء بين مقطوعات ومطوَّلات، سواء ما نظم منها بمقدمات أو ما جاء منها بلا مقدمات، ومع هذا حَسُنَ حظ الرجل في ميزان النقد، كما ساء حظ غيره من أسلافه، على نحو ما عُرف عن الشاعر الأموي الضخم ذي الرمة غيلان بن عقبة (شاعر الحب والصحراء)، وما كان من تساؤل الرجل الدائب حول موقعه بين الفحول؟ ولماذا لم يُعَدّ

فإذا بَخل «ذو الرمة» على ممدوحه إلا بقليل من الأبيات مهما طالت قصيدته فقد استصفى الشاعر ذاته بقية القصيدة، وإذا خلص أبو نواس إلى مجالس ندمائه فقد خلا إلى جوهر تجربته، فلم يُشغل - نفسيًا - بغيرهم، وهو ما يجعل خواتيم قصائده نمطًا دخيلاً على التجربة التي تبدو مسيرتها واحدة إلا في تنافرها مع تلك الخواتيم. وإذا توقف أبو العتاهية عن زهده انطلق من منبع هذا التوحد الذي لم يكد يحيد عنه بحال، فهو يوظف كل ما يراه في قضية زهده حتى أصابه سوء الحظ منذ تحداه مسلم بن الوليد قائلاً:

«والله لو أردت أن أقول مثل قولك: لبيك إن الحمد لك.. لبيك لا شريك لك.. لبيك إن الملك لك، لقلت في اليوم الواحد عشرة آلاف بيت، ولكني أقول:

موفٍ على مُهجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ
كأنه أجَلٌ يسعى إلى أمَلِ

ونسي مسلم أنه ظلم قرينه مرتين:

أولاهما: حين تجاهل حقيقة الحد الفاصل بين المادح والزاهد، فلا وجه للشبه بين النقيضين بأيٍ من المقاييس المقبولة أخلاقيًا أو فنيًا.

والثانية: حين تغافل - أي مسلم - عن دوره كمؤسس لمدرسة البديع العباسية منذ شغل بانتقاء ألفاظه في أنساق بديعية منتقاة، وصياغة صوره في أطر تلك الأنساق المنمقة، فكيف له بتحدي زاهد لم يشغل من فنه إلا بجمهوره من العامة قبل الخاصة، مما يدفعه - بالتأكيد - إلى إيثار البساطة والوضوح، وسهولة الأداء، والحرص على التقريرية والمباشرة، وترجيح المنطق الخطابيّ، مما لا يدل - مطلقًا - على ضعف في ملكته، ولا قصور في مصادر شاعريته، وكيف يتوافق هذا الاتهام مع ماضي الشاعر الفني ورصيده القديم في قصر الخلافة ذاته.

هكذا يبدو أبو العتاهية وقد ظُلمَ مرة بقياس عصره وأحكام قرينه عليه، ومرات أخرى بقياس الدراسات التي نالت من زهده حين شكَّكت في مصادره وسلامة مسلكه، كما يبدو أبو نواس خارج حلبة الظلم هذه، بل - على العكس - وجد إنصافًا تجاوز حقيقة حياته وسياج عالمه الفعلي حتى أُسند إليه أنه زاهد!

وقد تُرَدُّ العلَّة وراء مثل هذا الخلط بين الأوراق المتناقضة إلى السرعة في إصدار الأحكام من دون استقصاء من وراء الديوان الذي يجب أن يظل الحَكَم الفيصل للشاعر أو عليه، وهو ما جنى من قَبْلِ هذين الشاعرين على ذي الرمة الذي لم يجد في عصره إنصافًا، وإن وجده في عصرنا بعد ثلاثة عشر قرنًا من رحيله(4).

أسند النقاد إلى أبي نواس من الزهد ما لم يكن له على وجه الحقيقة أو السلوك، كما نسبوا إليه - فنيا - دور المجدد في العصر العباسي، مع أنه ليس الرائد الأول لحركة التجديد

رفض صور الرهبنة والانقطاع عن الزواج والإنجاب. أما أن يكتفى من الحياة بأقل ما فيها من صور العيش فهذا أمر آخر يستحق التأمل والمراجعة، فإن أعطانا ديوان الشاعر مقومات مثل هذا السلوك في صفاته ونقائه - وهو يعطيها بالفعل - أمكن تبرئة الشاعر من أي من هذه الاتهامات، على الرغم من كثرة ترديدها، خاصة إذا احتكمنا - وهذا وارد أيضًا - إلى ما رُوي عن رفض الشاعر مرارًا أن يعود إلى قصر الخلافة مادحًا، فقد اتخذ من زهده مسلكًا لا يتراجع عنه ولا يرد إلا إليه، ومن ثم بدا الرجل وقد ظُلم حين وُضع في سلة واحدة مع أبي نواس أو مطيع بن إياس أو الحسين بن الضحاك وأمثالهم من خلعاء عصره.

وهكذا يبدو التناقض واضحًا بين إصدار الأحكام لصالح أبي نواس وضد أبي العتاهية، فمن الواضح أنها تصدر بعيدًا من الاستقراء الكامل لديوان أيٍّ منهما، وربما صدرت بلا قرائن مؤكدة للحكم ذاته، وإلا فقد تجاوزت حدّ الحيدة وموضوعية الالتزام في إصدار الحكم على الشاعر. لقد أُسند إلى أبي نواس من الزهد ما لم يكن له على وجه الحقيقة والسلوك، إلا أن يتردد ما يشير

منهم؟ وكانت إجابة عصره من خلال أخلائّه حول عجزه عن اللحاق بفحول المديح ممن أجادوا النفاق، فأحالوا الإبداع إلى سلعة تباع وتشترى على أعتاب الخلفاء، فإذا ما جرب الرجل حظه مادحًا في بلاط هشام بن عبدالملك بن مروان أطال في تصوير ناقته وصحرائه حتى ضاق به الممدوح فأحاله - ساخرًا منه - إلى ناقته ليأخذ منها الثواب!!.

وعند ذي الرمة يتضح هذا الترابط العضوي الذي يشد بنية القصيدة انطلاقًا من ذلك التوحُّد النفسي الذي يصدر عنه، ولم يتراجع عنه بحال حتى وإن انتهى الأمر بطرده من عالم المادحين، وهو الترابط الذي ظهر بعد ذلك في شعر أبي نواس أو أبي العتاهية، على تناقض موضوعات التجارب وطبيعة النظم بينهما، وعلى تباين مستويات السلوك لدى كل منهما عبر الشطر الثاني من حياته، إذ تظل القصيدة في سياق نفسيّ واحد لا تكاد تحيد عنه حين تأخذ جزئياتها بعضها بعناق بعض، مما ينتهي بها إلى ضرب من التلاقي النفسي الذي يعد خطوة أولى وضرورية من خطى تحقيق ذلك التوحد العضوي للقصيدة ككل(3).

وبعد.. فماذا لو بدأنا من النص؟ ألا يعد الصدور عنه ضمانًا لقدر مُطمئن من الحيدة والتزام الموضوعية؟ ومن ثم ضمان صدق الأحكام؟ خاصة أن النص قريب - بالتأكيد - من صاحبه، أمّا القول بالمفارقات بين الشاعر وإبداعه، فأظنها ستظل - بدورها - مقولة قابلة للمراجعة، والتراجع، أو المناقشة والرفض. فإذا بدأنا من ديوان ذي الرمة تراءت لنا ذات الشاعر وقد توحدت مع الصحراء والناقة، ولم تستسغ مثل هذا التوحد مع الممدوح، كما كان الأمر لدى غيره ممن أجادوا هذا الفن، ولا أن يتسق مع الموقف الاجتماعي على المستوى البلاطي أمام حاشيته ونقاده. وإذا احتكمنا إلى ديوان أبي نواس بان لنا أمران:

أولهما: أن الرجل لم يكن زاهدًا يمكن أن نضرب المثل بزهده وورعه لمجرد ما نظمه من بعض أبياته في «العفو الإلهي» بقدر ما تظل دالة على تمكن مذهب المرجئة من نفسه أكثر من أي اعتبار ديني آخر. ومعروف أن مذهب المرجئة قد تفشّى بين شباب العصر منذ رَسَّخ له فريق من شعراء عصر بني أمية(5).

والثاني: أن الشاعر لم يكن صاحب أول صوت تجديدي حقق للقصيدة العربية وحدتها وتماسكها الفني، فقد سُبِقَ إلى مثل هذا الصوت منذ المراحل الأولى التي اكتملت فيها صورة القصيدة منذ عصر الجاهلية ذاته(6).

وإذا احتكمنا إلى ديوان أبي العتاهية تراءت لنا صورة الرجل الزاهد المشغول بقضايا «المصير» و«الموت» و«الأرزاق» و«العبادات» والانصراف عن فتن الدنيا وزخرفها بعد أن تجاهل المرحلة الأولى من حياته، وظل قريبًا من نائحات العصر يُذكِّرنَهُ بالموت، خشية أن تجذبه إليها مغريات الدنيا وفتنتها. وقس على هذا الاحتكام ما يمكن أن يعدل الأحكام الصادرة - قبل المداولة - على كثير من شعرائنا؛ كأن يصدر الحكم على البحتري - مثلاً - بالشعوبية لمجرد وقفته على «إيوان كسرى» على الرغم من أن الرجل أعلن صراحة أنه ما شغلَ إلا بالبحث عن ضالته النفسية عبر بقايا الإيوان، أو بتعبيرنا النقدي راح يبحث عن «معادل موضوعي» لتجربته النفسية، فما شغله من الديوان فارسيته بقدر ما شغله أمر تلك الدلالة النفسية فحسب(7).

وهو المنطلق نفسه الذي يمكن أن ينسحب على أبي تمام حين اتُّهم بأنه كسر عمود الشعر العربي، مما قد ينتهي به إلى غموض الصورة أو الاستغراق في التكلف، أو تعقيد الصياغة، وغرابة الصنعة، ولعل قراءة ديوانه - على اعترافنا بالكد الذهني الواضح في إبداعه - تكشف لنا أن الشاعر كان شديد القرب من المادة الموروثة، وكل ما هنالك أنه طوَّعها لإبداعه حين أضاف إليها من ثقافته المتنوعة، فأخرج منها مزيجًا جديدًا يجمع بين الفكر والشعور، ومن ثم راح يجمع بين الموروث والحضاري في تزاوج رائع لم يَحِدْ عنه في شعره، وما خرج الرجل على روح القصيدة العربية، ولا تطاول عليها ليكسر عمودها، بقدر ما أضاف إليه، وعدّل من مساره اتساقًا مع روح عصره، وانطلاقًا من مصادر فكره ومقومات ثقافته، وهو أمر مسوَّغ يُحسب للشاعر لا عليه(8).

ولعل مزيدًا من القراءة الهادئة في دواوين شعرائنا قد تنتهي بنا إلى مطلب إنعام النظر مرة أخرى - وربما مرات عديدة - فيما صدر - لهم أو عليهم - من أحكام توارت حينًا خلف الأخبار والمرويات، وأحيانًا خلف الفرضيات والمواقف الظنية والاحتمالات، مما يظل في حاجة إلى مزيد من التمحيص والمراجعة. فلعل العودة إلى التأمل تظل دافعًا لتصحيح الأحكام من خلال البدء من النص والانتهاء إليه.

والآن.. دعنا نتأمل ما بدأنا به الحوار من إشكالية الزعم بتوافر الوحدة العضوية في قصيدتنا القديمة بعد أن اتُّهِمَت بغيابها؛ ولعل تجربة الشاعر تبدو حَكَمًا من خلال قراءة إبداعه الذي صيغت في إطاره، ليبَين لنا طبيعة الخط النفسي رابطًا بين مواد التصوير التي قد تبدو لأول قراءة مفككة، وعلينا - آنذاك - أن نحاول استكشاف ذلك الخيط الرفيع الذي يشد كل جزئياتها، لتتراءى لنا القصيدة في أشد صورها تمزقًا - من حيث الظاهر - قسمة مشتركة وواعية بين «الأنا» و«الآخر» وهي القسمة التي ستنتهي بنا - بالضرورة - إلى الاعتراف بذلك التوحد الموضوعي السائد بين جزئياتها(9).

وإذا كانت بعض الدراسات الغربية قد سارت نحو تسجيل اعتراف أصحابها بوجود هذا التوحد العضوي لقصيدة المدح التي نالت من الاتهامات لدينا الكثير(10)، فما بالنا بالقصيدة عبر بقية الموضوعات الشعرية، ما أظنها إلا ستبدو موحدة من داخلها، دالة على طبيعة التجربة الشعرية التي صدرت عنها وصوَّرتها في حدود إبداع صاحبها ومُقَدَّراته الفنية.

هوامش ومتابعات:

1- تراجع في تحليل موقف أبي نواس دراسات كثيرة، منها: الحسن بن هانئ للأستاذ العقاد، وحديث الأربعاء لطه حسين، والثابت والمتحول لأدونيس، وأبو نواس بين التخطي والالتزام لعلي شلق، والشعر والشعراء في العصر العباسي للدكتور مصطفى الشكعة، ودراسات في الشعر العباسي للدكتور علي الزيدي، والشعر العباسي: الرؤية والفن للدكتور عزالدين إسماعيل، والعصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف، والشعر العباسي: نحو منهج جديد للدكتور يوسف خليف.

2- وتراجع الاتهامات التي وُجِّهت إلى زهد أبي العتاهية ضمن ما كتبه الدكتور محمد عبدالعزيز الكفراوي حول «أسطورة الزهد عند أبي العتاهية»، وحديث الأربعاء للدكتور طه حسين، وكذا من حديث الشعر والنثر له أيضًا، ودراسات في الأدب الإسلامي للأستاذ محمد خلف الله أحمد. كما تراجع الدراسات التي شغلت بالشاعر وزهده بعامة أو من منطلق الدفاع عنه كما ورد في تحقيق الديوان للدكتور محمود الدش، ولدى الدكتور شكري فيصل في دراسته لأشعاره وأخباره، والدكتور يوسف خليف في حياة الشعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثاني الهجري، والدكتور شوقي ضيف في العصر العباسي الأول.

3- يُنظَر في تبني ظاهرة الوحدة الموضوعية كتاب الدكتور نورى القيسي حول وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، والعصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف، وتاريخ الآداب العربية حتى نهاية العصر الأموي لكارل نلينو، ودراسات في الشعر الجاهلي للدكتور يوسف خليف، والشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه للدكتور محمد النويهي، والأدب الجاهلي للدكتور علي الجندي، والأصول الفنية للشعر الجاهلي للدكتور سعد شلبي، والقصيدة الجاهلية في المفضليات للدكتوره مي يوسف خليف.

4- نقصد بذلك الدراسة التي نهض بها الدكتور يوسف خليف بعنوان «ذو الرمة: شاعر الحب والصحراء» وفيها تجاوز مقولة الدكتور طه حسين من أن ذا الرمة يمثل صخرة الشعر العربي التي يصعب تحطيمها أو الاقتراب منها.

5- وقد لاقى مذهب المرجئة هجومًا شديدًا من قِبل بعض الشعراء حتى قرنه بالإلحاد، كما نظم نصر بن سيّار حين قال عن الفرقة من هذه الزاوية:

إرجاؤكم لزّكم والشِّركَ في قَرَن
فأنتُم أهل إشراك ومُرْجُونا

6- وهنا يمكن الاستناد إلى التجديد في شعر طائفة مثل الصعاليك، ثم ما أصاب القصيدة العربية من تغاير في الإيقاع مع مجدِّدي عصري صدر الإسلام وبني أمية من دون انتظار لأن يكون أبو نواس هو صاحب الصوت الأول في هذا السياق.

7- ذلك أن البحتري قد أعلن أنه ليس فارسي الهوى ولا الانتماء حين قال في السينية ذاتها:

ذاك عندي وليست الدار داري
باقترابٍ منها ولا الجنسُ جنسي

ثم أردفها برؤيته لدور الفرس أو غيرهم:

وأراني من بَعدُ أكْلَف بالأشـ
ـرافِ طرًا من كل سِنْخٍ وأسّ

ويمكن الرجوع إلى الموازنة بين سينية البحتري والخاقاني للدكتور عبدالسلام فهمي، وكذلك الدراسة التحليلية للسينية بين الواقع النفسي والمعارضة لكاتب هذه السطور، وكذلك كتاب المعارضة الشعرية بين التقليد والإبداع للمؤلف نفسه.

8- يُنظر في طرح هذه الإشكالية كتاب عبقرية أبي تمام للأستاذ عبدالعزيز سيد الأهل، وكتاب أبي تمام الطائي للدكتور محمد نجيب البهبيتي، ومقال الدكتور حسين نصار بعنوان التجديد الثقافي عند أبي تمام ضمن كتاب حركات التجديد في الشعر العربي (قسم اللغة العربية بآداب القاهرة)، ومقال الدكتور النعمان القاضي حول جدل أبي تمام، ودراسة الدكتور يوسف خليف حول تاريخ الشعر العباسي، والدكتور شوقي ضيف في العصر العباسي الأول، والمؤلف في كتابه مصادر الفكر في شعر أبي تمام، ثم كتاب أشكال الصراع في القصيدة العربية (الجزء الثالث).

9- تحسن الإشارة هنا إلى محاولة «ستيفان سبيرد» في استكشاف التوحد الموضوعي والمفارقات في القصيدة العربية تحت عنوان: الدولة الإسلامية وشعر المدح في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري)، وهو مدرج ضمن مجلة الأدب العربي عدد (8)، وقام على ترجمته كاتب هذا المقال ضمن كتاب «مقدمات نقدية في دراسة القصيدة القديمة».

10- كثرت هذه الاتهامات عبر عديد من الدراسات التي شغلت بقصيدة المدح بوجه عام على طريقة الدكتور وهب رومية في قصيدة المدح الأموية، والدكتور درويش الجندي في «ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي»، وقبل ذلك معركة الكبار حول هذه القصيدة على نحو مما عرضه الأستاذ أحمد أمين من «جناية المدح على الأدب العربي» ضمن مقالاته التي تبنى الرد عليه فيها الدكتور زكي مبارك في مقالاته بعنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربي»، وقد قام الدكتور رشيد خريس بجمعها في كتاب يحمل العنوان نفسه.

قصة قصيدة

بناتنا... أكبادنا تمشي على الأرض

د. محمود جبر الربداوي

قال حِطَّان بن المُعَلَّى:(1)

أنزلني الدهر على حكمه	من شاهقٍ عالٍ إلى خفضِ
أبكاني الدهر ويا ربّما	أضحكني الدهر بما يُرضي
وغالني الدهر بوَفْر الغنى	فليس لي مالٌ سوى عِرضي
لولا بُنياتٌ كزُغب القطا(2)	رددنَ من بعضٍ إلى بعضِ
لكان لي مُضطَّربٌ(3) واسعٌ	في الأرض ذاتِ الطول والعَرض
وإنما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبّتِ الريحُ على بعضهم	لامتنَعَتْ عيني عن الغمضِ

نعم أولادنا أكبادنا؛ لأنهم القطعة الغالية من أنفسنا، ولأنهم الامتداد الطبيعي لأشخاصنا، فيهم يستمر النوع، وفيهم تتواصل الأجيال، ومنهم يعمر الكون بالجنس البشري. وبوجود الأولاد تزدهر الحياة، وتزهو الأرض، وتبتهج الدنيا. وبغيابهم يغيب الفرح، وتكفهرّ الحياة، ويعم التشاؤم. بهذا قضتْ حكمة الله، وبهذا تواصلتْ سُنة الكون، وعلى حب الأولاد درجتْ البشرية منذ فجرها، وما من مخلوق مهما كان نوعه إلا ويحب أولاده؛ لأن حبه لأولاده ينسجم مع نواميس الحياة، ولولا هذا الحب لتعطلتْ نواميس الخليقة ولتوقفت مسيرة التطور.

يولد المرء صغيرًا فتحفه رعاية والديه بالعناية حتى يكبر، فإذا كبر صار له صغار تولاّهم بدوره بالعناية حتى يبلغوا أشُدّهم، وهكذا. دور يؤديه الكبير تجاه الصغير على مسرح الحياة، ويتكرر بالصورة ذاتها أو بقريب منها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قد يتفاوت الناس في مقدار الشحنة العاطفية التي تكمن فيهم تجاه أطفالهم، ولكنْ قلما يخلو منها أحد، وتتفاوت طاقة الحنان على أولادهم من زمن لآخر، وتترجَّح صعودًا وهبوطًا بحُكم الظروف البيئية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية، كما تتفاوت صعودًا وهبوطًا بحسب طبيعة جنس الأولاد بين ذكور وإناث. ولأن الأولاد الذكور هم الأكثر قدرة على مجابهة الحياة ومتطلباتها، فإن عاطفة الحنان عند الأبوين تتجه لأولادهم من الإناث بحُكم ضعف بعضهن على مواجهة مشكلات الحياة وتعقيداتها، وبحكم تكوينهنّ الأنثوي الرقيق، فهن أحق بالحنان وأولى بالرحمة، وخاصةً في المجتمعات التي تكون فيها السيادة والسعادة للقوة كالمجتمع الذي عرفناه للعرب في جاهليتهم، حيث الاقتتال على وسائل العيش الشحيحة، وضعف الوازع الإنساني والأخلاقي، فلذا: *وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم*. **النحل**: 58. فلذا يقرّر: *أيمسكه على هُون أم يدسه في التراب*. **النحل**: 59. صحيحٌ أن ظاهرة وأد البنات كانت مقصورة على قبائل معيَّنة في ظروف معينة، ولكنها تظل ظاهرة مجافية للمشاعر الإنسانية والقيم الأخلاقية، هذه المشاعر التي هذّبها الإسلام، فنعى على القاسية قلوبهم سوءَ صنعهم، واستبدل بالقسوة رحمة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له سترًا من النار»، وقال: «مَن عال جاريتين حتى تبلُغا جاء يوم القيامة وأنا وهو - وضم أصابعه -»(1).

وما لنا ذهبنا بعيدًا في المقدمة لهذه الأبيات المنسوبة لحطان بن المعلى، ألأن الناس يعرفون مقطوعته هذه أم يعرفون بعضها؟ لأن المقطوعة(2) ليست ببعيدة من أذهان المثقفين ثقافة تراثية، ولقد رُزق البيت:

وإنما أولادنا بيننا

أكبادنا تمشي على الأرض

من السيرورة ما جعل القاصي والداني يردده، وإن لم يعلم صاحبه.

وقبل أن أشرع في التعقيب على هذه المقطوعة أودّ أن أقف عند ملاحظة تتلخص بأن حطان بن المعلى، يتبدّى لنا من خلال الأبيات، رجلاً موسرًا ثم انقلبتْ به الحال إلى الفقر، وقد ضنّت المصادر علينا بترجمة لهذا الشاعر، وهذا يقودني إلى أن أقف عند لفظة تكررت ثلاث مرات في الأبيات الثلاثة في مطلع هذه المقطوعة، وهي لفظة «الدهر»، وهذه اللفظة لها دلالة خاصة عند بعض ذوي الفكر، وعند الشعراء بشكل أخص، فالشعراء ككثير من الناس، يعلّقون مصائبهم على مشجب الدهر، وهي مقولة صدع بها العرب في جاهليتهم عندما قالوا: *وما يهلكنا إلا الدهر*. **الجاثية**: 24. ومع أن الإسلام صحَّح للعرب مفهومهم

الخاطئ عن الدهر، إلا أن بعض الطوائف المنحرفة عادت إلى مفهوم الدهر القديم وألبسته ثوبًا فلسفيًا جديدًا في العصر العباسي؛ فنشأت فرقة تمحورت فلسفتها حول الدهر سُمِّيت (بالدهرية). وحتى في العصر الحاضر عاد مفهوم الدهر وأطل برأسه من جديد ولكن تحت تسميات علمانية، وتقمص نظريات حديثة نادى بها علماء مرموقون، ولكن الخوض في الحديث عن الدهر والزمان والنشوء والارتقاء يخرجنا عن طبيعة هذه الحلقة.

غير أننا إذا أخذنا الأبيات في مجملها ألفيناها تتحدث عن تعلق الوالد بأولاده وخاصة إذا كان الأولاد إناثًا صغيرات السن، فخوف الوالد عليهن يقعده عن أن يضرب في أرض الله الواسعة طولاً وعرضًا يبتغي الرزق، ولكنّ خشيته على بناته الصغيرات من عاديات الدهر عليه وعليهن أن تتركهن يتيمات يترددن إلى بيوت الناس هو الذي جعله يحرص على الحياة، ويحرص على أن يظل بقربهن يوفر لهن الحماية التي تحتاج إليها الأنثى والعيش الكريم الذي تطمح إليه المرأة الشريفة، وهذا الذي جال في نفس الشاعر الآخر حين قال(3):

لقد زاد الحياة إلي حبًا
بناتي، إنهن من الضعاف
مخافة أن يرين البؤس بعدي
وأن يشربنَ رنْقًا(4) بعد صافي
وأن يعرين إن كُسيَ الجواري
فيبدي الضر عن رِمَم عجاف
وأن يضطرهن الدهرُ بعدي
إلى فحمٍ غليظ القلب جافِ
ولولاهن قد أبصرتُ رشدي
وفي الرحمن للضعفاء كافِ
أبانا مَن لنا إن غبتَ عنا
وصار الحي بعدك في اختلاف؟

وقد ذهب الخوف على الفتاة ببعض الرجال أن يتمنى لابنته - على محبته لها وعطفه عليها - الموت لكيلا يتركها يتيمة ذليلة تقرع أبواب الأقارب والأباعد ابتغاء ما يمسك رمقها ويكسو عُريها، ولنستمع إلى إسحق بن خلف(5) يعبّر عن مثل هذا إذ يقول:

لولا أميمة لم أجزع من العَدَم
ولم أجُبْ في الدياجي حندس الظُلَمِ
أحاذر الفقر يومًا أن يُلمَّ بها
فيهتك الستر عن لحم على وَضَمِ(6)
للموت عندي أياد لستُ ناسيها
لمّا كفانيَ ما أخشى على الحرم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقًا
والموت أكرم نزّالٍ على الحرم
وزادني رغبة في العيش معرفتي
ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
إذا تذكرتُ بنتي وهي تندبني
فاضت لرحمة بنتي عبرتي بدَم

غريب أن تجتمع عاطفتا الحب وتمنّي الموت للمحبوب، ولكنّ الشاعر عبّر عن ركوب المركب الخشن خشية أن يقع ما هو أسوأ منه، وخاصة أن مجتمع القرون الوسطى لم تكن فيه المرأة قادرة على أن تكسب قوام عيشها بكدها وجهدها، وليس بمقدورها أن تحمي نفسها من الذئاب البشرية الضالة؛ فيتعرض سترها للهتك وعرضها للأذى، والعِرض لدى العربي أهم القيم الاجتماعية التي يحافظ عليها، نشأت هذه القيم في البادية وتطورت عمقًا ورسوخًا، ولم تستطع حياة الحاضرة أن تلغيها، انظر إلى هذا الأعرابي يقول:

أحب بُنيّتي، وودت أني
دفنتُ بُنيتي في قعر لحدِ
وما بي أن تهون عليَّ، لكنْ
مخافة أن تذوق البؤس بعدي

ولو رحنا نتتبع مواقف الشعراء من بناتهم لألفينا الكثير منهم يقف موقف أولئك الأعراب الجفاة الذين يتمنون موت بناتهم قبل موتهم؛ إما خشية إملاق، وإما خشية السبي والعار، ولكن قد نظلم شعراء آخرين إذا عممنا القول بأن كل الشعراء يتمنون مصاهرة القبر، فثمة شعراء آخرون كانوا شديدي العطف والحنان على بناتهم، وتُصوِّر لنا بعض أبياتهم أن قلوبهم كادت تنفطر عند مفارقتهم بناتهم وإن كانت مفارقة اضطرارية، فهذا الشاعر المشهور مالك بن الريب (ت: نحو 60هـ) يصور فراقه لابنته عندما التحق بجيش سعيد بن عثمان بن عفان المتوجه إلى خراسان تصويرًا حزينًا، مع علمنا بأن مالكًا كان من قطاع الطرق بوادي الغضا، وقطاع الطرق من أقسى الناس قلوبًا؛ يقول مالك:

ولقد قلتُ لابنتي، وهي تبكي
بدخيل الهموم قلبًا كئيبا
وهي تذري من الدموع على الخدّ
ين من لوعة الفراق غَروبا(7)
عبرات يكدن يجرحن ما جُزْ
ن به أو يدعن فيه ندوبا
حذر الحتف أن يصيب أباها
ويلاقي في غير أهل شَعوبا(8)
اسكتي قد حززت بالدمع قلبي
طالما حزّ دمعكنّ القلوبا
فعسى الله أن يدافع عني
ريب ما تحذرين حتى أؤوبا
ودعي أن يُقَطّع الآن قلبي
أو تريني في رحلتي تعذيبا
ليس شيئًا يشاؤه ذو المعالي
بعزيز عليه، فادعي المجيبا

ولكن إرادة الله قضتْ بأن يمضي مالك في غزوته، وأن يلاقي ريب ما كان يحذر، فرثى نفسه بالقصيدة اليائية المشهورة، التي مطلعها:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

غريب الألفاظ:

1- روايات أكثر المصادر على أن الأبيات لحطّان بن المعلى، وبعضها تنسبها لشعراء سواه. الحماسة 152/1، والأمالي 189/2، والسمط 803/2، وعيون الأخبار 95/7، والحماسة البصرية 275/1، وغيرها.
2- كزغب القطا: تشبيه يُراد به الكناية عن ضعفهن لصغرهن.
3- مضطرب: مجال.

الحواشي:

1- صحيح البخاري 38/8.
2- إذا كانت القصيدة أقل من سبعة أبيات تسمى في مصطلح النقاد: مقطوعة، فإن زادت على ذلك فهي قصيدة.
3- تُنسب هذه الأبيات لعمران بن حطان ولعيسى الحبطي ولقطري بن الفجاءة ولأبي خالد القناني.
4- الرنق: الكدر العكر.
5- في بعض المصادر أن الأبيات في ابنته وفي بعضها في ابنة أخت له كان رباها.
6- الوضم: الخشب الذي يوضع تحت اللحم.
7- الغَروب: الدلو من الماء.
8- الشَّعوب: المنية.



الإعلام الإسلامي

قراءة في سورة المسد

محمد عبد الحكيم القاضي

ترتبط سورة «المسد» بمفهوم الإعلام الإسلامي ارتباطًا شديدًا، وتُثْري عطاء هذا المفهوم من عدة أوجه. ومع أنها سورة من قصار السور، لا يكاد يقف التالي لها إلا على صور من المعاني التي قد لا تتعدَّى الدعاء على أبي لهب وزوجه بالهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة؛ إلا أن المتأمل في عطاءاتها المرتبطة بواقع الدعوة أيامَ نزولها يَخرُج منها بمجموعة من الإضاءات الإعلامية، التي تُبْرز حقائق عن الدعوة الإسلامية عمومًا، ومهام الدعاة خصوصًا؛ الأمر الذي يجعل الاستعانة بالله - تعالى - في الإقدام على تقليب معانيها أمرًا نرجو أن يجعله الله - سبحانه - في ميزان حسناتنا.

إن واقع السُّورة - زمانًا ومكانًا وحوادث وأشخاصًا - يدل على تَحَدٍّ إعلامي، ومواجهة إسلامية لقوى الشرك في خطوة جديدة من خطوات الدعوة، أمرَ النبي الكريم باتخاذها في سبيل نشر التوحيد، وتعريف الناس بالله ربهم، فتكاد الروايات الصِّحاح تُجْمع - أو هي أجمعت فعلاً - على أن السورة نزلت في إبَّان المرحلة التي يسميها المؤرخون «مرحلة الجهر بالدعوة» لأنها مواكبة للتصرُّف النبويِّ المباشر تنفيذًا للأمر الربانّي الكريم بهذا الجهر.

مواجهة إعلامية

روى الإمام البخاري(1) عن ابن عباس أنه لما نزل قول الله تعالى: *وأنذر عشيرتك الأقربين*. **الشعراء:** 214، خرج - أي الرسول - إلى البطحاء، فصعد الجبل، فنادى: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم. أكنتم تصدقوني؟». قالوا: نعم. وقد روي في بعض الروايات: نعم. ما جرّبنا عليك كذبًا قط. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبًّا لك؛ ألهذا جمعتنا.

وفي رواية: فقام أبو لهب ينفضُ يديه، وهو يقول: تبًا لك سائرَ اليوم؛ ألهذا جمعتنا؟(2).

فأنزلَ الله تعالى: *تبَّت يدا أبي لهب وتب*.. إلى آخرها. ومن المعروف أن آية الشعراء هذه هي أول ما نزل بصدد الجهْر بالدعوة(3)، وهي تسبقُ آية سورة الحجر: *فاصدع بما تُؤمر وأعرض عن المشركين*. **الحجر:** 94 بسبع سور. «وعلى هذا فيمكن اعتبار دعوة بني عبد المطلب - وهم العشيرة الأقربون - هي بداية المرحلة الجهرية من الإعلام بالرسالة... فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يمارس (الإعلام) بصورة خاصة - أي لأفراد محدودين.. وعلى هذا فالمرحلة الجهرية من الإعلام النبوي بالرسالة تبدأ من دعوته - صلى الله عليه وآله وسلم - لعشيرته الأقربين الذين هم بنو عبد المطلب»(4).

وقد يتخيَّل البعض أن استخدامنا لمصطلح إعلام هنا ضربٌ من التجوُّز، يدفع إليه الوُلُوع بتحديث التعبيرات، ولكن الواقع أنه مصطلح مطابق لصورة الدعوة الإسلامية وملابساتها:

1- فأصل الدعوة والدِّعاية واحد، إذ هما مصدران لفعل واحد هو دعا، وقد يصحُّ أن تكون الدّعاية هي طريقة الدعوة، وفنونها، والأفكار التي يصطنعها الدعاة لتوصيل دعوتهم، فهي أشبه بالحِرْفة الموصلة إلى الدعوة؛ كالرِّماية والسِّقاية، ومعروف أن الدعاية فن من أشْيع الفنون الإعلامية، بل قد استخدم النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا المصطلح في رسالته إلى هرقل عظيم الروم؛ إذ يقول فيها: «... أمَّا بعد فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام؛ أَسْلِم تسلم»(5).

ولعل الغُبار إنما لحقَ هذا المصطلح - مصطلح الدعاية - في أيام الحربَ العالمية، إذ تحوّلت إلى نشر الأكاذيب، والطعن، والمخادعة، إلا أن هذه العوارض لا تسلُب المصطلح معناه العام(6).

2- والكتاب والسنة - وهما ديوان هذا الدين - ينتشر فيهما معظم المعاني الإعلامية المعاصرة، بل بعض المصطلحات، مثل مصطلح «خبر»، «نبأ»، «سفارة».. الخ، إلى جوار المعاني العامة والشاملة للإعلام من رسالة ورسول وبلاغ وبيان.. الخ ذلك، وبحسبنا أن نعلم أن كلمتي خبر ونبأ قد ذُكرتا في القرآن في مواطن عدة،

والإعلام المضاد

والخبر هو « عصب الصحافة الحديثة، والصحف تتألف من شيئين: ورق وحبر وأخبار»(6).

سبب المواجهة وأبعادها

وعلى أن الإسلام في حَدِّ ذاته هو مواجهة إعلامية، والجهد المبذول في نقله للناس منذ نزول القرآن في غار حراء، وفي أثناء الدعوة السرية هو جهد إعلامي عبقري، إلا أن المواجهة الإعلامية أخذت تشتد، وتتضح معالمها، وتتشعب فنونها، وتتبين أطرافها حينما بدأ النبي - صلى الله عليه وسلم - يجهر بالدعوة استجابة لأمر الله إياه بذلك. لقد «انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتًا يجهر بتضليل المشركين وعُبَّاد الأصنام، كأنه صاعقة شقَّت السحاب، فرعدت وبرقت، وزلزلت الجو الهادئ، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة»(7).

وقد استخدم النبي - صلى الله عليه وسلم، في بدايات حملته الإعلامية - أسلوبًا دعائيًا غاية في الرُّقيّ والدِّقَّة، إذ صعد جبل الصفا، ونادى بطون قريش بطنًا بطنًا، فهو يصرخ: «يا بني فهر، يا بني عديّ» - لبطون قريش - كما رواها مسلم في صحيحه(8) فإذا ما اجتمعوا سألهم سؤالاً لا يختلف منهم اثنان في الإجابة عنه، وهو: «أرأيتم لو أني أخبرتكم أن خيلاً خلف هذا الوادي تُغير عليكم. أكنتم مصدقيَّ؟»، فالجواب عند الجميع هو التصديق على الرغم من أنهم لا يرون الخيل، وذلك لما تأكد لهم من الخبرة والممارسة والاحتكاك اليومي بالنبي الكريم أنه صادق أمين.

وهنا تنفجر الحجةُ سَلِسةً بلا تكلف؛ ذلك أن ما أتى به النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - هو من نوع هذا الذي ضربه لهم مثلاً؛ فهو نذير لهم بما لم يروه من عذاب الله، ومخبر لهم عن الله - تعالى - بحقائق غابت عنهم! ولذلك لم يجد أبو لهب ما يدفع به هذه الحجة إلا رفع الصوت بالمغالطة، واستعداء (الرأي العام) عليه، وهو الطابع الغالب على الإعلام المضاد للإسلام على ما سوف نرى إن شاء الله.

ويبدو أن صعود النبي - صلى الله عليه وسلم - الصفا لم يكن أولى المحاولات الإعلامية الدعائية للدين الحنيف، وإنما سبقته جملة من المواقف كان أبو لهب في كل منها الجاهر بالمعارضة، وصاحب الوجه الإعلامي السافر بالعداء؛ فقد دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - بني هاشم فحضروا، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فأراد النبي أن يكلمهم إلا أن أبا لهب ابتدره قائلاً: «هؤلاء هم عُمُومتك وبنو عمك، فتكلم، ودع الصُّبْأة - يعني الخروج عن دين قريش - واعلم أن ليس لقومك بالعرب قاطبةً طاقةٌ، وإنّا أحق من أخذك، فحسبُك بنو أبيك».

وفي هذا محاولة قوية من أبي لهب لتقليص ميدان الدعوة في أضيق نطاق، ثم يأتي الاستعداء مشوبًا بالاستهزاء في قوله: «.. فما رأيتُ أحدًا جاء بني أبيه بشرٍّ مما جئتهم به»، فأحس النبي - صلى الله عليه وسلم - أن كلامه ربما فجَّرعليه ردودًا حفزها هذا التحريش من أبي لهب، ورجَّح أن من الحكمة أن يسكت، فسكت ولم يتكلم.

فلما بادر النبي - صلى الله عليه وسلم - في موقف آخر بالحديث، حمد الله واستعانه، ثم قال معلنًا أنه رسول الله إلى بني هاشم خاصة وإلى الناس عامة: «.. والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتُحاسبُنَّ بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا، أو النار أبدًا»(9). وهذا أسلوب يعتمد - بجوار المبادأة - على قصر المقاطع، وصراحة المعنى ومباشرته، فهو قريب - من الناحية الإعلامية - من أسلوب البيانات القصيرة المؤثرة، ومن ثمة أحدث أثره فعلاً في نفوس العشيرة، وكان لسانهم أبو طالب - عمه - الذي رحب بمعاونته، وتأييده، وإن أبدى تحفظه على اتباعه وفراق دين آبائه، إلا أن أبا لهب عدّ هذا الترحيب سوأة ينبغي أن تُستر. فقال: «هذه - والله - السَّوْأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم»(10).

العرب كلها تتحدث

إلا أن هذه المحاولات (اللهبية) من أجل تقليص الدعوة، وحصرها في بني عبد المطلب - خاصة - مُنيتْ بالخسران، وفوجئ أبو لهب بالتمدد والانتشار لأخبار الإسلام، وذيوع الحديث عن محمد - صلى الله عليه وسلم - بين العرب جميعًا، بل فوجئ به - صلى الله عليه وسلم - ينتقل بقيم دينه الحنيف، ومبادئ رسالته السمحة - بين القبائل، في الأسواق، وفي المواسم، بل لقد وصلت أصداء هذه الدعوة في هذه المرحلة المبكرة إلى المدينة، إذ يسجل لنا ابن اسحاق موقفًا مدنيًا مبكرًا، هو أقرب إلى الموقف الدبلوماسي منه إلى الموقف الديني، ذلك هو موقف أبي قيس صيفي بن الأسلت (ت:1هـ) - وكان يحب قريشًا، وكان لهم صهرًا، وهو من الأوس - إذ روى له ابن اسحاق قصيدة «يعظِّم فيها الحُرْمة، وينهى قريشًا فيها عن الحرب، ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض، ويذكر فضلهم وأحلامهم، ويأمرهم بالكف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -»(11) وهي قصيدة عظيمة المعاني، إلا أن أخطر ما فيها أنها أشبه برسالة التأييد لحرية النبي - صلى الله عليه وسلم - في نشر دينه، والمناشدة بالكف عنه حتى يكون طلقًا في التعبير عن معتقداته.

والأغرب من هذا أن يجد المرء بعض صناديد قريش، وقد بدؤوا - هم أنفسهم - يتأملون معاني هذا المضمون الإعلامي المتمثل في القرآن، ويَعْرضونه على قلوبهم وأذهانهم، ألسنا نرى الوليد بن المغيرة - وهو منْ هُو - (ت: 1هـ) يعلن تحيُّره فيما يصف القرآن به، وينفي عنه كونه شعرًا أو سحرًا أو كهانة أو جنونًا، ويُروى أنه قال: «.. فوالله ما منكم أحدٌ أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجنّ، والله ما يُشبه الذي يقول شيئًا من ذلك، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعْلى». حتى قالت قريش: والله لقد صبأ الوليد(12).

إن الذي أدمى قلب هؤلاء الصناديد - وكان أبو لهب هو أكثرهم عداء للنبي - صلى الله عليه وسلم -، وأغلظهم عليه قلبًا - هو هذا النجاح الإعلامي الساحق، الخارق لعادة العرب وإمكاناتها، فهو لم يفاجئهم فقط بما لم يكونوا يتوقعونه ويألفونه - على حد ما يرى د. البوطي(13) - وإنما فاجأهم بإمكانات إعلامية كفلت له - بمعونة الله تعالى - تمددًا في مساحة الدعوة وحجمها لم يتخيلها مثل أبي لهب، وهذا هو السر في رد الفعل الجارف الذي حدث من الكفار، وتمثل بصورة قوية في أبي لهب وأم جميل - العوراء بنت حرب - حمَّالة الحطب.

الحرب النفسية

«تبًا لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعتنا؟!»، هكذا كان رد أبي لهب على الخطة الإعلامية التي أعدها النبي - صلى الله عليه وسلم - لإظهار مضمون دعوته، وهو أنه «نذيرٌ لهم بينَ يدي عـذاب شـديد»، وقـد كـان التـخطيط الدعائي لهذا المضمون فائقًا وقويًا. كما مر بنا آنفًا، ذلك لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم تكن مـهمته تأدية الأمر بالجهر وحسب، وإنما أراد أن «يـقوم بجهد إعلامي مـؤثر، يؤدى إلى الاسـتـجـابة، والدخـول في الإسلام»(14)، ومن ثم كـان على الإعـلام المضـاد أن يرد ردًا يأخذ الألباب عن هذه الصياغة الإعلامية القوية، وكانت كلمة أبي لهب التي تحمـل غير قليل من التهكم بما قيل، واستصغاره وتحقير شأنه، وفي هذا ما فيه من محاولة لإلهاء السامعين عن مضمونه أولاً، وتثبيط الداعي وإعجاز همته عن المواصلة لانقطاع أمله، وقلة ثقته بما يقول، وهذا من وسائل ما يعرفونه اليوم بالحرب النفسية، ذلك أن من أهم وسائل الحرب النفسيـة إفقاد العدو ثقته في نفسه وفي قوته(15).

إلا أن عـمق الوعي، وشـدة الفراسـة والذكـاء عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، يسنده - أولاً وآخرًا - قـوة المكر الرباني، وحكمـة التـدبير الإلهي أفـقـدت محـاولات أبي لهب كُلَّ فعاليـتها، وهو أمر طبـيعي إذا عددْنا الحرب النفسية من باب المكر، وقابلنا مكرًا بمكر. يقـول الله تعـالى: *ويمكرون ويمـكر الله والله خـيـر الماكـرين*. **الأنفال**: 30. ويقـول سبـحـانه: *وقـد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعًا يعلم مـا تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار*. **الرعد**: 42.

لقـد رد الله - سبـحـانه - على كلمـة أبي لهب ردًا عنيفًا، يُـفْسد فعاليـتها تمامًا، والأقـوى والأشد أنه جعل هذا الرد قـرآنًا يتلى، إلى أن تقـوم السـاعة، الحرف منه بعشر حسنات، فقال سبحانه: *تبَّت يدا أبي لهب وتبَّ*، وهو استـهـلال إعـلامي في غـاية البـلاغة، فـإن الفـعل الماضى (تبَّتْ) فيه من العطاء اللغـوي والبلاغيّ ما يؤكد القول بأن المكر الإلهي أعظم حقًا:

1- فـالفـعل الماضـى في مـواجـهـة المصـدر الذي استـخدمه أبو لـهب أشد في النكاية، لأن الفـعل يحمل معنى الـدعاء ومعنى التـحقق الفـعلي، في حين لا يعطى المصدر إلا معنى الدعاء.

2- أن (تبّ) تعطي مـعنى القطع، ومـعنى الهـلاك والخسران(16).

3- إسناد الفـعل إلى اليـدين هو من قـبيل إطلاق البـعض، وإرادة الكل، مع مـا في هذا البـعض من زيادة اختـصـاص «لما كـان الهـلاك والخسران - غـالبًـا - بما تكسبه الجوارح، واليد أشد اختصاصًا في ذلك»(17).

4- العطـف على: *تبَّت يدا أبـي لهب*، بقـــوله: وتبَّ، تأكـيد لحدوث التباب له بالكـلية. قال الـفراء: الأول دعـاء عليه، والثـاني خبـر، ويدل عليه قـراءة ابن مسعود: (وقد تب)(18).

إلا أن القـرآن الكـريم لم يكتف بالرد علـى الدعـاء بالتباب، وإنما أمـعن في الانـتصار لـنبي الله - صلى الله عليه وسلم -، وأضاف إلى مفهوم التـباب العام صيغة تميز الإعلام الـقرآني، وهي التـركيز عـلى المصير الأخروي: *سيصْلى نارًا ذات لهب*، ومن البلاغة البليغة أن يستعمل البيان القرآني كُنية عبـد العزى بن عبد المطلب لا اسمه، في موضع لا يريد فيه تشريفه، على الرغم من أن الكُنْية وضعت للتشريف، وذلك أن هذه الكنية خاصة «مناسبة للنار التي هي مصيره»(19) فـتناسب أبو لهب مع النار ذات اللَّهب. فـانظر كيف حوَّل البـيان القـرآني مفـهوم الكنيةَ هنا من التشريف إلى التحقير، ويزيد الأمر بيانًا إذا علـمنا أن الرجـل كُنِّي أبـا لـهب «لإشــراق كـــان في وجهه»(20)؛ فلما ذُكر في القرآن بهذا السِّياق انتفت هذه العلاقة، وبقيت علاقته بجهنم.

ومن أعظم أساليب الحرب النفسية تجريد العدو من كل قـوة له تجريدًا مـعنويًا على الأقل، فكيف إذا كـان هذا العدو يعـتمد حقًا على قـوة كامنة، وهذا هو الذي حدث مع أبي لهب بوصـفه نموذجًا للكفار عامـة؛ فهو يعتـمد في قوته على مـاله، وولده، والبيـان القرآني يُلح على أن المال والولد لا يغني عن صاحبـه، وقد ذُكر هذا المعنى مـرارًا في الكتـاب الـعظيم، ومنه قـوله عن أبي لهب: *مـا أغنى عنْهُ مـالُهُ ومـا كـسب*. إن (ما) الأولى تصلح نافـيـة، ثم إردافـهـا بعـد الـفعل الماضى نوع من تأكـيد الإخفـاق، وتصلح تعـجبيـة، ويكون التعـجب للإنكار، ومن الإعـجاز القـرآني أن يظل أبو لهب بعـد ذلك مـدة لا يؤمن، ويصـاب بـالطَّاعُـون - وهو الغُـدَّة -(21) ويُقتَل فـلا يغني عنه مال ولا ولد، وقـد كان له ثلاثة من الولد هم: عـتبة ومـعتب وعـتيـبة(22) وهذا الأخـيـر هو الذي دعـا عليـه النبي أن يأكـله كلب الله فأكله الأسد(23).

مثل أبو لهب صورة الإعلام المضـاد للإسلام، وحـاول بكل ما أوتي من قوة وطاقة أن يعوق انتشار الدعوة، ولكن الله - عز وجل - أحبط عمله ومكر به مكرًا شديدًا

كافر تعينه زوجهُ

وكـان وراء اجـتـهـاد أبي لهب في هـذه الحـملة الإعلاميـة المضادة للإسلام زوجهُ العـوراءُ بنتُ حرب - حمالة الحطب -، فقد كـانت تُعينه في حملته بمالها، بل كانت تشارك هي نفسها - بأساليـبها الإعلامية المختلفة - بدور كبـير في حـرب الإسلام ونبيه - صلى الله عـليه وسلم -.

قال سـعيد بن المسيـب: «كانت لها قلادة فـاخرة، فقالت: لأنفقنّها في عداوة محمد»(24) ولذلك أبدلها الله - تعـالى - بهذه القـلادة حبلاً مـن مسد تُجَـرّ به في جهنم، والجزاء مـن جنس العمل؛ وتخبرنا كـتب السير والتواريخ أن حمَّالة الحطب - وهو الاسم العبقري الذي لا يناسبـهـا غيره - كـانت - إلى جانب الأذى الحسِّي المتمثل في وضع الشـوك في طريق النبي صلى الله عليه وسلم -(25) تقوم بجـهد إعـلامي عدائيٍّ له عدة محاور:

1- الإنفاق المالي على حـملة أبي لهب، وتزكية نشاطه ماديًا ومـعنويًا، قال ابن كثير: «كانت عـونًا لزوجهـا على كفره وجـحوده وعناده»(26)حتى إنأبالهب كان يتعقب خطوات النبي - صلى الله عليه وسلم - بين القبائل، فيسير معه في كل موضع محاولاً لأن يفـسد دعَاية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام.

ويخبرنا ربيعـة بن عباد الدِّيلي ببعض هذه المواقف إذ يقـول: «إني لمع أبي - رجلٌ شـاب - أنظر إلى رسـول الله - صلى الله عليـه وسلم - يتتبّع القبـائل ووراءه رجل أحـول، وضيء، ذو لمَّـة، يقف رسـول الله - صلى الله عليـه وسلم - على القَـبيلة فـيقـول: «يا بني فـلان؛ إني رسول الله إليكم؛ آمركم أن تعـبدوا الله لا تشـركوا به شيـئًا، وأن تـصدقـوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله مـا بعثني به»، وإذا فرغ من مقالتـه قال الآخر - الذي يتبعه - من خلفـه: «يا بني فـلان، هذا يريـد منكم أن تَسلَخُـوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بني مـالك بن أُقَيش، إلى ما جاء به من البدعـة والضلالة، فلا تسمعوا له ولاتتـبعـوه». فـقلت لأبي: من هذا؟ قـال: عمـه أبـو لهب»(27).

2- ممارسة ما يُسمَّى اليوم - إعلاميًا - (بالبروباجندا) وهي تعني مـا يمكن ترجمته بالتـشهـير، خـصوصًـا أن بعض الدارسين يرى أنـها فـن يهـدف إلى التـحكم في وجـهـات النظر من طريق الإيحـاء لا الإقناع(28). إن هذا النوع من الدعاية أتقنته حـمالة الحطب، فهي تحاول التأثيـر فيمن حولهـا، بالشعر مرة وبالرجـز مرة، وبالتندر

والتفكه - قاتلها الله - مرة أخرى ؛ لقد سَمَّت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (مُذَمَّمًا) إمعانًا في تهوين شأنه، ثم مضت تمارس هذه (البروباجندا) من طريق الولولة والرجز، لكي تكسب نصرًا إعلاميًا على (محمد) - صلى الله عليه وسلم -. تقول أسماء بنت أبي بكر: لما نزلت: *تَّبت يدا أبي لهب*، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فِهر(حجر)، وهي تقول:

مُذمَّمًا أَبَيْنا
ودِينَهُ قَلَيْنا
وأَمْرَهُ عصينا(29).

وكانت تطوف مرة بالبيت، فعثرت في مرطها، فقالت: تعس مذمم!

3- إنها لا تفتأ تسعى بالأخبار من هنا إلى هنا، وتنقل الشائعات، وتُروِّج لها، ومن ذلك ترويجها - حين فتر الوحي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الله قد وَدَّعَه وقلاه، وفي رواية الحاكم عن زيد بن أرقم: «ما أرى شيطانك إلا قد تركك». وترويج الشائعات من أخطر أساليب الحرب النفسية والإعلام المضاد، بل إن قولها بعد ذلك: «لم نره قربك ليلتين أو ثلاثًا(30) يدل على أنها كانت تتحسَّس حال النبي - صلى الله عليه وسلم -، وتتجسس أخباره. ولعل هذا النشاط الذي رآها الصحابة عليه في السعي بالشائعات والدسائس، والمناورة، هو الذي جعل كثيرًا منهم يصفها بأنها «كانت تمشي بالنميمة»، وعبَّر عن ذلك التابعي الجليل الحسن البصري بقوله: «كانت تحمل النميمة فتأتي بها بطون قريش»(31)، وأظن هذا التعبير موافقًا لمعنى التجسس على النبي - صلى الله عليه وسلم - ونقل أخباره إلى بطون قريش، ولذلك نقل السيوطي «ويقال: حمَّالة الحطب نقَّالة الحديث»(32).

الجزاء من جنس العمل

لقد كانت نكاية الله - تعالى - بهذه العوراء وزوجها أسوأ نكاية، ولعل من أبقى ألوان هذه النكاية أن الناس لم تعد تحفظ اسمها الحقيقي، وهو أروى بنت حرب - وقد بحثت عنه في معظم كتب السيرة والأنساب فلم أجده عندهم(33) - نعم، ولم تعد الناس تحفظ كنيتها، وهي «أم جميل» وإنما عادت تُعرف باسم: *حمَّالة الحطب، في جيدها حبل من مسد*. وهذا تصوير يناسب ما صنعت، ويكافئ ما قدمت من حمل الأخبار والدسائس والنشاط الدائب في إشعال الحرب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

ومن محاسن هذه النكاية أيضًا ما اختاره عاصم بن أبي النجود من القراءة بنصب (حمَّالةَ الحطب) على الرغم من أن سياقها الرفع، وهو من روائع اختيارات عاصم، وهي تُحْمَل على ذم هذه المرأة وشتمها، فكأنه قال «أذُمُّ حمَّالةَ الحطب»(34) قال ابن خالويه: «والعرب إذا أرادت أن تذم شَيئًا أو تشتمه نصبته على تقدير الذم أو الشتم»(35). وكان عاصم يقف على «وامرأته»، وهو وقف حسن، حتى يكون الابتداء بالذم أوقع، وأحَزَّ في نفس المعاند، وأشْفَى لنفس المؤمن(36).

عبقرية الترتيب المصحفي

وموضع سورة (المسد) من المصحف يدل على عظمة الترتيب النهائي للمصحف، وهو الهيئة الأصلية التي عليها القرآن في اللوح المحفوظ قبل أن ينزل، فقد جاءت هذه السورة - وهي من أوائل السور نزولاً - بعد سورة «النصر» وهي آخر السور نزولاً على رسول الله، ولذلك يسمونها «سورة التوديع»(37). ولو عددنا الكتاب العظيم - بعد تمام نزوله - «بلاغًا» - كما سماه الله الذي أنزله(38) - فإن ترابط هذين العنصرين من عناصر البلاغ يعطي إيحاء بقوة التحدي لقوى الباطل في كل زمان: *إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا. فسبِّح بحمد ربك واستغفره. إنه كان توابًا.*

تبَّت يدا أبي لهب وتبَّ.

إنّه بيان مُركَّز يحمل البشارة بالتَّباب لكل (أبي لهب) يضع نفسه في موضع التحدي لله وكتابه، لقد جاء نصر الله والفتح، وتبت يدا أبي لهب، وتب أبو لهب، ولم يُغنِ عنه ماله وما كسب. وهذا البيان نفسه يحمل للمؤمن الذي يحمل هذه الرسالة رائحة البشارة بالنصر على الرغم من تضييق المعاندين، ورصدهم أموالهم ومكاسبهم كافة أحجارًا في طريق كلمة الله: *إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يُغْلَبون*. **الأنفال**: 36.

ومن هنا يتنفس الدعاة ريح الأمل في الله - الذي تحيا به المنى، وتستريح به الصدور -، وتكون التبعة عظيمة على من يترك هذا الميدان الواسع الشريف يأسًا من روْح الله: *إنه لا ييأس من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون*. **يوسف**: 87.

الهوامش:

1- صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة: تبت يدا أبي لهب: 6/ 221، 222 وانظر الفتح، حديث رقم 4770.
2- راجع البخاري: تفسير سورة الشعراء، فتح: 140/6.
3- الرحيق المختوم للمباركفوري: ص91.
4- الجوانب الإعلامية في حياة الرسول ، د. عبد الوهاب كحيل، ط دار الهداية، مصر، ص151، 152.
5- صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، الحديث السابع، وراجع فتح الباري ط دار الغد: 1/ 98، قال ابن حجر: من قولك: دعا يدعو دعاية، نحو: شكا يشكو شكاية.
6- راجع في علاقة الدعوة بالدعاية: د. محيي الدين عبد الحميد: الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية، ط الخانجي، مصر، ص141.
7- الأخبار: مصادرها ونشرها، وليم الميري، ط مكتبة الأنجلو، القاهرة، ص13. وقابل: الصحافة العربية، أديب مروة، ط بيروت، ص34.
8- الرحيق المختوم ص94.
9- صحيح مسلم: 114/1.
10- انظر لهذه المواقف ومواقف مماثلة: تاريخ الطبري، ط دار المعارف، مصر، 322/318/2.
11- سيرة ابن هشام: 182/1. وانظر القصيدة ص183، 184.
12- تفسير الطبري، ط الحلبي: 98/29 (في تفسير سورة المدثر).
13- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ط7، دار الفكر، ص80.
14- الجوانب الإعلامية: ص153.
15- الحرب النفسية، صلاح نصر، ط مصر، ص433.
16- أضواء البيان، للشنقيطي: 603/9، 604.
17- المصدر السابق ص605.
18- فتح القدير للشوكاني، ط دار الحديث، مصر، 744/5.
19- تفسير سور المفصل للعلامة الشيخ عبد الله كنون، ط الدار البيضاء، ص421.
20- فسر ابن عباس، وغيره (وما كسب) بأنها ولده، لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم -: «إن ولد الرجل من كسبه». وهو حديث حسن.
21- عيون الأثر لابن سيد الناس، ط محيي الدين مستو، دمشق. وأنا أرجِّح أنه الطاعون، لأن العرب تسمي طاعون الإبل: الغدة، وقد نقل ذلك الزمخشري في «الفائق»، وروى أحمد في المسند من حديث عائشة مرفوعًا أن الطاعون «غدة كغدة البعير».
22- نسب قريش لمصعب بن عبد الله الزبيري، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، ط دار المعارف ، مصر، ص89.
23- عيون الأثر لابن سيد الناس، 387/2.
24، 25، 26- تفسير ابن كثير، ط الشعب: 536/8 وما بعدها.
27- سيرة ابن هشام، ط محيي الدين عبد الحميد 287/2، 288. وله أصل في المسند للإمام أحمد: 341/4 بلفظ مقارب. والبداية والنهاية لابن كثير 41/3.
28- الإعلام والدعاية، د. محمد عبد القادر حاتم، ط الأنجلو ص140، نقلاً عن: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل، ص64.
29- تفسير ابن كثير، الصفحات نفسها.
30- الدر المنثور للسيوطي، ط دار المعرفة، 360/6.
31- المصدر السابق: 409/6.
32- المصدر السابق نفسه.
33- وقد ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية، ط مكتبة المعارف، بيروت، 41/3.
34- قال الزمخشري: «وأنا أستحب هذه القراءة، وقد توسل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجميل من أحب شتم أم جميل». قال كاتب المقالة في إعرابه لهذه السورة أيضًا: «إلا أني أستحب قراءة النصب تقربًا إلى الله بذم أم جميل».
35- إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه، ط دار الزهراء، القاهرة. وراجع الكشف لمكي بن أبي طالب، ط الكويت، 390/2.
36- راجع في هذا لصاحب المقال: روائع البيان في إعراب القرآن، جزء عم، إعراب سورة المسد.
37- فتح القدير: 740/5.
38- وُصف القرآن الكريم بأنه بلاغ في سورة إبراهيم: الآية 52. قال تعالى: هذا بلاغ للناس ولِيُنْذَروا به. ووصف بالمعنى أنه بلاغ في خمس عشرة آية من الكتاب العظيم.

اللغة بين الإنسان والحيوان

د. فؤاد أبو حطب

لعل من سوء حظ علم النفس الحديث أن سيطرت المدرسة السلوكية على اتجاهاته النظرية وبحوثه التجريبية لأكثر من نصف قرن، وهي المدرسة التي خلعت على دراسة السلوك اللغوي طابعها ومعالمها وخاصة الطابع المحيطي peripheralistic، بمعنى أن السلوك لا يُفهم إلا في ضوء المثيرات الخارجية والاستجابات الصريحة فحسب، حيث تؤدي الخبرة والتعلم الدور الأعظم في فهم هذا السلوك. وطبق هؤلاء العلماء فهمهم على دراسة السلوك اللغوي؛ فهو لديهم سلوك متعلَّم مكتَسَب تحكمه قواعد التداعي وعلاقات المثير والاستجابة، ولا يوجد فيه أثر للفطرة.

في هذا الوقت كان لعلماء اللغة موقف مختلف؛ فاللغة عندهم سلوك فطري. ولدى البشر استعداد لاكتساب قواعد النحو، ومن دون هذا الاستعداد لا يمكنهم إتقان اللغة. ومع ذلك لم تجد هذه الأفكار صدى لها في معامل السلوكيين وتجاربهم.

ثم كان التحدي السلوكي لفطرة الإنسان. لقد ركزت هذه المدرسة على الاستراتيجية الاختزالية reductionism في تفسير السلوك، واختير الحيوان للدراسة المعملية، وظهرت نماذج للسلوك الإنساني صيغت في إطار نتائج بحوث السلوك الحيواني. وشاع المفهوم الدارويني القديم أن الإنسان امتداد للسلسلة الحيوانية، وأن فهم السلوك المعقد يتطلب تحليله واختزاله إلى أنماط من السلوك البسيط. وظل هذا الموقف منهجًا ثابتًا للسلوكية في مختلف أطوارها (فؤاد أبو حطب، 1972م).

ماهو أثر ذلك في دراسة السلوك اللغوي؟

لعل الإجابة عن هذا السؤال تقودنا مباشرة إلى موضوع البحث الرئيسي الذي نحن بصدده. فقد توجهت بحوث السلوك اللغوي عند بعض السلوكيين إلى محاولة استكشاف خصائصه لدى الحيوان، وكان افتراضهم الأساسي وراء هذا التيار الكامل من البحوث وجود علاقات تطورية وثيقة بين الإنسان والحيوان، مستندين في ذلك إلى مفاهيم التطور التقليدية (الكلاسيكية) عند دارون. وأجريت بحوث على تدريب القردة والشمبانزي والغوريلا على اللغة البشرية حظيت باهتمام بالغ من وسائل الإعلام؛ إلا أن النتائج التي توصلت إليها هذه البحوث كانت مذهلة. لقد أكدت تفرد الإنسان واستقلاله بالسلوك اللغوي عن أي نوع حيواني آخر. ونعرض فيما يلي نتائج هذه البحوث التي أجريت على الحيوان مصنفة حسب خطط البحث المستخدمة.

1- بحوث التنشئة اللغوية للقردة مع الأطفال

في الثلاثينيات من القرن الميلادي الحالي بدأت سلسلة من البحوث توجهت إلى تنشئة الأنواع الراقية من القردة وهي الشمبانزي مع الأطفال. وقد ارتاد هذا التيار كيلوج وزوجته عام 1933م (Kellog & Kellog 1933) حيث ربيا الشمبانزي جوا Gua مع ابنهما الصغير. وقد لوحظ أن الطفل تعلم الكلام بطريقة عادية، أما القردة جوا فلم تستطع قط النطق بكلمة واحدة يمكن التعرف إليها. وعلى الرغم من أن جوا كانت تستخدم لغة الإشارة في التواصل إلا أنها لم تتعلم سوى كلمات قليلة، وكل ماتعلمته كان مما نطقه أحد الباحثين.

وفي عام 1951م قام زوجان آخران هما هايز وزوجته (Hayes & Hayes 1951) بتدريب الشمبانزي فيكيViki على الكلام بطريقة أكثر نظامًا وانتظامًا. وبعد جهد كبير لم تتعلم سوى ثلاث كلمات فقط. وكانت تنطقها بطريقة لا يفهمها أحد سوى الباحثين. وبعد تدريبات شاقة وطويلة الأمد استغرقت ست سنوات ـ من النوع الذي لا يتعرض له الإنسان العادي أبدًا ـ تعلمت فيكي أن تفهم أكثر من ثلاث كلمات وعدد قليل من روابط الكلمات.

وهكذا تأكد أن الكلام خاصية بشرية، وأن الحيوانات من أي مستوى لم تزوَّد ـ كما زُوِّد الإنسان ـ بجهاز لإصدار الأصوات الكلامية المعقدة، وهكذا ظهرت الحدود الخاصة



بالنوع Species - Specific Limitations، وبهذا ظهرت إحدى علامات استقلال الإنسان عن الحيوان، والاختلاف الكيفي عنه.

2- بحوث إكساب الحيوان لغة الصم

إذا لم تكن الحيوانات - ومنها القردة - غير مهيأة فطريًا للنطق، فإن الأجدى في رأي فئة أخرى من الباحثين أن تتدرب على اكتساب لغة الإشارات والإيماءات كما يفعل الصم، وقد يكون الأمر هنا ممكنًا، وخاصة إذا علمنا أن القردة من مختلف الأنواع ماهرة في الأعمال اليدوية واستخدام الأدوات.

بدأ تيار هذه البحوث بسلسلة التجارب التي قام بها جاردنر وزوجته ابتداءً من عام 1969م، والتي نشرت عنها عدة تقارير في أعوام تالية (Gardner & Gardner 1969, 1971, 1975, 1978) لقد قاما بتدريب أنثى شمبانزي اسمها واشو Wahoe على استخدام لغة الإشارات الأمريكية (ASL)، وهي لغة طبيعية يستخدمها أكثر من نصف مليون أصم أمريكي. وقد بدأ تدريب واشو على هذه اللغة وعمرها عام، واستمرت على ذلك مدة 4 سنوات. واستخدم في تدريبها أسلوب التعلم الشرطي الإجرائي باستخدام التعزيز والتشكيل والملاحظة والمحاكاة. وكانت نتائج ذلك أن واشو لم تتعلم أكثر من 130 إشارة عندما بلغ عمرها خمس سنوات.

وقد قام عدد من تلاميذ جاردنر وزوجته بتدريب عدد آخر من القردة على استخدام هذه اللغة (Terrace 1980, Patterson 1980) وقد وجد هؤلاء الباحثون أن متوسط الإشارات التي يتعلمها الشمبانزي هو 130، كما حدث في بحث جاردنر، وكان الاستثناء الوحيد هو الغوريلا كوكو Koko التي أجرى عليها بيترسون دراسته، فقد توصلت إلى مستوى 180 إشارة.

3- بحوث إكساب الحيوان السلوك اللغوي باستخدام الحاسوب (الكومبيوتر)

توجد خطة (استراتيجية) بحث ثالثة استخدمها رامبو أول مرة عام 1977م، ثم استمر في بحثها مع زوجته (Rumbaugh 1977, Savage- Rumbaugh 1980) وتعتمد على استخدام الحاسوب (الكومبيوتر) في تدريب الحيوان على السلوك اللغوي؛ وكان أول حيوان شارك في هذا النوع من برامج البحوث هو الشمبانزي لانا Lana التي بدأت تدريبها وعمرها سنتان، وخلاصة التدريب أن تقوم بإنتاج رموز بالضغط على مفاتيح الجهاز. وشمل ذلك التدريب على الرموز منفصلة، ثم على متواليات قصيرة من هذه الرموز. وقد بلغ محصول لانا اللغوي بهذه الطريقة 75 رمزًا، وهو أعلى من المعدل الذي وصل إليه قردان آخران بدأ تدريبهما متأخرين وعمرهما 4 سنوات (كان المتوسط 50 رمزًا).

4- بحوث تدريب الحيوان على اكتساب لغة اصطناعية

توجهت بحوث فريق آخر من الباحثين وجهة مختلفة تمامًا، ومن رواد هذا التيار بريماك منذ عام 1976م (Premack 1976). وقد بدأ بريماك مشروعه بتحديد طبيعة اللغة البشرية، ويحدد لها خاصيتين رئيسيتين هما:-

أ- وجود عناصر اعتباطية تسمي أو تشير إلى الأشياء أو العلاقات أو الأفعال أو الصفات والنعوت الموجودة في البيئة.

ب - فهم وتوليد جمل جديدة من هذه العناصر، أي بناء نظام نحوي Grammar. ويتفق معظم علماء النفس مع بريماك على أن هاتين الخاصيّتين أساسيتان لأي نظام لغوي، وقد يضيف بعضهم إليها بعض الخصائص الأخرى، مثل:-

ج - الإزاحة displacement ويقصد بها أن اللغة البشرية لا تتصل فقط بما هو حاضر الآن وماثل في مكان ولكنها تشير أيضًا إلى أشياء وعلاقات وغيرها قد تحدث في أماكن وأزمنة مختلفة (Brown 1973).

د - الصوتيات الكلامية أو (الفونولوجيا) Phenology، فاللغة الإنسانية تتألف من كلمات لها أصوات Phonemes ليس لها معنى في ذاتها وبذاتها (Menyuk 1982).

وقد اعتمد بريماك على هذا التحليل في بناء نظام لغوي اصطناعي يتناسب مع إمكانات الحيوان. وكانت «الكلمات» التي استخدمها عبارة عن قطع من البلاستيك تختلف في الشكل والحجم واللون والملمس لتحل محل مكونات اللغة، وأجرى تجاربه على أربعة من الشمبانزي في مرحلة الطفولة، ثلاث منها من الإناث، وواحد من الذكور. وكانت نجمته المفضلة سارة Sarah التي بدأت تَعلُّم هذه اللغة وعمرها خمس سنوات.

بدأ بريماك تعليم القردة «كلمات بلاستيكية» تدل على أسماء مفضلة لديها مثل بعض الأطعمة، ثم على أفعال معينة، ثم أضاف بعض الأفعال والأسماء والعلاقات (مثل علاقة التشابه والاختلاف والعلاقة الشرطية إذا... إذن). بعد ذلك انتقل إلى تدريبها على نظام للكلمات Word Order بترتيب أقرب إلى النظام النحوي. وقد بلغ محصول سارة من هذه الكلمات قرابة 130 كلمة، وهو أعلى بكثير من محصول الحيوانات الأخرى التي اشتركت معها في التجربة. بالإضافة إلى اكتساب القردة بعض العلاقات التي تجعل استخدامها اللغوي في رأي بريماك أقرب إلى قواعد النحو، وبالإضافة إلى ظهور خاصية الإزاحة أيضًا، وجد بريماك مثلاً أنه حين يعرض على الحيوان «عبارة بلاستيكية» مثل (اللون البني شيكولاتة)، ولا تكون الشيكولاتة موجودة بالفعل أمام الحيوان، وإنما يكون المعروض هو مجموعة أقراص ملونة أحدها لونه بني، فإن الحيوان يختار الاختيار الصحيح، وفي رأي بريماك أن في هذا استخدامًا للغة لتدل على أشياء ليست موجودة بالفعل (الإزاحة). أما الخاصية الصوتية (الفونولوجية) المتصلة بالأصوات الكلامية فلم تتأكد لأسباب عرضناها عند حديثنا عن تجارب تدريب القردة على الكلام.

5- أوجه الشبه بين فئات البحوث السابقة

على الرغم من أن الطرق السابقة المستخدمة في تدريب القردة (من نوع الشمبانزي والغوريلا خاصة) على اكتساب لغة من نوع ما تختلف فيما بينها في بعض الأسس إلا أنها تتشابه على وجه الخصوص في طرق التدريب المستخدمة:

أ- اختار الباحثون إشارات أو رموزًا معينة، كانت الإيماءات والحركات في بعض الحالات، وقطعًا من البلاستيك ذات خصائص مختلفة في بعضها الآخر، وافترضوا أنها تحل محل الكلمات أو العناصر اللغوية التي يستخدمها الإنسان العادي. وسوف نناقش مدى صحة هذا الافتراض فيما بعد.

ب - اعتمد الباحثون في تدريب الحيوانات اعتمادًا كبيرًا على استخدام منهج الاشتراط الإجرائي Operant Conditioning على نحو مباشر، وبهذا تعلمت الحيوانات الترابط الصحيح بين إشارة Sign أو رمز Symbol وماتشير أو ترمز إليه. وفي كل مرة يحدث فيها هذا الترابط الصحيح يثاب الحيوان (أو يعزز) بجرعة من طعامه المفضل.

ج ـ استفاد الباحثون أيضًا من قدرة القردة على التعلم بالمحاكاة، ولهذا شجعت الحيوانات على تقليد مايقوم به المدرب من أنشطة وحركات في موقف التعلم.

د ـ بالإضافة إلى الأساليب المستخدمة في تعليم عناصر اللغة ذاتها، ركز بعض الباحثين (وخاصة جاردنر وزوجته) على ضرورة توافر قدر كبير من التفاعل الاجتماعي بين المدربين والقردة إذا كان علينا أن نجري موازنة عادلة بين الإنسان والحيوان في قدرة كل منهما على اكتساب اللغة. وقد اشترط بعضهم أن يقترب هذا التفاعل الاجتماعي من حيث الاستمرار من مواقف التعلم الحقيقية عند الإنسان (كما يحدث بين الوالدين والطفل) حتى تتوافر فرص دائمة لممارسة اللغة. ومن ثم يجب أن يتجاوز ذلك المواقف الاصطناعية داخل المعمل إلى خبرات الحياة المعتادة. ولم يتحقق هذا الشرط المهم إلا في بحوث جاردنر وزوجته (وفي تدريب قِرْدتهما المفضلة واشو فحسب) حيث اشترطا أن تظل خبرة القردة مع المدربين متصلة طوال ساعات اليوم، وأن تكون اللغة المستخدمة في وجود الشمبانزي طوال الوقت هي لغة الصم (ASL)، وأن يمتد التفاعل بين الحيوان والمدرب ابتداءً من استخدام فرشاة الأسنان وحتى التدريب على الإخراج.

مناقشة بحوث اكتساب اللغة عند الحيوان

حظيت التجارب التي أجراها الباحثون حول اكتساب الشمبانزي والغوريللا لغةً من نوع ما باهتمام كبير في وسائل الإعلام الجماهيرية، وخاصة في الصحافة والتلفاز طوال العقد الماضي. وبالطبع غلب على عرض النتائج لجماهير القراء والمشاهدين طابع الإثارة الذي تجاوز في كثير من الأحيان حدود الدقة العلمية والحذر المنهجي، وسوف نحاول في هذا القسم من البحث مناقشة هذه البحوث في ضوء السؤال الجوهري والحاسم: هل ماتعلمته الحيوانات في هذه البحوث وغيرها هو لغة بالفعل؟

1ـ التمييز بين نظام اللغة ونظام التواصل أو التخاطب

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نميز بين التواصل أو التخاطب Communication واللغة Language. فالمفهوم الأول أشمل وأعم ويشمل اللغة بين مايشمل من أساليب غير لغوية. والتواصل غير اللغوي Non-verbal Communication هو مايستخدمه بالطبع الحيوان والإنسان المعوق لغويًا (كالأصم). وتتوافر في علم النفس التجريبي الحديث ثروة هائلة من المعلومات عن تواصل الحيوان. وقد درس الباحثون التواصل لدى بعض أنواع الطيور واللافقاريات (وخاصة النمل والنحل)، والثدييات (وخاصة القردة والكلاب). ولعل رقصات النحل ومعانيها من أشهر مايتلئ به التراث النفسي (السيكولوجي) (راجع مثلاً فوس 1972م صفحات 253-254). وما توصل إليه الباحثون في هذا الصدد يمثل بعض ما اكتشف من سنن الله في السلوك الحيواني؛ فهو فطرة الحيوان في التواصل والتخاطب مع أفراد النوع، ويمثل كل منها ما يسمى في علم الوراثة الحديث «السلوك المميز للنوع»؛ فهي تختلف في الطبيعة من ناحية، وفي درجة التعقيد من ناحية أخرى. وفي سلوكها من خصائص الاستقلال والانفصال بين الأنواع، أكثر مما فيه من الاستمرار والاتصال الذي افترضته نظرية التطور المعروفة عند داروين في القرن الماضي.

واللغة هي أسلوب التواصل والتخاطب عند الإنسان العادي، الذي خلقه الله سبحانه وتعالى في أحسن تقويم، ولهذا فإننا نُخرج من سياق المناقشة الحالية حالات النقص أو العجز اللغوي (كالصم والبكم) فهي موضوع دراسة مستقلة. ومعنى ذلك أن أي حديث عن اللغة البشرية لا بد أن يضعها في سياقها الصحيح كما حددها الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة موضوع هذه الدراسة: وعلّمَ آدم الأسماء كلها. البقرة: 31. فهي لغة لفظية Verbal كلامية منطوقة Vocal Utterable، عناصرها من الألفاظ التي تنتمي إلى فئة الكلام القابل للنطق، ولهذا تسمى الكلمات. والتسمية Naming ـ التي يشير إليها النص القرآني ـ لا تكون إلا بالكلمات اللفظية، فالاسم Name بحكم تعريفه هو كلمة تدل بذاتها على شيء محسوس أو غير محسوس، وفيه التجميع Grouping والتصنيف Classification وتكوين المفهوم Concept والتعميم Generalization. ويتم ذلك كله بمستويات متزايدة متتابعة من التجريد Abstraction. وبالتسمية ينتقل السلوك اللغوي عند الإنسان إلى مستويات أعلى من التواصل أو التخاطب (النحو، الأسلوب والبلاغة، الإبداع... إلخ).

اللغة سلوك إنساني فطر الله ـ سبحانه وتعالى ـ البشر عليه . ولا يمكن عد ما يكتسبه الحيوان من مهارة النطق بالكلمات «لغة» ، بسبب حدود الفطرة الحيوانية ، التي لا يمكن أن تتجاوزها طرائق التدريب والتنمية مهما بلغت جودتها

2ـ طبيعة اللغة

اللغة إذن سلوك إنساني فطر الله ـ سبحانه وتعالى ـ البشر عليه. ومادتها الأساسية الكلمات Words التي تتألف من الحروف الأبجدية للغة. وتتكون هذه الحروف من الأصوات الكلامية التي تسمى الفونيمات Phonemes. ويولَد الطفل السويّ مزوداً بالقدرة على إصدار جميع هذه الأصوات، إلا أنه مع نموه في ثقافة معينة يتحدد مايصدر عنه من هذه الأصوات تبعًا للأبجدية التي تتألف منها لغة هذه الثقافة. وفي جميع الحالات فإن مايحمل المعنى هو الكلمة وليس الحرف الأبجدي أوالصوت الكلامي (الفونيم)، ويوجد تراث هائل من البحث حول نشأة اللغات وتطورها ونموها وتدهورها لا يتسع له مقام البحث الحالي، كما يوجد تراث متزايد في السنوات الأخيرة من البحث في مجال علم اللغة وعلم النفس اللغوي لا يتسع المقام له أيضًا. والخلاصة التي يمكن أن نصل إليها هي تأكيد مسألة فطرية السلوك اللغوي، وهي قضية لم تعد موضع خلاف بعد زوال المدرسة السلوكية من الميدان، وسيطرة الاتجاه المعرفي على علم النفس المعاصر. فمعظم علماء النفس في عصرنا مقتنعون بأن اللغة إمكانٌ فطري أو استعداد لدى الطفل البشري، وهي خاصية مميزة للنوع الإنساني Homo Sapiens تجعله مستقلاً ومنفصلاً عن الأنواع الأخرى. وتوجد مجموعة من الأسباب تدعم هذا القول (Lachman, Lachman & Butterfield 1979) هي:

أـ عمومية اللغة في السلوك البشري: لقد تأكد أن كل مجتمع إنساني مهما كان بدائيًا لديه لغة لفظية من نوع ما، وجميع الأطفال يكتسبون اللغة تلقائيًا دون تدريب شاق، بل إن معظم الصم والمتخلّفين عقليًا يتعلمون بعض اللغة البشرية المعتادة. وعلى العكس من ذلك لا يوجد نوع غير بشري مهما كان ذكيًا لديه قدرة لغوية. والأدلة التي قدمت في القسم السابق من هذا البحث لا تقدم برهانًا مقنعًا على أن اللغة يمكن أن تصدر عن الحيوان، وهذا ماسنناقشه في القسم التالي.

ب ـ علاقة اللغة بالعوامل العضوية (الفسيولوجية) عند الإنسان: فطرة السلوك اللغوي عند الإنسان تدعمها العلاقة بينه وبين العوامل العضوية (الفسيولوجية)، فالجهاز الصوتي عند الإنسان ليس له نظير على أي نحو لدى أي حيوان، ولعل هذا ما أدى إلى إخفاق تجارب تدريب الحيوانات على إصدار لغة منطوقة. ثم إن اللغة عند الإنسان تعتمد بوضوح على نشاط النصف الكروي الأيسر في المخ، ولا نجد ذلك في أي نوع حيواني.

ج ـ فطرة اللغة تعتمد في نموها على النضج: نمو اللغة يعتمد اعتمادًا كبيرًا على النضج. والنضج بالطبع وثيق الصلة بالخبرة، فهو لا يعمل في فراغ بيئي، إلا أن الخبرة وحدها لا تكفي (فؤاد أبو حطب، آمال صادق، 1984م). والبرهان على اعتماد النمو اللغوي اعتمادًا كبيرًا على النضج جاءنا من نتائج البحوث التي أجريت على دراسة العلاقة بين القدرة اللغوية لدى الأطفال والمعالم الكبرى في النمو الحركي لديهم. ولعل مما يسترعي النظر حقًا أن الطفل حين يتخذ خطواته الأولى في المشي (وهو نشاط حركي) تصدر عنه بعد أسابيع قليلة كلماته الأولى المميزة بصرف النظر عن عمره الزمني أو مستوى ذكائه (Lenneberg, 1967). ويكاد النمو اللغوي يتوازى مع ظهور الأنشطة الحركية الأخرى، وبترتيب يكاد يتكافأ في ثباته مع ثبات النمو الحركي، ولعل هذا يشير إلى المتطلبات الحيوية (البيولوجية) الفطرية اللازمة للسلوك اللغوي. ثم إن لهذا النمو اللغوي حدًا عمريًا إذا تجاوزه الطفل دون التعرض لخبرة معينة من نوع ما يستعصي عليه تعلمها بعد ذلك. وهذا العمر الحرج يحدده لينبرج (Lenneberg, 1967) بالمرحلة من 10- 14 سنة، وهي المرحلة التي تتوقف عندها التغييرات النمائية في تخصص وظائف التصفين الكروين للمخ.

د ـ انتظام النمو اللغوي: يوجد انتظام ملحوظ في النمو اللغوي عند الإنسان. فمهما كانت اللغة التي يكتسبها الإنسان

فإن جميع الأطفال يبدو أنهم يمرون في اكتسابها بمراحل متشابهة. وتوجد بحوث كثيرة حول النمو اللغوي في ميدان سيكولوجية النمو (راجع مثلاً آمال صادق، فؤاد أبو حطب، 1987م) لا يتسع المقام لعرضها، وحسبنا أن نشير إلى مرحلة الثرثرة التلقائية Babbling التي تتبعها مرحلة النطق بكلمة واحدة، وبعدها مرحلة النطق بكلمتين، وهكذا. وينتج الأطفال سلاسل من الكلمات في صورة جمل أو أشباه جمل قبل أن يتقنوا جميع الأصوات الكلامية في لغتهم وقواعد الربط بينها (فونولوجيا اللغة أو علم الصرف اللغوي). وهذا التتابع يبدو عامًا بين الأطفال. إلا أن ما يسترعي النظر حقًا أن هذا ليس هو الترتيب الذي يتعلم به الكبار لغة أجنبية. ولعل في هذا برهانًا علميًا جديدًا على فطرية اللغة. فالكبار يبدؤون عادة بمحاولة إتقان صوتيات اللغة واستخدام الجمل النحوية الكاملة منذ البداية، ويحددون ما يتحدثون حوله بالأشياء التي يمكنهم الحديث عنها حديثًا صحيحًا، بينما يتحدث الأطفال جملاً مختصرة و (فونولوجيا) غير كاملة حول أي شيء من حولهم.. أليس في تلقائية الأطفال، واصطناع الكبار وجمودهم دليل على فطرة اللغة عند الإنسان؟!

3. هل ما تعلمه الحيوان في تجارب اكتساب اللغة يعد لغة بالفعل؟

سؤالنا الأخير يعود بنا مرة أخرى إلى تجارب اكتساب اللغة التي أجريت على الحيوانات والتي تناولناها في القسم السابق. هل ما تعلمه الحيوان لغة بالمعنى الذي عرضناه؟ الإجابة عن هذا السؤال: إنها ليست كذلك، ودليلنا على ذلك مايلي:

أ ـ غياب المحتوى اللفظي للمادة موضوع التعلم، ولعل هذا المحك وحده يكفي لاستبعاد كل هذا التراث على أنه غير مترابط، بدليل أن التجارب المبكرة حول اكتساب الشمبانزي مهارة النطق بالكلمات أخفقت تمامًا بسبب حدود الفطرة الحيوانية، والتي لا يمكن أن تتجاوزها طرائق التدريب والتنمية مهما بلغت جودتها.

ب ـ العناصر المختارة للتدريب على أنها تؤلف مادة لغوية، سواء كانت في صورة إيماءات أو إشارات، أو في صورة «أشياء من اللدائن (البلاستيك)» لا يمكن أن تعد كلمات بأي معنى من المعاني، بل قد لا تكون نظم تواصل وتخاطب بين أفراد النوع الحيواني موضوع البحث. قد تكون نوعًا من التواصل فرضها المدرب على حيواناته يتم بينه وبينها، أما أن تكون كلمات لغوية فهي ليست كذلك. وقد أشرنا فيما سبق إلى طبيعة الكلمة وعلاقتها بعمليات التسمية التي هي مدخل الإنسان إلى العمليات المعرفية المجردة الرفيعة. أما الإيماءات والإشارات والأشياء فهي ليست إلا وسائل لإظهار المعرفة باستخدام النشاط الحركي العياني المحسوس، وبالطبع قد تشير إلى بعض العمليات المعرفية عند الإنسان، إلا أن هذا النشاط يختلف كيفيًا عن النشاط المعرفي عند الإنسان، وهو ما أكدته البحوث الراهنة في مجال علم النفس المقارن.

ج ـ استخدام الإنسان لغته الطبيعية على درجة هائلة من المرونة (Chomsky)، فالمحصول اللغوي عند الإنسان غير محدد، والبنية اللغوية التي تؤلفها قواعد النحو (الجمل) تكاد تكون سلوكًا طبيعيًا فطريًا فيه. فالإنسان، إلى جانب أنه مكتسب للغة، هو مبتكر فيها أيضًا، وهو غير مقيد بحدود التدريب، ولا يتعلم الطفل محصولاً لغويًا حدوده القصوى في ذهن مدربه (الوالد أو المعلم)، كما هو الحال في تدريب الحيوان. ومرونة السلوك اللغوي عند الإنسان جاءت من طبيعة العناصر اللغوية عنده. فالإنسان يمكنه الربط بين هذه العناصر، وإعادة الربط بينها بطرق إنتاجية جديدة وفريدة ومبتكرة. وهذا مالا يستطيعه الحيوان. صحيح أن سارة وواشو ولانا أظهرت بعض القدرة على الاستخدام الجديد لبعض هذه الرموز، إلا أن ماحدث هو نوع من التعميم البسيط لا يقارن مطلقًا بالسلوك الإبداعي عند الإنسان (حتى الأطفال). أما توليد الحيوان مايشبه الجمل النحوية فلم يكن أكثر من محاكاة كاملة أو جزئية لما يفعله المدرب (Terrace Et Al 1974).

د ـ يمكن إرجاع ماتعلمه الحيوان في هذه التجارب إلى عوامل أخرى أقل تعقدًا من أن تكون سلوكًا لغويًا. لقد اتهم جاردنر وزوجته كلاً من بريماك ورامبو بأن حيواناتهما تعلمت محض الترابط بين قائمة الرموز دون أن تؤدي الخصائص اللغوية المعتادة كالبنية والمعنى دورًا واضحًا. ولكن ماذا عن قردة جاردنر وزوجته التي استخدمت في تعلمها لغة الصم؟ يبدو لنا أيضًا أن النقد نفسه يمتد إلى بحوثهما، فالحيوانات سواء استخدمت معها الأشكال البلاستيكية أو لغة الإشارات والحركات تتعلم استجابات على نحو وسيلي للوصول إلى المكافأة. فاللغة التي تعلمها الحيوان ـ إن صح التعبير ـ هي وسيلة أو ذريعة للحصول على التعزيز بل إنها كما يقول (Terrace Et Al 1974) دربت على ذلك، بينما اللغة عند الإنسان (منذ طفولته) هي سلوك فطري طبيعي يمارسه كما يمشي ويتنفس، جزء من فطرته التي خلقه الله عليها.

هـ ـ فطرة اللغة عند الإنسان تؤكدها تلك المشقة الهائلة والجهد البالغ الذي بذله المدربون في بحوث إكساب الحيوان اللغة مع ضآلة الحصيلة وضعف الناتج، إن كان يصدق عليه وصف اللغة. أما تعلم اللغة عند الإنسان فهو عملية سهلة وطبيعية وممتعة. إن الإنسان مدفوع لتعلم اللغة في ذاتها، بينما نجد الحيوانات تدفعها إلى ذلك قوى من خارجها (كالمكافأة). فتدريب الحيوان يعتمد على تعلم منبهات وليس على فهم حقيقي للغة. وحتى حين ينتج بعض الروابط بين الرموز المتعلمة (الإشارات أو الأشياء البلاستيكية) فإنه يفعل ذلك استجابة لمطالب الموقف التدريبي وليس نظام تواصل، وتخاطب مع أفراد النوع الحيواني الذي ينتمي إليه.

المراجع :

- آمال صادق، فؤاد أبو حطب: نمو الإنسان: من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1990م.
- فؤاد أبو حطب: السلوكية في علم النفس: الكويت، مجلة عالم الفكر، 1972م.
- فؤاد أبو حطب، آمال صادق: علم النفس التربوي ـ القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية (ط4)، 1993م.
- فوس، ب. م. (ترجمة فؤاد أبو حطب): آفاق جديدة في علم النفس، القاهرة، عالم الكتب،1972م
- Bourne, G. H. (ed.) Progress in Ape Research. New York: Adcademic Press, 1977.
- Brown, R. A First Language. Cambridge. Harvard University Press, 1973.
- Bunge, M. Causality. Cambridge University Press, 3rd ed., 1980.
- Chomsky, N. Language and Mind. New York: Harcourt, Brace & Javanavich, 1972.
- Fishbein, H. D. The Psychology of Infancy and Childhood. Hilsdale, N. J. , Lawrence Erlbaum Associates, 1984.
- Gardner, B. T. & Gardner, R. A. Two-way Communication with an Infant Chimpanzee. In A. Schrier & F. Stollnitz (eds.) Behavior of Non-Human Primates (vol. 4) New York: Academic, 1971.
- Gardner, B. T. & Gardner, R. A. Evidence for Sentence and Constituents in the Early Utterance of the Child and Chimpanzee. Journal of Experimental Psychology: General, 1975, 104, 244-267.
- Gardner, R. A. & Gardner, B. T. Teaching Sign Language to a Chimpanzee - Science - 1969, PP. 165, 664-672.
- Gardner, R. A. & Gardner, B. T. Early Signs of Language in Child and Chimpanzee. Science, 1975, 187, 752-753.
- Gardner, R. A. & Gardner, B. T. Comparative Psychology and Language Acquisition. Annals of the New York Academy of Science, 1978, 309, 37-76.
- Hayes, C. The Ape in our House. New York: Harper & Row, 1951.
- Hayes, K. J. & Hayes, C. The Intellectual Development of a Home-Raised Chimpanzee. Proceedings of the American Philosophical Society, 1951, 95, 105-109.
- Hulse, S. H., Egeth, H., and Deese, J. The psychology of Learning. New York: McGraw-Hill, 5th Ed., 1980.
- Kellogg, W. N., & Kellog L. A. The Ape and the Child. New York: McGraw-Hill, 1933.
- Lachman, R., Lachman, J., and Butterfield, E. C. Cognitive Psychology and Information Processing. Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum Associates, 1979.
- Menyuk, P. Language Development. In C. B. Kopp & J. B. Krakow (eds.). The Child: Development in a social Context. Reading, M.A.: Addison-Wesley, 1982.
- Patterson, F. G. Innovative Uses of Language by a Gorilla: A Case Study. in K. E. Nelson (ed.) Children's Language (vol. 2) New York: Gardner Press, 1980.
- Premack, D. A Functional Analysis of Language. Journal of the Experimental Analysis of Behavior, 1970, 14, 107-125.
- Premack, D. Intelligence in Ape and Man. Hillsdale, N. J.: Lawrence Erlbaum Associates, 1976.
- Ristau, C. A., and Robbins, D. Language in the Great Apes: A critical Review. In J. S. Rosenblatt, R. A. Hinde, C. Beer and M. S. Busnel (eds.). Advances in the Study of Behavior (vol. 12). New York: Academic Press, 1982.
- Rumbaugh, D. M. (ed.). Language Learning by Chimpanzee: The Lana Project. New York: Academic Press, 1977.
- Rumbaugh, D. M., Gill, T. V., and Von Glaserfeld, E., Reading and Sentence Completion by chimpanzee. Science, 1973, 182, 731-733.
- Savage-Rumbaugh, E. S., and Rumbaugh, D. M. Language Analogue Project, Phase11: Theory and Tactics. In K. E. Nelson (ed.)Children Language (vol. 2), New York: Gardner Press, 1980.
- Terrace, H. S., Pitto, L. A., Sanders, R. J., and Bever, T. G. on the Grammatical Capacity of Apes.In K. E. Nelson (ed.)Children Language (vol. 2) New York: Gardner Press, 1980.



الشيخ أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

مادّة المعنى والأيديولوجيا

من اللغة إلى الأدب

الأصول الثلاثة التي ذكرها ابن فارس لمادة «المعنى» في كتابه مقاييس اللغة تعود إلى معنى واحد من مادتين هما: الواوي واليائي.. وتفرع عن المادتين الفرع الرباعي «عانى» بمعنى قاسى.

فالمعنى الأولي الوضعي الأصلي الحقيقي المطابق هو الخضوع بعد مقاساة، أو المقاساة بعد خضوع.. ودليل ذلك أن العناء مشقة، وفعلها: عنا، وهو فعل واوي: عنا يعنو بمعنى خضع وذل.

ويؤيد أن المراد الخضوع بعد مقاساة أن ذلك هو المعتاد.

ويؤيد أن المراد المقاساة بعد الخضوع قولهم: أعْنِ هذا الأسير.. أي دعه حتى ييبس القد عليه.. والأول أرجح.

وكان الأول أرجح لأن المراد في أعنه أخضعه بعد المعاناة.

وجاء الفعل اليائي لازمًا كالواوي ومتعديًا.. تقول: عَنيته، وعُنيت به.. وكل ذلك بالمعنى الذي ذكره ابن فارس، وهو القصد للشيء بانكماش فيه وحرص عليه.

ووجه أخذه من الواوي أنه نفيس يُحرص عليه، ومثل هذا يُبذل له العناء.. إذن القصد في عنيت روعي فيه ابتداء القصد عن مشقة، ثم تُوسِّع به لمجرد القصد.

وأصل التصرف اللفظي أن الفعل الواوي بمعنى عنا هو، ثم تقول: عناني.. أي قصدته بمشقة حصلت لي لا له، فهو الذي شق بي.

وقيل: عناني فعنيته وعنيت به.. ولم يقل: فعنوته ليحصل معنى القصد، ولأنك لو قلت: عنوته كان المعنى أنك ألحقت المشقة به، وإنما المشقة حصلت لك.

والمعنيُّ بالياء المقصود، والمعنى بالألف المكان الذي يقصد ما فيه، ثم توسع به في المقصود ذاته.

وعنوان الكتاب ليس أصلاً مستقلاً كما ذكر ابن فارس، بل هو من اليائي، ووجهه أن يُلاحظ الدلالة العامة بالعنوان، فالعنوان إذن هو المعنى الأعم.

وكل دلالة للحرف، وكل دلالة للمفردة، وكل دلالة للجملة، وكل دلالة للكلام المركب من جمل فهي معناه، إلا أن المعنى يتنوع إلى معنى لغوي وفكري ونحوي وبلاغي.

والغالب إطلاق المعنى على مدلول الحروف والكلمات والكلام بمقتضى لغة العرب مفردة وصيغة ونحواً وبلاغة.

ومعاني اللغة صور في الذهن مسترجعة، وهي كما هي في الواقع، أو مُتَخيَّلة.

وقال الجرجاني: «المعاني هي الصورة الذهنية من حيث إنه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث إنها تُقصد باللفظ سُمِّيت معنى، ومن حيث إنها تحصل من اللفظ في العقل سُمِّيت مفهومًا، ومن حيث إنه مقول في جواب ما هو سُمِّيت ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج سُمِّيت حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار سُمِّيت هوية.

قال أبوعبدالرحمن: هذا كلام جميل إلا زعمه ثبوت المعنى في الخارج بحيث يكون حقيقة، وهذا ليس بصحيح؛ فبعض المعاني متوهَّمة بحسب معتقدات العرب وقصور علمهم وأغلاطهم، فهي دالة على مرادهم لا على حقيقة في الواقع.

وتسامح الإمام ثعلب ـ رحمه الله ـ في قوله: المعنى والتفسير واحد.

قال أبو عبدالرحمن: بل المعنى ما يراد به اللفظ في اللغة.. وكل مراد في اللغة له صورة في الذهن حقيقية أو مُتَخيَّلة أجزاؤها من الحس الخارجي والمشاعر الداخلية.

والتفسير زيادة شرح للمعنى يجمعه ويمنع من غيره بحصر أو

تقريب أو استقراء غير حاصر.

والتأويل مآل المعنى أو معنى المعنى.. قال ابن الرومي:

ويلاه إن هي أقبلت أو أدبرت

وقع السهام ونزعهن أليم

فالمعنى دلالة كل مفردة أرادها الشاعر من معاني اللغة.

والتأويل أن جمال الفتاة مؤلم في إقبالها وإدبارها على تشبيه الإقبال بوقع السهام، وتشبيه الإدبار بنزعها.

إلا أن التأويل يكون مرادفًا للمعنى الكلي، وذلك أن المعنى أدبيًا يكون كليًا يتعلق بعموم النص، ويكون جزئيًا.

والمعنى الكلي لمحة يدل عليها عنوان النص إما لكونه جامعًا للمعاني الجزئية، أو لكونه أبرز المعاني.. ولهذا فهو يرادف موضوع النص.

فمعنى قصيدة «كن جميلاً» لأبي ماضي أن في الوجود جمالاً يكسو النفس، وأن في النفس جمالاً يفيض على الوجود.

ثم يبقى لكل بيت معناه الجزئي.

وقال الأستاذ مجاهد: «المعنى وسيط يتحقق عن طريقه تنظيم الصورة الفنية، والعمل الفني.. يكون أكثر غنى إذا قبل العمل الفني عدة تفسيرات وعدة معان.. والعمل الفني بدون معنى لا معنى له، لأنه سيكون مجرد تسجيل للطبيعة تسجيلاً جامدًا دون حركة.. في مسرحية «الخرتيت» ليوجين يونيسكو: الخرتيت هو الكابوس الذي يخيم على مدينة بكاملها.. أما ما هو هذا الكابوس فيمكن أن يكون الرأسمالية أو النازية أو البلطجي أو العدو أو الحقد.. إلى آخر هذه التفسيرات. أو قد يكون جماع هذه المعاني.. فالمعنى أغنى من الفكرة التي يحتوي عليها العمل الفني، ولكي يتحقق غنى المعنى لا بد من أن يكون العمل الفني مشبعًا بالصور الموحية والرمز لإكساب المعنى خصوبته.. كما أن العمل الفني يجب ألا يكون المعنى فيه مباشرًا»(1).

قال أبو عبدالرحمن: المفقود في مسرحية الخرتيت ليس هو المعنى.. بل معنى المعنى.. أي مآل المعنى.

وأما الأيديولوجيا فقد قال عنها الدكتور محمد فريد محمود عزت: الأيديولوجية:

1ـ نسق من المعتقدات والمفاهيم يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منظور يوجه ويبسط الاختيارات السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات.

2 ـ أو: هي نظام الأفكار المتداخلة (كالمعتقدات والتقاليد والمبادئ والأساطير) التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما، وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية والنظامية، وتبررها في الوقت نفسه(2).

وقال الأستاذ مجاهد: «الأيديولوجيا هي نسق من الآراء والأفكار التي يؤمن بها الإنسان في مجالات السياسة والتشريع والأخلاق والجمال والدين والفلسفة إلخ.. إنها نظرة إلى الحياة.. وأيديولوجية العمل الفني هي بعده الإنساني وعلوه على كل ما هو جزئي ووقتي وجزئي.. إن الفن انحياز..الفنان ليس محايدًا، إنه صاحب موقف، لكن هذا الانحياز في العمل الفني انحياز للإنسان في كليته، وانحياز لتقدمه وتطوره وإنسانيته.. والأيديولوجيا في العمل الفني يجب ألا تكون مفروضة عليه من الخارج، فإن إرجاع الفن إلى بيان مذهبي يسيء إلى فنية العمل ويفرض عليه قيمة خارجية.. العمل الفني دائمًا أغنى من أية أيديولوجيا.. فإذا كان موضوع العمل الفني هو الحب فإن الحب أغنى من زاوية النظر إليه.. وإذا كان العمل الفني هو عمل إنساني يمجد الإنسان فإنه أغنى من مجرد النظرة التاريخية المؤقتة.. إن الأيديولوجيا تاريخية ووقتية ومشروطة، والفن إنسانية وكلية ولا زمانية.. الفن تعبير عن المطلق الذي يتجاوز اللحظة الوقتية.. الفن حقًا منحاز لكنه انحياز للإنسان في عمومه وشموليته.. إنه تعبير عن الإنسانية»(3).

قال أبو عبدالرحمن: الأيديولوجيا ليست قيمة جمالية في العمل الفني إلا في حالات يفرض فيها موضوع النص أن يكون صادرًا عن ثقافة وتميز مذهبي للأديب.

والأيديولوجيا فيما عدا ذلك ظاهرة تكشف عن انتماء الأديب، وتدل على فنيته إذا حَوَّلها من لغة فكرية إلى لغة جمالية.

وليس من الشرط أن يكون الأديب منحازًا إلى مذهب، وليس من المعقول أن يكون بلا مذهب.. إذن الأيديولوجيا الأصيلة ما صدرت عن قناعة وأهلية دون أمَّعية.

وعلى هذا فلا يُتوقع من الأديب ذي الثقافة الواسعة والفكر الأصيل أن لا يكون محكومًا بأيديولوجيته في القيمة المنطقية للنص الأدبي، بل هذا شرط أصالته.

وإنما المطلوب أن لا تكون أيديولوجيته مباشرة، بل بالإيحاء واللغة الجمالية.

ومن الأساليب العائمة قول الأستاذ مجاهد: الفن تعبير عن المطلق.. إلخ.

قال أبو عبدالرحمن: الإطلاق ها هنا معنى فلسفي للتجريد، فالبيت من دون بيت معهود، والفرس من دون فرس معهودة تجريد عمومات لا يتميز بها شكل فردي.

وربط الفن بالمطلق دعوى تُدعى عليه، بل الجزئي والمطلق موضوعان للفن.. والسمو الفكري، والعبقري للمضمون، والأداء الجمالي شكلاً هما القيمة الفنية للنص الأدبي سواء عَبَّر عن الجزئي أو الكلي.. عن المشخص أو المطلق.

الهوامش:

1ـ دراسات في علم الجمال ص 36.

2ـ قاموس المصطلحات الإعلامية ص 232 ـ 233، دار الشرق.

3ـ دراسات في علم الجمال ص 36 ـ 37.

الغيبة

آفة المجتمعات المتخلفة

د. نوره صالح الشملان

من الآفات القاتلة التي يعاني منها المجتمع بصورة عامة، والمجتمع النسائي بصورة خاصة: الغيبة، وهي ذكر مساوي الآخرين والتندر بها، وتناقل أخبارهم الخاصة وجعلها موضوعًا لحديث يتسم بالسخرية أو الاستنكار أو الاحتقار أو مجرد إثارة النقاش.

وموقف الإسلام من المغتاب واضح صريح؛ فقد حرّم القرآن هذا السلوك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: *يا أيُّها الذين آمنوا اجتنبُوا كثيرًا من الظّنّ إنّ بعضَ الظن إثمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يغتَبْ بعضكم بعضًا أيحبُّ أحدكم أن يأكلَ لحم أخيه ميتًا فكرهتُمُوهُ واتقوا الله إن الله توّاب رحيم.* **الحجرات**: 12. تأمل عزيزي القارئ هذه الصورة البشعة المنفّرة التي صوّر بها الحقّ - سبحانه وتعالى - المغتابَ. وهل توجد صورة أكثر تنفيرًا من صورة رجل يأكل جثة ميتة؟!

ونهى الرسول الكريم عن اتباع المسلم عورات أخيه المسلم فقال: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موؤودةً من قبرها»(1). وقال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ المسلم على المسلم حرام: دَمُه ومالُه وعرضُه»(2). وقال: «يا معشر مَنْ آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه»(3).

وقطع الرسول الكريم الطريق على المدّعين أن العيوب إذا كانت موجودة في الشخص فلا يعدّ الحديث عنها غيبةً حين قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته وإن لم يكن فيه، فقد بهتّه»(4).

والغيبة آفة اجتماعية يكثر انتشارها في المجتمعات الفارغة التي لا تجد ما تشغلَ به نفسها إلا الحديث عن الناس وذكر عيوبهم، بل البحث عنها، وتضخيمها وترويجها.

والعرب القدماء احتقروا المغتاب واستدلوا من سلوكه هذا على كثرة عيوبه ووضاعة أخلاقه.

يُروى أن رجلاً دخل مجلس أحد الأشراف وأكثر من الحديث عن عيوب بعض الناس، فقال له صاحب المجلس: لقد استدللتُ على كثرة عيوبك بما تكثر من عيوب الناس، لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها.

وقديمًا قدّم الشاعر نصيحته للمغتابين قائلاً:

لا تَهتِكَنْ مِنْ مساوِي الناسِ ما سَتَرُوا
فَيَهتكَ اللهُ سترًا من مَسَاوِيكا
واذكر محاسِنَ ما فيهم إذا ذُكِروا
ولا تَعِبْ أحدًا منهم بما فِيكا

والغريب أن بعض المغتابين يَنْسَوْن عيوبهم ويتناسون أن الصفات التي جعلوها مساويَ لغيرهم موجودة فيهم، وصدق الشاعر الذي قالَ ناصحًا:

ابدأ بنفسك فانهها عن غَيِّهَا
فإذا انتهتْ عنه فأنت حَكِيمُ

وقال أحد الحكماء وهو محمد بن السّمّاك: تجنَّب القول في أخيك لخلتين: أمّا واحدة فلعلك تعيبه بشيء هو فيك، وأما الأخرى فإن يكن الله عافاك مما ابتلاه كان شكرك لله على العافية تعييرًا لأخيك على البلاء.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: اذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، ودع ما تحب أن يدع منك.

ما أجملها من نصائح وما أثمنها لو تدبرناها وطبقناها لفزنا بالنجاح في الدنيا والآخرة.

دخل قوم على أحد رجال العرب المشهورين بالحكمة وهو عمرو بن عبيد (ت: 144هـ) فقالوا له: اغتابك فلان ووصمك بعيوب رحمناك من أجلها. فقال: إياه فارحموا.

والرجال يتهمون النساء بأنهن يمارسن الغيبة من دون وعي بخطورتها وحرمتها، فكأن الغيبة هي المفتاح الذي يلجن منه للحديث عن شؤونهن، فكثيرًا ما يبدأ المجلس بهذه العبارة: (سمعتوا فلانة ماذا فعلت؟)، أو: (يقولون إن فلانة على خلاف مع زوجها بسبب أمِّه)، أو: (ما سمعتوا آخر أخبار فلانة بعد طلاقها وزواجها من قريب زوجها الأول).

وهكذا تدلي كل واحدة بدلوها وتسهم في العيب في فلانة وفلانة.. وينفضّ المجلس وقد ازدادت معلومات كل واحدة منهن بما يستحق أن يُنشر في مجالس أخرى.

لو تمثلت كل واحدة منا مائدة الميت التي ذكرها الحق - سبحانه وتعالى - لامتنعت عن ذكر الآخرين إلا بما يحبون أن يستمعوا إليه.

هدانا الله جميعًا سواء السبيل، وجعلنا من المتمسكين بالأخلاق الإسلامية التي تنير لنا الطريق وتضع أقدامنا على ما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة.

الهوامش:

1- حديث متفق عليه، راجع تفسير ابن كثير لسورة الحجرات.
2-3- راجع تفسير ابن كثير لسورة الحجرات.
4- صحيح مسلم، كتاب البر.



الأديب والناقد
علي عقلة عرسان

الثقافة فِعلٌ مقاوم وليس مُحايدًا!

أجراه من قسم التحرير: **حسين حسن حسين**

حين يضيق الوقت، وتتعدد مجالات إبداع الضيف الذي تحاوره، فإنك تجد نفسك ـ بوصفك المُحَاوِر ـ إزاء معادلة صعبة، وهذا ما واجهته عندما تأبطت أوراقي وذهبت كي أجري حوارًا مع الأستاذ علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب بدمشق في أثناء فعاليات المهرجان الوطني للتراث والثقافة الذي انعقد في شهر ذي القعدة الماضي. فالرجل متعدد المواهب، وافر النتاج في أجناس إبداعية متعددة؛ فهو يكتب المسرحية والشعر والرواية، وله دراسات ثقافية وفكرية، وأعمال متنوعة في وسائل الإعلام المختلفة، إلى جانب كونه مخرجًا مسرحيًا متخصصًا، وكان من الطبيعي أن يكون برنامج الأستاذ عرسان حافل النشاط طوال أيام المهرجان منذ أن ألقى كلمة اتحاد الكتاب العرب في يوم الافتتاح، وحتى ليلة الختام.

ومن ثم لم تكن الفرصة مواتية لحوار يحيط بالقضايا التي يمكن أن تُثار مع مثقف مثله، مثقل بهموم الثقافة العربية، من موقع المعايشة والمشاركة الإيجابية في طرحها وتداولها، وهي على ما هي عليه من الاتساع والتشعب. لذلك كله لم يكن هناك خيار سوى الرضا بمس سطح بعض هذه الهموم مسًا خفيفًا على أمل لقاء أعمق وأكثر شمولاً، فكان هذا الحوار:

ـ قرأت لكم مقالة مطولة بعنوان «الثقافة فعل مقاوم»، وخرجت منها بانطباع مؤداه: أنكم تريدونها ثقافة عربية أصيلة تقف في وجه محاولات التغريب. هل لكم أن تزيدوا القراء إيضاحًا بما تعنونه بهذا الوصف للثقافة؟

* الثقافة من مفهومها الذي يعني، فيما يعني، الدفع باتجاه سلوك ووعي وممارسة أكثر تطورًا، وأقرب إلى التحضر والتمدن والتزام القيم، تحرص دائمًا على أداء أفضل، وتقاوم دائمًا كل المعوقات، هذا في المجال الإنساني العام. ولكن الثقافة فعل مقاوم في الظروف التي نمر بها في الوطن العربي، فهي تشتمل على مقوّمات المقاومة التي ترفض صور التشويه التي يراد إلحاقها بثقافتنا، وتنبذ الأوصاف والمفاهيم الجائرة التي يصمنا بها أعداؤنا. فالثقافة العربية الإسلامية بمفهومها الشامل، وبقيمها ومقوّماتها وعطاءاتها، هي ثقافة مقاومة لكل أشكال التبعية، لأنها ترفض أسباب الخلافات بين الأشقاء العرب، وترفض التبعية للمركزية الثقافية الغربية، أو لأي مركزية ثقافية أخرى، لتكون ثقافة نابتة من أرضها، وفي تربتها، تحيط بموضوعات إنسانها، وبما يهم الوطن والأمة، ومنتمية بكل معاني الانتماء من دون أن تنغلق على نفسها، ومن غير أن تنعزل عن الآخرين، وإنما تخوض عملية المثاقفة من موقع الثقة بالنفس، والقدرة على الأخذ والعطاء، بانفتاح واعٍ من دون أن تُجتَثّ من جذورها، أو تُشوّه مرجعيتها.

فالثقافة العربية الإسلامية ثقافة مقاومة لكل محاولات إلحاق الهزيمة بأعماق الإنسان العربي، لقهره من الداخل قبل أن يُقهر في ساحات المواجهة، وهي ذات شخصية مقاومة تحافظ على الصلابة الروحية والوجدانية لإنسانها، وتحافظ على ذاكرته وقيمه ومقومات وجوده.

ومن هذا المنطلق، فإن الثقافة فعل مقاوم، ولكن ينبغي أن ينتقل خطابنا الثقافي من الانفعالية و«الشعاراتية» إلى ترجمة الطروحات إلى سلوك وفعل وعمل، لذلك فعلى المثقف حين يدعو إلى مقاومة كل أشكال التخلف والتبعية أن يكون هو في المقدمة، مجسّداً أفكاره وطروحاته، وألا يرضى أن يكون بوقاً في أسواق الكلام، أو سلعة تُباع وتُشترى.

والثقافة بهذا المعنى فعل مقاوم وليس محايداً، لأنها تنحاز إلى خيار الأمة وتصون مقومات شخصيتها، وتتحول إلى عملية ممارسة، وسلوك تطبيقي من أجل تغيير الواقع ليصبح أفضل مما هو عليه، ولا يكون ذلك إلا حين تتشرب الدواخل المعاني الحقّة للثقافة، مصداقاً لقوله تعالى: إنّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتّى يُغيِّرُوا ما بأنفُسهم. الرعد:11.

ـ إن هذا يعني أنَ تتوافر الثقة في ثقافتنا العربية الإسلامية. فإلى أي حد توافرت هذه الثقة، حتى تكون الثقافة قادرة على الاستقلالية، وقادرة على التفاعل مع الثقافات الأخرى من دون أن تذوب فيها؟

* علينا أن نحاول أن ننمّي الثقة، وأن نحشد لها ذواتنا، ولاسيما أن المقومات متوافرة، والواجب على المثقف العربي أن يصوغها في رؤى ومواقف تجعله معتزاً بما يملك وقادراً على المجابهة. وهذا لا ينفي على الإطلاق أننا نحتاج إلى الآخرين من أصحاب الثقافات الأخرى. نحن ـ في الواقع ـ نحتاج إليهم ونحتاج إليهم كثيراً، وإنما يجب أن نأخذ بوعي، ونترجم ذلك إلى فعل متمثل من داخلنا، من غير تقليد أعمى أو نقل عشوائي، أو تبعية، وإنما بوعي بما نحن فيه، وبما نحتاج إليه. وأن نتفاعل مع الآخر من موقع الثقة، لأننا إذا استخلصنا من تاريخنا ـ ومن تاريخ الأمم، ومن ثقافتنا ومواجهاتها مع الثقافات الأخرى عبر التاريخ ـ استخلاصات سليمة، سنجد أن كل مقومات الثقة، ومقومات الإرادة متوافرة لدينا، فلماذا لا نكون كما نريد؟، لا شك أن التقصير والعيب فينا نحن لا في ثقافتنا.

ـ مادام الحديث عن التفاعل مع الآخرين، فهناك انحسار واضح في مساحات الحوار المباشر بين المثقفين العرب، حتى لينطبق عليهم وصف «كلٌ يغنّي على ليلاه». وبوصفكم كاتباً ومثقفاً عربياً، إلى أي حد يصدق هذا الوصف؟

* في الواقع توجد فرص لقاء وحوار بين المثقفين العرب، ولكنها ليست بالكثافة المطلوبة، وليست بالصورة التي كانت عليها في زمن مضى، ولا شك أننا نحتاج إلى دخول شيء جديد في مناخ الحوار وفي حيثياته ونتائجه ومساراته، حتى يفضي هذا الحوار إلى نتائج عملية، وإلى تغيير، وإلى تقريب هذا المثقف من ذاك. وفي تقديري، لن يتم هذا إلا على أرضية مراجعة قوية وشجاعة للذات بين التيارات الثقافية والسياسية الموجودة، لاكتشاف القواسم المشتركة، وذلك بنبذ كل «عصبية» تدَّعي أن الحق عندي وليس عند الآخر. فالحقيقة قد تكون عندك أو عندي وقد تكون عند شخص ثالث. وأن ندخل الحوار أيضاً ونحن نحترم حق الآخر في المخالفة، وأنَّ لديه ما يقوله لنا، وما يمكن أن نستفيده منه، ولدينا كذلك ما نعطيه، ومن ثم ينبغي أن ندخل الحوار، ونحن على استعداد لتقبل الرؤية الجديدة حين تتشكل، من غير أن «نتغطرس» في مواقفنا، ثم نتراشق بالكلام، فهذه قضية شروط مناخ الحوار وشروط المتحاورين وأهداف الحوار في الوصول إلى نتائج طيبة، وهذا ما نحتاج إليه بشكل أفضل.

علينا أن ندخل الحوار ونحن نحترم حق الآخر في المخالفة، وأن نكون على استعداد لتقبل الرؤى الجديدة

ـ ضيق مساحات الحوار بين المثقفين، ترجعه بعض الآراء إلى وجود مثقفين يتبنون قضايا قد تكون هامشية، أو أنها تخص آخرين؟

* تعني أن يكون المثقف تابعاً أو متبنياً لسياسات ومذهبيات فكرية (أيديولوجيات) معينة مستوردة يحاول أن يفرضها على غيره.

ـ هناك من يرى ذلك، فما رأيكم؟

* حقيقة، نحن نعاني في الساحة العربية من هذا الأمر، والمثقفون ينبغي لهم التمسك بمصالح وقيم وتطلعات عليا مشدودة بالدرجة الأولى إلى مصلحة الوطن والأمة، وعليهم ـ كذلك ـ ممارسة حرية مسؤولة، تنقي الأجواء، وتجعلها ساحة صحية للحوار، بدلاً من اللجوء إلى تسجيل المواقف، وتوجيه الإنذارات بأبواق تصدح لصالح الآخرين.

ـ ما حقيقة ارتباط بعض هذه الأسباب بوجود فجوة، بل جفوة بين أجيال المثقفين؟

* أنا لا أستطيع أن أجزم أن هذا شيء مشترك في الساحة العربية، فالتواصل موجود بين بعض الأجيال، ولكن لابد أن تَغَيُّر الرؤى من جيل إلى آخر، يداخله بعض الاعتراضات؛ ففوارق السن لها أحكامها، إذ يمكنك أن تقبل ما لم يكن يقبله جدك، فهذا أمر طبيعي، ولكن نحن نريد أن يكون الجيل الكبير كتلك الشجرة الكريمة التي تستنبت غرسها في خواصرها، وتغذيه حتى يكبر، وأن يكون الجيل الجديد حريصاً على سلامة هذه الشجرة وبقائها، لأنها التي تغذيه، ثم تفسح له مجالاً للاستمرار، فهذه العملية مطلوبة وجيدة.

ـ هناك أسئلة كثيرة تُثار حول فعالية المثقف في عملية التغيير الاجتماعي، تُرى كيف يكون المثقف العربي فاعلاً في هذا الجانب مع وجود تشكيك في قدرته على القيام بهذا الدور؟

* إذا خالف سلوك المثقف قوله، انطبق عليه قول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثلَه
عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيم

فإذا لم يقم المثقف بترجمة قناعاته إلى سلوك وفعل يومي يتأثر به الناس، ويقتدون به،

الثقافة فعل مقاوم وليس محايداً!

فإنه لن يكون مؤثراً في مجتمعه، ولكن ليس المطلوب من كل مثقف أن يكون عاملاً في مجال اجتماعي معين، فهو يدعو أحياناً إلى رؤية قد تكون أكبر من طاقته على التنفيذ، وعليه، فإنني أرى أن الثقافة، والأدب بشكل خاص، لهما دورهما في التغيير الاجتماعي، ولهما وظيفة اجتماعية، ولكن علينا أن نحسن الاستفادة، وأن نحسن الإفادة في آن واحد.

- ما دمتم قد ذكرتم الأدب، فإن آراء كثيرة تصرح بوجود انحسار في مجال الإبداع الأدبي في العالم العربي؟

* نعم، تراجعت بعض الأجناس الأدبية وقلّ تأثيرها، كما هو الحال في الشعر والقصة القصيرة.

- لماذا؟

* الأسباب متعددة، بعضها يتعلق بالخطاب الشعري ذاته، أي بقدرة الشاعر على التوصيل والتأثير، وبوجود كَمّ غزير من الشعر لا يحتوي على مقومات الشعر وقيمه، لتناوله بعض القضايا التي لا تهم الناس أحياناً، أو لاستخدامه خطاباً لا يصل إلى الناس. وبعض الأسباب تتعلق بالقُرّاء وانصرافهم عن القراءة، لمتابعة أجهزة التلفاز، أو لاشتغالهم بأمور حياتية أخرى تأخذ كثيراً من وقتهم.

إذن، لا يمكن إنكار وجود قصور في بعض مجالات الإبداع، لأسباب تتعلق بالمبدع نفسه، وأخرى تعود إلى المتلقي، إلى جانب ما يتعلق منها بالمناخ العام. فالشعر - مثلاً - لم يعد يهز الشارع العربي إلا في بعض الحالات الاستثنائية، نعم هناك كم غزير من النتاج يُحسب على الشعر، إلا أن القليل منه هو إبداع شعري بالفعل.

وإذا كان تراجع الكم الإبداعي واضحاً في مجالات كالقصة القصيرة والشعر، إلا أن الأمر يبدو أفضل في الرواية، وفي المسرحية، كما أن الإقبال على الدراسات في الوطن العربي يتعاظم كثيراً، فالاهتمام يتزايد بالنتاج الفكري سواء كان سياسياً أو فلسفياً، أو غيرهما، كما أن الإقبال على التراث يسترعي الانتباه، إذن يتصل الإبداع بالجودة أحياناً، وبالتركيز على جوانب إبداعية معينة في أحيان أخرى.

- هذا الاهتمام الواضح بالتراث، ما مرده في رأيكم؟

* الساحة الثقافية والفكرية تشهد نوعاً من المرجعية التي تريد أن تتواصل لتنمي الأصالة وتحافظ عليها، وتوجد رغبة في معرفة تراث حُكم عليه من غير أن نعرفه، وهناك - أيضاً - نوع من الاستذكار لمقومات صلابة الأمة والدفاع عنها، والدفاع عن قيم الانتماء والأصالة للعودة إلى الأصول الثقافية والمعرفية والقيمية والتشريعية، وهذه العودة هي - بلاشك - عودة إلى الشخصية، ولكنْ تنبغي الإشارة إلى أنه ليس كل التراث على درجة واحدة، كما أن كل الناس ليس لديهم الإحساس بضرورة العودة إلى التراث.

- هذا الاهتمام بالتراث، يقابله في الجانب الآخر دعوات إلى التجديد والمعاصرة تتغافل عن التراث أو تغفله!

* هذا صحيح، وهذه دعوات لاجتثاث كل تواصل مع التراث بوصفه - كما يزعم أصحابها - كتب صفراء تم الحكم عليها سلفاً، وهذه الأحكام المسبقة لا أُقرّها، ولا أتبناها، وأرفضها تماماً، لأنني إذا أردت أن أخرج على شيء وأثور عليه وأحطمه، فيجب أن أعرفه أولاً، وأقرر بعد هذه المعرفة إن كان يستحق التدمير أو لا يستحق، وأعرف كيف أمتلك الأدوات، وأعرف على ماذا أثور، ولماذا أثور؟ وماذا أريد أن أحقق بعد هذه الثورة؟ إذا كان هدفي من هذه الثورة التجديد، فإنه لا تعارض البتة بينه وبين الأصالة، بل هو مطلوب بإلحاح في إطار الأصالة.

- إذا اعترفنا بانحسار الإبداع، فإن الحركة النقدية أكثر قصوراً في متابعة النتاج الإبداعي، هل تتفقون مع هذا الرأي؟

* نحن نعرف دائماً أن الإبداع سابق للنقد، وأعلم بوجود شكوى كثيرة ومستمرة من عدم متابعة الحركة النقدية للحركة الإبداعية، إضافة إلى اتهامات تتمحور حول ممارسة الناقد لنوع من الأستاذية والتعالي من دون أن يستطيع إقناع القارئ أو المنقود - أي المبدع -.

وفي تقديري أن دور النقد هو إظهار مفاهيم وتقديم تفسيرات للنص، وإغناء العمل الإبداعي، والوقوف عند نقاط كثيرة تستحق أن تُنقد، ولكن بحجة وبرهان، وبمعرفة حقيقية، من دون اللجوء إلى استخدام مكثف وغير مسوّغ لاصطلاحات تدل على نوع من التعالم والأستاذية أكثر من كونها نقداً مقنعاً وموضوعياً. فالناقد عليه أن يكسب ثقة المبدع، وثقة القارئ، وأن يكون قادراً على إضاءة جوانب النص ليفهمه المتلقي، وليتذوقه، حتى يتعامل معه بشكل أفضل، وعليه - كذلك - أن يكون قادراً على إنضاج تجربة المبدع. ومما لا شك فيه أن نقاداً كثيرين يفتقدون إلى هذه القدرات، كما تعاني الحركة النقدية من تطفل بعض الذين لا يملكون أدوات النقد ومفاتيحه، ومن ثم لا يدركون أساسيات العملية النقدية، فيسيئون بذلك إلى الحركة النقدية، ويُحسبون عليها.

علي عقلة عرسان .. في سطور:

- تخرج في المعهد العالي للفنون المسرحية بالقاهرة عام 1963م، وأكمل دراسته الفنية في فرنسا عام 1966م.
- كتب الشعر والمسرحية والرواية والدراسة، ومن أعماله المطبوعة: ثلاث مسرحيات1971م، السجين رقم 95 (مسرحية) 1974م، الغرباء (مسرحية) 1974م، رضا قيصر (مسرحية) 1975م، عراضة الخصوم (مسرحية) 1976م، سياسة في المسرح (دراسة) 1980م، الظواهر المسرحية عند العرب (دراسة) 1981م، صخرة الجولان (رواية) 1982م، شاطئ الغربة (ديوان شعر) 1985م، دراسات في الثقافة العربية 1988م، المثقف العربي والمتغيرات، وقفات مع المسرح العربي.
- له عدد آخر من الأعمال المطبوعة، إلى جانب إعداده بعض الأعمال الإذاعية والتلفازية، كما تُرجمت بعض أعماله إلى لغات أجنبية، ولا سيما روايته «صخرة الجولان».
- أخرج عدداً كبيراً من المسرحيات، وله اهتمام خاص بالمسرح العالمي.
- رئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية، والمدير المسؤول عن مجلة الاتحاد «الموقف الأدبي»، وعضو الأمانة العامة لاتحاد الناشرين العرب.

مفهوم الزمان في مسرحية "في انتظار غودو"

د. محمد عبدالقادر مرشحة

لعل من واجبنا أن نتحدث بادئ ذي بدء عن صموئيل بيكيت، ذلك الكاتب البارز في تناوله مواضيع تمس الإنسان وجوهر الحياة بشكل خاص.

وُلدَ بيكيت ـ الإيرلندي الأصل ـ بالقرب من دبلن سنة 1906م، وتوفي في باريس سنة 1989م. وكانت نهاية حياته مأساوية؛ ذلك أنه توفي في منزل خاص بالمسنين. ولقد كان روائيًا وكاتبًا مسرحيًا مرموقًا، وناقدًا، وشاعرًا متقنًا للفرنسية والإنجليزية، وكتب بهما.

ولقد نشأ منذ صغره بين عائلة بروتستانية غنية، منعمًا بجو يسوده الورع، وتابع تحصيله العلمي في جامعة دبلن بين سنتي 1923 و1927م، ولكنه فضَّل تَرْك إيرلندا، قاصداً باريس عام 1928م، بصفته معلمًا للإنجليزية في الثانوية العالية، وليعد نفسه لوظيفة أستاذ مختص باللغات، وهكذا، فإنه سرعان ما تعرض لتأثير جويس والمذهب ما فوق الواقعي (السريالي). بيد أنه بعد عودته إلى دبلن عام 1931م، نشر مقالاً يتحدث عن الكاتب الفرنسي بروست Proust، واستطاع أن يشغل بنجاح وظيفة معيد مختص باللغتين الفرنسية والإيطالية في معهد ترينيتي Trinity، ولكنه استقال من منصبه هذا، بعدما عاش أزمة روحية ونفسية وفكرية حادة، تلك الأزمة التي جعلته يحيا حياة ملؤها العزلة القاسية. ثم استقر بعد ذلك في باريس عام 1938م، حيث شعر أنه أكثر حرية، فكتب بالإنجليزية روايته الأولى مورفي Murphy (1938م)، وهي مجموعة من الحكايات المعتمدة على الدعابة، بأسلوب كتابي جريء ولافت للانتباه. أما في عام 1941م فقد شارك في المقاومة ضد الاحتلال النازي، ومن ثم هرب إلى خارج باريس، حيث كتب بالإنجليزية عام 1942م «وات» Watt مستخدمًا أسلوبًا رمزيًا.

ولكنه ابتداء من سنة 1945م نجده يكتب بالفرنسية: فقد كتب عام 1951م روايتين متلاحقتين «مولي» Molloy، و«مالون يموت» Malon meurt 1951م، ثم اتجه إلى المسرح، واضعًا ثقته بالحركات، بصفتها الأكثر تعبيراً من الكلام الذي يعجز عن القيام بعملية الاتصال، أحيانًا. وتعد مسرحيته، التي كتبها بالإنجليزية Wating for Godot، ونقلها إلى الفرنسية تحت عنوان En attendant Godot في انتظار غودو، وليدة هذا الأسلوب الذي يعتمد على الحركات حين تعجز اللغة عن التعبير بطرقها المباشرة. فلقيت ترحيبًا شعبيًا كبيرًا، واستقبلتها مسارح العالم المشهورة: إذ مثلت في باريس عام 1953م، ولندن عام 1955م، ونيويورك عام 1956م، وفي مسارح أخرى كثيرة... وترجمت إلى ثماني عشرة لغة حية. لذلك يلقب بمكتشف مسرح العبث، ويقارن عادة بكتاب آخرين كتبوا في هذا النوع مثل آداموف Adamov وايونيسكو Ionesco وتارديو Tardieu(1). ثم نجد بيكيت ينحو نحو المسرح الخالي من الحدث، فكتب عام 1957م مسرحية Fin de partie نهاية اللعبة، التي مُثِّلت في لندن تحت عنوان End's Game، ومن ثم في باريس. ثم اقتصر على شخصية واحدة في Happy days الأيام السعيدة عام 1963م.

ومهما يكن من أمر، فإن مسرحية Wating for Godot في انتظار غودو، تبقى الأكثر شهرة بين مسرحيات القرن العشرين. وهي خالية من العقدة.

بعد أن يُرفع الستار، نجد أن الديكور رمادي، وهناك تمثال لشجرة عارية، كما أن هناك رجلاً جالسًا على الأرض، وسرعان ما نعلم أن الوقت هو المساء، والمكان هو طريق في القرية. ثم نرى رجلاً آخر يدخل إلى المسرح، وإذا ما أردنا التدقيق في هذين الشخصين فسنجدهما مرتديين زيًا يدعو إلى السخرية: هناك قبعتان مستديرتان ومعطفان أسودان، وبنطالان مخططان. ويرمز الرجل الجالس إلى الناس المسترخين في الطريق، إنه يحاول خلع حذائه. والشخص الأول فلاديمير Vladimir ملقب بديدي

Didi، وأما الثاني فلقبه غوغو، ولكن اسمه إستراغون Estragon. ونلاحظ أن الجالس أبله نوعًا ما، وأكثر بطئًا، على حين أن فلاديمير أكثر حيوية ونشاطًا، إضافة إلى أن هيئته تدعو إلى التفاؤل . ثم نعلم أن إستراغون قد قضى ليله في حفرة وأنه ضُرِبَ، ثم نجده يتوصل إلى خلع حذائه. وبما أن إستراغون وفلاديمير ينتظران غودو، فهما لا يستطيعان الانصراف، وليس لهما إلا الانتظار. لذلك فإن إستراغون يحاول أن ينسى الانتظار بأكل جزرة أعطاه إياها فلاديمير. ثم يدخل رجل مُسن ذو شعر طويل وأبيض، ومرتد مشمعًا شتويًا، وقبعة عريضة، ويحمل حقيبة وأمتعة، وقد ربط عنقه بحبل. ثم نسمع عدة جلدات وراء الكواليس. ويظهر بوزو Pozzo الرجل النبيل، ممسكًا بنهاية


صموئيل بيكيت


يوجين يونسكو

الحبل وبالسوط، وواضعًا قبعة مستديرة ذات لون كاشف، وأما الرجل الآخر الهرم المسمى لاكي Lucky فيختفي في المسرح، وحين يشاهد بوزو إستراغون وفلاديمير يتوقف، شادًا الحبل، بينما نسمع لاكي يهوي بما يحمله. وبما أن بوزو لا يريد الرحيل فإنه يطلب إلى إستراغون أن يتوسل إليه ليبقى. ويلاحظ بوزو أن إستراغون وفلاديمير ضجران، لذلك يطلب إلى لاكي أن يرقص. وبعد مدة من الزمان يرحل لاكي وبوزو. وفي هذه اللحظة نفسها يظهر صبي يعلن أن غودو لن يأتي هذا المساء، ولكن سيأتي غدًا بالتأكيد.

وإذا ما أردنا موازنة ديكور بداية الفصل الثاني بديكور الفصل الأول فسنجد أن هناك تغييرات جذرية: إذ إن الشجرات قد اخضرَّت أوراقها وامتلأت، وحذاء إستراغون ظاهر، ونرى قبعة لاكي في زاوية من المسرح. بينما يغني فلاديمير أغنية حمقاء، ويحاول انتظار غودو بملء الزمان، وبالقضاء على الصمت، وبالكلام عوضًا من السكوت، حتى لا يفكر في الأمر. ينام إستراغون لحظة، ثم يستيقظ مجددًا، بعد رؤيته كابوسًا مزعجًا. ويلعبان لعبة السيرك (تبادل القبعات): بوضع ثلاث قبعات على رأسيهما، وينتهي فلاديمير بالاحتفاظ بقبعة لاكي ويرمي بقبعته الشخصية. ثم نرى بعد ذلك لاكي وبوزو يتخاصمان وحولهما أمتعتهما، وهنا يبدو فلاديمير سعيدًا بهذه التسلية. ثم نرى بوزو وقد أصبح أعمى، مستفهمًا عن الساعة والمكان اللذين وُجد فيهما، ولكن هذه الأسئلة كلها تظل أسئلة بلا إجابة محددة. ويطلب فلاديمير إلى بوزو أن يجعل لاكي يغني قبل الرحيل، بيد أن لاكي يصبح أخرس. ثم يأتي الصبي من جديد، قائلاً إن غودو لن يأتي هذا المساء، ولكن سيأتي في الغد بالتأكيد. ويفكر الاثنان في الشيء الذي ينبغي فعله، فيقرران الانتحار شنقًا، ولكن تظهر مشكلة مفادها أن حزام بنطال إستراغون ليس صلبًا، لذلك فإنه يفقد بنطاله. ويقرران الرحيل، ولكنهما لا يستطيعان التحرك، ويسدل الستار.

وهكذا نجد أن كل شيء في هذه المسرحية عبثي أو يدعو إلى العبثية، وأن الشروط الإنسانية السيئة، زاد من سوئها وضع الإنسان داخل الزمان. ذلك أن الزمان يعني تكثير الآلام، وأن مصدر الهمّ الإضافي يبدو ناتجًا من الشك، حيث الإنسان يبدو فريسة الآلام التي يزرعها الإحساس بالتضخم الزماني، إذ إن الشخوص ينسون كل شيء، حتى ما فعلوه في الأمس القريب:

«إستراغون: لقد أتينا، أمس.

فلاديمير: آه، لا، فأنت تخدع نفسك.

إستراغون: ماذا فعلنا، أمس؟

فلاديمير: الذي فعلناه أمس».

(في انتظار غودو ص17- 18).

وهكذا فإن الشخوص يعانون داخل الزمان؛ لانعدام اليقين ولفقدان الثقة بالوجود في زمان متعارف عليه وصحيح. ولعل هذا المقطع يؤكد ما ذهبنا إليه، هنا:

«بوزو: ما هي الساعة الآن؟

إستراغون: (متأملاً السماء) إنها...

فلاديمير: السابعة؟... الثامنة؟...

إستراغون: بحسب الفصل.

بوزو: أإنه المساء؟».

(في انتظار غودو ص120).

ومما لاشك فيه أن مسرحية في انتظار غودو هي إحدى المسرحيات المهمة المجسدة لمشكلة المعاناة الإنسانية؛ ذلك أن الزمان يبدو السبب المباشر للمعاناة، ومن هنا تبدأ الآلام في مواجهة الحياة: أن يحيا المرء يعني أن يعاني. وتنصب هموم الشخوص في الطريقة التي يستطيعون بها قضاء الوقت المضني. إن إستراغون يطلب إلى صديقه أن ينادي بوزو باسم آخر أو بعدة أسماء لأن ذلك يستغرق وقتًا لا بأس به، يريحهما من معاناتهما الدائمة.

(في انتظار غودو ص117).

زد على ذلك أن الزمان هو الفراغ الدائم الذي يسبب الإحساس بالألم الإنساني المتواصل. ولعل هذا الفراغ الناتج من الإحساس بقساوة الجمود الزماني يسبب الخوف، ونتيجة لذلك فإن الشخوص يتكلمون ليتخلصوا، ويهربوا بعيدًا من هذا الإحساس الدائم:

«فلاديمير: (يبدو قلقًا) قل أي شيء...

إستراغون: ماذا نفعل الآن؟

فلاديمير: ننتظر غودو.

إستراغون: هذا صحيح.

صمت...

فلاديمير: ما أصعب هذا الأمر!...».

(في انتظار غودو ص88).

الواقع إن وصول غودو يعني إنقاذ هؤلاء، وما هذا الوصول إلا الوسيلة الفعالة للوقاية من الضجر الزماني والمكاني أيضًا. ذلك أن الغد سينصر الشخوص ضد المعاناة، شريطة أن يكون الغلام الذي يحمل البشرى متأكدًا من نبأ وصول غودو في الغد القريب. لنقرأ هذا المقطع:

إستراغون: وإن أتى؟.

فلاديمير: سينقذنا».

(في انتظار غودو ص 133).

بيد أن شخوص بيكيت ينتظرون غودو كثيرًا، آملين أن يخلصهم من هذه المعاناة الأبدية، ومن هذا العذاب العميق الذي يسببه الانتظار. لذلك نلاحظ أن المسرحية تكرر مقطعًا محددًا يلفظه البطلان الرئيسان فلاديمير وإستراغون:

«إستراغون: هيا لنغادر المكان.

فلاديمير: لا نستطيع.

إستراغون: لماذا؟

فلاديمير: ننتظر غودو.

إستراغون: هذا صحيح».

(في انتظار غودو ص109).

لعل هذا المقطع يوضح لنا أن الانتظار، عند بيكيت، يمكنه أن يشير إلى هدف الحياة، ويعني،

إضافة إلى ذلك، أن المعاناة أبدية؛ لذلك فإن السيد جانفير Janvier يعتقد في كتابه «لأجل صموئيل بيكيت» Pour Samuel Beckett: «أن فلاديمير وإستراغون سيئا الحظ، وكذلك بوزو ولاكي يجسدان أيضًا سوء الحظ بوجودهما هنا. إن الشخوص الأربعة يدورون ثم يدورون من جديد في هذا الفراغ وهذا السجن، يروحون ويجيئون في قفص الزمان، ويتكلمون لينسوا، ويتكلمون ليستمروا، ويتحركون ليشعروا أنهم على قيد الحياة، ويعرفون ويشعرون أن هذا كلّه حقيقي»(2). ثم يكتب بعد ذلك: «إن مسرحية في انتظار غودو ليست جهنم، إنما هي مكان حيادي، وأيضًا مكان لسعادة ما حاضرة بين عذاب الابتعاد من الإحساس بالرعاية الإلهية»(2).

صحيح أن مدة تمثيل المسرحية على المسرح هي المدة نفسها التي يعاني منها الشخص الممثل أثناء التمثيل، إلا أن هذا الألم ليس له مخرج أو ليست له نتيجة إيجابية، تسمح برؤية فرد متجدد أو جماعة متجددة. ويؤكد السيد مونيك بوري Monique Borie، في مقاله الذي يحمل عنوان «بناء الزمان المسرحي عند بيكيت» Structure du Temps theatral de Beckett والذي نشر في مجلة العلوم الإنسانية Revue des Sciences humaines، عام 1972م: «نفهم جيدًا أن الشخوص عند بيكيت يعيشون عبر زمان المسرحية، وأن معاناتهم تُفَسَّر على أنها ألم صاف وخال من كل معنى واضح»(3).

والحق أن الإنسان في مسرحية «في انتظار غودو» يعاني من الانتظار، منتظرًا اسم غودو، أو مجيء غودو، أو كلامه. ولعلنا نتساءل عن السبب الذي جعل كلا من فلاديمير وإستراغون ينتظران، لذلك ينبغي لنا أن نعرف أن البداية كانت بسبب الظروف السيئة لكل واحد منهما. ولعل المعاناة الكاملة والأبدية تلخص كلامنا هذا. لنقرأ هذا المقطع:

«فلاديمير: أتتألم؟

إستراغون: أتألم ! يريد أن يعرف إن كنت أتألم!

فلاديمير: (بنزق) ليس هناك من يعاني إلا أنت! أما أنا فلا أحسب، لكنني مع ذلك أحب أن أراك في مكاني، وستخبرني بعد ذلك.

إستراغون: أتألمت؟

فلاديمير: تألمت! يريد أن يعرف إن كنت تألمت».

(في انتظار غودو ص11).

ومهما يكن من أمر، فإن الانتظار حالة يسودها الغموض الذي يسمح بتحمل الألم الناتج من الإحساس بوطأة بطء مرور الوقت. وأغلب الظن أن الإحساس بوطأة المعاناة لدى كل من فلاديمير وإستراغون ناتج من ضرورة الانتظار. يضاف إلى ذلك أن معاناتهما الحقيقية نشأت بسبب وجودهما في حالة متناقضة؛ إذ إن هناك الأمل الذي لن يتحقق أبدًا، كما أن هناك الانتظار الذي يولد التفاؤل، ومن هذين النقيضين تأخذ المعاناة شكلها الحقيقي. ويجدر بنا أن نسجل هنا أن الانتظار هو زمان ميت. ذلك أن الوقت يمر من دون أن يحدث شيء. ولعل هذا هو الهدف الحقيقي لهذه المسرحية: أي غياب الأحداث، وهكذا فإن الجمود والعدم يلخصان الهدف، وكأن الكاتب أراد القول إنه لابد من الإحساس بالرعاية الإلهية ليشعر الناس بالطمأنينة الحقة.

غياب الأحداث في مسرحية «في انتظار غودو» هو المرمى الحقيقي من المسرحية، والجمود والعدم فيها يلخصان ذلك المقصد؛ وكأن الكاتب أراد القول إنه لا بد من الإحساس بالرعاية الإلهية ليشعر الناس بالطمأنينة الحقة

إن مجيء غودو سيكون معجزة، وسيتحول الزمان الميت إلى زمان حي، كما أن إستراغون وفلاديمير سينقذان. ولكن سرعان ما يخيب أملهما، ولا تتحقق المعجزة، ولكنهما دائما الإحساس وأملهما متجدد، لعل الشيء السعيد يتحقق:

«فلاديمير: (بانتصار) إنه غودو! أخيرًا..

(يقبل إستراغون بقوة) غوغو! إنه غودو! لقد أنقذنا!».

(في انتظار غودو ص104).

ويبدو أنه من العبث الظن أن هناك مخرجًا نستطيع به التخلص من الانتظار الأبدي، لذلك فإن ثمة ضرورة تلزم الشخوص بإملاء هذا الانتظار، وهنا يبدو أن انتظار غودو هو الأمل، وأن تكرار العبارة المرتبطة به هو الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله إستراغون وفلاديمير:

«إستراغون: هيا لنغادر المكان.

فلاديمير: لا نستطيع.

إستراغون: لماذا؟

فلاديمير: ننتظر غودو.

إستراغون: هذا صحيح؟.

(في انتظار غودو ص109).

ولا شك أن الانتظار يسمح للشخصية البيكيتية أن تمتلك الأمل بالعيش في (اللانهائي) المطلق، ولكن يبقى هذا مع ذلك عبثيًا. ذلك أنها تنتظر، وتعاني، في الوقت نفسه، بسبب هذا الانتظار، لأنها تعيش العبثية. صحيح أن الوقت يمر، لكن كل شيء يشير إلى الفراغ، إذ إن جهود فلاديمير وإستراغون كُتب عليها الإخفاق، ولذلك فهي مجال للسخرية، وهي - أيضًا - محرك الإضحاك الذي استخدمه بيكيت من أجل تسلية الجمهور بجعلهم في ضحك متواصل أثناء عرض المسرحية، إذ إن إخفاقهم هو الإخفاق الإنساني، وخسارتهم هي خسارتنا، ويأسهم هو يأسنا أيضًا. وهكذا فإنه يأخذ بعدًا إنسانيًا عامًا، والدليل على ذلك أننا نضحك بلا توقف حين نشاهد عرضًا لهذه المسرحية.

والحق أن الشخوص الذين يعيشون في الحيز الزماني يبدون بلا عمر معين. وهكذا، فهم عاجزون عن وضع نقاط علامات تحدد موقعهم الزماني في الوجود. بيد أن الشيء الذي يقلقنا بملاحظتنا الوقت هو (اللانهائي)، نظرًا لطريقة حياتنا، ولأننا نعيش في عالم أبدي، حيث لا يتقدم التاريخ إلا ليوقعنا في حلقة مفرغة بطلها الزمان الممل، ولا يجد الإنسان مخرجًا إلا بالتغيير الكلامي أو الحركي؛ لأنه يبحث عن هويته في العالم الإنساني الكبير والمتناقض، دائمًا. وغالبًا ما تكون الوسيلة مضحكة؛ ذلك أن التسلية وملء الفراغ من الوسائل التي يلجأ إليها الشخوص بلا توقف: ينبغي أن نتكلم حتى نتماسك. هذه هي قاعدتهم، لذلك فإننا نراهم يلجؤون إلى اللعب بالكلمات:

«إستراغون: آه! بوزو... بوزو..

فلاديمير: إنه بوزو، أو بازو؟.

إستراغون: بوزو... لا، لا أرى ذلك.

فلاديمير: (محاولاً التوفيق) عرفت عائلة غوزو».

(في انتظار غودو ص30).

بيد أن الكلمات إذا نضبت فهل معنى ذلك أنهم اقتربوا من النهاية؟ الواقع أن اللغة تصبح وسيلة للعب، أو هي اللعبة ذاتها يتسلى بها الأشخاص:

«إستراغون: أمتأكد أن اسمه بوزو؟

فلاديمير: (بقلق) ياسيد بوزو! عد! فلن نؤلمك!

إستراغون: لو استخدمنا أسماء أخرى؟

في مســـرحـــيـــة «في انتظار غـــودو»

فلاديمير: أخشى أن يتأثر بذلك.
فلاديمير: ما هو الشيء الذي سيصبح مسليًا؟
إستراغون: بتجربة أسماء أخرى، الواحد تلو الآخر. هذا سيستهلك الوقت. سننتهي بالعثور على الاسم الحقيقي».

(في انتظار غودو، ص117).

ونرى اللعبة اللغوية نفسها باستخدام اسم غودو الذي يلفظه بوزو، بتحويله كما يشاء:

«بوزو: ... أنا شخصيًا، لو كنت في مكانك، وكان عندي موعد مع غودو... غودي... أخيرًا تعرف ماذا أريد القول، أنتظر الليل قبل المغادرة».

(في انتظار غودو، ص49).

وقد يحاول شخوص مسرحية في انتظار غودو أن يجدوا مهربًا آخر من الزمان، وذلك عبر اللجوء إلى تسلية أخرى غير الكلام الإيجابي، فنراهم يستخدمون الشتائم ليقضوا أوقاتهم. وهكذا فإن هذه الوسيلة هي محاولة للتعبير عن الوجود الإنساني في ظل الإحباط الملازم لهم؛ لأن قدوم غودو يتأجل باستمرار، ولذلك فإن النشاط الإنساني يتجدد بهذه الوسيلة، في الوقت الذي تنعدم فيه الرؤية الصحيحة لمفهومي الصواب والخطأ. لنقرأ هذا المقطع:

«إستراغون: ماذا ينبغي لي أن أفعل؟
فلاديمير: اشتمني.
إستراغون: قذر.
فلاديمير: أقوى.
إستراغون: وغد (...)».

(في انتظار غودو، ص103).

وأغلب الظن أن معاناة الأشخاص تترجم بكلامهم المتناقض المتمركز بين وجودهم وفكرهم. والحاصل أن طبيعتهم الإنسانية عاجزة عن إعطائهم أي قيمة إيجابية.

ثم هناك وسيلة أخرى للهروب، إنها الحركة المجانية. لقد رأينا إستراغون منذ البداية يحاول خلع حذائه من دون جدوى، يبدأ ثم يتوقف منهكًا، ثم يستريح، ثم يعيد من جديد، لأنه ليس في الإمكان فعل شيء في ظل هذه الظروف الإنسانية القاسية. (في انتظار غودو، ص9). الواقع أن هذه الحركات التي تشبه تلك الحركات التي يقوم بها المهرجون في السيرك، هي حركات غير منطقية، بيد أن الضجر الناتج من الإحساس بوطأة الوقت يمكن أن يسوّغها. نلاحظ أن إستراغون يقضي وقته بأكل الجزرة، على حين أن فلاديمير يعتني بقبعته: ينزعها ثم يلقي نظرة داخلها، ثم يدخل يده ويهزها ثم يضعها مرة أخرى، وبعد أن ينتهي ينزعها مرة ثانية، ثم يلقي نظرة داخلها، ثم يضعها من جديد، كل ذلك بحركة منتظمة ومعبرة **(في انتظار غودو، ص12).**

والخلاصة أننا أمام حركات الأطفال التي تقودهم إلى حركات غير منتظمة، ولكنها تسبب الإضحاك. ومثالنا على ذلك لعبة ثلاث قبعات لرأسين: **(في انتظار غودو، ص102).**

وهكذا، فإن الزمان يمر في الفراغ مولدًا العبث، لأنهم لا يستطيعون شيئًا إلا المعاناة التي تلازمهم دائمًا. ولكن هل ينبغي أن يعذبهم هذا الإحساس الزماني، دائمًا؟

الحق أن الأشخاص يأملون أن غودو سيخلصهم بمجيئه. لذلك فإن الشخصية البيكيتية تريد أن يمنحها الحاضر ولو جزءًا من الاطمئنان ليسهل عليها البقاء، أو على الأقل التحمل في سبيل أن يتحقق الأمل. وهكذا يكون البحث عن الدقة الزمانية الباعث على الشعور بالاطمئنان، و«الموتور» المحرك لنشاط الشخصيتين (إستراغون وفلاديمير). وما التساؤل الزماني الذي يعبر عنه إستراغون إلا مؤشر للاضطراب الناتج من الضياع:

«لكن أي سبت؟ وهل نحن في يوم السبت؟ أو إننا بالأحرى في يوم الأحد؟ أو في يوم الاثنين؟ أو في يوم الجمعة؟ (...)، أو يوم الخميس؟».

(في انتظار غودو، ص18).

فهل يمكننا أن نظن أن بيكيت يعلن انتماءه التوحيدي للشريعة الإلهية، من خلال تأكيد إيمانه بالأديان السماوية الحقة؟ ونكتشف ذلك من خلال حديثه عن عطلة السبت والأحد والجمعة، ولاسيما أن مجيء غودو سيكون في يوم من هذه الأيام، ولكن من هو غودو؟

لا شك أن معرفة غودو في هذه المسرحية أمر مهم؛ صحيح أن بيكيت نفسه أنكر معرفته، وأننا لن نعرف أبدًا من هو غودو؛ لأن الكاتب لا يشير بوضوح إلى ذلك، وأنه عند الضرورة يستطيع كل واحد منا أن يتخيله كما يريد، إلا أن هناك دلائل واضحة تشير إلى الله تعالى منقذ البشرية، ودليلنا على ذلك أن بيكيت إنسان يؤمن بالله تعالى. وليس غريبًا من أن يكون الكاتب بيكيت قد نبه في مسرحيته هذه على أمر جوهري في الحياة: خلاصته أنه لا ينبغي لنا أن نفقد ثقتنا بالله تعالى، لتكون حياتنا سهلة فنتحمل مصائبها وآلامها. صحيح أن جان أونيميس Jean Onimus يكتب في كتابه «بيكيت» Beckett: «إن الكلام على الله في أعمال بيكيت يعني أن نتحدث عن الغائب، ولكن الغائب هو شيء يختلف عن غير الموجود؛ نفكر في الغائب ونستطيع بالمخيلة أن نتوجه إليه، ونرغب، ونحسّ فيه بحضوره، لحاجتنا إليه»(4)، إلا أنه لم ينف الحاجة إلى التمسك بالاطمئنان النفسي النابع من الإيمان.

وخلاصة القول أن بيكيت استطاع أن ينقل لنا رسالته من خلال هذه المسرحية، بشكل عكس فيه النظرة السوداوية إلى الحياة، فكانت الحياة مملوءة بالخوف والقلق والضياع والآلام، بحيث كانت الشخوص في بحث دائم عن مخرج يبعدهم من هذه الآلام جميعها. ولا شك أن الكاتب أراد أن يصف الشروط الإنسانية القاسية التي يحياها المواطن الغربي عبر معالجته الخوف الدائم الذي يسببه الزمان، ولعله أراد أن يؤكد عنصر الفراغ الروحي الذي يعاني منه المواطن الغربي من خلال تسميته بغودو الذي لم يأت، وليس هذا بغريب في المجتمعات الغربية حاليًا، في ظل البعد من الشريعة الإلهية الحقّة. فالغياب الروحي والفراغ العميق اللذان زرعهما فساد الحياة المادية الغربية جعلا كُتّابًا كثيرين، على اختلاف مذاهبهم وانتماءاتهم الفكرية، يحيون هذه المأساة مدركين أبعادها، فعاشوا هذا التناقض في مجتمعاتهم، وانغلقوا على أنفسهم، باحثين عن حلول وبلسم لهذا الدواء، وتاركين لكل فرد اكتشاف هذا الدواء كما يشاء، ولكنهم، مع ذلك، تركوا إشارات واضحة تدل على الطريق الصحيح. فهل استطاع بيكيت أن ينقل رسالته إلى أبناء قومه؟

المراجع:

(*) رجعنا في بحثنا هذا إلى المسرحية التي نقلها إلى الفرنسية المؤلف نفسه:

Samuel Beckett: En attendant Godot, Les Editions de Minuit 1952.
1 - Jean Onimus: Beckett, Desclee de Brouwer 1967.
2 - Janvier: Pour Samuel Beckett, p. 103.
3 - Monique Borie: Structure du temps theatral de Beckett, In Revue des Sciences humaine. 1972, p. 416.
4 - Jean Onimus: Beckett, p. 75.

التأريخ بالهجرة

تأريخ بقيام الدولة وتمام الدين

محمد أحمد الشافعي

عرف البشر عبر تاريخهم عديدًا من التقاويم التي يجمع بينها أنها تضبط حركة الاجتماع البشري وتَزِنُها على مدى الزمان والمكان.

فحضارة الفراعنة قامت على الزراعة، لذا جاء تقويمهم ضابطًا لذلك النشاط الحضاري الرئيس، فكان يُعنى في المقام الأول بظروف المناخ، وحال النيل من فيضٍ أو غيضٍ، وما يلائم كل شهر من صنوف الزروع، وهو ما تظهره الأمثال الزراعية في مصر إلى اليوم.

وقام التقويم الميلادي على الميلاد المعجز لنبي الله عيسى عليه السلام، أما التقويم الهجري فقد ارتبط بحدث هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول وذلك بعد البعثة بثلاث عشرة سنة.

وقد بُدئ العمل به ما بين ست عشرة وثمان عشرة سنة بعد الهجرة. إبّان ولاية الفاروق عمر رضي الله عنه. ولم تكن العرب «تؤرخ التاريخ من قبلٍ على أصل معلوم، وإنما كانوا يؤرخون بالقحط، وبالعمل الذي يكونون عليه»(1). حتى أرّخ عمر من الهجرة، بعد أن امتدت دولة الإسلام وفُتحت البلاد، واشتدت الحاجة إلى تأريخ يضبط حركة الدولة ويكون نقطة تدور عليها على مدى الزمان والمكان، «فلما أجمعوا على أن يؤرِّخوا، قال قوم: مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وقال قوم: مبعثه، وقال قائل: حين خرج مهاجرًا من مكة، وقال قائل: بالوفاة، فقال عمر: أرِّخوا بخروجه من مكة إلى المدينة، فإن مهاجرته فرّقت بين الحق والباطل»(2). ثم انتهوا بعد نظر وتداول إلى أن يبدأ التأريخ بشهر المحرم؛ لأنه شهر حرام، وهو منصرف الناس عن الحج، فصيّروا أول السنة المُحرم.

ولعل عمر، وهو الملهم، اختار الهجرة؛ لأنها حدث جامع يضم في طواياه بركة الميلاد ونعمة البعث وجلال الوفاة، كما أنها حدث فارق في تاريخ البشرية بين الحق والباطل، وتمَّم الدين بقيام الدولة الإسلامية في المدينة. وقد سبقت الهجرة الكبرى أحداث مهّدت لها وأرهصت بها، وحملت في طواياها كثيرًا من الدلالات على العبقرية القيادية للرسول صلى الله عليه وسلم.. فقد سبقتها هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة حين أجمعت قريش أمرها على قتل النبي صلى الله عليه وسلم، وراوضوا قومه على ذلك على أن يَدُوه بما يشاؤون وأبى «قومه بنو هاشم من ذلك وظاهرهم بنو عبد المطلب بن عبد مناف، فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم وإخراجهم من مكة إلى الشِّعب. فلما دخلوا الشِّعب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة»(3).

ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدرك ببصيرته وثاقب نظره أن الأمر بينه ومَنْ يعضدونه من قومه، وبين المشركين قائم على أنه صراع بين قوتين كلتاهما تقاوم الأخرى وتحاول الثبات أمامها، وإن تعددت الوسائل واختلفت الأسلحة، ولكن شأن بقية المسلمين فرادى بمكة يجعلهم في وضع حرج، وقد أحيط برسولهم إلى حد قد يهدد حياتهم ويعرضهم للفتن. ولاسيما إن طال الأمر، وقد امتد بالفعل ثلاث سنين. فأحب الرسول أن يجنبهم مواجهة غير متكافئة، فاختار لهم بلدًا يعرفونه، إذ كانت الحبشة «متجرًا لقريش، وكان يُثنى على النجاشي بأنه لا يُظلم عنده أحد»(4)، كما يُحسب هذا من باب تأهيل الجماعة المسلمة للهجرة الكبرى بعد ذلك.

أما استعداد أرض الهجرة لاستقبال المهاجرين، فقد سبقته دعوة ستة نفر من أهل المدينة إلى الإسلام في موسم الحج.. وتلتها بيعتان في العامين التاليين: بيعة العقبة الأولى، على الدخول في الإسلام، وعمادها ألاّ يشرك المبايع بالله شيئًا، ولا يسرق، ولا يزني، ولا يقتل أولاده، ولا يأتي ببهتان، ولا يعصي الله في معروف. إذ لم يكن الرسول قد أُمر بالقتال بعد. «فلما انصرفوا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ابن أم مكتوم، ومصعب بن عمير يُعلّم من أسلم منهم القرآن وشرائع الإسلام ويدعو من لم يسلم إلى الإسلام. فأسلم على يد مصعب من الأنصار خلق كثير»(5). ثم تلتها بيعة العقبة الثانية. وكان الرسول قد أُمر بالقتال فبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم وأن يرحل إليهم هو وأصحابه. وكانت البيعة «سرًا على كفار قومهم وكفار قريش»(6)، وقد أمر الرسول بعدها «من كان من المسلمين بالهجرة إلى المدينة أرسالاً»(7).

وكل هذا تقديم وتمهيد للهجرة بما يحفظ الدعوة وأهلها حتى «لم يبق بمكة أحد من المسلمين إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعليّ، أقاما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره، وحُبِس قوم كرهًا، حبسهم قومهم»(8).

وتتجلى هنا بعض أخلاق الإسلام حتى في ساعة العسرة، والفرار بالدين، فالقائد لا يبغي النجاء لنفسه إلا بعد الاطمئنان على نجاء جنده.. كما أنه لا يتخلى عن خُلقه، فيترك عليًا ليلة الهجرة ليؤدي الأمانات إلى من ائتمنوه مهما كان موقفهم منه ومن دعوته. وكيف لا؟ والأمانة في خلقه تُؤدى للبَرِّ والفاجر، والخيانة خلق مذموم حتى مع الخونة.

حدثت الهجرة بعد أن تأهلت الجماعة المسلمة بقسميها ـ قبل الهجرة ـ وقبل أن تلتئم وتصبح كيانًا واحدًا بعدها.

وقد تجلّت لدى جماعة المهاجرين مزيّة التخلّي في أروع صورها وأبعدها. التخلي عن الأمن والسلامة، والتخلي عن الأهل، والتخلي عن الجاه والثراء لمن كان ذا جاه وثراء قبل إسلامه، والتخلّي عن الوطن.

كما تجلّت لدى الأنصار مزيّة العطاء في أروع صورها وأبعدها، فقد تولوا أمر الدعوة بين أهليهم في المدينة، وبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على التحلّي بمكارم الأخلاق ونبذ عادات الجاهلية الأولى وذلك في البيعة الأولى. وبايعوا على أن يمنعوا الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يستقبلوه وصحبه في مدينتهم، ويحاربوا معه الأسود والأحمر. وقاسموا المهاجرين حين أتوهم في أموالهم وما يملكون، وذلك في البيعة الثانية.

لقد أعطى من تخلّى، وتخلّى من أعطى، فبلغت جماعة المسلمين نهاية تقارب الكمال في القدرة على التخلّي والعطاء في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه وإقامته، ولتكون جديرة بوصف الله تعالى: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. آل عمران: 110.

ومن ثم آن للدين أن يتمَّ بقيام دولته.. فبُدئ ببناء المسجد بقباء، وأرسلت البعوث، وقامت الغزوات. وكُتبَ الكتاب أو الصحيفة، أو ما اصطلح على تسميته في عصرنا بدستور المدينة، بما يعنيه قيام أركان الدولة من مسجد للعبادة والقضاء، ومن دستور ينظم علاقة الجماعة المسلمة فيما بينها، وينظم علاقتها بغيرها.

وجاء القرآن الكريم بصرف القبْلة من بيت المقدس إلى الكعبة. وفُرض الصوم، والزكاة.. وتوالت آيات الأحكام. تنظِّم حياة المسلمين في المدينة، وفي كل زمانٍ ومكانٍ إلى قيام الساعة.

وخاضت الدولة الوليدة الفتيّة معاركها ضد أعدائها، حتى دانت لها شبه الجزيرة العربية. وفُتحت مكة؛ ليحمل المسلمون دينهم للعالم، وعلى رأسه آنذاك دولتا القياصرة والأكاسرة، وفاء بطبيعة الدعوة وأنها للعالمين، وليست لمكانٍ معيّنٍ أو زمنٍ محدود.

وعلى هذا فالاحتفاء بحدث الهجرة احتفاء بقيام دولة الإسلام بما يعنيه من تمام الدين والدلالة على أن الإسلام دين دولة، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان رسولاً نبيًا وقائدًا وزعيمًا.

المراجع:

1، 2ـ أحمد بن عميرة الضبيّ: بُغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس. الجزء الأول ص27، 35.

3ـ8ـ ابن عبد البر النمري: الدُّرر في اختصار المغازي والسير. الصفحات: 53، 68، 75، 75، 79.

خطأ يفشو وصواب يغيب

د.عبد الإله أحمد نبهان

مسارب الغلط إلى الكتّاب والمؤلفين كثيرة متنوعة، منها مثلاً مسرب النسيان، والنسيان من طبيعة الإنسان، بل إنّ كلمة «إنسان» في رأي نحاة الكوفة فيما ذكره ابن الأنباري مشتقةٌ من النسيان. وغلط النسيان ربّما سهل تصحيحه بتذكير الذاكر للناسي والحافظ لغير الحافظ، وقديمًا قيل: مَنْ حفظ حجةٌ على مَنْ لم يحفظ.

ولم أرد ههنا مناقشة أغلاط النسيان، إنما أردت أن أعرض لمسرب آخر من مسارب الغلط، إنه مسربٌ أشدّ خطورة وثباتًا، لأنه مَوْرد يتوارد عليه الجميع، ومنه ينهلون، وأقصد به المصدر الموثوق، وذلك لأن الكاتب يعود إلى هذا المصدر يستمد منه من غير ما تحقّظ ولا مقابلة، وربّما بسرعة من غير ما تدبّر، فإذا كان هذا المصدر أو المرجع الموثوق قد وقع في وهْم ما، أو غلط ما، وكثيراً ما يكون ذلك، فإنك ستجد هذا الغلط ينتقل من كتاب إلى كتاب، ومن حاشية لمحقق إلى أخرى، وبعض المحققين قد ينقلون حواشيهم من حواشي غيرهم..، يستمد بعضهم من بعض، عاملين عن غير قصد على إشاعة الغلط وانتشاره وحجب الصواب واحتباسه، والباحث يقع في مثل هذا الغلط من دون أن يشعر لأنّ أمامه مصادر ومراجع ينقل عنها، ولا يستطيع الإنسان أن يحلل كل خبر، أو يدقّق كل تاريخ، بمعنى أن الباحث لابدّ له أن يثق بغيره، ولا يستطيع دائمًا أن يبدأ من الصفر.. وسأعرض فيما يلي طائفة مما أشرت إليه من أغلاط شائعة بادئًا بنفسي؛ وذلك أني كنت كتبت مقالاً ذكرت فيه أنّ وفاة ابن الأجدابي أبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل مؤلف كتاب «الأزمنة والأنواء» كانت عام 650هـ.. وأُقِرّ نشر المقال لكنه أعيد إليّ مع تقرير لمحكّم فاضل لم أعرف اسمه ينبهني على خطأ تاريخ الوفاة المذكور، وكنت أخذت التاريخ من مقدمة الدكتور عزة حسن محقق كتاب ابن الأجدابي مكتفيًا بذلك.. فلما أُعيد المقال عدت ونظرت في المصادر القديمة فوجدتها تنصّ على أن وفاة ابن الأجدابي إنما كانت عام 470هـ، وهذا ما ذكره المرحوم خيرالدين الزِّرِكْلي في كتابه «الأعلام». أما عمر رضا كحالة فقد ذكر في «معجم المؤلفين» أن ابن الأجدابي توفي قبل سنة 600 هـ.. إلخ.. إنّ هذا المدقق الذي استرعى نظري إلى ذلك الغلط يصعب وجوده في كل موضع، ولو أُتيح مثله لكل مقال أو بحث، لخلت بحوثنا أو كادت من معظم ما يقع فيها من أغلاط في النقل، وأغلاط مصدرها الثقة بالمراجع.

ويعدّ كتاب «الأعلام» لخير الدين الزركلي من أفضل كتب التراجم، وأشدّها إيجازًا، وأعمقها تدقيقًا، وأوجزها عبارة، وأسهلها تناولاً، وأجمعها لما تفرّق في المصادر، وهو كتاب ثقة لا يرقى إليه الشك، لذلك كان عمدة الباحثين والمراجعين، وبعضهم يستغني بمراجعة كتاب الأعلام عن مراجعة الكتب الأصول، وبعض الباحثين يأخذ منه ولا يذكره مدّعيًا أنه يأخذ عن الأصول، لكن عبارة الزركلي الجزلة تكشف المخبّأ وتفضح المستور، فإذا قارنت ما كتبوه بما ورد في الأعلام اتضح لك أنهم يأخذون كلام الزركلي ويحيلون إلى المصادر القديمة تمويهًا على قرائهم إن كانوا كتابًا، وتدليسًا على أساتذتهم إن كانوا طلابًا، ليظهروا بمظهر مَنْ لا يعود إلى كتاب معاصر، وإنما إلى الكتب الأصول.. غير أنّ «الأعلام» على جلالة قَدْر صاحبه الذي نهض وحده بما لا تنهض به المؤسسات، ومع قناعتنا أنّ لا بدّ منه لكلّ باحث في الإنسانيات، ولا بدّ له في كل مكتبة عربية من ركن خاص به.. أقول: على الرغم من ذلك كله فقد وقعت في كتاب «الأعلام» أغلاط، وما أجدره أن يتصدّى له مراجعوه بالتدقيق والتصحيح ليخلو مما شابَهُ من تلك الهنات، ومنها ما تقع عليه عرضًا كأن تكون متذكّرًا تاريخًا ما فتجد خلافه. كنت أقلّب أحد أجزائه فوقعت عيني على ترجمة الشيخ مصطفى السباعي «الدكتور» فوجدته دوَّن تاريخ وفاته عام 1967م والصواب أنّ وفاته كانت عام 1964م، وأنا أذكر ذلك جيداً، لأني في عام 1964م كنت في سنتي الجامعية الأولى بجامعة دمشق، وكان حَفْل تأبين السباعي مجالاً للحديث آنذاك، وليس هذا ممّا يُنْسى، فإذا أتى الآن باحث في بلد ما ومدّ يده ليأخذ ترجمة السباعي من الأعلام فإنه سيتابعه فيما وقع فيه ويسير الخطأ وتتداوله الأيدي.

ومن ذلك مثلاً ما وجدته في حواشي محقق كتاب «أحكام النساء» للإمام ابن الجوزي، وهو كتاب مشهور حققه الدكتور علي بن محمد بن يوسف المحمدي الأستاذ في كلية الشريعة بجامعة قطر، ونشرته وزارة الأوقاف بدولة قطر عام 1414هـ /1993م.. أقول: وجدت في حواشيه حاشية وضعها المحقق الفاضل يترجم فيها أُبيّ بن كعب قال: «أبيّ بن كعب بن عبيد الخزرجي، الأنصاري، أبو المنذر، سيد القرّاء، وأقرأ هذه الأمة على الإطلاق، كان قبل الإسلام من أحبار اليهود، ثم صار من كتّاب الوحي، شهد بدراً والمشاهد كلّها، واشترك في جمع القرآن، مات سنة 21هـ وقيل غير ذلك. انظر غاية النهاية لابن الجوزي [كذا والصواب: ابن الجزري] 1: 31 - 32 وطبقات ابن سعد ج 3 ق 2 ص 259 والأعلام 1:78 وتهذيب الأسماء واللغات ق1ص 108â.

وأثارت انتباهي هذه الترجمة، وتذكّرت أني كنت وقفت عندها مطولاً لدن صناعتي ملحقًا للتراجم في كتاب إعراب الحديث النبوي للعكبري الذي حققته ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق أولاً

وثانيًا ودار الفكر ثالثًا.. فقد أوقفتني آنذاك عبارة الزركلي في «أبيّ» بأنه «كان قبل الإسلام من أحبار اليهود» ورحت أراجع المصادر كلها، ما رجع إليه المرحوم الزركلي وما لم يرجع إليه، فلم أقع في أي منها على أن «أبيًا» كان يهوديًا.. ونقلت هذا الأمر لأستاذي علامة الشام أحمد راتب النفاخ - نضّر الله ثراه - فتأمّل عبارة الزركلي وقام إلى مكتبته الغنية العامرة فلم ندع كتابًا من كتب الرجال التي ترجمت «لأبي» إلا رجعنا إليه فلم نجد ما زعمه الزركلي، وكانت المحصّلة التي توصّلنا إليها أن الزركلي - رحمه الله - خلط بين كعب الأحبار وأُبيّ بن كعب وهو يترجم أبيًا، فجاء بهذه العبارة التي أخذت تتسرب إلى الترجمات التي ينقلها الناقلون من الزركلي، ولو أنّ محقق كتاب «أحكام النساء» راجع المراجع التي زعم أنه رجع إليها، وهي غاية النهاية، وطبقات ابن سعد، وغيرها، لما وجد فيها هذه العبارة التي تجعل صحابيًا كبيرًا، وقارئًا عظيمًا، من أحبار اليهود.. وقد وقع الدكتور أحمد بن محمد الحمادي محقق كتاب «قطف الأزهار في كشف الأسرار» وهو كتاب في علوم القرآن للعلامة السيوطي.. وقع في الغلط نفسه الذي وقع فيه المحقق السابق، ففي حاشية المحقق في الصفحة 204 ذكر أنّ أُبيًا كان من أحبار اليهود ثم أسلم وصار من كتّاب الوحي، وزعم أنه رجع إلى طبقات ابن سعد وغاية النهاية وصفة الصفوة.. ولو أنه رجع إليها لما وجد ما ذكره، والصحيح أنه رجع إلى الزركلي، ولم يذكر الزركلي إيهامًا لقارئه أنه يرجع إلى المراجع القديمة.. ولو كان كذلك لما تسرّب إليه ما انفرد به الزركلي.

ومن الأغلاط المستفيضة المتعاورة خبر رحلات الإمام السيوطي جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت911) إلى الشام والهند والمغرب والتكرور..

وسبب الاستفاضة ورود الخبر في مصدر أساسي للمؤلف نفسه، فالسيوطي في كتاب «حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة» ترجم لنفسه وذكر مؤلفاته، ووردت هذه العبارة: «وشرعتُ في التصنيف سنة ستٍّ وستين، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمئة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه، وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور». والطريف أن المحقق قرأ الفعل «وسافرت» بضم التاء مع أن السيوطي يتحدث عن كتبه لا عن نفسه.. وتلقّفها عنه معظم الذين ترجموا للسيوطي من المحققين والدارسين يأخذون هذه العبارة ويضعونها تحت عنوان «رحلاته»، ولا يكلفون أنفسهم عناء التساؤل: متى كانت هذه الرحلات وكيف حصلت وأين آثارها؟ وكأنهم ينسون أنهم أمام رجل إذا سافر إلى قرية بجانب القاهرة صنّف فيها كتابًا، فكيف به إذا ذهب تلك المذاهب شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا... وكان قُدِّر لي أن أعالج هذه المسألة في مقدمتي للجزء الأول من «الأشباه والنظائر» في النحو للسيوطي الذي نشره مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1985م، وكان مما ذكرته أنّ السيوطي قال في مقدمة كتابه «نظم العقيان»: «وصارت مصنفاتي وعلومي في سائر الأقطار، ووصلت إلى الشام والروم والعجم والحجاز واليمن والهند والحبشة والمغرب والتكرور». وهذا النص قريب جدًا مما ورد في «حسن المحاضرة» فالسفر أو الصيرورة لكتب السيوطي وليس للسيوطي نفسه.. ثم إنّ مترجميه لا يذكرون له رحلةً إلا إلى الحجاز عام 869هـ ثم بدأ عمله بالمدرسة الشيخونية بعد ذلك مستهلَّ عام 872هـ؛ فهل يمكن أن يكون سافر إلى تلك البلاد المترامية الأطراف في أقلَّ من سنتين.. وذكر السخاوي صاحب «الضوء اللامع» (ت 902هـ) أن رحلة السيوطي كانت «إلى الفيوم ودمياط والمحلة ونحوها.. ثم عبر البحر مسافرًا إلى مكة..».

والسيوطي كان مولعًا بالتصنيف ولعًا غريبًا، ولو كان حقًا قام بتلك الرحلات لما بخل عليها بعدة مصنفات.. ولو أنه سافر إلى اليمن لذكر ذلك الإمام الشوكاني في كتابه «البدر الطالع»، ثمّ إنّ تلاميذه الذين ترجموه بعد وفاته كالداودي وابن إياس وعبدالقادر الشاذلي، ما كان لهم أن يهملوا خبر هذه الرحلات لو كان له أصل.. وكذلك الإمام السيوطي الذي كتب سيرته بنفسه في كتاب «التحدث بنعمة الله» لم يرد على لسانه أنه سافر إلى هذه الأماكن.. بل كان يتباهى أنّ كتبه عبرت البلاد القريبة والبعيدة حتى إنها وصلت إلى كذا وكذا.

إن كلّ ما قدّمناه من الأدلة مع قليل من التفكّر وكثير من المراجعة يبيّن لك صحة ما ذهبنا إليه، وهو مذهب تعضده كتب المؤلف وكتب تلاميذه.. وكان سبب تفشّي الغلط وسيرورته في عصرنا فقط هو غلط المحقق في قراءة عبارة ثم ابتداؤه بها من أول السطر فتأمّل..

لقد كنت نشرت بحثين يتعلقان بترجمة السيوطي ألححت فيهما على وجوب تحاشي ما وقع فيه محقق حسن المحاضرة إضافة إلى ما كُتب في مقدمتي للأشباه والنظائر، وذلك لأني رأيت الغلط يُنقل من كتاب إلى آخر وتتداوله المقدمات التي تُكتب لكتب السيوطي وما أكثرها.. ثم إني سررت جدًا عندما رأيت بأُخَرَة تنبيهًا على وجوب تصحيح هذا الوهم في كتاب نشره الدكتور بديع السيد اللحام بعنوان «الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي وجهوده في الحديث وعلومه» عام 1994م، وقدّم أدلّةً تؤكد عدم قيام السيوطي بهذه الرحلات. وإلى كل ما تقدّم، أضيف أن محققة كتاب «التحدث بنعمة الله» اليزابيث ماري سارتين كتبت كتابًا عن السيوطي موسعًا ولم تذكر أنه قام بهذه الرحلات..

ما سبق أن ذكرته وأثرته عن رحلات السيوطي كان الباعثَ عليه كتابان كبيران للسيوطي صدرا حديثًا أحدهما «التحبير في علم التفسير» بتحقيق الدكتور زهير عثمان علي نور، صدر عن وزارة الأوقاف بدولة قطر 1995م، وقد ختم المحقق حديثه الموجز عن أسفار السيوطي بقوله: «وسافر إلى الشام واليمن والهند والمغرب والتكرور» معتمدًا على النص المصحّف أو المحرّف الوارد في «حسن المحاضرة»، وثانيهما كتاب «قطف الأزهار» الذي سبقت الإشارة إليه، فقد أراد محققه الدكتور أحمد بن محمد الحمادي أن يعرّفنا جهود السيوطي في طلب العلم فقال: «وقد رحل مؤلفنا في طلب العلم إلى عدة مناطق في مصر مثل الفيوم والمحلّة ودمياط ورشيد والإسكندرية وتجاوز ذلك أيضًا إلى الشام واليمن والهند وبلاد المغرب...» إلخ.

وسبب توارد هؤلاء الأساتذة وغيرهم على هذا الغلط نفسه أنهم يبذلون جهدهم في تحقيق الكتاب الذي بين أيديهم، فإذا ما انتهوا وأتوا إلى ترجمة المؤلف وجدوا له ترجمة موجزة كتبها بنفسه في حسن المحاضرة فيأخذونها ويضعونها كما هي أو بقليل من التصرف، وكأن المؤلف يقدمها لهم بخط يده!! وما هكذا الأمر.. إن ما يُطبع يُقدَّم إلينا بقراءة المحقق، وكثيرًا ما تحتاج قراءة المحقق، وخصوصًا إذا كان مكثرًا، إلى تحقيق.. وهكذا شاع وانتشر ما وقع فيه محقق حسن المحاضرة من تصحيف حتى أضحى من الصعب إصلاحه إلا بالإكثار من الكتابة عنه وإشاعته ليتنبّه المحققون إلى ما توارد عليه مَنْ قبلهم مِنْ خطأ صُراح.. وإني لأعجب لمحقق «التحبير في علم التفسير» كيف وقع فيما وقع فيه وبين يديه كتاب «التحدث بنعمة الله»

خطأ يفشو
وصواب يغيب

كما تدلّ حواشيه.. وجلّ من لا يخطئ..

ومما استرعى نظري من تصحيفات ترجمة السيوطي في حسن المحاضرة وأنا أُعدّ هذه السطور ما ذكره محققا كتاب «نظم البديع في مدح خير شفيع» للسيوطي من أن السيوطي أخذ العلوم العربية عن الإمام العلاّمة تقي الدين الشبلي الحنفي.. ولو أن المحققَيْن الفاضلَيْن فتشا كتب التراجم لما وجدا لهذا العلاّمة الشبلي وجودًا، ولعرفا أن الصواب هو تقيّ الدين الشمنّي أبو العباس أحمد بن الشيخ المحدّث كمال الدين، وقد ترجم له السيوطي ترجمةً طنّانة في حسن المحاضرة كما ترجمه في بغية الوعاة..

ومما وقعت عيني عليه عرضًا أيضًا قول محقق «قطف الأزهار» وهو يعدّد تلاميذ السيوطي بأن كتاب «بهجة العابدين في ترجمة الحافظ جلال الدين» من الكتب المفقودة، وليته اكتفى بذكره أو بتصريحه بعدم معرفته، لأن الكتاب المذكور موجود وله مخطوطتان في مكتبتين من أكبر مكتبات المخطوطات في العالم، وقد أنهيتُ تحقيقه بعون الله.. فكيف يكون مفقودًا وكتب الفهارس تنص على وجوده..

لم يكن الغرض من ذكر ما ذكرناه أن نعرض لأحد بنقد أو ثلب، وإنما القصد أن ينشر كل باحث ما يقعُ عليه من أوهام وتصحيفات شائعة متداولة ليُصار إلى تداركها والتنبيه على مواضعها، ولا شك في أنّ في جعبة كل باحث قبضة منها.. فإذا ما جمع بعضها إلى بعض، كان لنا من ذلك مصنف مهمّ في التنبيه على الغلط والتصحيف، فلعل ذلك يتيح للصواب أن يتجلى بعد خفاء وللخطأ أن يتوارى بعد شياع.

أهم المراجع:

- أحكام النساء، ابن الجوزي، تحقيق الدكتور علي بن محمد بن يوسف المحمديّ، وزارة الأوقاف، قطر 1414هـ/ 1994م.
- الأشباه والنظائر في النحو، جلال الدين السيوطي، مجموعة من المحققين، مجمع اللغة العربية بدمشق 1985م.
- الأعلام: خير الدين الزركلي.
- الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي وجهوده في الحديث وعلومه، د. بديع السيد اللحام. دار قتيبة - دمشق 1994م.
- التحبير في علم التفسير للسيوطي، تحقيق الدكتور زهير عثمان علي نور، وزارة الأوقاف، قطر 1995م.
- قطف الأزهار في كشف الأسرار للسيوطي، تحقيق الدكتور أحمد بن محمد الحمادي، وزارة الأوقاف، قطر 1995م.
- نظم البديع في مدح خير شفيع للسيوطي، تحقيق علي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، حلب 1995م.

قصيدة:

حُبٌ أصاب القلب في مقتل

شعر: محمد مغربي مكي

أحببتُ منكِ الروحَ والهيكلْ ... يا.. كلُّ مافيها.. هو الأجملْ

ياموسمًا للمُشتهى.. والمنى ... حلوَ الجنَى.. في حينه أقْبلْ

ياشاطئًا.. أرسِي به زورقي ... أنسى به الدنيا.. ولا أرحَلْ

ياجنّةً.. أرتادُ لذاتها ... بعد ارتيادي الشوكَ والحنظَل

مُستلهِمًا نوّارها أحرُفي ... مُستكشفاً بالحبِّ.. ما أجهَلْ

لو قلتِ لي: «قَدِّم دليلَ الهَوى» ... قدَّمتُ من إبداعِيَ.. الأفضلْ

أو قلتِ: «نَجمُ الليل قد راقَ لي» ... صُغْ منه عِقداً قلتُ: ما أسهلْ

أو قلتِ: «هيّا».. لم أبالِ الذي ... ألقاه في سَيرِي.. ولم أسأل

في كُلِّ شهر منك «إطلالَةٌ» ... تُزري بفَوحِ المِسْكِ والصنَّدَل

مُستروَح عذبٌ.. ومُستفتَحٌ ... يُفضي إلى غَنَّاءَ.. لا تبخل

في رحلةٍ.. أغدو على إثرِها ... ليثَ الوغى.. أو سيِّدَ المِفصل !

لا تنتهي.. إلا «على موعدٍ» ... ما غرَّني يوماً.. ولا استأجل

لا تعذلُوني.. إنّ ماشفّني ... حُبٌّ أصابَ القلبَ.. في مقتل

بل.. واعذروني.. إنني شاعِرٌ ... أسكنتُ قلبي.. جنَّةَ «الفيصل»

طالَ ارتقابُ الوَصْلِ مابيننا ... لكنَّ صبرِي في الهَوَى.. أطولْ

المَلِكُ عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود في شِعر جنوبيّ الجزيرة العربيّة 2



د. عبدالله أبو داهش

1338- 1373هـ / 1919- 1953م

وإذا كان الإدريسي صدر عن روح سلفية وتأييد واضح، فإن بقية شعراء تهامة كانوا أكثر نتاجا منه في هذا الميدان، إذ أخذوا يشاركون بشعرهم في تصوير أحوال بلادهم، وما أضحوا عليه من الأمن والاستقرار. ولعل علي بن محمد السنوسي من أشهر أولئك الشعراء مشاركة في هذا المجال، فقد أنشأ جملة قصائد في مدح الملك عبدالعزيز آل سعود وبنيه وعماله الأمراء في مقاطعة جازان(1). ومن شعره في هذا الشأن قوله يمدح الملك عبدالعزيز سنة 1354هـ/ 1935م:

وَمِنَ المُحَالِ بِأَنْ تَكُونَ بِبَلْدَةٍ ... أُمَرَاؤُه فَيُقِيمَ فِيهَا المُجْرِمُ
وَحَمَى الجزيرة واستقام بحفظها ... مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ يُرَاقُ بِهَا الدَّمُ
رَاقَ الزَّمَانُ بِهِ وأَصْبَحَ أَهْلُهُ ... فِي نِعْمَةٍ تَتْرى وقَلَّ المُعْدِمُ
وَقَدْ اسْتَرَاحَ النَّاسُ حتَّى لَمْ يَكُنْ ... مَا بَيْنَهُمْ يُلْفَى مُرِيبٌ يُتْهَمُ
بَخٍ لِمَوْلُودٍ يُرَعْرَعُ نَاشِئًا ... في ظِلِّ دَوْلَتِهِ يَشِبُّ وَيَهْرَمُ
والشَّرْعُ في قُنَنِ المَعَالِي شَامِخٌ ... والكُفْرُ مُنْتكسٌ يخورُ ويبغمُ
أَوَلَمْ تَكُنْ عَرَبُ الجزيرة قَبْلَ أَنْ ... وُلِّيتَ ذِمَّتَهَا تُهَانُ وَتُهْضَمُ
أَبْدَلْتَهَا بالذُّلِّ عِزًّا شَامِخًا ... والخَوْفِ أمنًا لا يُرَاقُ بِهِ الدَّمُ(2)

ويبدو أن المعاني التي كان السنوسي يمدح بها الملك عبدالعزيز، تدور حول استتباب الأمن في دولته، وشعور رعيته بالطمأنينة، إلى جانب نصرته للإسلام، ورعايته لشعائره، مثل: الحج ونحوه. ومن شعره في هذا الميدان قوله سنة 1354هـ/1935م:

حَمَى حَوْزَةَ الإسْلامِ حتى تحجَّرْت(3) ... رُبَاهُ وأَحْيَا(4) الدِّيْنَ نَشْرًا وجِدَّدَا
ومازال في قَمْعِ الضَّلال وبَطْشه ... لباغٍ بتوفيق الإله مُؤيَّدا
وأصبح لا يخشى سوى اللَّه وحدهُ ... ولم يَتَّكِلْ إلاَّ عليه مُوحِّدَا
فوالَى على التوحيد مَنْ كان مُسْلِمًا ... وعادى على التَّوحيدِ مَنْ كَانَ مُلحدَا
وسَهَّلَ للحُجَّاج كُلَّ مَصَاعب ... تَشُقُّ عليهم رحمةً وتفقُّدا
وأمَّنهم خَوْفَ الطَّرِيْقِ فأقْبَلُواْ ... إلى الحَجِّ أفْواجَاً ومثنى ومَوْحدا
ومِنْ قَبله ما تستطيع قوافلٌ ... سُلوكًا به إلا وَقَدْ ذَهَبَتْ سُدَى
وشدَّ عُرى التَّوْحيد في جَمْع كَلْمةِ ... وأصْلَح ماكَانَ التَّعصُّبُ أفْسَدَا(5)

والحق أن شعراء تهامة على وجه الخصوص، قد استطاعوا أن يصوروا واقعهم الاجتماعي الذي يعيشونه بوضوح، وأن يعبروا في نتاجهم الشعري بإحساس صادق، ينم عن الطمأنينة والاستقرار في مجتمعاتهم، فقد قال علي بن محمد السنوسي نفسه سنة 1359هـ/1940م.

ها نَحْنُ فِي عَصْرِهِ الزَّاهِي عَلَى دَعَةٍ ... وصَفْوِ عَيْشٍ رَغِيْدٍ مَا بِهِ كَدَرُ
والنَّاسُ فِي ظِلِّ أَمْنٍ أَصْبَحَتْ مَعَهُ ... هَذِى الحُصُونُ كَلا شيءٍ ولا القُصُرُ
يَأْوِي الغَرِيبُ إذا ما اللَّيْلُ أَدْرَكَهُ ... فِي مَهْمَهٍ مَا بِهِ نَبْتٌ ولا شَجَرُ
كأنَّمَا القَفْرُ دارٌ والخَلا وَطَنٌ ... لابنِ السَّبِيْلِ وَمَنْ قَدْ ضَمَّهُ السَّفَرُ
وحَوْلَهُ سَيْفُ عَدْلٍ لا يُفَارِقُهُ ... يَدُوْرُ حَيْثُ تَحلُّ البَدْوُ والحَضَرُ
وَمَنْ تَكُنْ هَكَذَا أَيَّامُ دَوْلَتِهِ ... يَطِيْبُ لِلنَّاسِ في أَخْبَارِهِ السَّمَرُ(6)

ولذلك تتحقق في شعر السنوسي ملامح الحياة الاجتماعية في عهد الملك عبدالعزيز، حين صرف هذا الشاعر معظم شعره لتصوير الحال الذي أصبحت عليه البلاد السعودية بعد توحدها، وحين وصف حياة الناس المطمئنة الآمنة(7)، وبين ما تنعم به هذه الأنحاء عندئذ من الأمن والاستقرار(8)، إلى جانب ما أظهره السنوسي في شعره من الإعجاب بسياسة الملك عبدالعزيز ومنهجه السلفي(9)، إذ لم يكن يتعرض هو أو غيره لما يخالف الإسلام ومبادئه.

ولم يكن السنوسي وحده الذي شارك بنتاجه الشعري في هذا الميدان، وإنما أشبهه في ذلك عبدالله بن علي العمودي، وحافظ الحكمي؛ فأما العمودي، فقد اعتاد الإشادة بمظاهر الإصلاح في عهد الملك عبدالعزيز، إذ كان يلقى عندئذ التشجيع والمكافأة، فقد ذكر العمودي نفسه أنه في سنة 1349هـ/ 1930م أوفد أحد أبنائه إلى الملك عبدالعزيز آل سعود وحمّله قصيدة قال في مطلعها:

قامت دواعِي الشَّوْقِ ذات تَهَيُّم
ما بين كُلِّ مولَعٍ ومُتَيَّم(10)

وقد عقب العمودي على هذه القصيدة بقوله: «ولما وصلت إليه(11) ومثلت بين يديه أجابت علينا جوابا ملكيا شافيا يشكرنا على ذلك الصنيع خلاصته: أما الولد فقد وصل إلينا بحال الصحة والسلامة، وسررنا بمقابلته، وأما المنظومة التي جادت بها قريحتكم، فقد اطّلعنا عليها وأعجبنا بما احتوت عليه من المعاني الطيبة،

ولاشك أن مادعاكم لذلك إلا داعي مودتكم وإخلاصكم، وليس ذلك بكثير على أمثالكم ولا يخفى أنكم منا ومن المحسوبين علينا...»(12).

ويبدو أن العمودي كان كثير الاتصال بالملك عبدالعزيز، وأنه كثيرا ما يشكو له بعض المشكلات التي تجري له مع غيره في جازان(13).

وأما حافظ بن أحمد الحكمي، فقد اصطبغ شعره بصبغة سلفية مميزة، إذ كان شديد التأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب(14) مما جعله يتعرض لذكرها كثيرًا في شعره، ويشيد بجهود الملك عبدالعزيز في تجديدها، وتحقيق مبادئها، ونصرتها على فترة من الزمن، إذ قال في إحدى قصائده:

لَكِنْ أتى مِنْ بَعْـــد ذَلِكَ مِـــحْنَةٌ ... وزَعَـــازِعُ الأعْـــدَاءِ واللُّؤَمَــــاءِ
فـــالنُّورُ تَارَاتٍ يُضِيءُ وَيَخْـــتَـــفِي ... أُخْـرَى فـبين إِضَـاءَةٍ وخَـفَــاءِ
حَـــتَّى لَـهُ ابْتَـــعَثَ الإلَهُ إِمَـــامَنَا ... عَــبْــدَ الـعَــزِيْزِ الأكْـــرَمَ الآبَاءِ
فـــأشَــادَ لـلإِسْلامِ أعلى مِنْبَــرٍ ... وأذَلَّ مَـــا لـلدِّيْنِ مِنْ أَعْـــدَاءِ
وأَعَــــــانَ طُلاَبَ العُلُومِ مُنَادِياً ... لَهُــمُــو هَلُمُّــوا مَــعْشَــرَ القُرَّاءِ
قُــومُــوا بِتِـبْـيَــانِ الكِتَــابِ فَـإِنَّهُ ... مِـيْـثَــاقُ خَــالِقِنا على العُلَمَـاءِ(15)

ولذلك ندرك في هذه القصيدة غلبة المعاني السلفية، وأن صاحبها قد صور حال الدعوة قبيل تجديدها على يد الملك عبدالعزيز آل سعود، وكل ذلك يبين موقف الشعراء في هذه الأنحاء من الإصلاحات الجديدة التي طرأت على بلادهم في هذا العهد، وجعلتهم يشيدون بالقائمين عليها، ويعبرون عن أحاسيسهم المختلفة تجاههم.

ولم يكن شعراء تهامة وعسير وحدهم الذين تعرضوا لمدح الملك عبدالعزيز، وإنما كان شعراء اليمن أيضا يشاركونهم في هذا الميدان، فقد بعث الإمام يحيى حميد الدين(16)عام 1346هـ /1927م بقصيدة إخوانية إلى الملك عبدالعزيز، يقول فيها:

حَـــمَلُوا هَـذِهِ الأُلُوكَـــةَ(17)عَنَّا ... ومُنَاهُم قَـــبُـــولُهَـــا وحِـــبَـــاهَا
لِمَلِيكٍ مُـــــتَـــوَّجٍ مِنْ نِزَارٍ ... أنْجَـــبَـــتْـــهُ رَبِـيْــعَـــةٌ فِي ذُرَاهَا
مَلِكٌ مُــــفْـــرَدٌ سَـــرِيٌ هُــمَــامٌ ... قَلَّدتهُ ســــعُـــــودُهَا بِحِـــلاهَا
وَمِنَ العَـــدْلِ وَهُـوَ خَــيْــرُ المَزَايَا ... أثَرًا لـلـنهى ونظم عـــــلاها
أنْ تَـرَى عِنْـدَهُ مَكَانَ اعْــتِـــبَــارٍ ... مـوصلاً للمـرامِ مِنْ مَـسْـرَاهَا(18)

وإذا كان شعراء جنوبي الجزيرة العربية قد صوَّروا في شعرهم مظاهر الإصلاح في عهد الملك عبدالعزيز، وأشادوا بنهجه، وما تحقق لمجتمعاتهم في عهده، فإنهم حينما فُجعوا بوفاته تألموا كثيرًا لفقده، وحاولوا تصوير آلامهم الصادقة في مراث شعرية مختلفة، ولعل من أشهرهم: عبدالله بن علي العمودي(19)، عبدالرحمن بن يحيى المعلمي العتمي(20)، ومحمد بن أحمد باشميل(21)، ومحمد بن أحمد العقيلي(22)، ومحمد بن علي السنوسي(23)، وغيرهم من الشعراء في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، أما عبدالرحمن العتمي فقد رثى الملك عبدالعزيز بقوله:

آه عَلَى عَـــبْـــدِ العَـــزِيْزِ تَأَوُّهًا ... يُــلْــفَــى بِــكُــلِّ فَــمٍ لَــهُ تَــرْدِيْــدُ
تَبْكِي العُـرُوبَةُ شَـجْــوها لفـــراقــه ... ولَقَـــدْ بَكَاهُ العَــدْلُ والتَّــوحِـــيْــدُ
عَــدْلٌ وتَوْحِــيْــدٌ بحقٍ لَيْسَ مَــا ... يعنيــه مَنْ أَخْطَاهُمُ التَّـــسْــدِيْدُ
أَسَـدُ الْجَــزِيْرَةِ كَـانَ جَــامِعَ شَـمْلِهَـا ... مِنْ بَـعْـدِ مَـا أَوْدَى بِـهَـا التَّـبْـدِيْدُ
ومَــدَاهُ جَــمْعُ بَنِي العُــرُوبَةِ ثُمَّ جَــمْـ ... ـعُ المُسْلِمِيْنَ على الهُدَى المَقْصُودِ(24) (25)

وتتجلى مشاركة محمد بن أحمد باشميل في قصيدته التي أنشأها في رثاء الملك عبدالعزيز، إذ ذكر فيها آلام الحضرميين لفقد هذا الإمام، إذ قال:

إِمـــامٌ كَـــانَ لـلإِسْــلامِ حِـــصْنًا ... على أبوابه تُفنى الغُـــــزَاةُ
إِمَـــامٌ أَظْهَــرَ التَّــوْحِـــيْــدَ مِنْ بَعْـ ... ـدِ مَـــا أَخْــفَـــتْـــهُ عَنَّا المُحْــدَثَاتُ
صَـــلاتُ الـدِّيْنِ تَرْبِطُنَا بِبَـــعْضٍ ... جَمِيعًا حَسْبُنَا هَذِي(26) الصِّلاتُ
فَــمَا شَعْبُ الحَـضَارِمِ غَـيـرُ فَـرْعٍ ... لِدَوْحَـــتِكُم بِذَا نَطَقَ الثِّـــقَـــاتُ
مَــلأْتُم حَـضْـرَمَــوْتَ الـيَــوْمَ جُـودًا ... أَيَاديكم عَلَيْنَا ســـابِغَـــاتُ(27)

ولعل ما يمكن ملاحظته في هذا النتاج الشعري أن ملامح الإعجاب لدى شعرائه قد نشأت من واقع الإحساس بمظاهر الإصلاح، ولمّ الشمل ودفع الفرقة التي كانت قد حلّت ببلدان الجزيرة العربية، إلى جانب تثبيت أسباب الأمن، ونشر التعليم والثقافة، ودفع المنكرات، وما يخالف الدين، فقد اصطبغت تلك المعاني بصبغة سلفية جادة ترتكز على جانب التوحيد، وإخلاص العقيدة وتطهيرها من درن الشرك ولوث الفسوق، وقد ترفعت تلك المعاني عن مظاهر الغلو والمبالغة الممقوتة.

الهوامش

1 - انظر شعراء الجنوب لمحمد علي السنوسي، ومحمد أحمد العقيلي.
2 - توجد هذه القصيدة المخطوطة لدى الباحث.
3 - تحجرت: تحصنت
4 - في الأصل المخطوط أحيى.
5 - توجد هذه القصيدة لدى الباحث، وانظر كذلك شعراء الجنوب جمع محمد علي السنوسي، ومحمد أحمد العقيلي ص21 - 23.
6 - محمد بن علي السنوسي، ومحمد أحمد العقيلي. شعراء الجنوب، ص10.
7 - عبدالله أبو داهش، الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية، ص 244.
8 - عبدالقدوس الأنصاري. الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر، ص63.
9 - انظر شيئًا من شعره في ديوان شعراء الجنوب، وبعض قصائده المخطوطة الأخرى.
10 - من مجاميع العمودي المخطوطة، غير مرقم الأوراق.
11 - أراد الملك عبدالعزيز آل سعود.
12 - من مجاميع العمودي المخطوطة، غير مرقم الأوراق.
13 - ورد له في هذا الميدان كثير من القصائد.
14 - كان من أسباب ذلك مقدم الشيخ عبدالله القرعاوي إلى تهامة سنة 1358هـ/1939م، إذ لازم حافظ الحكمي شيخه القرعاوي حتى تخرج في مدرسته بصامطة، وتولى من بعد ذلك التدريس في هذه المدرسة، وفي غيرها. ونفع الله به كثيرا من طلبة العلم.
15 - أحمد حافظ الحكمي. «من أعلام الجزيرة: الشيخ حافظ الحكمي»، مجلة اليمامة، ع 242، س 6 الجمعة (محرم 1393هـ)، ص29.
16 - ولد سنة 1286هـ/1869م وتلقى تعليمه على يد والده وجملة من علماء الأهنوم باليمن، تولى إمامة اليمن في عام 1322هـ/1904م، ناهض الترك وحاربهم. وكانت وفاته سنة 1367هـ/1947م. نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر لمحمد محمد زباره، ح 2، ص629
17 - الألوكة: المقالة، أو القصيدة أو الرسالة.
18 - محمد بن أحمد العقيلي، المخلاف السليماني. ص 928، 929.
19 - قال العمودي في مطلع إحدى قصائده في هذا الشأن:
الدهر بعدك حقا مظلم عبسُ
والكل منا غدا عن منطق خرسُ
(من مجاميع العمودي المخطوطة، بدون رقم).
20 - انظر كتاب «على مرافئ التراث»، لأحمد محمد الضبيب، ص 123.
21 - انظر مجلة المنهل ج4، س 14 (ربيع الثاني 1373هـ) ص270.
22 - انظر ديوانه (الأنغام المضيئة)، ص30 - 34.
23 - انظر مجلة المنهل ج 3، س14، (ربيع الأول 1373هـ)، ص208.
24 - كذا في الأصل وفيه إقواء، ولكنه معهود، وبخاصة إذا أتى بين الكسر والضم.
25 - مجلة المنهل ج 3، س 14 (ربيع الأول 1373هـ) ص 200.
26 - في المصدر هذه، وبها لايستقيم الوزن.
27 - «حضرموت تعزّي وتهنّي»، مجلة المنهل، ج 4، س 14 (ربيع الثاني 1373هـ)، ص 270، 273.

محمد عزيز الدين

وجد في الإسلام دين الإنسان الطبيعي

لو أن كل إنسان اتبع فطرته التي فطره الله ـ عز وجل ـ عليها، وتناسى جميع النظم والعقائد التي شَبَّ عليها أو سمع بها؛ لقادته الفطرة النقية إلى اعتناق الدين الطبيعي للإنسان ألا وهو الإسلام، ولأصبحت البشرية جميعًا تدين بهذا الدين العظيم، الذي يجمع بين التواضع والعظمة، ففيه يرى الإنسان الحق جليًا، ويطمئن قلبه إلى وجود مَنْ خلقه، كما يجد الإنسان في هذا الدين نفسَه ويعيش قرير العين.

وهذا ما أحسه المهتدي الهندي البروفسور نشكنتابا دهيايا، الرئيس الأسبق لكلية حيدر آباد، وأستاذ التاريخ في كلية مهراجا في ميسوري، الذي أسلم في مطلع القرن الميلادي الحالي بعد رحلة طويلة قضاها بالعقل والقلب مع مختلف الشرائع والعقائد السماوية وغير السماوية التي عرفها الإنسان، رحلة انتهت به إلى الاقتناع بعظمة الإسلام وصدقة، وكونه دينًا عمليًا مَنْ يتفهم تعاليمه لا بد أن يُقبل عليه ويرتضيه لنفسه دائمًا.

إعجاب بمذهب العقليين

وقد روى البروفسور نشكنتابا قصة رحلته مع الإسلام في عدد مارس 1905م من مجلة «المِلَل»، موضحًا أنه كان في أول أمره شديد الإعجاب بمذهب العقليين، لكنه ما لبث أن تحوَّل بقلبه عن هذا المذهب الذي لم يرو له غليلاً، فأخذ يدرس المذهب البوذي، وأعجب بظاهر رفعته الأخلاقية، لكنه ـ في النهاية ـ وجده على عكس طبيعة البشر فملّه، وتركه.

لقد تَنَقَّل البروفسور نشكنتابا بين بلدان العالم مثلما تنقل بين العقائد بحثًا عن الحقيقة؛ فزار ألمانيا وفرنسا وروسيا، وقاده إعجابه بالفيلسوف رينان إلى دراسة لغات الساميين وأديانهم، واهبًا قسمًا عظيمًا من حياته لدرس المقابلة بين اليهودية والزرادشتيه والبرهمية من ناحية، والنصرانية والإسلام من ناحية أخرى.

وفي مرحلة من مراحل تنقله الفكري كاد يتنصَّر، لولا أن توقَّف أمام مسألة الفداء، واعتقاد الكاثوليك بالعصمة البابوية، والتَحول في العشاء الرباني، وغير ذلك من المسائل غير المقبولة التي تحتويها عقيدة النصارى المحرَّفة، فمالت نفسه عن تلك العقيدة التي لم ير فيها ما يروي غليل نفسه من إجابات عن تساؤلات عصفت بروحه.

تبلبل فكري

وحين عاد مرة أخرى إلى الهند، كان في حالة تبلبل فكري، لا يعرف إلى أين يتجه، وخلاصًا من هذه الحالة مالت نفسه إلى الزهد والتصوف، فاستغرق في دراستهما، لكنه في النهاية لم يقتنع أو بالأحرى لم يجد نفسه بين ممارسات النُسَّاك، وبالمثل فعل مع البوذية دارسًا وممارسًا، من دون أن يصل إلى اقتناع يرضى به، إذ تكشَّفت له حقائق البوذية، وعرف زيف الكمال الذي يتوهمه أتباع بوذا في تعاليمه، وهو كمال قد ينطوي على جمال شعري، لكنه يظل خيالاً لا يرقى إلى مستوى التطبيق، حيث إن الواجب أن ينظر المرء إلى حاجات البشر أولاً ثم يحكم على كمال التعاليم بالنسبة لفائدتها، وهذا ما فعله البروفسور نشكنتابا حين وازن بين تعاليم بوذا، وفائدتها لحياة الإنسان، فوجد نفسه يدور في حلقات مفرغة لا نهاية لها، فنقطة البدء هي ذاتها نقطة الختام، ولا شيء يمكن أن يخرج به المرء من تلك الرحلة العقيمة، وكان قراره في النهاية أن البوذية مجرد أحلام لا ترقى إلى مستوى الواقع الإنساني، فنبذها هي الأخرى.

بعدها اتجه البروفسور نشكنتابا إلى دراسة الإسلام لعله يجد فيه مبتغاه، وما إن بدأ في دراسته حتى أحس بذاته تتفاعل مع هذا الدين القيم، وبنى رضاه عن الإسلام على ثلاثة أسباب رئيسة، أولها: أنه يوافق العقل، وثانيها: كونه دينًا عمليًا، وثالثها: صحة أخبار الإسلام، وأنه الدين التاريخي الوحيد، ففي النصرانية ـ مثلاً ـ من الممكن أن يعرف المرء نتفًا عن تاريخ المسيح عليه السلام، لكن أنَّى له أن يعرف شيئًا عن السنين الثلاثين التي سبقت رسالته ـ كما يقول البروفسور بورت سميث ـ، بينما في الإسلام تاريخ واضح، وكل شيء عن الرسالة والرسول عليه الصلاة والسلام معروف، مما يحمي المرء من أن تضله نفسه أو تضل غيره.

توافق الإسلام مع العقل

لقد وجد البروفسور نشكنتابا في الإسلام ما يتوافق مع قواعد العقل ويتماشى مع الفطرة

الصحيحة، فهو يقوم على قاعدتين أساسيتين: أولاهما: توحيد الخالق عز وجل وتنزيهه، والثانية: الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم. فتوحيد الله الخالص، حقيقة جليلة، يجب على كل عاقل أن ينقاد إليها، والتوحيد الخالص يخالف توحيد اليهود الذين جعلوا الله إلها خاصا بهم، تعالى الله عما يقولون، كما أنه ليس كما يذهب النصارى ثلاثة في واحد، أو ثلاثين مليونًا من الآلهة كما تذهب عقائد الوثنيين. إضافة إلى ذلك، فقد اكتشف البروفسور نشكنتابا أن قاعدة الرسالة النبوية لا يمكن أن يردها باحث، لأنه «متى نُسيت الحقائق الأساسية التي تُبنى عليها الحياة الأخلاقية الدينية أو أُبهمت، ومتى أصبح الإنسان مفرطًا في حب دنياه، طامعًا، سيئ الأخلاق، ماديًا بحتًا، يظهر في تاريخ الأمم أنبياء ورسل لله، وظيفتهم تذكير الناس بما كانوا نسوه، وإحياء ما كانوا فقدوه».

إشهار إسلامه

عند هذه النقطة شعر البروفسور نشكنتابا بأن الإسلام هو ما كان يبحث عنه طوال سنوات عمره الفائتة، فَقَرَّ قراره على اعتناقه، وما لبث أن أعلن ذلك وسط حشد من الناس في الثامن والعشرين من شهر أغسطس 1904م، وتسمَّى باسم محمد عزيزالدين.

لقد أمضى محمد عزيزالدين ما بقي له من عمر في الدعوة إلى الله، والإيضاح لكل راغب في التعرف إلى الإسلام ما يعن له من إجابات عن تساؤلاته، وكيف أن الإسلام هو الدين السماوي الوحيد الذي لم تمسه يدٌ بإفساد أو تبديل، لهذا كان أيضًا الدين الوحيد الذي يجمع بين السهولة والعظمة، ويساوي بين البشر جميعًا، صغيرهم وكبيرهم، جليلهم ووضيعهم، أبيضهم وأسودهم، مما يجعله الدين الوحيد المؤهل لأن يستطيع القضاء على ما ينتاب العالم من نزعة عدم الرضا، بتحقيقه العدالة التي هي مطلب إنساني يختلف الناس حوله، لكنهم يجتمعون على طلبه، وهو مطلب يحققه الإسلام بأيسر الطرق وأقربها استجابة لمطالب البشرية.

قصيدة

عاشق سراييفو

شعر: محمد سعيد فخرو

سيراييفُو
يا شاطئَ جرحٍ من ألَمِي
ودمًا يتلاطمُ
موجُ مواجعهِ
بدمي
يا أغنيةً
في مقبرةِ الأحياءِ
يدندنُها
صَمْتُ الرحمِ
يا سيفًا من وَجَعٍ
مغروزًا في صدري
وفمي

***

سيراييفُو
يا قطعةَ حبٍّ من كبدي
ونداءً مخنوقًا
بين الأجفانِ
دموعًا حارقةً
حمراءْ
تتساقطُ فوقَ الخدِّ
سيولاً من
نارٍ ودماءْ
النار تحاصرني
ويحاصرني تنِّينٌ
من غدرٍ
وجبالٌ من
إغماءْ
أتقلّبُ فوقَ الرملِ
أفتشُّ ظمآنًا عن
قطرةِ ماء

وأنا البحَّارُ بلا سُفُنٍ
في كثبانِ الصحراءْ

***

سيراييفُو
يا نخلةَ عشقٍ من نورٍ
زرعتها - أمس -
يدُ الأجدادْ
من أجلك - سيدتي -
أتوسّدُ شوكَ الحبِّ
وأفترشُ السكينَ
وألتحفُ الدنيا
نارًا.. ورمادْ

***

سيراييفُو
جرحٌ في العين نُضمّدُهُ
بالجمرِ..
وبالأرواحْ
مرَّتْ سَنَواتٌ يا «ليلى»
و«بعذرةَ» لم تقم..
الأفراحْ
وأنا في حبّك مجنونٌ
فأحبيني - عَلَنًا -
أم أنّ الحبّ - بعذرةَ -..
يقتلهُ الإيضاحْ
وكلانا - سيدتي -
من «عذرة»
غابةُ نسرينٍ
وكرومٌ من تفّاحْ
ما أحلى الحبَّ وأغلاهُ
حتى لو كان - بعرف قبيلتنا -
ذبَّاحْ

طريق الهدى

فضيلة الشيخ
د. صالح بن فوزان الفوزان

وضع التماثيل في البيت

ما حكم التماثيل التي توضع في البيت للزينة؟

سامي فاروق عبدالرحيم

الرياض.

لا يجوز اقتناء الصور التي لذوات الأرواح بجميع أشكالها؛ تماثيل أو رسوما أو التقاطا بالآلة الفوتوغرافية لعموم النهي عن التصوير واقتناء الصور ولعن المصورين فإنهم أشد الناس عذابا يوم القيامة وإنهم أظلم الظالمين. وسواء اتُّخذت للزينة أو الذكريات أو غير ذلك.. ما عدا الصور الضرورية لجواز السفر أو حفيظة النفوس أو البطاقة الشخصية أو رخصة القيادة فهذه يرخص فيها للضرورة. وكذلك الصور الممتهنة التي تُداس أو يُجلس عليها أو تُوطأ فهذه لا حكم لها. فالواجب على المسلم أن يحذر من اقتناء الصور ووجودها في بيته لأنها تمنع دخول الملائكة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة»، وقال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا تدع صورة إلا طمستها».

الحلف بغير الله

بعض الناس يحلفون بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبالشرف والكرامة وبالأمانة، لكن من دون قصد، وإنما تجري على ألسنتهم، فما حكم هذا؟

إيمان صابر عبدالعزيز

شبرا مصر، القاهرة، مصر.

الحلف بغير الله شرك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحلفوا بآبائكم. من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت». فلا يجوز التساهل في هذا الأمر ويقول الإنسان: أنا ما قصدت الحلف فلا يُعوِّد لسانه هذا الكلام وإذا قصد الحلف فالأمر أشد.

الصلاة والإمام راكع

إذا حضر المأموم إلى الصلاة والإمام راكع، هل يُكبِّر تكبيرة الإحرام ثم تكبيرة الركوع، أم يكتفي بتكبيرة واحد؟

إبراهيم حسن عبدالحليم

أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

يجب عليه أن يكبر تكبيرة الإحرام وهو واقف لأنها ركن من أركان الصلاة لا تصح إلا بها، ثم إذا انحنى للركوع استحب له في هذه الحالة أن يكبر تكبيرة الركوع، وإن اكتفى بتكبيرة الإحرام أجزأته عن تكبيرة الركوع في هذه الحالة خاصة، والله أعلم.

خروج الدم في الصلاة

ما الحكم إذا خرج الدم من أنف الإنسان وهو يصلي؟

إسماعيل الرويشد

الكويت.

إن كان الدم كثيرًا فإنه يخرج من الصلاة، فإذا وقف الدم ونشف فإنه يعيد الوضوء ويعيد الصلاة. وإن كان يسيرًا فإنه يستمر في صلاته ولا يضره.

المسكين المستحق للزكاة

من المسكين الذي تُصرف له الزكاة، وما الفرق بينه وبين الفقير؟

عبدالله يحيى عسيري

أبها.

المسكين هو الذي يجد أكثر الكفاية أو نصفها والفقير هو الذي يجد بعضها أو لا يجد شيئًا. فالمسكين أحسن حالا من الفقير. وكل منهما يُعطى من الزكاة ما يكفيه لسنته إن أمكن أو يعطى ما تيسر مما يعينه على حاجته. قال الله تعالى: إنما الصدقات للفقراء والمساكين. الآية. فبدأ بهما مما يدل على تقديمهما على غيرها من مصارف الزكاة.

الصلاة في المسجد

لديّ جار لا يحرص على الصلاة في المسجد. وقد نصحته كثيرًا إلا أنه يسوق الأعذار، فلا أدري ماذا يكون تصرفي معه، ما دام هو على سلوكه هذا؛ علمًا بأنه حسن الخلق، وهناك علاقات أسرية قوية بيننا؟

محمد مقعد الشاعر

شديق، بيشة.

إذا لم يقبل جارك النصيحة ويصلي في المسجد فعليك أن تبلغ أحد مراكز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لاتخاذ ما يلزم حياله، كما عليك أيضًا أن تبلغ عنه إمام المسجد ومؤذن المسجد ليساعدوك على الأخذ على يده.

وكونه حسن الخلق كما قلت لا يعفيه من الصلاة مع الجماعة؛ لأن ذلك واجب عليه إلا من عذر شرعي يبيح له الصلاة في بيته. ففي الحديث: «من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر». قيل: وما العذر؟ قال: «خوف أو مرض».

من أدب الأمثال

د. ماجد أحمد المومني

الأمثال حكمة الدهور، وصدى التجارب، وخلاصة الفلسفة، وثمرة البلاغة. تجري على الألسنة الموهوبة في خلال حديث، أو في أعقاب حادث، فتتناقلها الأفواه، وتتوارثها الأجيال لوجازتها، وحسن صياغتها، وصدق مغزاها، حتى إذا وقع في الأمر ما يشبه الحال التي ورد فيها المثل تمثّل به القائل، فيكون كالبرهان يؤيد قوله ويؤكده، أو كالبيان يوضح معناه ويقرره.

والمثل فن إنساني من فنون القول، لا يتميز به زمان على زمان، ولا تختص به أمة دون أمة، ولم يسرْ شيء كما سار، ولم يَعُم كما عمّ، حتى قالوا: أسْيَرُ من مثل، والشاعر يقول:

ما أنت إلاّ مثل سائر
يعرفه الجاهلُ والخابرُ

وللمثل ميزة على سائر فنون القول، في تقريب المعنى من فهم المخاطب، وتقديره في ذهن السامع، لذلك كان من الأساليب المختارة في الكتب المنزلة والأحاديث المرسلة والمواعظ العامّة.

بعض الأمثال التي وردت في القرآن الكريم

أورد القرآن الكريم الكثير من الأمثال للتفكّر والتبصّر والاحتكام إلى العقل. ووصف لنا بهذه الأمثال أخلاق المشركين واليهود: *أولئكَ الذينَ اشْتَرَوُا الضلالَةَ بالهُدَى فَما رَبِحَت تجارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدينَ. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أضاءتْ ما حَولَهُ ذَهَبَ اللّهُ بنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ*. **البقرة**: 16، 17.

وما أروعه من مثل يصف الذين اشتروا الضلالة بالهدى، واستبدلوا بنور الهداية، ظلمات الإلحاد والكفر: *إنّ اللهَ لا يستحيي أن يَضْرِبَ مثلاً ما بَعُوضةً فما فَوْقَهَا فأمَّا الذينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحقّ من ربّهم وأمَّا الذينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أرَادَ اللهُ بهذا مَثَلاً يُضلّ به كثيرًا ويَهدي به كثيرًا وما يُضلُّ به إلاّ الفَاسِقينَ*. **البقرة**: 26. ومعظم هذه الأمثال أوردها الله بحق الكافرين من بني إسرائيل؛ ذلك أنّهم عتَوا وكذّبوا الأنبياء وحرّفوا كتابي الله اللذين أنزلهما على سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام.

وبعض الأمثال التي وردت في القرآن الكريم تصلح لأن تكون ثوابت ومرتكزات لكثير من القوانين الدولية، ومنها قوله تعالى: *ولَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أولي الألبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ*. **البقرة**: 179. وقوله: *كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وعَسَى أن تكرَهُوا شيئًا وهو خيرٌ لَكمْ وعَسَى أن تُحِبُّوا شَيْئًا وهو شرٌّ لكم واللهُ يَعْلَمُ وأنتمْ لا تَعْلَمُونَ*. **البقرة**: 216. وقوله: *وَمَثَلُ الذينَ يُنْفِقُونَ أموالَهُمُ ابتغاءَ مَرْضَاةِ الله وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير*. **البقرة**: 265.

وضرب الله الأمثال للذين أنكروا ميلاد عيسى بن مريم من دون والد، وبعضهم من قال وكفر بأن عيسى ابن الله، سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد: *إنَّ مَثَلَ عيسَى عندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ*. **آل عمران**: 59. فبهذا الخطاب يبيّن الله أنّه قد خلق عيسى بن مريم من دون والد تمامًا كما خلق آدم دون والد ولا أمّ، وهذا أمر من أموره هيّن: كن فيكون.

والأمثال أوردها القرآن الكريم لأصحاب العقول ليتدبّروا أمرها وينتفعوا بحكمتها: *وَتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ*. **العنكبوت**: 43. وهي كثيرة يخاطب الله بها أصحاب العقول الكبيرة.

الأمثال في الأحاديث النبوية الشريفة

في رحاب النبي - صلوات الله وسلامه عليه - تنتشر الروحانية الصّادقة وتشرق الحكمة الناطقة وتنبثق الموعظة الحسنة، ويأخذ العلم دوره الكريم في هداية المسلمين. ومجالس النبي مشرقة يحف بها أصحابه الأطهار مضيئين كالنجوم، وادعين هادئين، ويطرح النبي - عليه السلام - المسألة من العلم، فتأخذ عقولهم المتفتحة باحثة وفاهمة، ويدير النبي دفّة الحوار بالمجلس ليرشدهم بحكمه وأمثاله كما في هذا الحديث:

قال البخاري - رحمه الله - : حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إنَّ من الشجر شجرة لا يسقط وَرَقُها وإنها مثلُ المسلمِ فحدِّثوني ما هي؟»، فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبدُالله: ووقع في نفسي أنّها النخلة فاستحييت، ثمّ قالوا حدّثنا ما هي يا رسول الله، قال: «هي النخلة».

في هذا الحديث الشريف محادثة طيبة، وحوار هادئ جميل، يطرح فيه النبي المعلم - صلوات الله عليه وسلامه - المسألة على أصحابه في جو من المطارحة العلمية الهادفة، وقد مثّل صلوات الله عليه بجماد فقال: «... إنّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم...».

ويتضح وجه الشبه بين المسلم والنخلة بما نلتمسه من منافع النخلة حتى النوى في علف الدواب، والليف في الحبال، والسّعف في بناء العرائش وظلّها في الصحراء... إلخ. فبركة المسلم عامّة، في جميع الأحوال مثل بركة النخلة.

وفي حديث طويل قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - في حجّة الوداع»، «... كُلّكم لآدم وآدم من تراب...»، فحديثه - عليه السلام - مثل يصمد أمام الحقائق العلمية. وأصبح من القوانين الدولية، ومن مبادئ الأمم المتحدة. وقال - عليه السلام -: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا...».

ومن الأمثلة الحكيمة قوله - عليه السلام - في الحديث الشريف الذي رواه الشيخان في صحيحيهما: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته».

وهذه أمثلة من مآثر الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وأمثاله الحكيمة.

الأمثال بعضها واقعية وأخرى فرضية

تنقسم الأمثال قسمين: أمثال واقعية، وأمثال فرضية.

فالواقعية: ما انتُزعت من واقع الحياة، وأعمال الناس كقولهم: «رَجَعَ بخُفَّي حُنين»، وأصله أن إسكافيًا من أهل الحيرة يسمّى حنينًا ساومه أعرابي على خُفين يشتريهما منه، فاختلفا حتى أغضبه الأعرابي، فأراد حنين أن يكيد له، فلما انقضت السوق أخذ أحد الخفين، وألقاه في الطريق الذي يعود منه الأعرابي إلى أهله، ثمّ ألقى الآخر بموضع آخر من الطريق وكمن عنده، فلمّا مرّ الأعرابي بالخف الأول، قال في نفسه: ما أشبه هذا الخفّ بخف حُنين، لو كان معه صاحبه لأخذته، فلمّا مرّ بالآخر ندم على تركه الأول. وأناخ بعيره وعاد في الطريق يبحث عنه، فخرج حنين من مكمنه، وأخذ الجمل بما حمل، ورجع الأعرابي إلى أهله بخفي حنين.

والأمثال الفرضية: ما افترض الناس وقوعها على ألسنة الحيوان، أو النبات، أو الجماد، كقول الإمام علي - رضي الله عنه - حينما رأى تخاذل أصحابه، واختلاف من اختلف فيه، وخروج من خرج عليه: «إنّما أُكلتُ يوم أُكلَ الثورُ الأبيض»، يعني: أنه خُذل يوم خُذلَ عثمان. وأصل المثل أن أسدًا وثورًا أبيضَ، وثورًا أسود، وثورًا أحمر، عقدوا في بعض الأجمات - غابات - معاهدة صداقة. فقال الأسد ذات يوم للثورين الأحمر والأسود: «إنّ هذا الأبيض يكشفنا للناس بلونه، فإذا تركتماني آكله أمنًّا من الناس واتقينا الفضيحة، فأذنا له في أكله. ثم قال للأحمر: هذا الأسود يخالف لوني ولونك، ولو بقيت أنا وأنت لظنّك من يراك أسدًا مثلي، فدعني آكله. فسكت عنه وأكله. ثم قال للثور الأحمر: لم يبق إلاّ أنا وأنت، وأريد أن آكل. فقال له الثور: إن كنت فاعلاً - ولا بدَّ - فدعني أصعد هذه الهضبة، وأصيح ثلاث صيحات. فقال له الأسد: افعل ما تريد. فصعد الهضبة وصاح ثلاث مرات، يقول: «ألا إنّما أُكِلتُ يومَ أُكِلَ الثورُ الأبيض».

والأغراض من الأمثال الواقعية لا تكاد تعد ولا تحد؛ لأنها لفتاتٌ من الذّهن، وفلتات من اللسان، تقال عفو الساعة، وفيض الخاطر، في شتى المناسبات، فتعلق بالأذهان لاشتمالها على حكمة، أو كلمة، أو لدلالتها على طبع أو خلق، وهي صورة للطباع، ومرآة للمجتمع. ومن الأمثال الاجتماعية ما يكشف عن عقلية القائل، وطبيعة بيئته، كذلك المثل الذي سار عن ذلك الأعرابي القاسي الذي حكم على رجل جنى على نفسه بعقوبة فظيعة من غير شفقة ولا رحمة. قالوا: إن رجلاً أراد أن يعبر نهرًا وهو لا يحسن السباحة، فنفخ قربة وربطها وعام عليها، فلمّا توسط النّهر انفكّ الرباط وخرجت الريح وأوشك الرجل أن يغرق. فاستغاث بأعرابي على الشاطئ فتركه يغرق، وقال له: «يداك أوكتا وفُوكَ نفخَ»، يعني أنه هو الذي نفخ القربة بفمه، وربط فمها بيده، فجنى على نفسه، ولم يجن عليه أحد.

والأمثال الواقعية قلّما تسير إلاّ في الأمّة التي نشأت فيها كقول امرئ القيس، حين بلغه موت أبيه، وهو عاكف على اللّعب: «اليوم خمر وغداً أمر»، وقول يوليوس قيصر لأقرب الناس إليه وأعزهم عليه، وقد ائتمر به مع المتآمرين ليقتلوه: «حتى أنت يا بروتس...».

ولكن الأمثال الفرضية عالمية تتناقلها الأفواه من قبيل إلى قبيل، وتتوارثها الأعقاب من جيل إلى جيل، والغرض المقصود منها تقويم الأخلاق بالحكمة، ورياضة النفوس بالموعظة، من طريق التعويض والرّمز. وهذه الأمثال وليدة الشرق؛ لأنه كان موضع الحكم المطلق، والاستبداد العنيف. انبعثت من صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافتًا لاحتجاج مكظوم صامت، لم يجدوا له متنفسًا ولا طريقًا إلى آذان الأقوياء المستبدين، إلا هذه الكتابات والرّموز، يسترون وراءها ما يريدون من نصيحة وعظة، وربما عرض الأمر الذي ينكل عنه عقلُ الطاغية، فيحتاج إلى المشورة، فيلجمهم عنها بالخوف والهيبة فيلجؤون إلى هذه الأمثال يضربونها، فيدركون بها ما يريدون من غير تعرّض لسخط، ولا مواجهة لخطر، فقد ذكروا أن الطاعون فشا سنة بدمشق، فَهَمَّ عبدالملك بن مروان بالفرار منها. فدخل عليه بعض الفضلاء وقال: بلغني يا أمير المؤمنين أن ثعلبًا صادق أسدًا على أن يجيره من السّباع، فكان أبدًا بين يديه، فظهر في يوم من الأيام عُقاب في الجو فخافه الثعلب ووثب على ظهر الأسد، فانقض عليه العقاب واختطفه، فصاح الثعلب: يا أبا الحارث: العهد، العهد، فقال الأسد: «إنّما عاهدتك على أن أحفظك من أهل الأرض. أمّا أهل السماء فلا قِبل لي بهم». فلمّا سمع عبدالملك ذلك قال: لقد وعظتني، ثم أبى أن يفارق المدينة. وربّما احتالوا ببراعة المثل ولطف مدخله لنيل مأرب، أو دفع بليّة. وقد نشأت الأمثال الفرضية أو الرمزية في بلاد الهند، ثم انتشرت منها في الصين، ثم انتقلت إلى فارس، ثم إلى بلاد العرب، ثم إلى بلاد الإغريق، وأشهر من كتب فيها من أدباء العرب: ابن المقفع مترجم «كليلة ودمنة»، وسهل بن هارون في كتابه «ثعلة وعفرة» الذي وضعه على نسق كليلة ودمنة، وقد عالجها بعض الأدباء في العصر الحديث، فوفّقوا فيها، أمثال أحمد شوقي في «الشوقيات».

بعض الأمثال في بعض الشعوب

ولكل شعب من الشعوب خصال من المدح والذم، رسخت في أصوله بحكم الفطرة، وانتشرت في فروعه بعقل الوراثة، فتناقلتها الأجيال، وسارت بها الأمثال، وتندرت بها المجالس، فكما تضرب الأمثال بالسكسونيين في البرود والصّبر والأناة، تضرب باللاّتينيين في الحدّة والتهور، وكما تضرب الأمثال بشجاعة العرب وكرمهم، تُضرب باليهود الأمثال في حبّهم للمال وفي لؤمهم وبخلهم وجبنهم. ومن الأمثال التي وردت في بني إسرائيل قوله تعالى: *مَثَلُ الذينَ حُمّلُوا التوراة ثم لم يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحمَارِ يَحْمِلُ أسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ القومِ الذينَ كَذَّبُوا بآياتِ الله.* **الجمعة**: 5. أرسل الله سيدنا موسى بالتوراة إلى بني إسرائيل وكلفهم العمل بما فيها فلم يعملوا، فكان مثلهم مثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره الكتب القيّمة، ولا ينتفع بها لجهله، وقلّة عقله.

تنقسم الأمثال قسمين: واقعية وفرضية. فالواقعية ما انتزعت من واقع الحياة وأعمال الناس. والفرضية ما افترض الناس وقوعها على ألسنة الحيوان، أو النبات أو الجماد

ومن أمثال العرب في حُبّ اليهود للمال، قول حافظ إبراهيم يصف غادته اليابانية:

كنتُ أهوى في زماني غادةً
وهبَ الله لها ما وهبا
ذات وجه مزجَ الحسنُ به
صُفرةً تُنسي اليهود الذّهبا

ومن طريف ما يتداعب به الناس على حبّ اليهود للمال، أن حاخاما كان عائدًا من الكنيسة مساءَ السبت، فأبصر على جانب الطريق قطعة من النقود

الذهبية، فوقف أمامها جامدًا، كأنّما سُمِّرت قدماه في الأرض. ماذا يعمل؟ أيلتقطها ودينه يحرم عليه أن يقبض مالاً، أو يعمل عملاً يوم السبت؟ أم يتركها، وطبيعته تأبى عليه أن يترك قطعة من قلبه، وشعلة من روحه؟ وأخيرًا اهتدى إلى حل يوفّق بين عقيدته وطبيعته، فخلع رداءه وطرحه على القطعة الذهبية ونام فوقه حتى طلع فجر يوم الأحد.

على أنهم بهذا المال المعبود، استطاعوا أن يشتروا إنجلترا، وأن يحكموا أمريكا، وأن يغتصبوا فلسطين مشرق الهدى والسلام، ومجتلى عين موسى ومسرح قلب عيسى، ومسرى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقبلة الإسلام الأولى، وقلب العروبة النابض، ووطن مليون ونصف المليون من العرب المسلمين.

ومن تلك الأمثال قول العرب: «أذّل من يهوديّ بيثرب»، وذلك أن يهود المدينة كانوا قد عاهدوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الأمان والضمان، ولكنّهم نقضوا العهد وظاهروا العدو، وائتمروا بالرسول ليقتلوه، فحاربهم المسلمون حتى أجلوهم عن يثرب إلى الشام وخيبر، فكان اليهودي إذا دخل يثرب، دخلها ذليل النفس، وضيع المكانة.

ومن أمثال الأندلسيين فيهم قولهم: «أضلّ من اليهودي التائه»، وهو رمز على شعب إسرائيل، بعد أن مزقهم الله في الآفاق، وضرب عليهم الذلّة والمسكنة. وأصل المثل أن المسيح ـ عليه السلام ـ مرّ بدار أحد اليهود، وهو منهوك القوة من ثقل ما يحمل، مكروب النفس من شدة ما يعاني، فأراد أن يستريح قليلاً في ظل الدار، فدفعه اليهودي عن ظلّها بقسوة وشدّة، فقال له المسيح وهو يخاطب في شخصه كل اليهود: «ستظل تائهًا في الأرض حتى أعود».

إن لعنة الله ودعوة المسيح لا تزالان تحرقان قدمي كل يهودي. فهو لا تثبت له قدم في أرض، ولا تطمئن له نفس في وطن. وكان من أثر ضلاله البعيد في الأرض، أن اكتسب أخلاق الغجر ـ الزط ـ؛ فهو يلص ليعيش، ويخدع ليغلب، ويتوحش ليأمن، ويتعصب ليدافع، حتى انقطعت بينه وبين الناس علائق النوع، فأصبح خلقًا آخر لا يألف ولا يؤلف. فمحاولة إسكانه في غير أهله، وفي غير أرضه، تكذيب لكلمة الله، وتزوير على قانون الطبيعة، ولن تدوم بإذن الله: *لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يفعلون.* **المائدة:** 78، 79.

قصة قصيرة

المقبرة المعلقة

عبدالكريم الحمصي

صراخ، صراخ، صراخ.. إنه كابوس ولا شك. تركض الأم الأرملة بعد أن تهب من نومها مذعورة، وتتجه إلى غرفة ولدها لتضمه بين ذراعيها وهي تقول: لا تخف يا بني إنه حلم. والتصق هو الآخر بها حى أصبحا كتلة مختلطة من الحب والخوف والرجفان. ماذا بك يا ولدي؟ دراجتك بخير، قطتك بخير، وأمك التي تحبك بخير. كان شعر الأم فوضويًا تائهًا في مهب الهموم، وكان يتخلل سواده خُصَلٌ بيض مكشرة تذكر بلون رخام المقابر. عينا الولد تضربان الجدار بالوجع المستمر، والجدار يضربهما بسياط من نار فتزدادان ألمًا، ويزداد الطفل التصاقًا بأمه حتى يكاد ينفذ من بين أضلاعها إلى قلبها الكبير. حاول الطفل أن يتكلم، ولكن لسانه كان أشبه بحطبة يابسة. كانت يد الأم تطوف ما بين رأس الطفل وظهره تملي عليه رسالة الاطمئنان، أحست الأم أن شيئًا ساخنًا قد سال على ركبتها، عندئذ علمت أن ولدها قد بال في ثيابه. كانت الأم واعيةمثقفة. ازدادت خوفًا على ولدها الذي تجاوز هذه المرحلة، وببطء شديد حاولت أن تنفصل عن ولدها لتضيء المصباح الأكبر ليجرف بنوره ما تبقى من ظلام عَلَّ الولد يزداد اطمئنانًا، وبكل لطف الأمومة أحضرت له اللباس الآخر حتى لا تجرح كبرياءه الطفولي السائر إلى الفتوة المقبلة. لماذا تشرب مزيداً من الشاي قبل النوم يا ولدي؟ أنت اليوم رجل «البركة». أبوك ـ الله يرحمه ـ كان رجلاً، جدك ـ الله يرحمه ـ كان رجلاً.. صرخ الطفل.. كفى يا ماما كفى. اسم الله عليك يا ولدي.. ما بك؟ الموت يا ماما الموت، الموت! مالك وما للموت؟ مازلت صغيراً يا ولدي، خيرا إن شاء الله. المقبرة يا ماما، المقبرة! المقبرة! أي مقبرة؟ المقبرة بعيدة من هنا.. بعيدة جداً.. ثم نحن نعيش في الدور السابع من البناية.. ما الأمر؟ قالوا يا ماما إن جدي الأكبر مات في الحرب العالمية الأولى، وجدي مات في الحرب العالمية الثانية، وأبي مات في الحرب العالمية الثالثة. لا.. لا يابني.. صحيح أبوك مات، ولكن ليس في الحرب العالمية الثالثة.. إنه مات في الحرب.. حرب.. كان أبوك شرطيًا يلاحق المجرمين وعصاباتهم.. ومات وهو يقوم بواجبه.. مات بالرصاص.. بعد الحرب العالمية الثانية..

ـ يعني الثالثة.. أنا سوف أموت في الحرب الرابعة..

ـ لا يا ولدي.. أنت سوف تعمل عملاً مدنيًا وتعيش كما تحب، ولن تذهب إلى أي حرب. يا ماما أنا لا أريد أن أذهب إلى الحرب، ولكن أخاف أن تأتي الحرب إليّ.. لاحول ولا.. انتبهت الأم إلى عيني ولدها وهما تتعاركان مع الجدار.. ما بك يا ولدي.. المقبرة يا أمي.. لا مقبرة هنا.. بل هي مقبرة معلقة على الجدار، هذه قبور (مبروزة). هذه صور.. مجرد صورا بل هي قبور معلقة على الجدار.. هذا قبر جدي الأكبر هذا.. يا بني كما قلت لك هذه صور مجرد صورا بل هي قبور سُجِّلت عليها أسماء الموتى وتاريخ الوفاة وأسبابها.. لا بأس سوف أتخلص من هذه المقبرة التي تؤذيك.. وتغطي الأم الصور بشرشف أبيض. تبدو الصور تحت الشرشف وكأنها لبست أكفانها من جديد. تأخذ الأم بيد ولدها وتهرب به إلى غرفة أخرى.. قالت: لا بأس عليك يا ولدي.. ولا يهمك. سوف نفتح التلفاز ونغير الجو. تفتح الأم التلفاز.. فِلْمٌ عن حرب فيتنام.. تغير إلى قناة أخرى: إطلاق نار ومكبر للصوت يصيح: بوليس بوليس.. تغير إلى قناة أخرى: أخبار مصورة ومدفعية جنوب لبنان. أغلقت التلفاز وهي تقول: تبًا لكم.. متى نخلص من هذه البلاوي. والله إن المقبرة المعلقة على الجدار كما يقول ولدي أرحم منكم.. يارب الطف بنا من أجل الأطفال وبراءة الأطفال.

ملح الطعام

عدو قاتل.. أم سرّ من أسرار الحياة؟

زياد أبو غنيمة

ملح الطعام... هذا الذي لا يخلو منه بيت، عرفه الناس مذاقًا على اللسان، لا يستقيم طعم طعام من دونه، كما لا يستقيم به طعم ماء: *وما يستوي البَحْرَانِ هذا عَـذْبٌ فُرَاتٌ سائغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ*. **فاطر**: 12. وجهلوه مادة لا تستقيم من دونها حياة إنسان، فما تستقيم حياة من دون دم، ولا يخلو دم من ملح الطعام، فلقد أخذ العلماء المحلّلون عينة من دم الإنسان، وأجروا عليها دراساتهم، فوجدوه يتركب من عشر مواد يتقدمها ملح الطعام، بواقع 450 ـ 500 مللغرام في كل مئة سنتمتر مكعب، وأخذوا عينة من جسم الإنسان، فوجدوا فيها عشرين عنصرًا، تتوزع في لحم وفي عظم، يشغل بينها عنصرا ملح الطعام (الصوديوم والكلور) المرتبتين التاسعة والعاشرة بواقع 15ر0٪ لكل منهما.

والأرض

كوكبنا الذي عليه نعيش، لا تخلو طبقة من طبقاتها من عنصري ملح الطعام، فقشرتها الأرضية Lith-osphere، تلك التي تنحدر إلى أعماق عشرة أميال، تحتضن ما يقارب مئة عنصر، يشغل الصوديوم بينها المرتبة السادسة 85ر2٪، والكلور المرتبة الرابعة عشرة 055ر0٪، ويابستها التي تستوي عليها الحياة Bio-sphere، وغلافها الجوي Atmosphere وطبقتها المسماة Hydrosphere فيها من عنصري الصوديوم والكلور مثل ما في القشرة الأرضية، ولكن باختلاف نسبة وتوزيع.

وملح الطعام غذاء كأي غذاء، ولا يتجلى بديع صنع الله عز وجل في ملح الطعام في كونه مادة أساسية في تركيب دم الإنسان فحسب، بل تتجلى نعمة ربنا وبديع صنعه في ملح الطعام فيما أودعه الله عز وجل فيه من خاصية غذائية لا تستقيم حياة الجسم إلا بها.

ويأخذنا العجب، حين نكتشف أن رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبق علماء الأرض حين أشار إلى خاصية ملح الطعام فيما أورده ابن ماجه في سننه من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «سيد إدامكم الملح»، والأدْم في لغة العرب هو ما يُستمرأ به الخبز.

والغذاء أنواع، ولا بد للجسم من أن ينال حظه من كل نوع، فإنه لا يُغني غذاء عن غذاء، أما النوع الأول فذلك الذي يُؤَمِّن للجسم ما يحتاج إليه من طاقات، تتكفل بذلك البروتينات والدهنيات والسكريات والنشويات، وأما النوع الثاني فالغذاء الذي يبني الجسم وينميه، تتكفل بذلك البروتينات والأملاح المعدنية، ثم الغذاء الذي يحصن الجسم وينشطه، تتكفل بذلك الأملاح المعدنية والفيتامينات. والأملاح المعدنية مجموعة ذات شأن في الطب والصناعة والاقتصاد، شأنها في الغذاء، ولملح الطعام فيها مكان الصدارة، تحيط به حاشية من أملاح أخرى تتفاوت أهميتها قربًا وبعدًا. وملح الطعام يزود الجسم بالجزء الأكبر من احتياجه إلى عنصري الصوديوم 4ـ 6 غم يوميًا، والكلور 6 ـ 8 غم يوميًا.

حاجة الجسم إلى ملح الطعام

بحث العلماء فيما يحتاج إليه الإنسان من ملح الطعام، فوجدوه يحتاج إلى 10 ـ 15 غرامًا يوميًا في الحالات الطبيعية المعتدلة، والنباتيون أحوج إلى الملح من أكلة اللحوم، ذلك أن ما تختزنه النباتات من الملح يقل في اللحوم، وقد يزداد جهد إنسان ما، وقد ترتفع حرارة الجو فيزداد تعرق الإنسان، والتعرق الطبيعي نعمة، فإذا زاد على المألوف كان فقدانًا ينبغي أن يُعَوَّض، وذلك يفسر إلحاح المتعرق على استهلاك فائض من ماء.

على أنك لو تذوقت عرقك الذي ينضحه جسمك، لوجدت به ملوحة ظاهرة، ذلك أنه لا يخلو من ملح، ومثلما نعوض الجسم عما فقد من ماء، فكذلك ينبغي أن نعوضه عما فقد من ملح الطعام، وإلا انخفض تركيزه في الدم



زاوية من إحدى المالح، ويبدو الملح نازلاً على جدرانها

عن الحد المألوف مما يعرض الإنسان في الحالات الحادة إلى استنفاد حرارة الجسم، الأمر الذي ربما أدى إلى الموت، وفي الحالات العادية لهجمات التشنج التي قد تتطور إلى موجة مؤلمة من الهذيان، وقد يتعرض لموجات من الغثيان والإنهاك وفقدان الشهية.

ويتبع هذا كله انخفاض نشاط العاملين في الأجواء الحارة المحصورة مما ينتج منه انخفاض مستوى الإنتاج وكمياته، وتلك مشكلة عانت منها الصناعة العالمية حقبة كلفتها الملايين.

واستهدوا العلم فهداهم، وقدَّم لهم أقراصًا من ملح الطعام وضعوها بجانب صنابير المياه يتناولها المستخدمون كلما شعروا بنقص في حيويتهم ونشاطهم، ووفروا، من بعد، على أوطانهم ومواطنيهم الملايين.

ويتدارك الجسم حاجته من ملح الطعام مما يضاف إلى الطعام ليصلح طعمه، ثم مما تختزنه معظم الخضروات واللحوم وبعض الفواكه، والحليب ومشتقاته من لبن وجبن.

وكما لا يجوز التهاون في تأمين حده الأدنى، فكذلك ينبغي عدم الإفراط فيه عن حده الأعلى، وإلا كان داء الاستسقاء أو نقص الماء Water logging وخاصة عند الأطفال، أو ربما سَبَّب تورمًا في الساقين أو القدمين، أو أجزاء أخرى من الجسم عند المسنين وخاصة الذين يعانون من السمنة المفرطة.

وجهاز الهضم له مع الملح شأن..

وطعامنا، ما كان له أن يؤدي دوره في دفع عجلة الحياة، بغير ما يتعرض له من عمليات هضم وامتصاص وتمثيل، وتتم عملية الهضم الرئيسة في المعدة، إذ تقوم بها عصارة المعدة وهي مزيج من حامض الكلوردريك (0،4 – 0,5) والببسين والرنين والليباز.

وإلى جانب ما يقوم به حامض الكلوردريك من تعقيم للطعام قبل عملية الهضم، فإنه يؤمن الوسط الحامضي الذي لا تستطيع مادة الهضمين (الببسين) Pepsin من دونه أداء وظيفتها في تفتيت البروتينات إلى قطع صغيرة يطلق عليها اسمًا Proptones و Proteoses حيث تصبح قابلة للانحلال والامتصاص، وفي هذا الوسط الحامضي تكون مادة Rennin أنشط على أداء وظيفتها في تخثر الحليب.

وحامض الكلوردريك هذا، ما كان ليكون، لولا وجود ملح الطعام في الجسم إلى جانب ما فيه من ماء، ويالروعة، بل يا لبديع صنع الله عز وجل، يتجلى في إبطال مفعول الكلوردريك داخل معدة الإنسان، الذي ينقلب، بقدرة الله عز وجل وبديع صنعه، إلى حامض مسالم هادئ لا يقوى على إذابة جدار معدة الإنسان إلا في حالات شاذة يطلق عليها الطب اسم «القرحة»، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وللملح في الطب منزلة..

ذلك فيما أطلقوا عليه اسم physiologi-cal solution وهو محلول لحفظ الأنسجة الحية يحتوي على 8 ـ 8,5 غرامات من ملح الطعام مذابة في لتر من الماء المقطر، وهو تركيز قريب من تركيز الملح في دم الإنسان، يُحقن به الذين يعانون من حالة جفاف رئيسة أو حالة استنزاف الملح الرئيسية، وهما حالتان يتعرض لهما أولئك الذين يصابون بنزف شديد، أو بحالات تسمم حادة، وخاصة تلك التي تتسبب بها الحوامض والألدهيدات، أو الأبخرة الأزوتية، أو مركبات الفضة، وقد يصاب بها أيضًا أولئك الذين يعانون من حالات تقيؤ حادة أو مرض

إديسون، أو الإسهال الحاد، وقد يؤدي استشراء هذه الحالات إلى مضاعفات خطيرة، والمحلول الذي ذكرناه يعيد التوازن في تركيز الماء والملح في دم الإنسان فيعصمه - بإذن الله - من خطر محقق ريثما يتم تدارك الأمر، واستعمله الأطباء أيضًا في إسعاف الذين يتعرضون لضربة الشمس، واستعملوه مُقَيِّئًا في بعض الأحيان. ويذهب بعض الأطباء إلى القول بأن ملح الطعام يؤدي دورًا مهمًا في تنظيم انتقال الإشارات عبر الأعصاب.

ولكن كثيرًا من الأطباء يقولون: حذار من ملح الطعام فقد يكون سببًا في أمراض القلب، فقد استرعت ظاهرة انعدام أمراض القلب وضغط الدم وسوء التغذية بين السكان البدائيين لجزيرة سولومون اهتمام بعض العلماء؛ فسارعت ثلاث جامعات أمريكية، هي: هارفارد وتفتس وماساشوستس بتشكيل فريق طبي وعلمي لدراسة هذه الظاهرة، وبعد دراسة استغرقت نحو سنتين من دون انقطاع لاحظ الفريق أن بعض مرافقيهم من سكان المنطقة الذين يعملون معهم أدلاء وحمالين وخدمًا بدؤوا يشكون من أعراض اعتلال في نبضات القلب وضغط الدم.. وعند فحصهم طبيًا تبين أن معدل الكولسترول قد زاد في دمهم ازديادًا ملحوظًا.. ولم يجد العلماء عناء في اكتشاف أن اعتياد هؤلاء المصابين تناول الأطعمة الخاصة بالفريق وأغلبها معلبات تحتوي على نسبة زائدة من ملح الطعام كانت هي السبب، وحين ركز الفريق دراسته حول هذه الفرضية وجد أن الطعام الذي اعتاد بدائيو الجزيرة تناوله يخلو فعلاً من ملح الطعام إلا بكميات لا تكاد تذكر، وأن معدلات الكولسترول في دمائهم كانت ثابتة بشكل مستمر، ولشد ما دهشوا حين لاحظوا ارتفاع معدلات الكلسترول وضغط الدم باطّراد بمجرد تناولهم كميات متفاوتة من ملح الطعام.

ومنذ بضعة عقود ما فتئت الأروقة العلمية والمنتديات الطبية تشهد معركة صامتة تتركز حول الاشتباه في وجود علاقة بين ملح الطعام والإصابة بأمراض ضغط الدم.

ولم تلبث المعركة أن انقلبت من إطارها العلمي لتصبح موضوعًا ساخنًا في وسائل الإعلام العالمية، وبلغ من سخونة المعركة أن تقوم مجلة «التايم» الأمريكية الذائعة الصيت بتخصيص غلاف عددها الصادر في الخامس من آذار/ مارس من عام 1982م ليحمل اتهامًا خطيرًا لملح الطعام، حيث رسمت على الغلاف رسمًا «لمملحة» وكتب عليها عبارة: «ملح الطعام.. الوغد.. النذل.. الجديد».

الاعتدال في استخدام الملح يساعد في تنظيم عملية الهضم، ومحلوله يعالج الجفاف.. أما الإسراف فيه فقد يؤدي إلى الإصابة بأمراض القلب وضغط الدم

من القديم..

بدأ عهد الإنسان بملح الطعام منذ كان الإنسان، يسره له الخالق من حيث لا يدري، مختزنًا في نبات، وفي لحم، وفي ماء، واستمر الحال كذلك طوال حقبتي العصر الحجري القديم (؟ -12000 ق.م) والعصر الحجري الوسيط (12000- 7000 ق.م)، حتى كانت بداية العصر الحجري الحديث (7000 - 4500 ق.م)، وحدث للإنسان فيها ما حدث من انتقال من بدائيته المستوحشة، إلى حياة شبه مستقرة عمادها الزراعة والرعي، فيما يطلق عليه بعض المؤرخين الانقلاب الزراعي أو الحضري، وبدأ الإنسان يتذوق الأشياء، فيستسيغ ويلفظ، وعرف الملح واستعمله، وحسب أنه يستعمله أول مرة، وما هو بذلك.

وتطورت أشكال استعماله خلال العصر المعدني (4500 - 3200 ق.م)، والعصر البرونزي (3000 - 1100 ق.م)، وسجل بعض المؤرخين لسكان كريت في أواخر العصر البرونزي استحصالهم على الملح من مياه البحر بالتبخير الشمسي.

وتروي الأساطير اليونانية القديمة أن الحيوان قد سبق الإنسان إلى اكتشاف الملح والتلذذ بمذاقه، وأن الحيوانات كانت تلتذ «بلمس» بلورات الملح الناصعة البياض التي كانت تكسو أغصان وجذوع الأشجار، أو التي كانت تترسب على الصخور المحاذية لضفاف الأنهار بعد انحسار المياه من بعض الفجوات وفي الصخور بفعل أشعة الشمس.

ويبدو أن منظر الحيوانات وهي «تلحس» بلورات الملح قد استرعى انتباه الإنسان، فاستبد به الفضول لاكتشاف ذلك السر، فقلد الحيوانات في «لحس» البلورات الملحية، وكان ذلك أول عهد الإنسان باكتشاف ملح الطعام.

والمصريون القدماء..

عرفوا الملح، وجعلوا تجارته حكرًا ملكيًا يدر على خزائن فراعنتهم أجزل وارداتها.

والرومان..

كانوا لحقبة ما، يقوّمون جهود جنودهم بما يؤدونه لهم من ملح الطعام، يستعيضون به عن الرواتب والأعطيات، فإذا ساءهم من جندي تصرف، حرموه حصته من الملح، وقالوا «هو لا يساوي ملحة» فذهبت مثلاً.

ولقد بلغ من اهتمام الرومان بملح الطعام، أنهم خصصوا طريقًا خاصة أطلقوا عليها اسم "Via salaria" أي «طريق الملح»، لا تسلكه إلا قوافل العربات التي تجرها الثيران، والتي كانت تحمل ملح الطعام إلى أوروبا، تحت حراسة مشددة من جنود الجيش الروماني.

وكانوا يطلقون على راتب الجندي Salarium Argentum، ومن هذه اللفظة اشتق البريطانيون كلمة الراتب بلغتهم Salary، واشتق الفرنسيون كلمة الراتب Salaire بلغتهم، وينسى معظمنا أنهما مشتقتان من اسم ملح الطعام Salarium.

وتفاءل الرومان الأقدمون بملح الطعام، فتعارفوا على وضع حبيبات قليلة من ملح

عـدو قـاتل.. أم سـر مـن أسـرار الحـيـاة؟

الطعام في فم كل مولود، ذكرًا أو أنثى، بعد أن يكمل يومه السابع.

وأهل التبت وأهل منغوليا استعملوا كتل الملح المتحجرة نقودًا يتبايعون بها ويشترون.

والروس...

ما انفكوا، خلفًا من بعد سلف، يقدمون لكل عريسين، رغيفًا من خبز رمزًا للبركة والعطاء، وحفنة من ملح رمزًا للطهارة والوفاء.

والعرب...

عرفوا الملح واستخدموه مثلما استعمله سائر الناس، وزادوا فاتخذوا منه الأمثال فقالوا: «فلان ملحه على ركبتيه»، أي لا وفاء له ولا عهد، وجعله آخرون آية الوفاء والعهد، فقالوا: «بينهما ملح وملحة»، أي عهد وحلف، وعرفه العرب مادة تمنع فساد اللحم وبعض الأطعمة الأخرى فأضافوه إليها لمنع تفسخها، ولحفظها، وخلد شاعر عربي قديم استفادة العرب من الملح في هذا المجال فقال:

بالملح نصلح ما نخشى تغيّره
فكيف بالملح إن حلّت به الغيَرُ؟

ضريبة الملح التي فجرت حربًا!

ويروي تاريخ ألمانيا والألمان، أن ملح الطعام كان سببًا في اندلاع حرب ضروس في القرن التاسع قبل الميلاد استمرت عامًا كاملاً بين أقوى قبيلتين ألمانيتين كانتا تتنازعان على الزعامة في ألمانيا آنذاك.

فقد كانت قبيلة Chatti تقيم على أحد ضفاف نهر ويرا Werra، وكان هذا النّهر هو الحد الفاصل بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية قبل توحيدهما، وكانت قبيلة هيرماندوري -Hermanduri تقيم على الضفة الأخرى، وكانت القبيلتان تستخرجان حاجتهما من ملح الطعام من مياه النهر بعد تبخيرها تحت أشعة الشمس، ويبدو أن بريق بلورات ملح الطعام الذي كان في تلك الأيام يبهر الأبصار أكثر مما يبهرها بريق الذهب، قد أغرى كل قبيلة بأن تستحوذ على المجرى المائي المالح، وتحتكره لنفسها، فبدأت بينهما مناوشات، لم تلبث أن تطورت إلى حرب ضروس استغرقت عامًا كاملاً، وأسفرت عن إبادة قبيلة شاتي إبادة تامة فقضت على رجالها ونسائها وأطفالها.

وتشير أشعار «الأوديسا» إلى ملح الطعام، وتصفه بأنه إحدى هدايا البحر إلى الإنسان، وتذكر أن أول نواة تكونت منها الأمة اليونانية كانت عبارة عن مجموعة من بدو أوروبا الذين يمموا شطر شواطئ البحر المتوسط جريًا وراء استخراج ملح الطعام من مياه البحر بعد

كان الملح سببًا في إشعال حروب، واندلاع ثورات، وإتخام خزائن بعض الحكام القدامى بالمال.. كما أحصى الباحثون له أكثر من ألف وخمسمئة استعمال

تجفيفها، واستقروا مع الأيام في المناطق التي أصبحت تُعرف فيما بعد باليونان.

ضريبة الملح التي فجرت ثورة!

ولقد أتى على الملح حين من الدهر، كانت تجارته في أوج الازدهار، فكان الأباطرة والملوك يفرضون عليها ضرائب باهظة، يتخمون بها خزائنهم، ولعل أشهر ضريبة من هذا النوع، تلك التي فرضها ملوك فرنسا في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، واشتهرت في التاريخ باسم Gabelle، حيث أُجبر كل مواطن فرنسي على شراء كمية من ملح الطعام، في أوقات معينة وبأثمان باهظة، لا يُعفى من ذلك ولو كان يملك ملح الأرض جميعًا. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه الضريبة كانت سببًا من الأسباب التي فجرت الثورة الفرنسية عام 1789م، والتي سرعان ما ألغتها عام 1790م.

ولم تكن ضريبة الغابيلا، هي الضريبة الوحيدة التي فجرت ثورة، بل لقد كانت ضريبة الملح التي فرضها الاستعمار البريطاني على الهنود في عام 1930م سببًا في قيام مظاهرات صاخبة قادها المهاتما غاندي نحو شواطئ البحر، ليحصل كل إنسان على ما يكفيه من ملح من تبخير مياه البحر، ولو استغرق ذلك أيامًا طويلة.

في ميزان العلم

وننظر إلى الملح بمنظار العلم، وعلى الأخص علم الكيمياء، فنعلم أن الملح بشكل عام هو ذلك المركب الذي تتمخض عنه عملية معادلة Neutralization حامض Acid مع قاعدة Base، فلو أنك فاعلت قليلاً من محلول هيدروكسيد الصوديوم مع قليل من حامض الكلوردريك، ثم بدأت بتسخين الأنبوب الذي أجريت فيه التفاعل ليتبخّر قسم من الماء الذي تمخض عنه التفاعل، فإن راسبًا أبيض اللون يتجمع على شكل بلورات صغيرة براقة في أسفل الأنبوب، ذلك هو ملح كلوريد الصوديوم، فأينما وردت هذه الكلمة مجردة فإنما يراد بها ملح الطعام، ويخصصون أحيانًا، فيقولون ملح المائدة Table Salt، ويعممون أحيانًا فيقولون Common salt.

تركيبه الكيماوي

ويأخذك العجب، بل إنك تُسبّح بقدرة الله عز وجل وبديع صنعه جل جلاله، حين تكتشف في تركيب ملح الطعام سرًا تتمثل فيه صورة أخاذة من بديع صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه، حين تعلم أن هذا المركب الوديع الذي يؤدي في حياة الإنسان دورًا جليلاً يكاد يشكل إحدى مقومات حياة الإنسان، إنما يتركب كيماويًا من عنصرين لهما في عالم الأذى والشر باع وأي باع، من الصوديوم Na (39,3٪) والكلورا Cl (60,7٪). فأما الصوديوم، ذلك العنصر ذو اللون الأبيض - الفضي، فقد درج الكيميائيون على حفظه داخل سوائل لا تحتوي في تركيبها على عنصر الأوكسجين، وإنه داخل سجنه هذا لوديع أليف، تستطيع أن تلوكه بيدك، أو تقطعه بسكين، لكنه.. إذا ما تعرَّض للهواء أو لامس الماء، انتفض فيه مارد الشر،

يلهب الهواء والماء فتتطاير شظاياه؛ فإذا أصابت عينًا فقأتها، وإذا أصابت جلدًا التهمت اللحم فلا تتركه إلا قطعة كأنما خرجت لتوها من شواء، فلا يكاد يؤمل لها شفاء.

وأما الكلور.. ذلك العنصر اللافلزي، ذو اللون الأخضر المائل إلى الصفرة فحسبنا أن نذكر من عظيم شره، أن أمم العالم تنادت إلى تحريم استعمال غازه في الحروب كمادة سامة بعد أن تسبب في هلاك الآلاف في الحرب العالمية الأولى.

وملح الطعام معدن كسائر المعادن، والعرف عند الكيميائيين، أن كل مركب أو عنصر كيماوي يوجد في الطبيعة، منفردًا أو ملتصقًا بغيره سمي معدنًا Meneral، وتوسعوا فاستنبطوا علم المعادن، وملح الطعام يُعرف معدنه باسم هالايت، وهو معدن ذو بلورات مكعبة الشكل، شفاف، يغلب على لونه البياض إذا كان نقيًا، وقد يميل إلى الصفرة، أو الحمرة، أو الزرقة، أو اللون البنفسجي، تبعًا للشوائب التي تلتصقُ به، يذوب في الماء بسهولة، ولا تؤثر الحرارة تأثيرًا بينًا في قابليته للذوبان.

انتشاره في الطبيعة

وينتشر معدن الهالايت في الطبيعة بكميات أعجزت أهل الاختصاص حصرًا وتحديدًا، فاجتهدوا، فقالوا، إنها كميات لا تنضب، ولا إخالهم إلا صَدَقوا.

وتجمعات المياه من محيطات، وبحار، وبحيرات وأنهار، هي المحضن الطبيعي لملح الطعام، تجده ذائبًا فيها بكميات تتفاوت ضخامة وضآلة، ولعل أغنى التجمعات المائية بملح الطعام 16,35٪، تلك البحيرة الجوفية المسماة Searles Lake التي تقع في صحراء Mojava، بين كاليفورنيا ونيفادا، في الولايات المتحدة، وتشغل مساحة 15 ميلاً مربعًا، وتتركز على سطحها طبقة جامدة من ملح الطعام، تستطيع الناقلات أن تسير عليها.

والبحيرات المالحة العظمى، في الولايات المتحدة، تستأثر بنسبة 12٪ من ملح الطعام، وبحيرة «فان» في تركيا، تستأثر بنسبة كبيرة من ملح الطعام، لم تسعفني المراجع أن أجد لها تحديدًا.

وتسأل عن مياه المحيط، وعن مياه البحر، فتعجب من ضآلة محتواهما من ملح الطعام، إنه في المحيط لا يكاد يزيد على 2,79٪، وفي البحر 2,94٪ .

وتجد معدن الهالايت مترسبًا في باطن الأرض، أو على ظهرها، في قطاعات واسعة تتراوح سماكتها بين بضعة أقدام إلى بضعة آلاف، وغالبًا ما تكون هذه الرواسب الملحية على شكل صخور ملحية أو تجمعات لبلورات متلاصقة، وربما وجد على هيئة مادة متزهرة في صحراء أو حول فوهة بركان.

مناجم الملح

ويحار المرء في تصنيف مناجم الملح التي يزدحم بها كوكبنا، ولعل أغناها تلك التي تقع بين كنساس وتكساس في الولايات المتحدة، وتغطي مساحة مئة ميل مربع، على عمق 300 - 600 قدم وبسماكة تقارب 300 قدم وتكفي الولايات المتحدة مليون سنة بالاستهلاك العادي.

ويعد منجم ستاسفورد في ألمانيا من أشهر مناجم الملح، حيث تبلغ سماكة طبقة الملح فيه 3000 قدم. وفي مناجم رتسوف قرب نيويورك تبلغ سماكة طبقة الملح 18 قدمًا بنسبة 98,5٪ ملح طعام، على عمق 1063 قدما تحت سطح الأرض.

أما مناجم جزيرة أفرى فتبدأ طبقة الملح من منتصف الجزيرة على عمق 100 قدم وتنحدر إلى أكثر من 5000 قدم، في الوقت الذي لا تتجاوز سماكة طبقة الملح في أطراف الجزيرة 10 - 12 قدما على عمق 518 قدمًا.

المنجم .. المتحف

ويستأثر منجم Weiliczka في بولندة، ذلك الذي استمر ينتج الملح عدة قرون (600 عام) بشهرة ذات طابع خاص، فقد قام فنانون مجهولون بتحويله إلى متحف رائع يزخر بالنصب التذكارية والأبنية المصغرة، والأروقة ذات النقوش البديعة، والتماثيل المتنوعة، نحتوا كل ذلك من الصخور الملحية الضخمة التي يزخر بها هذا المنجم.

وتمتاز مناجم الملح بحرارتها المعتدلة ورطوبتها المعقولة وتهويتها الجيدة، ويذكر أن النازيين استفادوا من هذه المميزات، فكانوا يخفون أسلابهم من متاحف أوربا ومعارضها في منجم ملح مهجور في إقليم -Salzkam mergut في النمسا.

استغلاله في الصناعة

ويكاد ملح الطعام يكون من أكثر المواد استغلالاً في الصناعة، فلقد أحصى الباحثون له أكثر من ألف وخمسمئة استعمال، في عدة مئات من الصناعات المختلفة، ونختصر - حيث يعجزنا التفصيل الآن - فنذكر من استعمالاته ما يلي:

ففي مجالات الصناعة الكيماوية يُعدّ ملح


قافلة تحمل الملح تمخر عباب الصحراء في درجة حرارة قد تصل إلى 70مئوية

عدو قاتل.. أم سر من أسرار الحياة؟

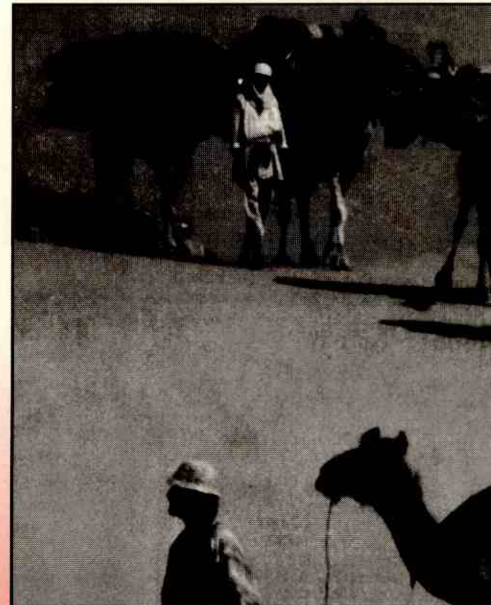
الطعام المصدر الرئيس لعنصر الكلور ومشتقاته، ولكثير من أملاح الصوديوم كالصودا الكاوية، وهو مصدر مهم لعنصر الصوديوم. أما استعمالاته في الصناعة فإليك بعض الصناعات التي يدخل فيها ملح الطعام بشكل من الأشكال:

حفظ الطعام، دبغ الجلود، صقل السيراميك، التبريد، الثلج الاصطناعي، المياه المعدنية، وفي صناعة الصابون لفصل الصابون عن الجلسرين، الأسمدة، بعض أطعمة الماشية، الورق، بعض الأدوية، الأصبغة، صناعة السكر، المنسوجات، الأصمغة، الزجاج، في تنشيط وتجديد الزيوليت وهي المادة المستعملة في عملية إزالة عسر المياه.

ويستعمل أيضًا مبيدا لطفيليات النبات والأعشاب الضارة، وفي إذابة الجليد المتراكم في الطرقات، وفي تسكين الغبار المتطاير، ويستعمل مادة مساعدة للانصهار Flux في بعض الصناعات المعدنية كاستخراج الفضة والذهب والنحاس والزنك.

ملح الطعام في الوطن العربي

لا يخلو بلد عربي من وجود ملح الطعام، ولكن بكميات تختلف من بلد لآخر، ونبدأ من الأردن حيث يوجد ملح الطعام بحالتيه، الذائب في الماء والصخور الملحية، فالبحر الميت يحتوي على مليون بليون طن، وفي منطقتي الأزرق



واللسان تكثر المياه الجوفية التي تحتوي على نسبة كبيرة من ملح الطعام الذائب التي لم تحدد كمياتها بشكل دقيق، أما الصخور الملحية فتوجد على شكل طبقات في منطقة اللسان المحاذية لشرقي البحر الميت.

والبحر الميت أسموه ميتًا وما هو بميت..

فإنه يزخر بالحياة بما يحتضن من ثروات معدنية، لو أحسن العرب استغلالها لبعثت في اقتصادهم وصناعتهم الحياة، ويستأثر البحر الميت بنسبة 25٪ من الأملاح المعدنية، و7٪ من ملح الطعام، ولعل أول من فطن لما في البحر الميت من ثروات معدنية، الباحثون الألمان والإنجليز، في أواخر القرن التاسع عشر، ثم توقفت الأبحاث مدة من الزمن، إلى أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، فعاد الإنجليز إلى أبحاثهم ودراستهم، ثم أسسوا شركة البوتاس الفلسطينية برئاسة نوفوميسكي عام 1930م، ثم رحلوا بعد أن عقدوا عقدتهم: إسرائيل، وغرسوها في قلب وطننا العربي فورثت شركة البوتاس هذه، فطورتها واستمرت في استغلالها إلى يومنا هذا.

أما العرب فقد برحوا - هداهم الله - سنوات طويلة يحاولون، يصيح صائحهم، مالنا لا نستغل أملاح البحر الميت مثلما يستغلون..؟ فتعقد الاجتماعات وتطول اللقاءات، ثم يزفون إلى العرب بشرى تأسيس شركة البوتاس العربية في 7/ 7/ 1956م تدعمها الدول العربية، وتدعمها الشعوب، واتخذت الأردن مركزًا لها، وتقوم بالإنتاج حاليًا بشكل تجاري.

وفي أثناء عمليات إنتاج البوتاس من البحر الميت، فإن كميات كبيرة من ملح الطعام يتم إنتاجها كناتج جانبي أثناء عملية استخلاص البوتاس، ومن المنتظر أن تجعل هذه الكميات المنتجة من ملح الطعام الأردن من الدول العربية المتقدمة في مجال إنتاج ملح الطعام.

وفي السعودية تم تأكيد وجود مدخرات كثيفة من ملح الطعام الصخري في منطقة جازان تقدر كمياتها المؤكدة بنحو 33,5 مليون طن، بينما تقدر كمياتها المحتملة بنحو ألف مليون طن، وتبلغ نسبة كلوريد الصوديوم في هذه الأملاح الصخرية نحو 96٪، ويوجد ملح الطعام الصخري بنسبة 94,4٪ من كلوريد الصوديوم في منطقة سبخة الحمام وتقدر كمياتها بمليون طن، أما في الجزء الجنوبي الغربي من الربع الخالي فتوجد كميات كبيرة من ملح الطعام الصخري.

وفي سورية ينتشر ملح الطعام في عدة مواقع، أهمها منطقة حوض نهر الفرات، حيث توجد طبقات من ملح الطعام الصخري الذي يحتوي على نسبة 96٪ من كلوريد الصوديوم، وتقدر الكميات المؤكدة من ملح الطعام في حوض نهر الفرات بنحو 812 مليون طن.

أما راسب إيثة، فيحتوي ملح الطعام الصخري الذي يوجد في هذا الراسب على 97 - 98٪ من كلوريد الصوديوم، وتقدر كمياته المؤكدة بنحو 30 مليون طن.

وفي تكوين دهيبان تبلغ نسبة كلوريد الصوديوم في ملح الطعام الصخري الذي يحتويه التكوين حوالي 98,8٪، وتقدر كمياته المؤكدة بنحو 83,5٪ مليون طن، ويبلغ الإنتاج السنوي من ملح الطعام النقي المستخرج من تكوين دهيبان قرابة 30 ألف طن سنويًا.

وتنتج سورية سنويًا ما بين 30 ألف إلى أربعين ألف طن من ملح الطعام النقي من الملاحات المنتشرة في بحيرة الجبّول وقرب تدمر وقرب جيرود.

وتتصدر مصر قائمة البلدان العربية المنتجة لملح الطعام، تنتجه من الملاحات المنتشرة في بورسعيد والمنزلة ودمياط ورشيد والإسكندرية ومرسى مطروح، ومن عشرات الملاحات المنتشرة على ساحل البحر الأحمر المحاذي للحدود المصرية، وتستهلك مصر قرابة 300 ألف طن سنويًا من الملح في الصناعة الوطنية، وخاصة في صناعة الصودا الكاوية.

وتأتي الصومال في المرتبة الثانية بعد مصر في إنتاج ملح الطعام، حيث يبلغ إنتاجها

ملح الطعام

عـدو قـاتل.. أم سـر مـن أسـرار الحـيـاة؟

السنوي قرابة نصف مليون طن تنتجه من مصنع تحلية مياه البحر الأحمر الذي يعتمد على الطاقة الشمسية ويقع على مقربة من هوديو.

أما تونس فيبلغ إنتاجها السنوي من ملح الطعام قرابة ربع مليون طن تستخرجه من ملاحات المنستير القريبة من ميناء سوسة.

مع أن ملح الطعام ينتشر في أرجاء وطننا العربي بكميات هائلة ؛ إلا أن الإنتاج العربي منه لا يساوي شيئا في مقابل الإنتاج العالمي

وتنتج الجزائر سنويًا قرابة مئة وأربعين ألف طن.

وينتج العراق سنويًا قرابة 60 ألف طن من ملح الطعام من الملاحات الواقعة على الخليج العربي، ومن بعض الملاحات الواقعة في داخل العراق على مقربة من التجمعات المائية ذات النسبة العالية من ملح الطعام الذائب فيها.

وينتج السودان سنويًا قرابة 60 ألف طن من ملح الطعام تنتج من الملاحات القريبة من زيلع والملاحات المنتشرة على ساحل البحر، وهي ملاحات رواية وداره وأم زيدة، وفاتودج وملاحة بورسودان.

كما يستخرج قرابة ثلاثة آلاف طن سنويًا من ملاحات صغيرة محفورة في الصخور في منطقة القاعدة شمالي كردفان.

وفي المغرب ينتشر ملح الطعام الصخري في شمالي الدار البيضاء، وتبلغ نسبة كلوريد الصوديوم فيه نحو 97,5 - 98٪، وتقدر الكميات المؤكدة بنحو 800 مليون طن، بينما تقدر الكميات المحتملة بنحو 2000 مليون طن.

أما في حوض خميس فيوجد ملح الطعام على شكل ملح صخري وعلى شكل معدن الكارناليت والسلفايت، وتقدر كمياته المؤكدة بنحو 4,5 مليون طن.

وفي راسب المحمدية يوجد ملح الطعام الصخري بكميات تقدر بمليارات الأطنان.

وتوجد كميات لم تقدر بعد من أملاح الصوديوم في ملوية الوسطى في الهضاب العليا.

وكان لبنان ينتج قبل الحرب الأهلية قرابة 35 ألف طن من ملح الطعام سنويًا، أما ليبيا فيبلغ إنتاجها السنوي قرابة عشرة آلاف طن، وتنتج الكويت من محطات تحلية المياه قرابة 15 ألف طن سنويًا من ملح الطعام.

ويوجد ملح الطعام الصخري في منطقة الصليف في اليمن، وتبلغ نسبة كلوريد الصوديوم فيه نحو 96,5٪ وتقدر كميته المؤكدة بنحو 200 مليون طن.

وبعد...

فإذا علمنا أن الإنتاج العالمي لملح الطعام ما فتئ يتزايد عامًا بعد عام كما تشير هذه الإحصائية الصادرة عن المكتب الأمريكي للمناجم US Bureau of Mines وهو من أهم مراكز البحث في مجال الخامات على اختلافها (الوحدة مليون طن):

العام	الإنتاج
1984	173
1985	174.1
1986	175.1
1987	177.3
1988	184
1989	187.4
1990	180.3
1991	205
1992	184.9
1993	190
1994	190

علمنا حينئذ أن خامات ملح الطعام ستكون واحدة من أهم الخامات ذات القيمة الاستراتيجية في مستقبل الأعوام، الأمر الذي ينبغي أن يشد انتباهنا - نحن العرب - إلى ضرورة وضع خطة أو مجموعة خطط لضمان استغلال خامات ملح الطعام التي يزخر به وطننا العربي، صخورًا ملحية Rock Salt وأملاحا ذائبة في المياه بأشكالها: Brine Salt أو Salt in Brine أو Sea Salt.

وإذا علمنا أن مجموع ما ينتجه الوطن العربي من ملح الطعام هو كمية ضئيلة إذا قوبلت بمجموع الإنتاج العالمي من ملح الطعام الذي يقارب 200 مليون طن سنويًا.

وإذا وازنًا مجموع ما ينتجه الوطن العربي من ملح الطعام مع كميات الإحتياطي المؤكد من ملح الطعام في الوطن العربي التي تبلغ مئات الملايين من الأطنان، أدركنا أن وطننا العربي ما يزال يهمل هذه الثروة الهائلة، الأمر الذي يؤكد ضرورة شد انتباه المسؤولين عن ثرواتنا العربية إلى وجوب وضع خطة عربية موحدة للتوسع في إنتاج ملح الطعام في الوطن العربي.

وإنني على يقين أنه لو تسنّى لوطننا العربي زيادة إنتاجه من ملح الطعام، فإن ذلك من شأنه أن يفتح المجال واسعًا لزيادة الدخل الوطني العربي زيادة مهمة، وفي الوقت ذاته فإن ذلك سيفتح المجال لإقامة صناعات جديدة تعتمد على ملح الطعام مادة أساسية أو مادة مساعدة، وهذا يعني ترسيخ قواعد الصناعة العربية، وإيجاد فرص عمل جديدة لعشرات الآلاف من الأيدي العربية التي تضطر إلى الهجرة خارج الوطن العربي بحثًا عن العمل. وإذا بقي الإنتاج العربي من ملح الطعام يزحف زحف السلحفاة بالموازنة مع الزيادة المتصاعدة في الإنتاج العالمي، فإن معنى ذلك أن العرب يصرون على إهدار هذه الثروة الهائلة التي يكتنزها الوطن العربي.

تجربتي في دراسة الطب في فرنسا

د. صلاح محمود غانم

.. انطلقت الطائرة الممتلئة بركابها تشق أجواء دمشق، وراحت تصعد وتصعد، ثم اتجهت نحو الغرب من بلدي الحبيب، وشعرت بضيق في صدري وأنا فيها منطلق نحو المجهول، مخلفًا ورائي أمي التي انهمرت من مقلتيها دموع فراق العزيز عليها، والغصة مسيطرة على قلبها، والتضرع إلى الباري ألا يخذل ولدها المسافر عنها لا يفارقها، ومخلفًا أبي - رابط الجأش - الذي حار بين أن يسيطر كما اعتاد على أعصابه، أو أن يطلق العنان لما يشعر به، وإخوتي الذين كانوا يرون فيَّ مثلاً في الجد والمثابرة، فراحوا يشجعون أخاهم قبل أن ينادي المنادي أن قد آن وقت الرحيل. ولم أتمالك نفسي فإذا بي أذرف دمعًا لا يُفسَّر، بل هو مزيج من ألم الفراق، وخوف المجهول. كان ذلك في يوم من أواخر تشرين الأول/ أكتوبر 1983م.

ووصلت إلى مطار شارل ديجول في باريس، في يوم خريفي غائم ماطر، وكان بالانتظار صديق عزيز عرفته في دمشق قبل أن يسبقني إلى فرنسا طلبًا للاختصاص في أحد فروع الطب، وبعد أن انتهت لحظات اللقاء الحارة، كنت في لهفة كي أسمع أخباره، اطمئنانًا عليه، واستطلاعًا لتأثير الغربة في قادم جديد. مكثت معه يومين لم أذق حلاوتهما؛ لانشغال ذهني بسفري إلى مدينة بوردو الواقعة في جنوب غربي فرنسا، حيث كان المجهول ينتظرني فيها، ولم أكن في شوق لأن ألقاه ويلقاني.

الفرنسية.. بداية العقبات!

واستقبلني في محطة قطار بوردو أخ مغربي اسمه محمد، دلَّته عليَّ الأمارات التي كان صديقي في باريس قد زوَّده بها قبل وصولي، ومكثت في بيته أيامًا بانتظار هدفي في بوردو، وهو تقديم امتحان الدخول إلى اختصاص جراحة الأذن والأنف والحنجرة، ولم يكن استعدادي لذلك الامتحان جيدًا؛ فلقد كانت تفصلني عنه ثلاثة أسابيع، ولم أكن لأمتلك ناصية الفرنسية، فلقد درسنا الطب في جامعة دمشق بالعربية كسائر العلوم الأخرى، وكانت الإنجليزية هي لغتي الثانية، ولكن ثقتي بربنا - سبحانه - كانت أكبر من خوف الإخفاق، فهو على كل شيء قدير.

وكنت التقيت مصادفة قبل سفري إلى فرنسا بأحد أساتذتي الأفاضل في كلية الطب، وكنت على وشك الانتهاء من سنتي خدمة العلم، وسألني عن أحوالي كيف أصبحت، وأعلمته بنية سفري إلى بوردو، فما كان منه إلا أن أخذني إلى مكتبه وأعطاني رسالة إلى صديقه الأستاذ في جامعة بوردو، يوصيه فيها بمساعدتي. تذكرت ذلك في بوردو وأنا أتحسس تلك الرسالة في جيبي، سائرًا إليه ومعي طالب طب ليدلني عليه، وليترجم لي من الإنجليزية إلى الفرنسية، وكنت في حيرة وأنا أسير نحو شعاع من أمل ضئيل، لا أدري ماذا أقول له، وخطرت بذهني فكرة لم أدر كيف جاءت.

أحسن الأستاذ الفرنسي استقبالي، وسرَّ برسالة صديقه، وسألني بماذا أريد أن يخدمني فرجوته أن يساعدني كي أتقدم لامتحان القبول للاختصاص

باللغة الإنجليزية، همهم قليلاً ثم قال: سنرى، ولكن لا تخبر أحدًا.

إن أنسَ فلا أنس تلك الأيام العصيبة قبل الامتحان، وكيف اشتدت وطأة القلق عليّ، وتملكني الترقب، وذهبت بعد أيام لأستطلع جواب طلبي ورغبتي من رئيس القسم - قسم الأذنية - لكن أمينة المكتب (السكرتيرة) قالت إن الأستاذ غير موجود ولا خبر عندها بهذا الموضوع، وطلبت مني أن أعود بعد أسبوع، ولم يكن لديّ الجرأة لأقول لها إن أعصابي لمتعبة، وإن أسبوعًا لكثير، ومرّ ذلك الأسبوع الطويل، وكنت قد بدأت خلاله بالدراسة للامتحان، وذلك من طريق ترجمتي للمواضيع المهمة من الكتاب الذي كان مقررًا علينا في الجامعة من العربية إلى الإنجليزية، ثم تكرار وحفظ ما أقدر عليه. ورجعت إلى تلك المرأة لسؤالها من جديد، فقالت ببرودة أعصاب وبغير مبالاة: لم أكلمه بعد، عُدْ بعد ثلاثة أيام، ولكم كان وقع كلماتها قاسيًا عليّ، ولعل صديقي المترجم الذي كان معي حاول أن يخفف من وقع الأسى لكنني قررت ألا أعود إليها.

ظهور الفَرَج

وجاء يوم الامتحان، وكان آخر يوم اثنين من شهر تشرين الثاني/نوفمبر، ووصلت إلى القسم، وكان عدد المتقدمين زهاء خمسين طبيبًا، هدأت أصواتهم، واختفى همسهم، عندما شاهدوا بينهم الأستاذ بورتمان رئيس القسم، بقامته الطويلة، وبشعره الأبيض، وبوجهه الهادئ القسمات على تجاعيده التي تدل على أن عمره يقارب الستين خريفًا. وكنت أول من نادى عليه، وكلمني بالإنجليزية، وعرفت لحظتها أن رغبتي قد وصلت إليه فقبلها، وأن ربي معي.

خرجت من الامتحان بعد الظهر، بعد أن مررت على ثلاثة أساتذة، وكانت إجاباتي عند الأولَيْن في حدود المتوسط، وممتازة عند الثالث، الذي كان يحاول أن يقاطعني أكثر من مرة ليسألني سؤالاً جديدًا لكنني كنت أتهرب منه بأن أتابع استرسالي في الإجابة عن سؤاله الأول الذي كنت أعرفه جيداً خشية أن تكون الإجابة عن أسئلته الجديدة غامضة عليّ أو ناقصة.

وجاءت نتائج الامتحان بعد أسبوع: نجح أحد عشر طبيبًا، كنت آخرهم، ورسب الباقون، ولعل سعادتي بالنجاح لم تبلغ مدى سعادة والديّ وإخوتي، لأن همّ ما بعد النجاح كان قد خفف من وهج الفرح به.

أعترف أني لم أحسن استغلال سنتي الدراسية الأولى؛ فلقد آثرت أن أهتم بتعلم الفرنسية في دورة مخصصة للطلاب الأجانب، بالإضافة إلى الذهاب إلى قسمنا في المستشفى الجامعي لحضور الدروس النظرية، ومتابعة العمليات الجراحية مع الأستاذ الذي ألحقوني به، فلقد كنت أعلم أن اللغة هي الباب الذي يُفتح من ورائه - إن فتح - كل الأبواب، وكم كنت أتمنى لو ملكت ناصية اللغة من قبل، إذًا لتقدمت في اختصاصي بسرعة ولما ضاع وقتي، واضطربت نفسي. واستمرت الأشهر الأولى كئيبة، باردة، قلّت فيها الثقة بالنفس، وكثرت الوساوس، والتي كانت على شكل أحاديث داخلية لا نفع فيها، وصرت أخجل من التحدث بالفرنسية الركيكة أمام زملائي؛ حتى لا أظهر لهم عيبي الذي لم يخفَ عليهم، لكنني، والحمد لربنا، كنت واثقًا من أنني سأجتاز هذه العقبة الصعبة الوعرة، ولو بعد حين، وكم تذكرت القائد العربي طارق بن زياد بمقولته المشهورة (إن صحَّتْ عنه): البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس لكم إلا الجد والصبر.

لم تظهر بوادر التحسن في نفسيتي وفي دراستي إلا بعد الشهر السادس؛ فلقد أصبحت بذور الثقة بالنفس تنفلق، وتنبت شيئًا فشيئًا، وصرت أتكلم برغم أخطائي لأصلحها، ولأستزيد من فوائد المحادثة، وأُعوّد أذني الاستماع إلى التلفاز والمذياع، وأسجل من المذياع كلامًا أكرره وأترجمه، لكنني لم أكن لأصل إلى مستوى فهم الدروس السريرية، التي كان يديرها أستاذنا القدير بورتمان لطلابه، وكنت أتظاهر بالضحك مع الحاضرين عندما يضحكون لسبب لا أعرفه، وأهزّ رأسي بحركات خفيفة توهم من يراني بأنني أفهم ما يقال.

وفي تلك المرحلة جاء أخي إليّ ليتخصص في جراحة العيون في جامعة بوردو، فشدّ من أزري، وقوّى من عضدي، وصارت دراستي مقبلة مدبرة، بعد أن كانت مدبرة، وصرت أنظر بثبات وإصرار إلى سهمي الذي كنت قد رميته بعيدًا، ورحت أجاهد كي أصل إليه.

> **كم كنت أتمنى لو ملكت ناصية اللغة من قبل؛ إذن لتقدمت في اختصاصي بسرعة، ولما ضاع وقتي، واضطربت نفسي. لكن توكلي على ربي هوّن كل صعب واجهته**

نجحت في نهاية السنة الأولى بشق الأنفس، ولكن بالفرنسية كتابة هذه المرة، ولقد سُرَّ الكثيرون وعجبوا لنجاحي، حتى أنا. وكم كنت محتاجًا إلى أن أرجع إلى دمشق لألتقط أنفاسي اللاهثة، وأشحن عزيمتي المنهكة، بعد الجهد الكبير طوال السنة، لكني لم أغادر بوردو لظروف خاصة أقوى مني، فدخلت سنتي الثانية، وقد كساني الإنهاك ثوبه.

تنظيم الوقت عماد النجاح

لم يعد وقتي مشتتًا في السنة الثانية من الاختصاص بين المستشفى ودروس اللغة، لكني لم أكن لأفلت من أنياب الصعوبات، وإن كانت قد أَرْخَت من ضراوتها في أيامي، وكان تركيزي على اختصاصي هو شغلي، ولاسيما على الجانب العملي منه، نظرًا لسهولته مقابلة بالجانب النظري، وكنت أميل إلى التدرب على جراحة الأطفال المتعلقة بالاختصاص، وعلى جراحة الأذن أكثر من سواها. ونجحت في السنة الثانية، وجاءت السنة الثالثة وقد صرت واقفًا على قدمي، أفهم ما يقال وأدرس وأتدرب، ولكن الثقة بالنفس لم تكن على المستوى الذي كنت أنشده، مما أثر في نوعية الدراسة، وقلل من جهدي في التركيز على الحفظ، فكان من الطبيعي أن تحول علامتان بيني وبين النجاح.

عملت في السنة الرابعة في أحد المشافي الفرنسية في مدينة ساحرة اسمها فان، تقع على خليج جميل من خلجان المحيط الأطلسي، امتزجت فيه التلال الخضراء والبيوت القرميدية الأسطح بالماء الهادئ الصافي الزرقة، الذي راحت المراكب الشراعية تزينه في كل مكان. وكان السبب الذي جعلني أحظى بالعمل كطبيب مقيم أن رئيس القسم فيها قد فضّلني على طبيب ثان فرنسي من رسالتي؛ فلقد كان يفهم في تحليل الخطوط! كما قال لي فيما بعد. وكانت سنة ممتلئة بالفائدة النفسية والعلمية والعملية، وتحسنت لغتي كتابة وتحدثًا، وأفادني رئيس القسم بأسلوبه في التدريب؛ فقد كنت أجري العمليات الجراحية وحدي، ويتدخل عندما يشعر أني قد بدأت أتعثر، وبرغم قسوته عليّ في أحايين كثيرة، إلا أنني كنت راضيًا بهذه القسوة ابتغاء للعلم الذي لديه.

استمرت سنواتي بعد فان سنة إثر سنة، ونلت شهادة الاختصاص الفرنسية بتفوق، وجاءت سعادتي غامرة عندما اتصل بي صديق ليخبرني بأن أهم هدف لي في تلك المرحلة قد تحقق، فسجدت شكرًا لربي، ولسان حالي يردد الآية الكريمة: *إِنَّهُ من يتّقِ ويصْبر فإن الله لا يضيعُ أجر المحسنين*. **يوسف:**

90. ولا أنسى يوم الخميس من شهر حزيران/ يونيو من عام 1989م عندما ذهبت إلى مديرية الشؤون الصحية في بوردو أعرض رغبتي في العمل في وظيفة مساعد رئيس قسم كوني أحمل شهادة الاختصاص، وهي وظيفة يمكن لأجنبي أن يشغلها إن لم يجدوا فرنسيًا، وكيف أن الموظفة قالت لي إن الأمل ضعيف جدًا، وتركتُ لديها عنواني. لكنها نفسها اتصلت بي في اليوم التالي لتخبرني بأن طبيبًا فرنسيًا قد استقال من عمله في أحد المشافي القريبة من بوردو؛ ليعمل في القطاع الخاص، وأعطتني هاتف رئيس القسم، الذي ذهبت لمقابلته، وتم الاتفاق بيننا، وكان أن وقّعت مع مدير المستشفى عقد عمل، وأصبحت مساعدًا لرئيس القسم في الأذن والأنف والحنجرة، وجراحة الوجه والفك، واستمر عملي مدة سنتين صُقلت في خلالها خبرتي في الجراحة، وفُسح المجال أمامي لتحضير دبلوم جامعي متعمق في دراسة السمعيات ونجحت في نيله، ثم البدء بالدراسة مع العمل في اختصاص جراحة الوجه في جامعة غرونوبل استغرق أربع سنوات.

وأما آخر سنة لي في فرنسا فقد بدأت بعملي مع أحد أفضل جراحي التجميل في منطقة بوردو بعد أشهر، ثم عملت شهرًا تقريبًا في مدينة كان الساحلية المشهورة، ثم في قسم الأذنية في مستشفى مدينة شارل فيل القريبة من بلجيكا، الذي بقيت فيه حتى شهر حزيران/يونيو 1993م، حيث قدمت آخر امتحان للتخرج في جراحة الوجه في غرونوبل، التي تُسمّى مدينة الحب، ثم عملت أيامًا عديدة قبل أن أحزم أمتعتي، وأقدّم لإجازتي السنوية، وودعت رئيس القسم، وأخبرته بأن فرصة عمل قد جاءتني لأعمل في الرياض استشاريًا، وإني ذاهب إلى المملكة العربية السعودية في أثناء إجازتي، وربما لا أعود. وهذا ما حدث، وما أزال في هذه المدينة الجميلة حتى كتابة سطوري هذه، ولا أدري ماذا يخبئ الغدُ لي.

قضيت في فرنسا عشر سنوات إلا بضعة أشهر، وهذا جزء من خلاصة تجربتي وآرائي في تلك المرحلة المهمة من حياتي.

ماذا أفدت من الغربة؟

توجد صعوبات ولكن لا يوجد مستحيل في هذه الدنيا، وما نراه اليوم في عالمنا من تطور، كان الذين من قبلنا يرون تحقيقه مستحيلاً، لكنه صار وتحقق. وتتراوح القدرة على مواجهة الصعوبات والانتصار عليها من شخص لآخر، وكلما أعد المرء العدة للإقدام على المهم من الأمور، وأَخَذَ بأسباب النجاح، متوكلاً على ربه القادر على كل شيء، صابرًا على ما تكرهه نفسه، اقترب من تحقيق هدفه، ونيل مراده وسما على من سواه. وإني لا أومن بالمصادفة بمعناها الرياضي الأجوف، ولكني أراها، مثل الحظ، شكلاً من أشكال التوفيق الذي لا غنى للإنسان عنه إن أراد أن ينال قصب السبق، ويهنأ بكمال المسعى. ومن الأمور التي تجلب التوفيق لصاحبها: تقوى الباري الكريم، وبرّ الوالدين، وحسن النية في كل الأمور واصطناع المعروف مع الناس.

وعلى المرء ألا يشغل وقته فيما لا فائدة منه، ولاسيما الإكثار من الراحة، ومن الأصدقاء فإن في ذلك إضاعة للوقت، ومدعاة للقيل والقال، وأن يجعل هدفه السامي نصب عينيه دائمًا، ساعيًا إليه، بكل جهده: *وأن ليسَ للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يُرى. ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى.* **النجم:** 39- 41. وأن يبتعد من الحرام بكل أشكاله، ويغض طرفه أمام عورات النساء؛ لما في النظرة من فتنة لصاحبها، إذ تزرع في القلب الشهوة، ولاسيما عند الذين لم ينالوا من الخبرة قسطًا كافيًا، أو ليس لديهم في أنفسهم قوة رادعة . وكلما قلَّ النضج، كان الوقوع في الخطأ أسهل والتراجع أصعب.

وأما الزواج من الأجنبية؛ فلم تكن نفسي لتقبله، ولا أشجّع عليه، لأسباب عديدة، منها: اختلاف العادات والتقاليد والدين بين العرب الشرقيين والغربيين مما يؤثر في حالة الزواج سلبًا في دين الشخص وأفكاره، وفي أولاده في حاضرهم ومستقبلهم.

فنحن شرقيون؛ إما باختيارنا أو على الرغم منا، كذلك فإن الزواج من الأجنبية يشجع على البقاء في بلد الزوجة، حيث تزدهر الحياة بمادياتها، وتخبو الروح فيها؛ مما يحرم الأهل، والوطن الأم من جني الثمرات التي طال أوان انتظار نضجها وقطفها، ويخلق مشكلة في تزويج الطيبات المنتظرات.

وأما الحديث عن التعليم الطبي باللغة العربية فحديث ذو شجون، ذلك أن هناك قصورًا في دور هذه اللغة في حركة العلم العامة، فهي لغة تصلح لكل عصر، ولتدريس كل علم، لأنها لغة حية، مرنة، قابلة للتطور ولاستيعاب المستجدات في العلوم، فليس العيب فيها، وإنما هو في التطبيق العملي للتعليم وللانتفاع بها، فنجد مثلاً على مستوى الطلاب الدارسين بها أن معظمهم يألفون ما اعتادوه، وينفرون من بذل جهد شخصي غير مطلوب منهم، ويحكم قسط منهم على أنفسهم بأنهم لا يريدون أو لا يستطيعون أن يسافروا إلى بلد أجنبي لمتابعة التحصيل العلمي العالي، فلا حاجة لهم إذًا إلى لغة لن يستخدموها مع أنهم يعلمون أن بعض اللغات الحية قد صارت لغة العلم والحضارة الحديثة من دون العربية.

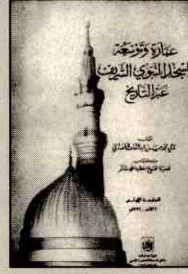
وأما على مستوى التأليف بالعربية والترجمة إليها؛ فإننا نجد مشكلة أخرى، فالتأليف العلمي ما يزال محدودًا في البلاد العربية، وما تزال الأبحاث التي تجري بعيدة من سواها - كمًّا وكيفًا - في البلدان المتقدمة ، التي تُسخّر إمكاناتها في سبيل التقدم العلمي النظري والتطبيقي، ففي كل يوم نجد أبحاثًا جديدة ومجلات، وأجهزة في شتى الميادين، تُنشر وتعرض وتنتظر من يريد أن يستفيد منها.

إن الحضارة منهل متاح للجميع، تضع فيه الأمم ما لديها من علوم وتجارب وثقافة، ينهل منه من يعرف كيف يشرب، وكلما اتصلت أمة بسواها من الأمم، وأخذت بأسباب العلم والتقدم، ازدادت قوتها، وانتشر عبير نفعها. لابأس في أن نحافظ على هويتنا القومية العربية، بأن نعطي لغتنا الجميلة الأولية في التدريس، ولكن لا يجوز أن نتغافل عن أهمية اللغات الأخرى الحية التي يتواصل العالم الذي سبقنا بها، ويصوغ بها ما لديه من تطور وجديد، لا، بل علينا أن نشجع على تعلمها منذ السنوات الابتدائية الأولى، ونجعل منها لغة قسط من المواد العلمية والأدبية في المرحلتين الثانوية والجامعية، وذلك ليفهم الطالب مفرداتها، ويألف القراءة بها، ليواصل تلقيه الجديد القادم إلى منهل العلم العالمي وليرتقي بنفسه وبأمته.

ولا بد لي في الختام أن أشكر ربّنا - سبحانه -، ثم والديّ، وكل من ساعدني، ولاسيما أساتذتي في بلدي الحبيب سورية، وفي فرنسا حتى وصلت إلى ما أنا عليه الآن. وإني لأشعر بأنّ ردي لجزء من الجميل يكون بإخلاصي في نيتي، وفي عملي، وبالسعي لنفع الآخرين لعلّي أكون لبنة صالحة من لبنات المجتمع المشرق الذي ننتظره كي تستعيد أمتنا مكانتها الرائدة بين الأمم، ونكون بحق خير أمة أُخرجت للناس.

العربية هي لغة العلم، ولكن علينا أن نشجع على تعلم اللغة الأجنبية، وأن نجعل منها لغة قسط من المواد العلمية والأدبية في المرحلتين الثانوية والجامعية

العنوان: كتاب عمارة وتوسعة المسجد النّبوي الشّريف عبر التاريخ
المؤلف: ناجي محمد حسن عبدالقادر الأنصاري
الناشر: نادي المدينة المنورة الأدبي،
ط 1، 1416هـ - 1996م (284 ص).


غلاف الكتاب

جاء هذا الكتاب في ستّة فصول. فقد ناقش المؤلف في الفصل الأول القوى والعوامل البيئيّة المؤثّرة في عمارة المسجد النّبوي الشريف، وقد أجملها في تسع نقاط، فصّل فيها خصائص الموقع وجوانب من تاريخ المدينة المنوّرة، وإسلام الأنصار وفضل المدينة وفضل أهلها وفضل المسجد النّبوي الشّريف. ثم تحدّث عن موقع المسجد، وكذلك موقع المدينة المنوّرة بين الجبال.

ثم فصّل استقبال النّاس للنبيّ - صلى الله عليه وسلم -، وهم يُحيطون بناقته، إلى أن بركت عند بيت أبي أيّوب الأنصاري، ونزل معه في داره سبعة أشهر.

وجاء الفصل الثاني لبيان المرحلة الأولى لبناء المسجد النّبوي الشّريف في عهده - صلى الله عليه وسلم - عام 1هـ، ووَضّح الخطوات الأولى التي اتّخذها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في بناء المسجد، ومنها تجهيز الموقع وتخطيط الأرض وطريقة الإنشاء وقبلة المسجد وأروقته، إلى جانب أبواب المسجد ومشاركة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في بنائه، ومن ثم تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة.

ثم المرحلة الثانية لبنائه، وحجرات أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - وإضاءة المسجد، وفرشه وتجهيزه والحجرة النبوية الشريفة وأبوابها والرّوضة الشريفة.

والفصل الثالث وقفه للحديث عن المسجد خلال المدة من 11 - 656هـ، وجرى الحديث عنه في عهد أبي بكر الصديق وعهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -.

وفصّل توسعة عمر بن الخطاب للمسجد وتحرّي عمر موضع القبلة، وكذلك حال المسجد في عهد عثمان وخطوات توسعته، والدّور التي أدخلها عثمان في التوسعة واتّخاذه المقصورة.

ثم تحدث عن التوسعة في عهد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، كذلك تكلّم عن المسجد في العهد الأموي وزيادة الوليد بن عبدالملك، واهتمامات عمر بن عبدالعزيز والتغييرات التي حدثت بعد توسعة الوليد. وكذلك في العهد العبّاسي وزيادة الخليفة المهدي عام 161/165هـ.

أما الفصل الرابع فقد خصصه للمسجد النّبوي الشّريف خلال المدة من 656 - 1344هـ وما كان من توسعته في العصر المملوكي. وقد بيّن فيه عمارة قايتباي الأولى والثانية للمسجد النّبوي.

وعرّج على العهد العثماني التركي من سنة 923 - 1336هـ والتّرميمات والإصلاحات التي تمت في عهد السّلاطين، وعمارة السلطان عبدالمجيد للمسجد النبوي والإصلاحات حتى نهاية الدولة العثمانية.

أما الفصل الخامس فقد ساق فيه اهتمام الملك عبدالعزيز - رحمه الله - بعمارة وتوسعة المسجد النّبوي الشّريف، وبداية التوسعة السّعودية الأولى للمسجد عام 1370هـ، ووَصف المسجد بعد هذه التوسعة بالأرقام، وحدّد مساحتها. وذكر مميّزات العمارة السّعُودية.

ثم فصّل عناية الدولة بالمبنى الجنوبي للمسجد النّبوي الشّريف، وكذلك التّوسعة السّعُودية الثّانية في عهد الملك فيصل، والتّوسعة السّعُودية الثالثة في عهد الملك خالد - رحمهما الله -.

وقد وقف وقفة متأنية دقيقة عند توسعة الملك فيصل والملك خالد - رحمهما الله -، ووضّح أنّ زيادة الحجيج والزائرين قد أدّت إلى هذه التوسعة، لتوفير الأمان والراحة والاستقرار لضيوف الرّحمن إضافة إلى الرعاية الصّحية والمياه العذبة وتوفير احتياجات زوار المسجد إلى أن يقضوا زيارتهم ويعودوا إلى بلدانهم سالمين.

وجاء الفصل السادس خاتمةً للكتاب، حيث حوى توسعة المسجد النّبوي الشّريف في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - حفظه الله -.

وفصّل الكاتب هذا الفصل تفصيلاً دقيقًا استهله بتمهيد عن زيارة الملك المفدّى فهد بن عبدالعزيز المدينة في محرم 1403هـ، وأمره بتنفيذ مشروع توسعة كبرى للحرم النّبوي الشريف تضاعف مساحته عشر مرات، وتُسخّر لها الإمكانات التّقنية والهندسية. وتشمل التوسعة إضافة مبنى جديد بجانب مبنى المسجد الحالي يتصل به من الشمال والشرق والغرب بمساحة قدرها 82000 متر مربع، وبذلك تصبحُ المساحة الإجمالية للمسجد بعد التوسعة 98500 متر مربع تستوعب أكثر من 257000 مُصلٍّ.

وقد ناقش بعد ذلك، مراحل التنفيذ وطريقة الإنشاء والتجارب قبل التنفيذ، والمصنع المخصوص لعمل الحجر الصناعي، ونفق الخدمات والمحطة المركزية لتبريد المياه، والأعمال الكهربائية والميكانيكية، ومواقف السيارات، والقباب المتحركة والنّقوش الإسلامية والزّخارف، ومداخل الحرم وأبوابه، وخصائص ومميزات توسعة خادم الحرمين الشريفين.

وبهذا يكون الكتاب قد غطى موضوع المسجد النّبوي الشّريف تمامًا من لدن عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - مارًا بشتّى العصور شاملاً لها بالتفصيل إلى عهدنا هذا، عهد خادم الحرمين الشريفين - حفظه الله -، وقد جاءت الدراسة صادقة مفصّلة موضّحة بالصّور والخرائط الدقيقة والجداول والتّواريخ. وقد رجع في هذه الدراسة إلى تسعين مصدرًا ومرجعًا باللغة العربية وخمسة باللغة الإنجليزية.

وقد افتتح كتابه هذا بتقديم لفضيلة الشيخ عطيّة محمد سالم القاضي بالمحكمة الشرعية الكبرى بالمدينة المنورة سابقًا، حيث مدح فضيلته الكتاب وأثنى عليه ورَشّحه ليكون دليلاً رسميًا تُصادق عليه الهيئة القائمة على مشروع التّوسعة، وقدّم عظيم تقديره لهذا العمل.

وقد ختم كتابه بالمراجع وفهارس الموضوعات. كما وَضّح أهمّ النتائج التي توصّل إليها في كُلّ فصل.

العنوان: ديوان عبر السنين.
المؤلف: عبدالرحمن بن عبدالله آل عبدالكريم.
الناشر: المؤلف نفسه،
طه 1، 1414 هـ - 1993 م (212 ص).


عبد الرحمن بن عبدالله العبد الكريم



غلاف الكتاب

هذا ديوان جمع فيه الشاعر ثمانيا وستين قصيدة تناول فيها قضايا وطنية وعربية واجتماعية، وقضايا خاصة، وكذلك خاض في طرف من العلاقات الإخوانية.

أمّا ميزان هذه القصائد، فقد جاءت في معظمها مجتمعة في بحر الخفيف الذي كتب فيه خمس عشرة قصيدة، وبحر البسيط الذي جاءت فيه اثنتا عشرة قصيدة، والكامل إحدى عشرة قصيدة، إضافة إلى بحور الرّمل والطويل والوافر والمتقارب والكامل والمنسرح.

وقد وقف الشاعر عند وطنه، وكتب قصيدته «حب الوطن» التي استهلها بقوله:

يا طيور الأيك في شمّ الهضاب
في مسيلٍ كظّ بالماء الرُّضاب

ثم تحدث فيها عن حبه لوطنه ولبني وطنه، ثم عرج على أجداده ومدحهم، وأكد أن حبَّ وطنه في عظامه ودمه في بعده وقُربه.

وكذلك قصيدة في حق الجدود، وثالثة في أجدادي، وفي كلتيهما مدح أجداده، وغنّى لوطنه. يقول في قصيدة «أجدادي»:

أنا من أمةٍ تسامت على العجز
وسادت فخارها بالتفاني

وله قصيدتان، إحداهما في جولة الملك سعود بن عبدالعزيز في أرجاء المملكة سنة 1377هـ قال فيها:

تكامل بدرُ الدّجى فاستقاما
وشعَّ ضياءً أزاح الظلاّما

وفي الأخرى التي ألقاها على الملك فيصل يوم عيد الفطر سنة 1391هـ، قال فيها:

أرأيت فيصلنا إذا انطلقت به
نفسٌ تفجّرَ حكمةً ينبوعُهَا

فأقام للدّين الحنيف دعائمًا
يعلو على قمم الجبال طلوعُها

ثم كتب قصيدة تجاوب فيها مع قصيدة الدكتور غازي القصيبي بعنوان «بغداد» بعد احتلال الكويت قال فيها:

على الكويت عدا ليلاً ربيبتُها
بالنّهب بالقتل بالفسّاق بالخطل

وهنالك مجموعة من القصائد بلغ عددها إحدى عشرة مقطوعة شعرية، جاءت تحت عنوان: سُباعيات، كلُّ قطعة منها سبعة أبيات، وقد تحدث في هذه السباعيات عن أغراض خاضت في تأملات خاصة وقضايا عامة وحكمة وتأمل.

ولعلّ ممّا يسترعي النظر تلكم القصائد الثلاث التي قالها في الوشم وشقراء مسقط رأسه واحتفال مدرسة شقراء سنة 1370هـ. وثالثة في رياض الوشم ومجلة الفيصل.

أمّا قصيدته إلى مسقط رأسه شقراء الوشم، فقد استهلّها بقوله:

ملاكي كيف حالك في غيابي
وكيف المرج ذو الماء الرُّضاب

وأما احتفال مدرسة شقراء فقد قال فيها:

تعلّمنا المدارسُ كُلَّ خير
وتهدينا إلى سُبل الرشاد

وقصيدته رياض الوشم خاطب فيها مجلة الفيصل قائلا:

صحائفه والشعرُ والنثرُ ملؤها
تزاحم في ذهن الأديب وصُوفُهَا

ولعلنا كذلك نقفُ عند قصيدته «صداح» التي قالها سنة 1387هـ لسمو الأمير عبدالله الفيصل تجاوبًا مع قصيدته «جراح»، فقد قال:

لا تسأليني عن جراح الهوى
وكيف واراها أنين الفؤاد

وفيها:

لا تسألوه عن ربوع الصبا
فذكرها يومض منه الزّناد

فهكذا الشاعر يكون دائمًا مواكبًا للأحداث، مسجلاً للوقائع، مدونًا للذكريات والخواطر، وهكذا كان شعر الشاعر في ديوانه عبر السنين.

وقد ذكر الشاعر في مقدمته أن البون شاسع بين أوائل القصائد التي كتبها وأواخرها ربما بلغ ربع قرن من الزمان، ولكنّ الملاحظة التي أدركناها هي أنه لم يكتب تواريخ معظم القصائد، فيا حبذا لو كانت التواريخ مدونة في كُلّ القصائد كي يتضح لنا التطور الذي طرأ على شعر الشاعر، وهذا مما يجعلُ الدراسة قريبة من الواقع.

أما مآخذنا على الشعر فقليلة نحصرها في بعض الهنات في الوزن والقافية. فقد وردت بعض التفعيلات مضطربة، ولجأ إلى ضرورات لا حاجة إليها في قليل من التفعيلات.

أما مآخذ القافية فيمكن إجمالها في التضمين والإيطاء اللذين علقا ببعض القصائد.

فمن التضمين وهو إتمام معنى البيت بالبيت الذي يليه قوله:

وإذا همّتُ اشتياقا
للمعالي أيَّ حين:
صُعُدًا طوّفتُ في الأفـ
ذالِ بالحبل المتين

وأما قصيدته رياض الوشم فقد جاء فيها الإيطاء حيث ترد المفردة في القافية بحرف رويٍّ ينبغي أن يُلتزَم فيخرج الشاعرُ عنه إلى حرف آخر. فكأنه كفأ الإناء. ففي هذه القصيدة كان رويه فاء فجاء بالباء في مواضع أُخرى.

أمّا لغة الشاعر في ديوانه فقد كانت لغة جيدة مستقيمة حية لا أمتَ فيها، وسبكه متينٌ وبيانه مفلقٌ، وخياله عميق جذابٌ، وصوره ناطقة متحركة، وأسلوبه يهزّ المشاعر. وممّا يزيد في جمال الديوان خلوّه من الأخطاء المطبعية التي ظلّت تحيق بأعمالنا المطبوعة، وهذا الجمال نابع من ظهور ديوان عبر السنين مخطوطًا بيد الشاعر، في زمان اعتمد الناس فيه على الآلات والمطابع. فقد خطه بخط الرقعة كما نبّه على ذلك في مقدمته، وهو خطٌّ تَعلّمه في المرحلة الابتدائية.

هونج كونج حاضر مزدهر ومستقبل مجهول

أعده من قسم الدراسات والاستطلاعات : محمد أحمد النهاري - فيصل عبداللطيف



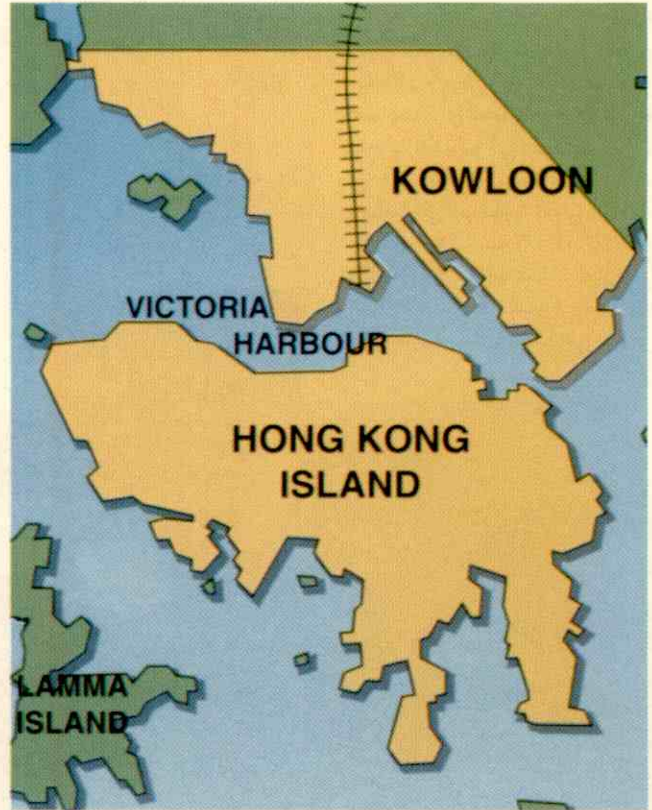
يشهد عصرنا الحالي ـ مطلع القرن الحادي والعشرين ـ أحداثًا كبيرة تحمل في طياتها تغييرات عميقة في مسار دول العالم، وبالبحث في جذور تلك الأحداث ومسبباتها يتضح أنها نتيجة مباشرة لحروب قديمة أشعلتها الدول الاستعمارية لتسوية خلافات أو تحقيق مصالح مزعومة. والأحداث الغابرة المرتبطة بمآس مضت، عندما تعود بقوة إلى سطح الذاكرة في وقت يضطرب فيه عالمنا بالنزاعات، فكأنها ـ أي الأحداث ـ تلح على تذكيرنا بالحقيقة المرة القائلة: إن الموازنة بين سنوات الحرب والسلام التي عاشها الإنسان على مر التاريخ، ترجح أن فترات السلام هي الأقصر أمدًا.

ومن الحروب التي شكّلت فاصلة مهمة خلال القرن الماضي، وتعود اليوم لتحتل مساحة محسوسة من اهتمامات الرأي العام، تلك الحرب المعروفة بـ«حرب الأفيون» التي أضرمتها بريطانيا في جنوب شرقي آسيا ضد الصين، ودارت رحاها على مرحلتين: الأولى (1840-1842)، والثانية (1857-1860)، وكان من أبرز نتائجها فقدان الصين قدراً كبيراً من حقوقها في السيادة، واضطرارها إلى التسليم بهيمنة بريطانيا على جزء من



زوار هونغ كونغ: يأتي معظمهم من الصين وتايوان والفلبين

ناطحات السحاب تقف شاهدة على ما تعيشه هونغ كونغ من ازدهار



جزيرتا هونغ كونغ وكاولون، من أهم جزر أرخبيل هونغ كونغ

أراضيها. ويترافق تجدد ذكريات حرب الأفيون مع اقتراب تسوية أخطر إفرازاتها والنتائج التي أفضت إليها: عودة مستعمرة هونغ كونغ إلى السيادة الصينية بحلول عام 1997م.

فما قصة هونغ كونغ، وكيف ارتبطت بحروب الأفيون، وما الذكريات التي تثيرها لدى كل من الصينيين والبريطانيين؟

الموقع والمناخ والتركيبة السكانية

يقع أرخبيل هونغ كونغ على الساحل الجنوبي الشرقي للصين، عند مصب نهر بيرل PEARL، على خطوط العرض نفسها التي تقع عليها هاواي وكوبا.

ويتشكل الأرخبيل من نحو 236 جزيرة، أكثرها شهرة شبه جزيرة كاولون، ومساحتها ثلاثة أميال ونصف الميل، وجزيرة هونغ كونغ ومساحتها 32 ميلاً مربعًا، إضافة إلى شينجيه «الأراضي الجديدة» ومساحتها نحو 365 ميلاً مربعًا.

ومناخ هونغ كونغ مداري بارد رطب شتاء، وحار ممطر في فصلي الربيع والصيف، ومشمس في فصل الخريف.

أما دلالة الاسم، فهونغ كونغ تعني في اللغة الكانتونية «الميناء المعطر»، وقد تكون لهذه التسمية علاقة بمعامل البخور التي كانت منتشرة في الجزيرة، أو أن التسمية عائدة إلى انتشار زهور BAUHINIAS، وهي الزهرة الوطنية الأكثر شعبية في الجزيرة وملحقاتها.

يبلغ عدد سكان هونغ كونغ نحو ستة ملايين نسمة، 98٪ منهم صينيون، وتتشكل النسبة المتبقية من جنسيات مختلفة: بريطانية، وأمريكية، ويابانية، وهندية، وفلبينية. ومع أن اللغتين الرسميتين في الجزيرة، هما: الإنجليزية والكانتونية، إلا أن هناك لغات أخرى ولكنات عديدة تنتشر بين القطاعات المختلفة من السكان، منها ماندرين وهاكا، وهي لغة مجموعة السكان الأوائل من الصينيين، وثاتكا، وهي لغة سكان القوارب الأصليين الذين يقال إنهم استوطنوا الجزيرة منذ 5000 عام، والشنغهانيه نسبة إلى مدينة شنغهاي الصينية، والشنغليشية، وهي لغة مستحدثة تتكون من مزيج من الإنجليزية والكانتونية.

حجم صغير واقتصاد عملاق

يمتد تاريخ استيطان هونغ كونغ إلى أزمان بعيدة، حينما فرّت إليها العناصر الوطنية الصينية التي كانت تقاوم حكم أسرة «مانشو» الغريبة، التي حكمت الصين بالقوة، ولما عادت أسرة «منج» إلى حكم البلاد، لم تؤثْر تلك العناصر العودة، بل فضلت العيش في هونغ كونغ، جنبًا إلى جنب مع القبائل الأصلية، والعمل في الزراعة، وأبقت على التنظيم الذي جمع بينهم، والمعروف عند الصينيين بـ «ترياد»، ومع تطور الظروف السياسية والاجتماعية في الصين، انضمت «ترياد» - على انحراف بعض عناصرها - إلى منظمات حزب الكومنتانغ (حزب الشعب القومي)، الذي ألفه «سون يات - سن»، بعد ثورة 1911م في الصين، واستمر عمل «ترياد» مرتبطًا بالكومنتانغ حتى تقلصت مع الزمن، وأصبحت في هونغ كونغ مجرد عصابات للإجرام وتعاطي تجارة الرقيق. وحتى عام 1945م كانت هذه العصابات ذات نفوذ كبير في الجزيرة.

عند موازنة حجم هونغ كونغ «القزمي»، وجغرافيتها ومواردها الطبيعية القليلة، بما تحقق فيها من نقلة اقتصادية قياسية فإن ما حدث في هذه الجزيرة يبدو كأنه من أعمال السحر ليس غير، فلقد كان أول ظهور للتجارة الغربية فيها عام 1513م، وكان البرتغاليون هم أول التجار الغربيين وصولاً إليها، ثم تبعهم الإسبان، والهولنديون والإنجليز والفرنسيون، وكان محور التجارة: الخزفيات والشاي والحرير. واليوم تحتل هونغ كونغ ثالث أكبر مركز مالي في العالم، وعاشر أكبر مركز للمبادلات التجارية، ويتمتع سكانها بمعدل دخل سنوي يصل إلى 11 ألف دولار أمريكي للفرد - تأتي في المرتبة الثانية بعد اليابان -، ويبلغ حجم ناتجها القومي نحو 47 مليار دولار سنويًا.

استعمار استئجاري

مع أن المستوى الاقتصادي الذي حققته هونغ كونغ يمثل حلمًا لكثير من الدول المتوافرة على موارد وإمكانات أكبر، إلا أن هذا النموذج يظل منطويًا على معان تُذكِّر بعصر بغيض - وخاصة لدى شعوب الدول النامية في آسيا وإفريقيا - هو العصر الاستعماري. فما حدث في هونغ كونغ، وحدث لها، هو واقع وإفراز مباشر لحرب الأفيون التي فرضتها بريطانيا على الصين، واستخلصت لنفسها هونغ كونغ وملحقاتها بمقتضى معاهدات أملتها إرادة المنتصر، وهي: اتفاقية شو بيني عام 1841، ومعاهدة تياشين عام 1860م، وميثاق بكين عام 1899م، والأخير هو الذي تخضع بموجبه أقاليم هونغ كونغ الثلاثة للإدارة البريطانية مدة 99 عامًا تنتهي في يوليو 1997م. ولذلك يُفَسَّر واقع هونغ كونغ بأنه مزيج من الاستعمار والاستئجار. وإذا كان معروفًا أن الاستعمار قسري، فإن الاستئجار أيضا لم يكن طوعيًا، ذلك أن بريطانيا - القوة العظمى في ذلك الوقت، والإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس - مارست كل جبروتها السياسي، بعدما أخضعت الصين عسكريًا، لذلك تعد حرب الأفيون التي أوجدت نموذج هونغ كونغ واحدة من الحروب القذرة التي شهدها القرن التاسع عشر، إذ تمثل صورة من صور الاعتداء السافر، والهيمنة على مقدرات الشعوب من طريق اختلاق مسوغات من تلك التي حفلت بها الحقبة الاستعمارية، فقد ظهرت إرهاصات تلك الحرب وبوادرها من خلال رغبة بريطانيا في تقليص القيود الصينية على التبادل التجاري بينها وبين الأقطار الأجنبية، وسُميت «حرب الأفيون» لأنها نشبت عندما قام الجمهور الصيني في كانتون بإحراق سلع صدرتها بريطانيا إلى الهند واتضح أنها مؤلفة من مادة الأفيون.

حرب الأفيون

تعود القصة إلى عام 1729م، أي قبل أكثر من مئة عام من نشوب الحرب، عندما تنبه المسؤولون الصينيون إلى خطر انتشار الأفيون، فبدؤوا في اتخاذ خطوات وئيدة لحظره ومنعه، وتم تعزيز تلك الخطوات في عام 1839 بتحريم الأفيون وإحراق الكميات التي يتم ضبطها، وقام المفوض الإمبراطوري الصيني بإقفال المصانع الغربية العاملة في تصنيع الأفيون، واحتجز بعض التجار لحين تسليم 20,000 صندوق من المخدرات، أي ما يوازي حصيلة سنة من التجارة.

وفي عام 1840م، وفي ظل تحفز من الجانبين: بريطانيا والصين، شاع في كانتون أن بعض البحارة الإنجليز المخمورين اعتدوا على عدد من الصينيين وقتلوا أحدهم، فانفجر الموقف، وكان ذلك تعبيرًا واضحا عن موقفين انفعاليين متناقضين: عن سخط الشعب الصيني على التجار الأجانب من جهة، وغضب البريطانيين من قرار تحريم الأفيون وحرمانهم من الأرباح الطائلة التي كانوا يجنونها، من جهة أخرى.

موطئ قدم في بحر الصين

وكان من الطبيعي أن يسعى حاكم كانتون (هسو) إلى إنزال العقوبة على مرتكبي جريمة القتل، فطلب من المشرف

التجاري البريطاني في كانتون (تشارلز إليوت) تسليمه الجناة لمحاكمتهم، ولكن إليوت أخذته العزة بالإثم، فرفض الطلب، فما كان من (هسو) إلا أن تقدم بطلب آخر إلى السفن البريطانية الراسية في ميناء كانتون (والجناة من بين أفرادها)، وقرن الحاكم الصيني طلبه بمحاصرة السفن؛ فسارع الإنجليز بإرسال سفينتين حربيتين بدأتا بإطلاق نيران مدافعهما فور وصولهما إلى ميناء كانتون، وأغرقتا معظم السفن الصينية.. وهكذا انطلقت شرارة حرب الأفيون: الأولى التي ساقت بريطانيا لها الأعذار والمسوغات لتُمكِّن لنفسها في بحر الصين (هونغ كونغ وكانتون)، ولتجد موطئ قدم في أرض الصين فتتوغل إلى الداخل.. أما حرب الأفيون الثانية التي قادتها بريطانيا فقد اجتذبت كلاً من فرنسا والولايات المتحدة وروسيا، كل يريد أن ينال حصته من الصين المنهكة، ويغزو أسواقها، ويحصل على شروط ميسرة للتبادل التجاري.. ولم يكن أمام الصينيين سوى أن يستجيبوا لمطالب أكبر قوى عسكرية واقتصادية.. وأكبر التنازلات الصينية وثقتها المعاهدات المجحفة التي فرضها البريطانيون، وأهمها المعاهدة التي أجبرت الصين على التنازل عن هونغ كونغ، وألحقت بالمعاهدة فيما بعد شبه جزيرة كولون.

سور برلين آخر

مع أن الصين تستفيد كثيراً من هونغ كونغ، وخاصة في الناحية الاقتصادية، إلا أنها عانت أيضاً من اختلاف النظام السياسي والظروف الاجتماعية بين المستعمرة والدولة الأم. والمشكلات التي عايشتها الصين الشيوعية من جراء وقوع هونغ كونغ الليبرالية الغنية إلى جوارها، تشابهت وتطابقت أحياناً مع المشكلات التي نجمت عن إقامة جدار برلين الذي قسم ألمانيا دولتين: شرقية شيوعية، وغربية ليبرالية إبان فترة الحرب الباردة. وفي هونغ كونغ، عرفت حكومة الجزيرة - حتى عام 1980م - سياسة اتسمت بالغرابة، فكان كل صيني يتمكن من اجتياز الأسلاك الشائكة، وخطر الكلاب البوليسية المفترسة، ودوريات الحدود في الدولة الأم، يستطيع البقاء والعمل في المستعمرة. ومثل هذه السياسة كانت مطبقة على سكان القوارب الفيتناميين الذين وصلوا خلال المدة من 1975- 1982م، وسُمح لأكثر من مئة ألف من هؤلاء اللاجئين بالعمل.

المفاوضات وتسعة أنواع من الأرض

يرى خبراء كثيرون أن خطوات استعادة المستعمرة، وعودتها إلى السيادة الصينية الكاملة ليست أقل ضراوة من العمليات العسكرية التي نفذتها بريطانيا لفرض سيطرتها على الجزيرة، فمع أن خطوات العودة سلمية؛ إلا أن المناورات السياسية التي بدأها الجانبان - مبكراً - أعطتها صفة المعارك الساخنة، التي أفضت إلى تنازلات متبادلة، إذ يبدو أن الصين التي ذاقت مرارة الهزيمة وانتقاص السيادة دخلت المفاوضات مزودة بأدبيات عسكرية مما حواه كتاب «صن تزو» الذي يُوصف بأنه أقدم مؤلف في الخطط الحربية، والصادر قبل ثلاثة وعشرين قرناً، وفيه يتحدث تزو عن تسعة أنواع من الأرض ينبغي أن يحسب لها الحساب أي جيشين يتعاركان، وهي: أرض التشتيت، وأرض الثقة بالنفس، والأرض المثيرة للنزاع، والأرض المفتوحة، والأرض ذات الطرق المتقاطعة والسريعة، والأرض الخطرة، والأرض الصعبة، والأرض المطوقة، والأرض الباعثة على اليأس.

وهونغ كونغ تمثل - بالنسبة إلى الصين - كل هذه الأنواع من الأراضي التي تطبق فيها فنون الحرب أو خدعها. فعندما قامت رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت



طائرة صينية من طراز 747 على وشك الهبوط في مطار كاي تاك


شبكة متكاملة من السكك الحديدية تربط بين جزر هونج كونج


وجود المراكز التجارية الكبيرة لا يمنع من انتشار الأسواق العائمة على ظهر القوارب والسفن الصغيرة

ثاتشر بزيارة إلى الصين في سبتمبر 1982م للشروع في التفاوض حول ترتيبات مستقبل هونج كونج، ركزت الصين موقفها التفاوضي على إعادة امتلاك هونج كونج بأجمعها، وكانت بريطانيا راغبة في إعادة الأراضي الجديدة فقط، وبعد مفاوضات صعبة دامت أكثر من عام توصل الطرفان إلى اتفاق حول «إطار عام» يتم بموجبه إعادة جزيرة هونج كونج وملحقاتها إلى السيادة الصينية. والخطوة الأخرى التي حددت مستقبل الجزيرة هي «القانون الأساسي» الذي صيغ في 1990م، بعد مفاوضات مضنية - أيضا - بين الطرفين، وهو القانون الذي انتهى إلى مفهوم بلد واحد ونظامين كحل وسط بين مطالب بكين ووجهة النظر البريطانية التي كانت تصر على أن تُحكَم المستعمرة حكمًا ذاتيًا، ويعطي هذا القانون هونج كونج صلاحيات لا يتمتع بها شعب الصين: من تمثيل سياسي جزئي في المجلس التشريعي، واستمرار النظام الاقتصادي الرأسمالي مدة 50 سنة قادمة بعد عام 1997م، والاحتفاظ بنظام الجزيرة القضائي وحرية الدخول والخروج.

اشتراطات صينية

ولكن هذه الترتيبات لا تطمئن رجال الأعمال في هونج كونج الذين أبدوا قلقًا مما تضمره الصين تجاه الإقليم بعد عام 1997م، ومرد هذا القلق: أنه بعد أن أقرت لجنة صينية صيغة نهائية لدستور الإقليم، يتم بمقتضاها انتخاب ثلث مقاعد البرلمان بصورة مباشرة مع حلول عام 1997م، ثم يرتفع العدد المنتخب إلى النصف بحلول عام 2003، إذ بعد إقرار هذه الصيغة شعر رجال الأعمال أن الصين تحاول جعل برلمان هونج كونج «هيئة استشارية» لا تملك أية سلطة قانونية لتعديل أي اتفاق بينها وبين بريطانيا، كما كشفت عن عزمها حل أية حكومة قد تنبثق عن المجلس التشريعي الذي انتُخب في النصف الثاني من سبتمبر 1995م، بل إنها تصر على حل المجلس بمجرد انتقال السيادة إليها. والمسوغ الآخر لقلق رجال المال والأعمال في هونج كونج: التوترات التي تتصاعد بين لندن وبكين، وبلغت مستوى يُخشى على مستقبل الإقليم منه، فعند تولي كريستوفر باتن حكم الجزيرة عام 1992م، خلفًا لديفيد ويلسون، قام باتن - الذي يُعدّ أحد زعماء حزب المحافظين الحاكم في بريطانيا - بإعلان إصلاحات سياسية في إدارة الجزيرة من دون الرجوع إلى بكين، أو أخذ رأي السلطات الصينية، وقد أغضب هذا التصرف الصينيين، فاتهموا باتن بانتهاك «الإعلان المشترك» و«القانون الأساسي». ولكي تضع بكين حاكم المستعمرة في موقف حرج، أجبرت لندن على نشر الخطابات المتبادلة بين وزير الخارجية البريطاني السابق دوجلاس هيرد ونظيره الصيني.

ومن تلك التوترات - أيضًا - الخلافات الكبيرة بين الصين وبريطانيا، بشأن بناء المطار الجديد في هونج كونج، والذي سيكون ثاني أكبر مطارات العالم تكلفة بعد مطار هوشو شيكوهو الياباني، فقد احتجّت الصين على الأموال التي ستُنفَق على المشروع، وقامت - من منطلق تأكيد سيادتها على الإقليم - باختيار 44 خبيراً

في مجال الأعمال والمشروعات الكبيرة - من المتحمسين لموقف بكين - للتشاور معهم بشأن مستقبل الإدارة الاقتصادية للإقليم.

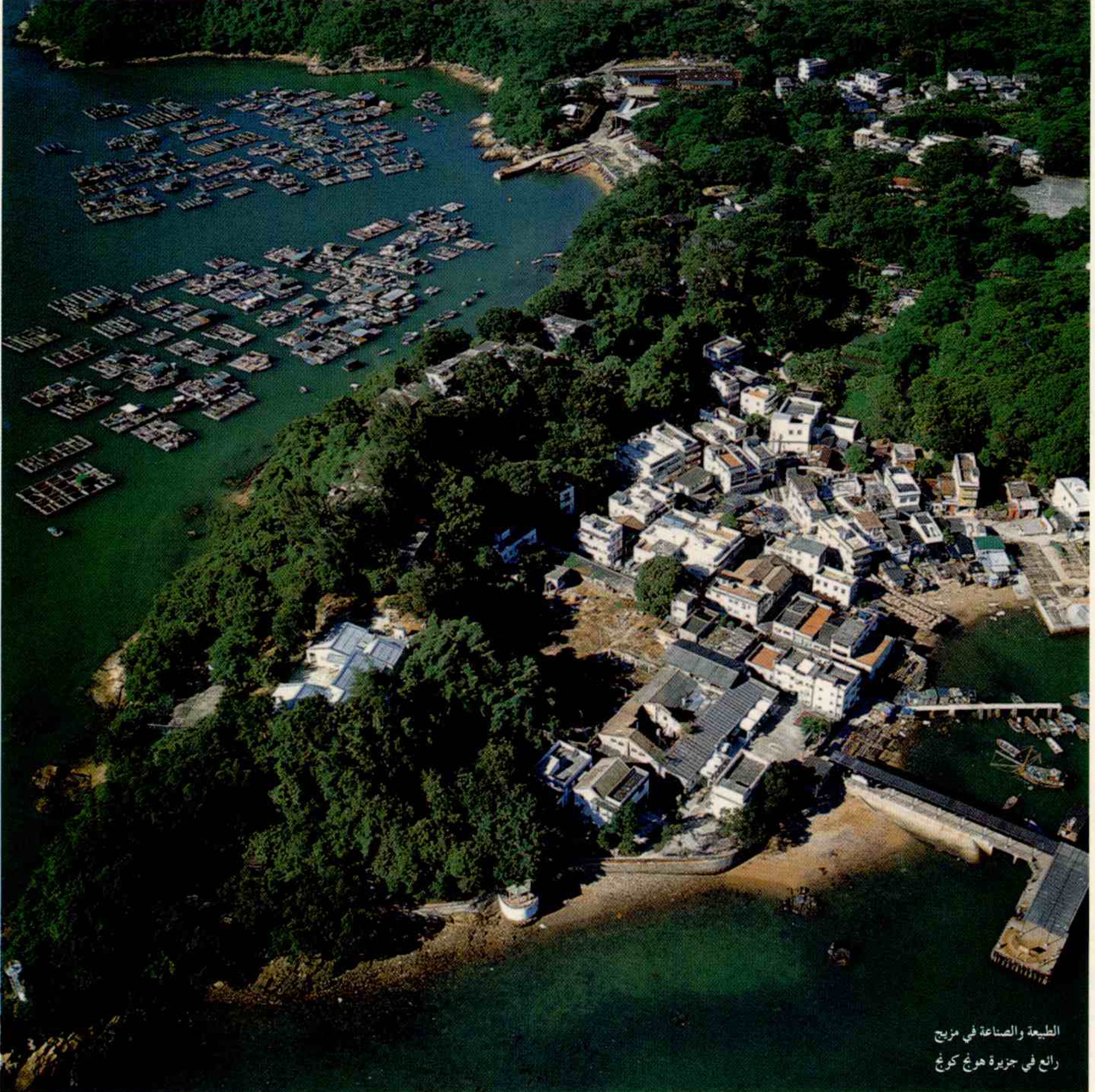
المنظوران الأساسيان لتحديد مستقبل هونغ كونغ

مهما تكن التوترات التي قد تدخل في سياق المناورات الضرورية؛ فإن مستقبل هونغ كونغ وملحقاتها يُنظَر إليه من منظورين رئيسين: الأول: اقتصادي، والآخر سياسي، وهما يؤثران بدرجات متفاوتة في موقف الطرفين.

ففيما يختص بالموقف البريطاني من المنظور الأول «الاقتصادي»، تُعد لندن شريكًا رئيسًا لهونغ كونغ في مجال المبادلات التجارية، إذ تحتل المرتبة الثانية بين الدول التي تتجه إليها صادرات هونغ كونغ، كما تحتل المرتبة الرابعة بين الدول التي تستورد منها الجزيرة.

كذلك هناك الأرباح الضخمة التي تجنيها الشركات البريطانية وفروعها من تجارة هونغ كونغ، نتيجة قيامها بالدور الرئيس في التجارة العابرة (الترانزيت)، ومن طريق استخدام الجزيرة سوقًا لعرض المنتجات الإنجليزية، إضافة إلى الأرباح الكبيرة التي تجنيها من مشاركتها في الصناعة المحلية.

ومن أهم الجوانب في هذا المنظور: الدعم المالي الذي تقدمه هونغ كونغ



الطبيعة والصناعة في مزيج رائع في جزيرة هونغ كونغ

للحكومة البريطانية، وقد قُدِّر المبلغ الذي تم ضخه إلى الخزينة البريطانية في المدة من 1961- 1964م بمبلغ 600 مليون دولار أمريكي، إلى جانب ودائع البنوك البريطانية وفروعها في الجزيرة، التي يتم تحويلها للاستثمار في المراكز الرئيسة لهذه البنوك في لندن. أما الغطاء النقدي الذي تحتفظ به هونج كونج في لندن فقد بلغ نحو 840 مليون دولار أمريكي بالجنيهات الإسترلينية، و840 مليون دولار بعملات أجنبية أخرى. وهذا المنظور الاقتصادي بأبعاده الثلاثة

وتجني بكين من وراء المؤسسات التجارية والبنوك وشركات التأمين الصينية العاملة في هونج كونج، أرباحًا ضخمة، إضافة إلى ما يصرفه السياح الذين يفدون إلى الإقليم، ويصل عددهم إلى مليوني سائح سنويًا. وقد علَّق أحد الصحافيين الأمريكيين الذين يعيشون في هونج كونج على ذلك بقوله: أعتقد أن الصين لن تقدم على قتل الإوزة التي تبيض ذهبًا.

أما المنظور السياسي في مواقف

الأمن الدولي، كما أن بريطانيا كانت أول دولة في غرب أوربا اعترفت بالصين الشعبية عام 1950م.

أما الصين فقد تفاعلت مع الواقع الذي وجدت فيه هونج كونج برؤية تتناسب مع طبيعة «الحالة الاستعمارية» المقيدة باتفاقات وتعهدات ومواثيق، فهي حريصة على إنهاء الاحتلال، وتصر على أن هونج كونج وملحقاتها جزء من الأراضي الصينية، ولكنها - في الوقت نفسه - تراعي ضرورة التزام التعهدات.



الصناعة والتجارة لا يمنعان سكان هونج كونج من ممارسة الزراعة وجعل الجزيرة دائمة الاخضرار

يشكل دعمًا قويًا للاقتصاد البريطاني. وهناك من يقرؤون مضامين هذا المنظور الاقتصادي من زاوية أخرى مختلفة تمامًا، إذ يرون أن بريطانيا لم تعد تسيطر - منذ وقت طويل - على السلطة التي تتحكم في مشروعات اقتصادية عملاقة، أُسست خلال أقل من ثلاثة عقود، وفسروا ذلك بأن هونج كونج قد خرجت من يد البريطانيين منذ مدة طويلة.

وفيما يختص بالموقف الصيني من المنظور الاقتصادي، تمثل هونج كونج أحد المنافذ الرئيسة لتجارة الصين، وقد ارتفعت صادرات الصين إلى هونج كونج، بصورة واضحة، بعد انضمام الأولى إلى عضوية الأمم المتحدة، واحتلالها مقعد فرموزا (تايوان) عام 1971م.

الطرفين حيال مستقبل هونج كونج فيتم تقويمه من جانبين اثنين:

تريد بريطانيا أن تبدو بمظهر الدولة التي ترعى تعهداتها التي أبرمتها مع الصين، وتحافظ عليها، وتسعى لترك المستعمرة بصورة مشرفة، ولذلك لا تحاول إثارة الصين، أو استفزازها، ومن ذلك: عدم السماح بأي نشاط معاد لبكين في هونج كونج، وتعهدها بالإنفاق على المشروعات الاجتماعية والصحية، والحرص على استخدام اللغة الصينية لغة رسمية ثانية في الإقليم، وأكثر من ذلك أن لندن تحذر من استخدام كلمة «مستعمرة» في حديثها عن هونج كونج، فضلاً عن ذلك فإن بريطانيا حريصة على علاقات طيبة ومتوازنة مع الصين، بوصف الأخيرة عضوًا دائمًا في مجلس

وقد تجلى هذا الموقف الصيني في مناسبات عديدة منها: ردها في عام 1962م على نيكيتا خرشوف رئيس الاتحاد السوفيتي السابق، حين انتقد استمرار وضع هونج كونج، فقد ذكرت الصين أن سياستها هي معاملة كل قوة استعمارية بحسب الظروف ومقتضيات الحالة، وأنها تتحين الفرصة لبدء المفاوضات مع بريطانيا، ومن ذلك أيضًا، موقف الصين في الأمم المتحدة عند بحث مشكلة اللاجئين الصينيين الذين يهربون إلى هونج كونج، فقد رفض ممثلو بكين طرح المشكلة نظرًا لأنها «تتعلق بمواطنين صينيين يتنقلون من أراض صينية إلى أراض صينية أخرى»، وكذلك حرص الصين على أن تظهر هونج كونج في خرائطها الرسمية جزءًا

هونج كونج
حاضر مزدهر ومستقبل مجهول

من الأراضي الصينية مع الإشارة إلى أنها محتلة من قبل بريطانيا.

اللحظة الحاسمة

لم يبق على اللحظة الحاسمة في مستقبل هونج كونج سوى أقل من تسعة أشهر، ومن الآن وحتى يوليو/ تموز 1997م، يقيس الطرفان خياراتهما بدقة، ويسجل المراقبون النقاط التي قد تمثل مسوغات للتراجع عن المواقف السابقة أو مراجعتها. فالصين التي تؤمن بأن هيمنة الحزب الشيوعي على سياسة البلاد هي الأسلوب الأمثل للاستقرار، وسبب بلوغها ما بلغته من مكانة بين دول العالم، ربما تغير موقفها من هونج كونج إذا شعرت أن مصالحها في الجزيرة ستصاب باضطراب في حال إصرارها على إخضاع الجزيرة لنظامها الشمولي. كما أن بكين، وهي تسعى لاستعادة هونج كونج سلميًا، تحسب حسابها لئلا تؤثر تداعيات هونج كونج في قضية تايوان التي تحاول ثانية استعادة عضوية الأمم المتحدة. كما أن الصين حريصة على ألا تنعكس تسوية حالة هونج كونج، على أقاليم صينية أخرى تتسم أوضاعها السياسية بالقلق، مثل التبت، حيث الدلاي لاما يثير مطالب ترفضها بكين.

بريطانيا من جانبها، والغرب معها، يظنون أن عودة هونج كونج لن تغير كثيرًا من واقع هذا الإقليم الذي تمت صياغته وتشكيله وفق القيم الغربية، لذلك يرون أن هونج كونج ستظل مركزًا للقيم الليبرالية، وستؤثر في النظام الصيني وليس العكس.

ومع ذلك، تظل هذه وتلك استنتاجات، وإن كانت مستندة إلى حقائق، إلى أن يثبتها الواقع أو ينفيها.

المصادر:

- موسوعة السياسة، الجزء الثاني، ط 2، 1991م، المؤسسة العربية للنشر، بيروت.
- السياسة الدولية: الأعداد: يناير 1969م، أبريل 1978م يناير 1996م.
- NATIONAL GEOGRAPHIC, OCTOBER
- THE REPUBLIC OF CHINA, YEAR BOOK
- HONG KONG AND EXCURISIONS TO CHINA AND MACAU 19
- الموسوعة العالمية، المجلد العاشر، ترادكسيم ش.م. جنيف.
- صن تزو، فن الحرب (بالإنجليزية)، ترجمة: أحمد الهوشان.



من نوادر التصنيف

حفل التراث العربي بأنواع شتى من التأليف، فلم يدع المؤلفون موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألفوا في الموضوعات الجادة في دقائق العلوم والفنون، ولم يغفلوا الموضوعات الطريفة، كما خصوا كل موضوع بتأليف، وكل مسألة بمصنف، وكل فن بكتاب أو رسالة، في جد أو هزل.

غريب القرآن على حروف المعجم

تأليف: الإمام أبي بكر محمد بن عُزَيز السجستاني المتوفى سنة 330هـ

عرف التاريخ الإسلامي نهضة علمية شاملة كان القرآن الكريم هو المعين الثرّ الذي استقت منه؛ فقد كان هذا الكتاب العظيم دستور حياة المسلمين، فيه دينهم الذي ارتضاه الله لهم، ودنياهم التي استخلفهم الله عليها، وأمرهم باستعمارها على الصورة التي تُوصل إلى مرضاة الله، والأمل في بلوغ جنته يوم يقوم الناس لرب العالمين.

نزل القرآن بلغة العرب، ولكنه تحداهم أن يأتوا ولو بسورة من مثله فعجزوا، فكان معجزة لغوية باقية على الدهر.

وكان طبيعيًا أن يُعنى المسلمون بكتاب ربهم، وأن يدرسوه دراسة وافية شاملة ليطبقوه في حياتهم، وقد روي عن بعض الصحابة أنهم كانوا يرون ما ينزل من الوحي رسائل من ربهم إليهم، فكانوا يأخذون الآية أو الآيات القليلة، فيُعنَون بقراءتها وفهمها وتطبيق أحكامها قبل أن يغادروها إلى سواها، فتعلموا العلم والعمل معًا.

وحينما كثر المسلمون، ودخل الناس في دين الله أفواجا، برزت الحاجة الملحة إلى تفسير غريب ألفاظه في سياق الآيات الكريمة، كي يتبين مدلولها، ويتضح المراد منها، وبذلك نشأت بدايات الحديث عن غريب القرآن الذي كان تمهيداً منطقيًا للتفسير واستنباط الأحكام، فنشأت علوم كثيرة لخدمة الكتاب العزيز كالتفسير، والفقه وأصوله، والبلاغة وفنونها. وصُنّفت كتب في القراءات وغير ذلك مما امتلأت به كتب المؤرخين للحضارة الإسلامية، على أن من المجمع عليه أن علم غريب القرآن كان من أول ما اهتم به المؤلفون شرحًا وتدوينًا. على اختلاف مناهجهم في ذلك.

وكتاب «غريب القرآن» لابن عُزَيز السجستاني أحد هذه الكتب التي لا تكاد تُحصى والتي اهتمت بشرح الغريب، وجلاء معنى مفرداته، ليكون في متناول من يقرؤه، وليسهل تطبيق ما فيه من أحكام، وأوامر ونواه.

وقد طُبع الكتاب مرات كثيرة مستقلاً أو على هامش بعض الكتب، لكنه لم يحظ بتحقيق كامل شامل على كثرة نسخه الخطية التي تحفل بها المكتبات. وقد وفق الله الدكتور أحمد عبدالقادر صلاحية إلى دراسته دراسة وافية، وتحقيق نصوصه تحقيقًا يقدمها لطلبة العلم أقرب ما يكون إلى ما قاله المؤلف، وقد اعتمد في ذلك ثلاث مخطوطات جعل واحدة منها أصلاً عارضه بالنسختين الأخريين، وقدّم للكتاب بمقدمة ضافية يمكن أن نستخلص منها المعلومات المهمة الآتية:

1ـ لم يُعرف للمؤلف غير هذا الكتاب الذي أصاب شهرة واسعة جداً.

2 ـ لم يُعرف تاريخ ولادته وإن كان الإجماع يكاد ينعقد على أن وفاته كانت عام 330 هـ.

3 ـ اختلف المؤرخون وأصحاب كتب التراجم في اسم أبيه، فقد ذكره أكثرهم بابن عُزَيز العُزيزي، ووسمه بعضهم بابن عُزَير العُزَيري، وطال الجدل في ذلك واختار المحقق الرأي الأول لمرجّحات كثيرة بسطها في مقدمته.

4 ـ تحدث العلماء كثيراً عن كتابة، وذكره كثير منهم باسم «غريب القرآن»، وأورده بعضهم باسم «كتاب نزهة القلوب في غريب القرآن» لأبي بكر السجستاني.

5 ـ مادة الكتاب العلمية وسط بين مئات الكتب في هذا الميدان، غير أن الشهرة الواسعة التي أصابها تعود إلى منهجه الذي اتبعه في تصنيفه للكتاب، فقد اصطنع المؤلفون في غريب القرآن ثلاث طرائق في كتبهم، فمنهم من شرح الغريب حسب ترتيب السور في القرآن الكريم، وهي الطريقة التي اعتمدها السابقون إلى التأليف في هذا العلم، ومنهم من رتب الألفاظ حسب الحرف الأخير جاريًا في ذلك على سنن أصحاب بعض المعاجم، وكان بن عُزيز الرائد الأول للطريقة الثالثة التي تُعنى بترتيب الغريب ترتيبًا هجائيًا حسب الحرف الأول، واختار أن يضع اللفظ كما ورد في القرآن الكريم دون إعادته إلى جذره الذي اشتق منه، فقد أورد في الهمزة المفتوحة مثلاً: أأنذرتهم، أسلمت، أزلهما، أقسط، أفضتم.. دون أن يعيد هذه الألفاظ إلى أصول مادتها ويذكرها في: نذر، سلم، زلل، قسط، فاض... ومثل ذلك كثير. وقد أشار المؤلف إلى اختياره لترتيب الغريب على الحروف الهجائية في خطبة كتابه، قال (ص:96): «هذا تفسير غريب القرآن أُلّف على حروف المعجم ليقرب تناوله، ويسهل حفظه على من أراده...».

والمطالع للكتاب يرى أن اهتمام المؤلف قد انصبّ على الحرف الأول من الكلمة دون مراعاة للحرف الثاني، فالثالث على طريقة المعاجم، فنجد في حرف الجيم المضمومة مثلاً (ص:169) الكلمات وردت كما يلي: جُنَاح، جُنْد، جُنُب، جُرف... جُبّ. وفي القاف المكسورة (ص: 295) قبلة، قيام... قسيسين، قرطاس... وهكذاَ في الكتاب كله. كذلك لم يُعن بإيراد الكلمات حسب ترتيب السور على التزامه الحرف الأول، ففي حرف الحاء المضمومة مثلا (ص:181) نجد الكلمات على حرفها الأول مأخوذة من السور التالية: البقرة، النساء، المائدة، آل عمران، الرحمن، البقرة...

ونستخلص من هذا أنه صرف جهده إلى ترتيب الألفاظ حسب حرفها الأول دون التقيّد بشيء آخر، ولذا كثر الذين أعادوا ترتيب الكتاب وراعوا فيه الطريقة المعجمية، وقد يزيدون عليه، أو يقوّمون بعض ما جاء فيه.

والسجستاني يستمد مادة شرحه للغريب من أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام، وأقوال الفصحاء من العرب شعراً ونثراً. وقد يختصر التفسير فيكتفي بمرادف الكلمة كقوله: مصباح: سراج، مرية: شك، نتخذه ولداً: نتبناه، نصب: تعب (ص: 334، 339، 340 على الترتيب).

وقد يتوسع قليلاً، ويستشهد بأصحاب الروايات، ولكنه لا يطيل أبداً، وسنختم الكلام بنماذج تبين منهجه الذي أوضحنا قواعده:

ص97: «الم»: وسائر حروف الهجاء في أوائل السور، كان بعض المفسّرين يجعلها أسماء للسور تُعرف كل سورة بما افتُتحت به، وبعضهم يجعلها أقسامًا أقسم الله جلّ وعزّ بها لشرفها، ولأنها مبادي كتبه المنزلة ومباني أسمائه الحسنى وصفاته العُلى. وبعضهم يجعلها حروفًا مأخوذة من صفات اللّه جل جلاله لقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في «كهيعص»: إن الكاف من كاف، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعينُ من عليم، والصّاد من صادق، فحينئذ الألف: أنا، واللام: الله، والميم: أعلم.

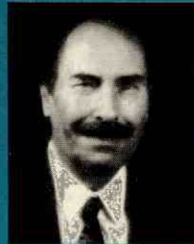
ص98: «آيات» علامات وعجائب أيضًا، وآيةٌ من القرآن: كلام متصل إلى انقطاعه، وقيل: معنى آية من القرآن: أي جماعة حروف، يقال: خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم. قال الشاعر:

خَرجْنا من النقبين لا حيٌّ مثلنا
بآيتنا نُزجي اللقاح المطافلا

ص106: «أشُدَّه»: يعني منتهى شبابه وقوّته، واحدها شَدٌّ مثل: فَلْس وأفلُس، و: شدّ كقولهم: فلان ودّي والقوم أودّي، وشدّة مثل: نعمة وأنعُم. ويقال: الأشُدّ اسم واحد لا جمع له بمنزلة: الآنُك وهو الرصاص والأسرب، فذُكر عن مجاهد في قوله جل ثناؤه: *ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّه*. **الأنعام**: 152. قال: ثلاثًا وثلاثين سنة، و«استوى» قال: أربعين سنة. وأشد اليُتْم، قالوا: ثماني عشرة سنة.

صدر الكتاب عن دار طلاس بدمشق عام 1993م، وأرجو أن يتاح للمحقق أن يعيد النظر فيه ليقوّم ما وقع فيه من أخطاء مردّ أكثرها إلى الطباعة، على الثناء الجميل الذي يستحقه لما بذله من جهد مضن في البحث والتنقيب والتحقيق والتصحيح، والسبق إلى اكتشاف عدد من كتب الغريب لم يشر إليها المحققون من قبله.

رأيتُ وسمعتُ في مجلسِ الملكِ عبدالعزيز 2



عاصم محمد بهجة البيطار

ذكرت في كلمتي السابقة أن الله ـ تعالى ـ قد أنعم عليّ بحضور كثير من مجالس الملك المؤسس رحمه الله، وجزاه عن عمله وشعبه وبلاده خير الجزاء؛ وقد بدأت بوصف أحد هذه المجالس الكريمة، ورأيت فيها طبيعة الأسس التي اتخذها صقر الجزيرة أسسًا لبناء دولته. كانت العقيدة الإسلامية هي الدستور، وكانت الشريعة هي الينبوع الصافي الثرّ الذي تصدر عنه القوانين، وينتظم به أمر البلاد.. وقد أمر الله بالعلم، ونبَّه العقول من غفلتها، ولفتها إلى أنفسها وإلى ما حولها، فكان العلم يعمر ذلك المجلس، وتُبذر بذوره الخيرة في كل مكان. كما جعل الله اجتماع الكلمة على التقوى، والاعتصام بحبل الله، ووحدة الأمة هي سبيل النصر، فكان المجلس نموذجًا رائعًا لهذه الوحدة: خصوم الأمس غدوا أحبة وأصدقاء، وأهواء ونزغات آلت بفضل الله إلى يد واحدة، وحزب للرحمن واحد، وغاية واحدة هي نصرة دين الله وإنكار حظ النفس. وإني متمٌ ما بدأت به من وصف ذلك المجلس، وقد وقع به أمر عجيب ما كنت أظنه يقع في مجلس ملك حارب أكثر من ثلاثة عقود، حتى وحّد البلاد بسيفه، واستظلت بظل هيبته وسلطانه.

كنا جلوسًا نستمع إلى الشيخ يقرأ، وإذا رجل يدخل المجلس بخطو ثابت، ويتجه نحو الملك، ويهب الحرس هبة واحدة، فيجلس الرجل على الأرض إلى جانب الشيخ القارئ، ويرفع جلالة الملك يده بإشارة فَهم منها (الخويا) أنْ كُفُّوا عنه ودَعُوه. كان عقلي المراهق آنذاك مُستَغرقًا في تفكير مضن تستبد به الحيرة.. كيف يدخل هذا الرجل القصير القامة، البالي الثياب عرين أسد الجزيرة دون أن يوقفه حاجب، أو يحول بينه وبين ذلك باب، ونحن كنا لا نستطيع دخول غرفة مدير مدرستنا الابتدائية إلا بعد اجتياز حجاب صعب.. واستأنف الشيخ قراءته، وارتفع صوت الملك يقول: بركة.. وعلَّقَ على الدرس تعليقا مستفيضًا والرجل في مكانه ينتظر بقلق تبدو آثاره على وجهه نهاية حديث الملك. ولاحت له فرصة للكلام فقال: صبّحك الله بالخير يا عبدالعزيز.. فأحسست أنا برعب شديد، ولملمت أطراف ثوبي، كيف يجرؤ هذا الرجل على مخاطَبة فاتح البلاد وصاحب الأمر والنهي فيها باسمه المجرّد؟ غير أن الحرس كانوا في أماكنهم ولم يتحرك منهم أحد، ونظرت إلى المليك فوجدته أقبل على الرجل بوجه يطفح بالبشر، وبدأ حوارًا ما ظننت أن مثله يقع في هذا الزمان، وإنيّ أستميح القارئ العذر برواية الحوار بنصّه وكما سمعته، وسأشرح بعض كلماته ليكون هذا القارئ العزيز على صلة بما جرى، وليفهم بعض الجمل التي قد تخفى عليه فحواها. بدأ جلالة المليك فَرَدَّ تحيته وقال:

ـ بالخير. ويش تبي؟ (ماذا تريد؟)

ـ شُف يا طويل العمر: خادم من خدم الشيوخ دَعَم وليدي بالموتَر وقتله (خادم من خدم الملك صدم ولدي بسيارته وقتله).

ظهر التأثر على وجه الملك وأطرق قليلاً ثم قال:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. وش تبينا نسوّي؟ (ماذا تريد أن نعمل؟).

ـ طال عمركْ الشيوخ أبْخَص (الملك أدرى).

ـ طيب اسمعْ يا ولد، خُذه.

ـ يا طويل العمر: وش أسوّي بالخادم؟ حنا لو كان عندنا خدم هديناهم عَشْيوخ (لو كان عندنا خدم لأهديناهم لَلشيوخ، أي للملك).

وظهرت حيرة متعبة على وجه الملك، وطال سكوته، ثم قال:

ـ اسمع. هذا الخادم له راتب. خذ راتبه أنت طول العمر...

وجاء الرد سريعًا:

ـ يا طويل العمر راح الغالي ويش نسوي بالرخيص؟

ـ يا شيخ أتعبتنا، وش تبينا نسوّي؟

ـ والله الشيوخ أبخص.

كنت أستمع إلى هذا الحوار وأتحسس جسمي وأتساءل: هل أنا موجود حقا، وهل ما أسمعه يجري حقا، وثابت إليّ نفسي، ولاحت لي قصص شبيهة بهذه جرت في قصور بعض الخلفاء والولاة من صالحي

السلف الذين ملأ الله قلوبهم فصغرت في عيونهم الدنيا وما فيها، وجعلوها مزرعة للآخرة، وآمنوا بأن ردّ حق إلى صاحبه أو دفع جَوْر عن مظلوم، يزن عند الله أضعاف ما يزنه سلطان زائل أو قوة لا تدوم، فعملوا في الدنيا طلبًا للآخرة، وأحسنوا للرعية رغبةً بما عند الله من الثواب وحسن العاقبة... ورفعتُ بصري إلى الملك فوجدته يلتفت إلى والدي الذي يجلس إلى يمينه ويقول له:

ـ شيخ بهجة قُل لي وش نسوّي؟

وكأن رهبة الموقف عقلت لسان الشيخ فلم يملك إلا أن يقول:

ـ أطال الله عمرك، لقد صدق الرجل فيما قال: الشيوخ أبخص.

وأطرق الملك مرة أخرى وهو يسترجع ويحوقل، ثم رفع رأسه، ورأيت في وجهه ملامح من الطمأنينة والبشر، وقال للرجل:

ـ اسمع يا ولد... تروح يمّ الشيخ محمد وتنشده حكم الشرع وحنا ننفّذ (الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة، أي اذهب إليه واسأله عن حكم الشرع في قضيتك، وهو يحكم بيننا وبينك...) فقام الرجل واقفًا وهو يقول:

ـ عسى الله يطوّل عمرك. والله ما قصَّرت، وانت صادق، ما هنا إلا حكم الشرع. السلام عليكم ورحمة الله.

وانصرف الرجل، وأحسّ الملك بارتياح بدت آثاره على وجهه، فقد عاد إلى من بالمجلس يحادثهم ويباسطهم ويسألهم عن أخبار من غاب منهم، وكأن ما مضى كان أمرًا طبيعيًا.

وانفضّ المجلس، وتفرّق الجمع، ورجعت بمعية والدي إلى دار الضيافة وأنا لا أكاد أصدّق ما سمعت وما رأيت، وسألت والدي: أهكذا يدخل الناس مجالس الملوك ويخاطبونهم؟ بل ويحسّون بعدم الرضا عن بعض الأحكام فلا يقبلون بها؟ أما خاف هذا الرجل من هيبة السلطان، والسيوف المرهفة التي تملأ المكان؟! فتبسَّم رحمه الله وقال: اسمع يا بنيّ، هذا الرجل فرد من الرعيّة التي ولّى اللهُ الملكَ أمرَها. وحمّله تبعتها، والشريعة الإسلامية التي كانت قاعدة المُلك الراسخة جعلته راعيًا مسؤولاً عن رعيته. فهو يستمع لأنه الراعيَ، ويقبل الاعتراض لأنه يتوخى العدل، فالعدل أساس الملك، أما قرأت قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين وقف في المؤمنين خطيبًا، وأخذ عليهم غلاء المهور، وأراد أن يجعل لها حدًا أعلى لا تتجاوزه، ليُقبل الشباب على الزواج، ولتصان الأخلاق، فقامت امرأة من أقصى المسجد تقول للخليفة الذي كان اسمه يملأ القلوب خشيةً وفزعًا، قامت تلك المرأة تقول: ليس ذلك لك يابن الخطاب، كيف ذلك والله يقول: *وَآتَيْتُمْ إِحداهُنّ قِنْطَارًا فَلا تأخذوا منْه شيئًا أتأخذونه بُهتانا وإثْمًا مبيْنًا*. **النساء**:20. فأطرق عمر، وشعر بضَعفه حيال عظمة الله وسلطانه، ورأى أن الحق أطلق صوت المرأة فغلب صوت أمير المؤمنين، ورفع رأسه ودمعة تملأ عينيه، وقال قوله المشهور: أصابت امرأة وأخطأ عمر، يا ويح عمر، أكُلُّ الناس أفقه من عمر...

يا بني إن لصاحب الحق مقالاً... وعبدالعزيز اتخذ الإسلام دستور دولته، ومصدر قوانينه، والإسلام يأمر بالعدل، ومن مقتضى العدل أن يستمع إلى أصحاب المظالم فينصفهم، وهو يعلم أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، يفعل ذلك استجابةً لله ولرسوله، ورغبةً في الآخرة وثوابها، والجنة ونعيمها.

على رَفْع منار العدل، وكَبْت صوت الظلم قامت دولة الإسلام الأولى، والملك عبدالعزيز جاء ليعيد إلى هذه البلاد دولة الإسلام، ويجدّد ذكرها بعد أن غدت خبرًا من أخبار التاريخ، يقرؤه ناس هذا الزمن بين مصدّق لا تشوب تصديقه ريبة، وشاكٍّ في أن الإنسان يستطيع أن يسمو إلى هذه المرتبة من الانصياع للحق، والاعتراف بالخطأ، وهو القادر على أن يمضي بالأمور كما يشاء.

هذه قصة مجلس واحد من المجالس الكثيرة التي أنعم الله عليّ بحضورها، كان الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ يجلس فيها للناس، ليس بينه وبينهم حجاب. كان يُنزل الناس منازلهم، فالكريم في قومه يزيده كرامة في مجلسه، ومن كانَ في قلبه مرض يأخذ على يده، ومَنْ كان له حق عجز عن الوصول إليه يسرع إلى إنصافه.

إن هذه الدولة التي قامت بعد جهاد شاق استمرّ عشرات السنين، فحكّمت شريعة الله، ورفعت منار العلم، ووثّقت عُرا المودّة والأخوّة، وأرست مبدأ العدل، لجدير بها أن تحظى برضا الله ونصره، وأن تحسّ الرعيّة فيها بالطمأنينة والاستقرار. وقد سار الأبناء البررة الميامين على السَّنن نفسه، وحققوا، بما أفاء الله على المملكة من الخير الوفير، في ربع قرنٍ ما لم تقم دنيا الغرب بتحقيقه في قرون. لقد أعاد آل سعود إلى واقع الحياة ذكر الدولة الإسلامية الأولى التي امتدّ سلطانها إلى أكثر العالم المعروف آنذاك في أقلّ من ربع قرن.

وأحب أن أذكر في ختام كلمتي أمرين اثنين:

1ـ صحبت والدي ـ رحمه الله ـ في دمشق إلى مجمع اللغة العربية الذي كان من أعضائه، ولقي هناك زميله في المجمع الأستاذ العلامة فارس الخوري، الأستاذ في كلية الحقوق، ورئيس المجلس النيابي السوري مرات كثيرة، ومندوب سورية الدائم في هيئة الأمم المتحدة، والأديب والخطيب والشاعر.. وجرت بينهما أحاديث كثيرة، ومرّ ذكرُ الدولة الإسلامية الأولى، وسمعت الأستاذ الخوري يقول: يا أستاذ إن كان محمد وأصحابه من البشر فلا نستحق نحن أن نُنسب إلى البشر، وإن كنا نحن بشرًا فَهُم جنس آخر أعلى وأسْمى. فأجابه الشيخ: بل هم بشر مثلنا، ولكن الله أكرمهم بالإسلام. وبالنبي عليه أفضل الصلاة والسلام، فزكت نفوسهم بالتوحيد، وامتلأت قلوبهم بالتقوى، واستجابوا لنداء الله ورسوله فكانوا فوق نزغات الشيطان، وحمأة الشهوات، وعملوا في الدنيا، والآخرةُ نصب أعينهم، فحققوا ما حققوه بنصر الله لهم، وتوفيقه إياهم. فقال الرجل: صدقت.

2 ـ من المفاخر التي تُذكر للملك المؤسس أن هذه الجزيرة العربية برقعتها الممتدة، ومساحتها الهائلة. لم تعرف في تاريخها وحدة غبر عليها الآن أكثر من ثلاثة أرباع القرن، وهي مرصوصة البنيان، شديدة الأسر، لم تعرف فتنةً، ولم تضعفها فُرقة، ولم يطأ أرضها مستعمر، ولم تكن في يوم من الأيام تَبعًا لأحد، ودستورها الخالد: رضينا بالله تعالى ربًا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ نبيًا ورسولا.

أنا.. والليل

شعر: عبدالجواد طايل

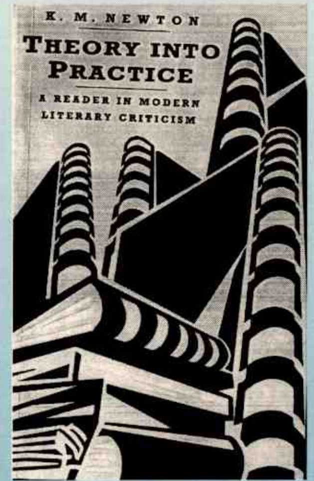
الأحاسيسُ التي كانت لديَّ
والهوى بين يديَّ
والصِّبا خَلفي.. وقُدّامي
وأحلامي..
ربيعٌ أحورُ المُقْلة.. جذّابُ المُحيّا
والأمانيُّ على جسرِ شبابي
صوبَ بابي
واقفاتٍ
ذاهلاتٍ
طالما نادتْ عليَّ
وذراعُ الحبِّ تمتدُّ إليَّ
وأنا لا أرتوي ـ كالبحرِ ـ صبحًا وعشيّا
غرّني بعضُ شبابٍ كان غَضّا
وطريّا
كنتُ لا أدركُ إلا لحظاتٍ
أبدًا
بل كنت لا أدركُ شيّا
غير أني شاعرٌ.. حرٌّ.. طليقٌ
غارقٌ في العِشق.. حتى أُذُنيَّا!
آهِ ما أتعسَني اليومَ وما أتعَسَ حظي
حينما أبحثُ عني
عن بقاياي التي بعثرتُها في كلِّ ركنٍ
عن ليالٍ سَهِرت تعزفُ لحني
وتُغنّي
آهِ من ظلمِ الليالي
حينما عدتُ إليها أنكرتني
رغم أنّا لم نكن نخلو بها إلا سويّا
***
أيُّها الليلُ أُناديكَ فهل تسمعُ ـ كالأمسِ ـ
ندائي؟!
فتُلبِّي
ها أنا ألقاك وحدي
لا.. معي بعضُ رفاقي
وبقايا أصدقائي
ذكرياتي.. وانفعالاتي وشعري
وصدى دقات قلبي
ودموعُ الكبرياءِ..
وهي حسْبِي
وحنينٌ لم يزلْ يجرفني كالسيلِ يجتاحُ عروقي
ودمائي
ثُمَّ لا يلبث أن يسكُنَ جنبي!
بينَ صيف وشتاء
كلما الأشواك داستْ فوق دربي
أيها الليلُ.. لماذا؟
لم تَعُدْ تمسحُ أحزاني وتبكي لبكائي
وتُسَرِّي
عن تباريحي وكربي
لم تعُدْ تسأل عني
لم أعدْ أذكرُ ما بي
لم نعد نحكي معًا أو نتناجى
لم نعُدْ نسبحُ كالأحلام في بحر التمنّي
أو نُغنِّي
أو نجوبُ الكونَ كي نبحث عن قصةِ حُبٍّ
مثل كلِّ الشُّعراءِ
مثل صبٍّ ذابَ في قُبلة صَبٍّ
أيُّها الليلُ.. لقد طال عنائي
وعَزائي
إنني ما زلتُ أشتاق إلى نهرٍ وقيثارٍ
وعُشبٍ
وإلى جدولِ ماءٍ
وسماءٍ
وظلالٍ من نجيمات وسُحبِ

نافذة على ثقافة العالم

النقد

من النظرية إلى التطبيق

2



تأليف:
كي. إم. نيوتن
عرض وترجمة:
د. بشير العيسوي

1 - مقالة كلينث بروكس «غنائية حورس لمارفيل»(1):

يتناول كلينث بروكس سهولة الوقوع في خطأ تعريف العلاقة بين الدراسات التاريخية والنقدية مدللاً على ذلك بتوطئه كتاب موريس كيلي هذا الحوار العظيمThis Great Argument عن ميلتون. فهو لا يعترض فقط أن ميلتون الذي كتب «العقيدة المسيحية» هو نفسه - وبكل المقاييس - الذي كتب «الجنة المفقودة»، ولكن يرى أيضًا أن ميلتون قال في تلك القصيدة ما لم يقله في كتابه عن المسيحية. «وباختصار، فإن السيد كيلي يميل إلى تكوين رأي حول الشعر نحن نذهب إليه دومًا، وهو ما نسميه بأن القصيدة، جوهريًا، هي قطعة نثر مزينة، محلاة»(2). إلا أن بروكس يتناول قصيدة أندرو مارفيل «غنائية حورس» 1650م، ليظهر رأي مارفيل في كرومويل مستخدمًا في ذلك جميع وسائل التوثيق من خطابات ووثائق تاريخية، «ولكن هذا في أحسن أحواله سيكون طريقة فجة يؤمل ألا تعطي القصيدة أكثر من مقاربة جزافية، وتظل تترجّح فيها بعض المخاطر الإيجابية. لأنه إذا أردنا التأكد من رأي مارفيل الرجل في كرومويل، وحتى التأكد من رأي مارفيل الشاعر الذي أراد أن يقوله في قصيدته، فإن ذلك لا يثبت أن القصيدة تقول ذلك. بالتأكيد أن هناك معنى يجب أن يوافق عليه أي شخص وهو أن القصيدة لها حياتها الخاصة، ومعنى تعطيه بذاتها وهو المعيار الوحيد الذي يمكن الحكم به على ما تقوله. إنها حقيقة عامة أن الشاعر في بعض الأوقات يكتب أفضل مما يعلم، وفي مناسبة ما فإنه يكتب أسوأ مما يعرف. وتاريخ اللغة الإنجليزية يعطينا الكثير من الأمثلة في الحالين»(3).

لقد كتب مارفيل «غنائية حورس» في صيف 1650م، وقبلها في 1649م كتب قصيدة إلى صديقه النبيل «ريتشارد لفليس» إضافة إلى مرثية في الفارس اللورد «فرانسيس فيليبه» في المدة نفسها. من كل ذلك ينتهي بروكس - بعد أن يستشهد برأي مارجليوث إلى أن الموالاة الملكية، إضافة إلى الإعجاب بكرومويل «الرجل العظيم»، كانتا واضحتين تمامًا في كتابات مارفيل، كما كانتا موجودتين جنبًا إلى جنب. إلا أنه يكتب قصيدة في وفاة توم ماي Tom May's Death في تشرين الثاني/نوفمبر 1650م، وهي تحمل بعض التحول في وجهة نظر مارفيل، «لكن ذلك التحول لا يمكن تمثيله بيانيًا بمنحنى صاعد إلى أعلى». وبعد إعدام الملك تشارلز، بنحو سنة، بدأ مارفيل يفكر في وظيفة الشاعر إبان أزمة كتلك، وقد كان الشاعر «ماي»، الذي رثاه آنفًا، ماثلاً في ذهنه. وحيث إن هذه القصيدة تحوي أسماء أعلام وأشخاص، وكذلك رأي مارفيل في كرومويل، وأن الأخير «ليس له طموح شخصي»، «فإن الناقد يجب أن يعرف بوضوح ما تعنيه كلمات القصيدة، وهذا مما يجعله مدينًا على الفور للغوي؛ وحيث إن كثيرًا من

كلمات القصيدة أسماء أعلام فإنه يصبح مدينًا للمؤرخ أيضًا»(4). فعلى سبيل المثال فإن «تشارلز في القصيدة يصبح قيصر؛ كما أن كرومويل يصبح هانيبال»(5). وعلى أي حال، فإن الطبيعة «لن تتسامح مع أي فراغ قوي» يحدث، وقد كان كرومويل هو القوة الطبيعية المرشحة لسد هذا الفراغ. ويتبنى بروكس قول مارجليوث أن مارفيل «يرى في كرومويل رجل الأقدار الذي تحركه قوة فوق العدل؛ نعم، فوق العدل، بمعنى أن القوة قوة وأن العدل ليس قوة. إن وجود الواحدة منهما لا يؤكد وجود الأخرى»(6). «وباختصار، فإنه كلما نظرنا عن قرب أكثر إلى تلك الغنائية، أصبح واضحًا لنا أكثر أن المتحدث اختار أن يركز على فضائل كرومويل كرجل، وبالمثل، فضائل تشارلز كرجل، والقصيدة لا تجادل في أيهما كان على حق؛ لأن تلك القضية ليست محل سؤال... فالمتحدث في القصيدة يركز على هيبة تشارلز ومنعته، وأخيرًا ما يمكن تسميته بالمذاق الطيب الرفيع. إن صورة الرجلين تدعم كل منهما الأخرى في شكل جميل. فكرومويل - باستخدام مصطلح أرسطو - هو رجل الشخصية، والفعل، وهو بالفعل الذي يعمل ويعلم. ومن الناحية الأخرى، فإن تشارلز هو رجل العاطفة، وهو الرجل الذي يمثل عليه الآخرون، وهو الرجل الذي يعرف كيف يعاني. والتناقض بين الشخصيتين يظهر في ست نقاط مختلفة»(7). ولا تترك القصيدة جانبًا من الحياة السياسية إلا تعرضت له، فهي تتنبأ بالمستقبل في ظل كرومويل، لكن ذلك المستقبل يخلو من السلام: ثمة حرب مع اسكتلندا يحقق فيها كرومويل نصرًا ساحقًا، وأخرى مع إيرلندا يخجل فيها الأيرلنديون «وهم يرون أنفسهم وقد روضهم رجل واحد في سنة واحدة فقط»(8).

ويختم كلينث بروكس دراسته لهذه القصيدة معلنًا إنها ليست بيانًا أو مقالاً. «أود أن أبدأ بإعادة تأكيد الشخصية المسرحية للقصيدة إنها ليست بيانًا - أو مقالاً حول (لماذا لا أستطيع مساندة كرومويل؟)، أو عن (لماذا أنا مستعد الآن لمساندة كرومويل؟)، إنها من ناحية الجوهر قصيدة مسرحية في تقديمها، وهذا يعني أنها تشخيصية أكثر من كونها تحاول علاج حالة ما، ولا تسير في النهاية في طريق الفعل، بل تنتهي إلى التفكير الملي - وربما كانت أحسن طريقة لفهمها أن نستوعبها كما يستوعب الفرد مأساة شكسبيرية. فكرومويل هو مغتصب العرش الذي يطلب من الآخرين أن يعجبوا به ويأمرهم أن يفعلوا ذلك. فمثلاً، ما موقفنا تجاه مكبث؟ نحن نعرف ذنبه، ولكن ثمة سجايا، يتسبب فيها ذلك، تثير إعجابنا تمامًا. وأنا لا أقصد أن تلك السجايا تسوّغ ذنبه، أو أنها تعوض عن جرمه؛ ففي الواقع إنها أتت من خلال ذنبه، ولكنها تجبرنا أن نجلَّه حتى ونحن ندينه. ويبدو أنني تخيرت مثالاً متطرفًا - بالتأكيد أنا لا أود أن أومئ إلى أنه عند كتابة «الغنائية» كان مارفيل يضع مأساة شكسبير في ذهنه - وما أحاول أن أوضحه هو ما يلي: إن نوع الأمانة والنظرة المتأنية وحضور الذهن الكامل التي تربطه بالمأساة يُفترض أن توجد إلى درجة ما في جميع القصائد الكبرى، ويُفترض وجودها في هذه القصيدة.

«لقد قال لي آر. بي. وارين ذات مرة إن مارفيل كان وراءه دومًا في شعره ما تحقق في مسرح اليصابات، مع تناوله للإرادة الإنسانية كما تبدو من منظور التاريخ. لقد كان في ذهنه بعض القصائد الغنائية، ولكن تلك الملاحظة تنطبق كاملة على «الغنائية». فالشاعر على وعي بفن التمثيل، ويستخدم - على وعي أيضًا - المنظور التمثيلي. فتشارلز، كما رأينا، يصبح «الممثل الملكي» يلعب دوره على «المقصلة المأسوية». ولكن مأساة تشارلز تُشاهَد فقط. أما القصيدة فهي لكرومويل - لمأساة كرومويل - والفصول الثلاثة الأولى منها، كما وُضعت، لم تكن مأساة فشل، بل مأساة نجاح».

«كرومويل هو الرجل الملكي حقًا وهو ليس ملكًا - مع أن فضائله الذاتية تفضي به إلى السلطة الملكية وتكاد تلك الفضائل أن تفرض عليه تلك السلطة فرضًا -، ولم يكن عبثًا أن يحاول الشاعر من جانبه السعي إلى تسمية كرومويل (قيصر) قبل أن تشارف القصيدة على النهاية، ومع ذلك فإنه مبكرًا - في القصيدة - انتحل ذلك الاسم لتشارلز. كلا الرجلين قيصر، تشارلز الذي يلبس ثوبه الأرجواني(9)، وكرومويل، الجنرال الذي لا يُقهر، صاحب الحملات العسكرية العنيد، وهو أيضًا الرجل الذي يجتمع فيه «كل من العمل والعلم». كرومويل هو القيصر الذي يتحتم عليه أن يرفض التاج - حيث مجده يتلخص في رفض التاج طواعية - ولكنه أيضًا لا يستطيع أن يستمتع بالأمان والمكافأة اللذين يأتي بهما التاج».

«إن التوتر الواقع بين إعجاب المتحدث بالملكية التي أكسبت كرومويل القوة، ووعيه بأن القوة يمكن الحفاظ عليها فقط ببذل متواصل لتلك المواهب من أجل الملكية؛ هذا التوتر لا تخف حدته إطلاقًا. ومع أن كرومويل لا يجري فيه الدم الملكي؛ إلا أنه يفاخر بنسب أعلى وأكثر رسوخًا؛ ذلك أنه ابن الحروب والأقدار، وهو لا يخلد إلى الراحة؛ لأنه كرومويل القلق. ويتحتم عليه أن يتحرك من دون كلل؛ لأنه لا يطيق أن يصبح متعبًا. إن هذه المضامين تثري وتقوي نظرة إلى كرومويل تمتلئ إعجابًا بقدر ما تمتلئ إدانة عظيمة. لكن الإعجاب والإدانة لا يلغي أي منهما الآخر؛ وحيث إن هناك تعريفًا موثوقًا فيه فإن كلاً منهما يُقَوِّي الآخر».

«إذن، هل هذا هو موقف أندرو مارفيل - الذي وُلد في 1621م وأمضى بعض وقته تلميذًا في كيمبردج، وهو الرحالة العائد ومعلم المستقبل - تجاه أوليفر كرومويل في صيف 1650م؟ إن الإجابة الأمينة ينبغي أن تكون: لا أعرف. لقد حاولت قراءة القصيدة «غنائية حورس» لا قراءة عقل أندرو مارفيل - وهذا يبدو معقولاً في ضوء الحقيقة أننا أمام قصيدة، بينما الموقف الذي تبناه مارفيل في أي وقت معين سيكون حتمًا موضوع استنتاج - على الرغم من التأكيد أن القصيدة قد توضع جزءًا من الدليل الذي نصل من خلاله إلى الاستنتاجات. هذا صحيح، نحن نعرف بالقطع أن مارفيل كان قادرًا على نظم «الغنائية»، وعليّ أن أُسلِّم بأن الواقع سيعطينا الكثير حول موقف مارفيل تجاه كرومويل. أعتقد باحتمال حدوث ذلك. ولست متأكدًا - لأسباب بينتها في بداية هذا البحث - أن القصيدة تخبرنا بكل شيء: فهناك مشكلة دور عدم الوعي في عملية النظم، وهناك إمكان أن الشاعر يكتب أفضل مما يعرف، حتى إن هناك موضوع المصادفة السعيدة. ولا أقصد أن أغرق في تأكيد هذه الموضوعات. وعلى أي حال، فإن لديَّ اعتقادًا ثابتًا، أنه من الحكمة أن نصل إلى التمييز بين ما هو موقف شمولي وذلك تبينه القصيدة، وموقف المؤلف بوصفه مواطنًا».

«وبعد؛ مع أنني أتمنى أن نحافظ على هذا التمييز، فإنني لا أقصد أن نتوارى خلفه. فالموقف الشمولي الذي ندركه في «الغنائية» لا يبدو لي وحشيًا في لا إنسيته من حيث التركيب. فمن وجهة نظري يستطيع بعض الناس أن يتبنوه. وقد وقع أمر شديد الشبه بذلك».

بعد ذلك يقتطف بروكس حكم إيرل كلارنيدون في كرومويل الذي يجمع فيه كل صفات الشجاعة والقوة والنبل، وكيف أن مهاجميه أنفسهم لا بد أن يعجبوا به حتى وَهُم يهاجمونه. وأنه رجل جمع

من النظرية إلى التطبيق 2



الصفات التي تخلده في ذاكرة الناس كرجل قاس وشجاع. ويتساءل بروكس: هل قرأ كلارنيدون، أو تأثر بالمخطوطة المفقودة لغنائية مارفيل قبل أن يعطي تصوره لشخصية كرومويل. إلا أنه لا يميل إلى تأكيد ذلك؛ لأن وصف كلارنيدون - من وجهة نظر بروكس - قد ينطبق على أي إنسان لديه العواطف والأحاسيس نفسها. ويختم بروكس مقاله بخلاصة عظيمة: «لقد جادلت بأن النقاد في حاجة إلى مساعدة المؤرخ - ليأخذوا منه كل مساعدة ممكنة -، ولكنني كنت أصر أن القصيدة يجب أن تُقرأ بوصفها قصيدة -؛ بمعنى أن ما «تقوله» هو سؤال للناقد عليه أن يجيب عنه، وأن أي قدر من الأدلة التاريخية كالتي معنا لا يستطيع في النهاية أن يحدد ما تقوله القصيدة. ولكن إذا قرأنا القصيدة ووفقنا في ذلك، فإن الناقد، في مناسبة ما، يستطيع أن يعلن أنه مدين للمؤرخ. وإذا ما وفقنا في قراءة «الغنائية» - أقول إذا، لأنني بعيد من الوثوق من ذلك - فقد يكون من الأسهل لنا أن نفهم الكيفية التي استطاع بها رجل كتابة «الغنائية»، وكان قادراً - هو نفسه - على نظم قصيدة في «وفاة توم ماي» وقصيدة «على منزل أبلتون»، وبحق بعد سنوات لاحقة، وعند عودة الملكية، أعلن مقولته: على الناس أن يثقوا في الله؛ ويتحتم عليهم أيضاً أن يثقوا في الملك»(10).

2 - مقالة إف. آر. ليفيز عن: أنتوني وكليوباترا، و: كل شيء من أجل الحب(11).

يتناول البروفيسور في هذه المقالة مسرحيتين في اللغة الإنجليزية تحملان عنوانين مختلفين إلا أن محتواهما واحد: الأولى: أنتوني وكليوباتراAntony and Cleopatra 1608م لوليم شكسبير (1564 - 1616م)، والثانية: كل شيء من أجل الحب، أو ضياع العالم بشكل حسن All for Love, or the world Well Lost 1678م، التي كتبها جون دريدان (1631 - 1700م). وموضوع المسرحيتين أن مارك أنتوني يترك روما بعد أن يسوِّي خلافاته مع أوكتافيوس قيصر ويعيش في الإسكندرية مع كليوباترا ملكة مصر، ويموتان في مشهد مأساوي، حيث ترسل كليوباترا إلى أنتوني أنها قد ماتت، فيغرس الأخير سيفه في بطنه منتحراً، وفي اللحظات الأخيرة يُحمل إلى كليوباترا ويموت بين ذراعيها. يأتي أوكتافيوس قيصر بعد ذلك إلى الإسكندرية وتستقبله كليوباترا، وخشية أن يظن شعبها أن الرومان انتصروا عليها تأتي بأفاع مصرية صغيرة تضعها بين ذراعيها وفي صدرها فتموت، ويأمر أوكتافيوس أن تُدفن إلى جوار أنتوني.

«حياة البيت الشعري» و«بلاغة البيت الشعري» هما المعياران اللذان يقيس بهما ليفيز مسرحيتي شكسبير ودرايدن. فمع أن هاتين المسرحيتين تتناولان - شعراً - الحبكة التاريخية التي أشرنا إليها منذ قليل من منظورين مختلفين لعلمين من أعلام المسرح الإنجليزي - الأول معروف في كل عصر، والثاني من أعلام عصر استعادة الملكية(12) - فإن نقاط الالتقاء بين النصين من الناحية الفنية كثيرة. كما يتحقق فيهما قدر «المعيارية»، التي أشرنا إليها في بداية هذا الفصل، لتطبيق مقياس ليفيز «حياة البيت الشعري» و«بلاغة البيت الشعري».

ويبدأ ليفيز مقالته باقتطاف رأي البروفيسور بونامي دوبري (1891 - 1974م) في حكمه على هاتين المسرحيتين «إن مسرحية كل شيء من أجل الحب من دون شك جميلة ومدعاة للفخر؛ إنها زهرة بنات أفكار درايدن. وفي وقت ما، وحقبة لوقت طويل، كانت على قدر من الحداثة لا ينتقص منها عند موازنتها مع مسرحية أنتوني وكليوباترا، ولكن درايدن لم يكن ليحاول فعل ما فعله شكسبير. ويكون صاحب الرأي الحر مضطراً أن يعترف أنه على احتواء مسرحية شكسبير على شعر أفضل من كل شعر استطاع درايدن كتابته - وقد يكون هو أول من يعترف بذلك -؛ فإن مسرحية درايدن فيها تأثير مأساوي أكثر من مسرحية شكسبير»(13). وسيتضح أن رأي بونامي دوبري مخالف لرأي ليفيز في الحكم على هاتين المسرحيتين. فعند ليفيز أن مسرحية «أنتوني وكليوباترا» تمثل حياة فريدة للبيت الشعري؛ بينما عند درايدن - حسب مقالة دوبري - فإن القصيدة ذات تأثير مأساوي أكثر من تلك التي عند شكسبير. ويرد ليفيز على مقولة دوبري بأن نص درايدن يتسم بالبلاغة التي تلجأ إلى الاستعارات والتشبيهات والكنايات اللفظية، أما عند شكسبير فإن النص أفضل بكثير وخصوصاً عند موازنة العشرين بيتاً الأولى من الفصل الثاني، المشهد الثاني في المسرحية الأولى مع ما يقابلها عند درايدن، وذلك عند وصف الموكب الذي تأتي فيه كليوباترا في البحر.

«إن التفوق الشعري الذي يجعل الأمر يبدو سخيفاً لي إذا ما أردنا موازنة المسرحيتين من حيث التأثير المأساوي - ناهيك عن نسبة الفوقية الأخرى - البلاغة - إلى دريدان - واضح بشكل حاسم في السطور العشرين الأولى من مسرحية أنتوني وكليوباترا. تشعر على الفور بفوقية حياة البيت الشعري - إنها فوقية من حيث الدلالة الحسية، والتنوع ورهافة الحس - مخلفة لنا بلاغة البيت، بدلاً من حياة البيت، حيث الكلمة الصحيحة لوصف شعر درايدن. إن هذه الفوقية تؤكد لنا ذاتها في كل مكان، فهي قضية النسيج العام للمسرحية، ويمكن عند المناقشة الفعلية التمثيل لها نقطة بنقطة في أفقر المواضع، وكذلك في أغناها بلاغة. مع ذلك، فإن مقتضيات النقد المكتوب تملي اختيار قطع لتؤيد قولنا، حيث يكون التدليل متاحاً بقوة ووفرة»(14). وبعد أن يقتطف العشرين بيتاً في المسرحيتين يبدأ في موازنة دقيقة وقوية مع وفرة من الألفاظ في النصين. «ينبغي أن يكون واضحاً أن موازنة شكلية ستكون بالكاد ممكنة؛ إن رواية درايدن في ذاتها توفر مكاناً ضيقاً للتعليق المستفيض وبالمغايرة، فإنها من المحتم أن تعمل أساساً على إظهار حُسن فقرة شكسبير. إن وضع الروايتين متجاورتان يدعونا إلى الإشارة إلى ذلك، فمن تلك الفقرة ومثيلتها عند شكسبير يلاحظ أن درايدن لا يقدم شيئاً ذا صلة. وملاحظتنا العامة هي أن بيت الشعر لدى شكسبير يمثل معناه، فهو يفعله ويعطيه بدل أن يتكلم عنه، في حين أن بيت الشعر لدى درايدن بلاغة وصفية فقط. إن خاصية حياة البيت الشعري، تؤكد ذاتها في أبيات إينوبادبوس التي مطلعها:

The barge she sat in, like a burnish'd throne, Burn'd on the water...

إن التتابع السجعي لكلمات barge بارجة(15) وburnish'd مرصع(16) وburn'd لهب النار(17) يشكو غربة الروح في تناول درايدن الوسط نفسه - وذلك يذكرنا بهوبكينز، فمع أن لديه أدواته الفنية الخاصة به، فإنها عند استخدامه للإنجليزية تكون في أساسها شكسبيرية -، والنتيجة هي أن يعطي لاستعارة «لهب النار» إدراكاً حسياً نشطاً وإلا فلا سبيل لأن تكسب ذلك التأثير، كما أن قوة تلك الاستعارة تنعكس مرتدة من خلال «استعارة مرصّع» - والتي نشعر أنها - أي السفينة - تحترق أيضاً - والذي



النقد
من النظرية إلى التطبيق 2

يعود على البارجة بغية أن تضطرم النار فيها، كما كانت في النص أمام أعيننا: فالأمر أكثر بكثير من إبلاغنا فقط أن البارجة احترقت»(18).

... «إن ما يجعل شعر شكسبير أعلى قيمة من شعر درايدن ليس موضوع الاستعارات فقط، بل إنه يُلاحظ بالقدر نفسه - إن لم يكن منحازاً للتعليق المكتوب - من حيث النغمة والحركة. وتلك الأشياء أيضاً تظهر قدرة شكسبير الرائعة في إظهار المدرك، وفي جعل اللغة قادرة على الصنع والتمثل بدلاً من كونها قادرة على القول والسرد فقط. ويوجد عند كليهما نوع من الحياة ذو صلة - يرتبط - بحياة المجاز. ونحن نصبح على وعي بذلك كتغير حسي، وذلك كما لاحظنا للتو في مقدمة الراوي.I will tell you á(19). يأتي هذا السطر بعد مشهد النار والوهج وما يوحي باحتراق سفينة كليوباترا، فيكون تهدئةً للقارئ والمشاهد، فيظهر، بمغايرة الضد، الشعور المكبوت - الهائج - للفقرة السجعية، التي يبدو فيها الموصوف موجوداً وليس فقط محكيّاً»(20). ويستطرد ليفيز بعد ذلك شارحاً وموضحاً أن الأسطر التالية لذلك فيها «استرخاء» و«فورية»، إلا أن «الهياج» يعود مرة أخرى، محققاً بذلك ما ذهب إليه من حياة البيت الشعري لدى شكسبير، ويفسر بعد ذلك، أيضاً، كيف أن رواية درايدن من الضيق لدرجة أنه لا يترك للقارئ مجالاً للتعليق، وهذا مما يحقق التفوق لنص شكسبير على نص درايدن(21). إضافة إلى ذلك فإن شكسبير يستخدم الخيال الذوقي، والصفات غير المتوقعة، وكذلك الموضوعية التي تغطي ساحة وصفية عريضة(22). «وذلك مما يدعو إلى التحول من حسبان البيت الشعري بيتَ شعرٍ إلى الرقعة التي تناقش شخصيات المسرحية»(23).

«إن أنتوني في مسرحية درايدن لا يستطيع أن يجلس في السوق ويُصَفِّر في الهواء؛ فكرامته لا تسمح له بأن يفعل ذلك. وبالأحرى، فإن السؤال عن مدى استطاعته من عدمها يطرح معياراً لواقعية الحضور هو غيرُ موجود فيها. وأيضاً فإن كليوباترا في مسرحية درايدن لا تستطيع أن تحجل في الشارع العام، ولا في أي مكان آخر. فشخصياته المسرحية تتحرك فقط في عالم الأوضاع المسرحية، فعندما يفكك الديكور، يذهب معه كل شيء. أما في مسرحية شكسبير فإن شخصياته لها نمط من الحياة ذو صلة بحياة بيت الشعر، فالحياة في الشخصيات المسرحية، هي الحياة في بيت الشعر. وبالمقابل فإن حسبان قصيدته مسرحية - من حيث المكان، والإيقاع الأوسع، والتأثير التراكمي - فيه واقعية وزخم وعمق يصبح معها أمراً سخيفاً أن نوازن بينها وبين مسرحية درايدن كمأساة»(24).

... «وفيما يتعلق بالأداء في مسرحية درايدن فلا يوجد شيء يمكن قوله باستثناء إنه ليس فيه أي حياة شاعرية - وهذا كما رأينا، أسلوبه المسرحي - إن الذي أمامنا نظم بارع، وهذا النظم يعير نفسه إلى الأداء المسرحي، لكنه من الصعب أن يكون شعراً. فهو ليس شعراً بمعنى أنه ليس نتاج الخيال الإدراكي الذي يعمل تحت تأثير موضوع يعتمل شعوراً بعمق ويتطرق إلى جميع التفاصيل. إن درايدن حِرَفيٌّ ذو دربة عالية، يقوم بأداء وظيفته من خارج (النص)(25). فالبنية العلوية التي تفسر عمله على أنه رائعة مسرحية، بسبب أن ذلك صَنْعَةٌ تتعلق بالنظام الخارجي كما مثلنا لذلك بالنظم. إنه يرمي إلى التساوق، وتصميم واضح لا شية فيه، وترتيب متوازن للمواجهات البطولية و(المشاهد الكبيرة). إن الرضا الذي يحس به الجمهور هو من نوع التضخيم الأوبرالي وانفكاك من الواقعية، هو كذلك من نمط الكمال المنشود في الباليه، وكذلك نوع من الذوق الراقي الرفيع».

«وبالطبع يمكن القول نيابة عن درايدن إنه لا يسعى إلى تقديم حشد شعري موازنة بما لدى شكسبير، ولكنه يظهر قوته في نظرة أكثر شمولاً، وفي علاقات ذات حيز أكبر، حتى ليصبح ظلماً بيِّناً أن نتخذ ذلك التمثيل لشعره، كما بيّنا في فقرة قصيرة. وللرد على ذلك نقول: إن نوعية درايدن ما تزال هي نوعية شعره، إن قوته ما تزال مسألة ذوق وحكم وحرفة. وهذه النقطة قد تُطَوَّع بشكل عادل إن نحن أثرنا ملاحظة تتعلق بشعر درايدن، وما يحل محل حياة المجاز والخيال عند شكسبير. فإذا استطعنا أن نجد شيئاً نضع عليه يدنا، فهو تقريباً إما تشبيه شكلي، أو مجاز وهو تشبيه بحذف أدوات التشبيه (مثل) و(الكاف) التشبيهية»(26).

بعد ذلك يورد ليفيز اثني عشر بيتاً يوضح فيها وجهة نظره في استخدام درايدن للتشبيه والمجاز. ويأخذ ليفيز على بنية مسرحية دريدان - موازنة بتلك التي عند شكسبير - أنها «بسيطة ووصفية، وأنها تتطابق نقطة بنقطة»(27). ثم يرى ليفيز - قرب نهاية مقاله - أنه لا داعي لمزيد من الموازنات الشكلية، ومع ذلك فهو يتفق مع بونامي دوبري - إلى حد ما - إذ يقول: «مع أن مسرحية شكسبير شعر رفيع، فإن مسرحية درايدن فيها تأثير مأساوي أكثر»، ولا يرى أن ذلك الحديث عن التأثير المأساوي والشخصيات عند موازنة مسرحيتي شكسبير ودرايدن يستتبع الحيلولة دون وضع «أنتوني وكليوباترا» ضمن المآسي الكبرى لشكسبير. على العكس، يوافق ليفيز على ما ذهب إليه آيه. سي. برادلي (1851-1931م) في كتابه «المأساة عند شكسبير» 1904م، من وضع تلك المسرحية ضمن المآسي الكبرى لشكسبير. «ومع ذلك فإن أنتوني وكليوباترا قصيدة تمثيلية عظيمة جداً، وإذا ما طرحت في الموازنة مع كل شيء من أجل الحب، فيمكن أخذ ذلك جدياً على أنه فقط مدخل إلى شكسبير ليظهر بالمغايرة شخصية عبقريته»(28).

الهوامش:

1- Reprinted from Explication as criticism: Selected Papers from the English Institute 1941-1952, ed. W.K. Wimsatt, Jr (new York and London, 1963, pp. 99-128. الهامش من النص الإنجليزي كما هو. المترجم

2-8- K.M. Newton, Theory into Practice, p. 11,12,15,15,20,20,23,24.

9- رمز الحكم والعرش - المترجم.

(27) K. M. Newton, Theory into Practice, pp. 25-28.

10- Reprinted from F. R. Leavis, The Living Principle: English: 'as a Discipline of Thought (London, 1975), pp. 144-54.

12- هي الحقبة التي شهدت عودة الملكية إلى بريطانيا وبدأت بحكم تشارلز الثاني من 1660 إلى 1685، وتمتد أحياناً لتشمل المدة التي حكم فيها جيمس الثاني وهي من 1685 إلى 1688 - المترجم.

13,14- K. M. Newton, Theory into Practice, pp. 28,29.29.

15، 16، 17- في النص المترجم إلى العربية نقرأ: «إن السفينة التي قدمت عليها كانت كعرش مرصع، وكانت تتلألأ كأنها لهب النار...»، أنطوني وكليوباترا، ترجمة: محمد عوض إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، د. ت. ص67.

18-24- K. M. Newton, Theory into Practice, p. 31,31,31,33,34,35,35.

25- المترجم.

26-28- K. M. Newton, Theory into Practice, pp. 35,36,36,37.

أمن الأرض من أمن أطفالها!

د. تماضر حسون

تزامن انعقاد «مؤتمر الاتجار بالأطفال» الذي تم في استوكهولم عاصمة السويد - مؤخرًا - مع ظهور «مأساة ليبج» في بلجيكا التي تمثلت في اختطاف الصغار واستغلالهم في قضايا الجنس ثم قتلهم.. واكتُشف أن وراء تلك المأساة شبكات متعددة الجنسيات.. من بين مؤسسيها وأعضائها شخصيات كبيرة.. وما حدث في بلجيكا يحدث مثله كل يوم في مختلف بقاع العالم، وخاصة في الدول النامية؛ حيث يزداد وضع الأطفال سوءًا واستغلالاً مع تضخم وشراسة غول الفقر والتخلف والأمية. إن إحصاءات المنظمات العالمية المهتمة بشؤون الأسرة والطفل تجلب الرعب والهلع، إذ تشير إلى أن في تايلاند - وحدها - هناك مليون طفل في مواخير الدعارة، ناهيك عن ضعف هذا العدد من الأطفال يُزَجّ به في سوق العمل، وفي سيرلانكا حيث الحرب الأهلية وصراعات البالغين التي خلّفت الفقر والدمار والأمية، فإن سوق الاتجار بأجساد الصغيرات مزدهر ومنتعش؛ إذ بلغت نسبتهن ثلثي عدد المُتَاجَر بأجسادهن في سوق البغاء. وفي الفلبين وكمبوديا وفيتنام هناك عشرات الآلاف من الأطفال ذكورًا وإناثًا تُعرض أجسامهم للبيع في سوق الدعارة لمرضى الجنس من القادرين على شراء كل شيء بما في ذلك أجساد الأطفال. وأوضاع أطفال جنوب أفريقيا ودول أمريكا الجنوبية وأطفال الشوارع في أمريكا الشمالية، ليست أفضل حالا من إخوانهم في جنوب شرقي أسيا، إذ تشير الإحصاءات إلى أن مواخير الدعارة في تلك البلدان تتلقى بمعدل خمس مكالمات أسبوعية من أشخاص يرغبون في أطفال صغار دون الثامنة. لذا فقد ازدهرت تجارة الأطفال ونافست مدخولاتها، مدخولات تجارة المخدرات.. ودخل غمارها بعض كبار الشخصيات والمتعلمين والساسة الذين أخذوا يروجون لهذه التجارة عبر وسائل الاتصال المتطورة؛ فسخروا شبكة الإنترنت، وأفلام الفيديو، وبعض قنوات التلفاز وأفرزوا مجلات وصحفًا وكتبًا خاصة، وأصبحت كبرى العواصم الأوربية مرتعًا خصبًا لهذا النوع من الإجرام.. إذ تستقبل سنويًا المئات من الأطفال القادمين من فيتنام وتايلاند وكمبوديا والفلبين وسيرلانكا وأوكرانيا ورومانيا والبلقان ونيبال، والقائمة تطول إن واصلنا السرد.

أما استغلال الأطفال في سوق العمل فليتجه من يرغب في مراقبة ذلك من قرب إلى أي موقع من مواقع جمع النفايات في العالم.. إلى مواقف إشارات المرور، أو إلى المعامل والمصانع والمزارع والمطاعم والمنازل.. ليرى الملايين من أطفال العالم يُستَغلّون أبشع استغلال، وتُستنزَف قواهم مقابل لقمة يقيمون بها أودهم أو أود ذويهم.

إن رايات الأمن والفرح لن تنتشر على أرض هذا الكوكب الجميل إن لم نركز عنايتنا وجهودنا لحماية الأطفال.. كل أطفال العالم من مخاطر الفقر والجوع والأمية والمرض.. ونعيد تأهيل بعض البالغين الذين أصبحوا وحوشًا مفترسة لأجساد الصغار.. ومعاصر تعصر قوة عملهم وتلقي بهم بعد ذلك أجسادًا هامدة. ولن ندخل هنا في متاهات المؤتمرات والمنظمات والتوصيات والقرارات والقوانين والتدابير التي نُمِّقت بأجمل العبارات، وكُتبت بأجمل الخطوط، وحُفظت بين دفّتي سجلات ذهبية.. ولكننا نتوجه للأسرة قائلين: لا تنجبوا أطفالاً لستم بقادرين على تأمين العيش الكريم لهم، ولستم بمؤهلين لتأمين الحماية والرعاية الاجتماعية والنفسية والجسدية لهم، فالوضع كله ينذر بقنبلة موقوتة لا يعلم إلا الله متى تنفجر!

الأهمية التربوية لقصص الخ

كمال فداوين

تعد قصص الخيال العلمي ظاهرة أدبية جديدة، أفرزتها حركة التقدم العلمي والتقني (التكنولوجي)، ومختلف التغييرات السياسية والاقتصادية المعاصرة، وترمي هذه القصص إلى محاولة التنبؤ بمستقبل البشر والكون، لذلك فهي تُسَمَّى أحيانًا قصص المستقبل أو قصص التنبؤ. وتختلف قصص الخيال العلمي عن الأساطير والخرافات في بعض الجوانب، مع أنها تلتقي معها في بعض الجوانب الأخرى.

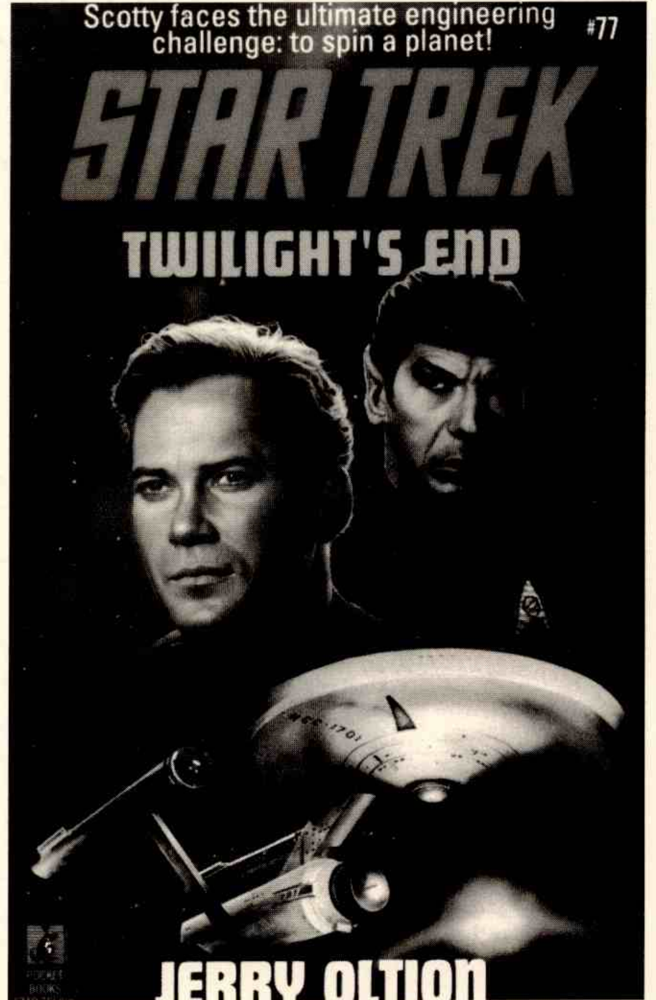
فقصص الخيال العلمي تعتمد، بعكس الأساطير والخرافات، نظريات علمية، وتطرق موضوعات علمية، وتستخدم وسائل علمية، بخلاف الأساطير التي عادة ما تَرِدُ فيها الموضوعات أو الوسائل العلمية، إن وُجِدَتْ، عفوية، كما أن الأساطير كانت تؤدي - في الغالب - وظيفة اجتماعية مهمة في تعبيرها عن عقيدة الإنسان وعن إنسانيته، بخلاف الخيال العلمي الذي لا يؤمن إطلاقًا بهذه الوظيفة.

إن أدب الخيال العلمي يتخذ موضوعاته من الظواهر العلمية وتوقعاتها المستقبلية، ويرمي إلى اقتراح فروض واقعية عن مستقبل الكون والإنسان، ولا يَرْمي إلى إيصال معلومات علمية معينة، بل يَسْعَى إلى إشباع مخيلات جمهور القراء، وفي مقدمتهم جمهور الأطفال، وإلى دفع عقولهم إلى التفكير والتساؤل والحيرة. ولعل أكثرنا يعرف قصة العالم الألماني هرمان أوبرت الذي قرأ رواية جول فيرن «من الأرض إلى القمر»، فأثار خياله ما في القصة من غرائب وكواكب وقذائف في عالم الفضاء، وتساءل: «هل يمكن أن يحدث هذا» فأجابته أمه: «كل الأعمال الكبيرة تبدأ بالأحلام، ثم يسعى الناس لتحقيقها». ومنذ ذلك الوقت شغلته قضية التحرر من الجاذبية وصنع المدفع الذي أطلق قذيفة جول فيرن نحو القمر، ست عشرة سنة إلى أن تمكن من وضع مخطوط في هذا المجال كان السبب في إطلاق أول الأقمار الصناعية حول الأرض سنة 1957م(1).

تداخل الحلم والواقع

إن الأحلام والأفكار والرؤى والخيالات التي ترد في قصص الخيال العلمي ما هي في الحقيقة سوى أحلام الإنسان الكبرى التي يسعى الناس لتحقيقها وتجسيدها عبر الزمن، فَهْيَ تُعَبِّرُ عن واقع آخر نفسي غير الواقع المعيش الذي نعرفه، وبذلك يتداخل الحلم والواقع في تناغم عجيب، إلى حَدٍّ إذَابة جميع الحدود والفواصل بينهما، فيصبح الواقع حلمًا والحلم واقعًا؛ لأن أيّ خيال في أي عصر ينطلق أساسًا من واقع الحياة دون سواها. ومثلما وُجِدَ بالأمس في قصص الأطفال نوع من الخيال مستوحى من الخرافات الشعبية وقصص التراث، ومنقول عن الخرافات والأساطير العالمية، فقد وُجِدَ اليوم نوع جديد من الخيال يتناسب مع واقع عصرنا ومنجزاته العلمية والتقنية، إذ لم يعد الطفل مكتفيًا بمخاطبة الحيوانات والنباتات فحسب، بل أصبح يخاطب الصاروخ والسيارة والآلات والأشياء الفنية، وهي أشكال جديدة أوجدتها حضارة عصره، وهو يحاول أن يَأْلَفَهَا وأن يتعامل معها، وأن يشعر بالأمان حيالها. كَمَا تطور المكان الخيالي الذي تدور فيه الأحداث في القصة في عصرنا الحديث، وعوَّضت الأطباقُ الطائرة والفضاء والكواكب، الجزيرةَ والمركبَ والأدغال. إن الأطفال يُولُونَ اهتمامًا متزايدًا ما يتصل بعالم الفضاء، والغرائب والمغامرات العجيبة، وارتياد عالم الخيال ومجاهله مهما شطَّت وابتعدت ونَأَتْ، ويُعجبون بالتركيب غير المألوف للأحداث والأشياء في قصص الخيال العلمي، وبتحرك الشخص والأبطال في هذا العالم الغريب، وحتى ببعض الجزئيات والمتممات الفنية في القصة كتلك الملابس العجيبة التي يرتديها رواد الفضاء، أو أهل الكواكب الأخرى، أو أصحاب الأطباق الطائرة الذين يقومون من حين لآخر بزيارات خاطفة لكوكبنا، كما تبهرهم الأضواء والأصوات التي تنبعث من تلك المركبات والعوالم وطريقة تعاملها وتخاطبها مع البشر؛ مما يحقق لدى الطفل رغبته في ارتياد عالم الخيال لإشباع مخيلته ولتنمية قدرته على التخيل وعلى المرونة، وتعويد عقله الصغير التفكير والتأمل، وتهيئة الفرص له للبحث والافتراض، «واصطناع روابط واستخراج النتائج»(2).

ـيـال العلمي للأطفال



«ستار ترك».. واحدة من أشهر قصص الخيال العلمي في بلاد الغرب

إثارة الخيال من مقاصد التربية

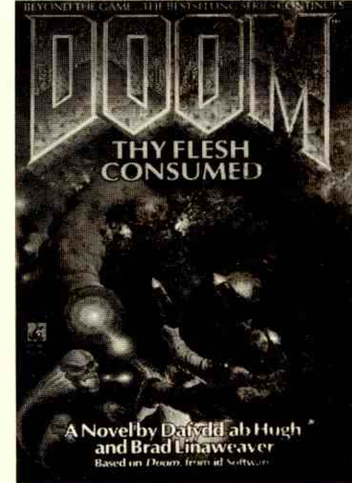
إن قصص الخيال العلمي من أهم العوامل التي تثير خيال الأطفال، وتنمي قدراتهم العقلية، أو تدربهم على مواجهة المشكلات، أو على حلها من طريق استخدام العقل والفكر، وهذه هي أبرز أهداف التربية السلوكية للأطفال التي ترمي إلى استبعاد القوة البدنية ونبذ العنف والتعصب، وإلى إعْمَالِ الرأي في مواجهة الصعوبات والمشكلات مهما بلغت حدتها ودرجة تأزمها. غير أن بعض التفسيرات الخيالية للحقائق العلمية التي ترد في بعض قصص الخيال قد تضر الطفل أكثر مما تنفعه وتعود به إلى الخلف؛ لأنها تقدم له هذه الحقائق مشوهة خرافية وباطلة، تجعله يعيش في دوامة من الأوهام بدلاً من العمل على تقريب المفاهيم العلمية وتَبْسيطهَا لهُ والانطلاق به من مجال ضيِّق إلى مجال أوسع وأفق أرحب يعمل فيه العقل، ويتوق إلى إمكانات أكبر غير التي توصل إليها العلم في عصرنا الحاضر، كإمكان عيش الإنسان في قِيعَانِ البحار والمحيطات، وفي مَجاهل الفضاء، وكتسخير مبتكرات صناعية لخدمة الإنسان، وغير ذلك من التصورات التي قد يتيحها العقل البشري، أويتفتق عنها ذهن الإنسان. ذلك أن «الخيال العلمي المستند إلى العلم وحقائقه مقبول، ولكن العلم الخيالي المستند إلى الأوهام غير مقبول؛ لأنه ليس علمًا على الإطلاق»(3)، ولأن الأوهام لن تصنع جيل المستقبل الذي نعول عليه ليمسك بناصية العلم والتقدم التقني (التكنولوجي) اللّذَينِ هما أساس كل تقدم بشري.

وهناك اتجاه آخر بخصوص نوعية أدب الخيال العلمي الذي يرى بعضهم ضرورة الاقتصار على تقديمه للأطفال، و«أصحاب هذا الرأي يفضلون الحقائق العلمية على الخيال، ويرون أن الواقع أروع من التخيل»(4). وَفي هذا الإطار برز في السنوات الأخيرة لدى عديد من المكتبات والمطابع ودور النشر الكثير من السلاسل الإبداعية العلمية في هذا المجال تقدِّم للأطفال معلومات ومعارف مبسطة تتصل بعالم الكواكب والفضَاء والبحار والمحيطات، وبالحيوانات والغابات والمناطق الجغرافية في العالم، وهي تتسم بإخراج جَيِّد وطباعة أنيقة، وهذه الكتب تنمي - من دون شَك - معارف الأطفال وتشدّهم لواقعهم، وتعرّفهم بيئتَهم ومحيطهم القريب والبعيد، وتحدد موقعهم من العالم الواسع الكبير. وإن المكتبة العربية تبقى دوما بحاجة إلى مثل هذه الجهود وهذه التآليف القيمة التي ينبغي أن تتضافر الجهود لدعمها، غير أن الذي يمكن ملاحظته في هذا المجال هو أننا لا يمكن أن نطلق صفة قصص الخيال أو أدب الخيال على مثل هذه النتاجات الثقافية والفكرية؛ لأنها تفتقر لأبسط مقومات وقواعد القصة التي تعتمد على الحدث والحركة والحوار والمواجهة، وإنما يمكن أن تشكل مصدرًا مهمًا من مصادر ثقافة الأطفال وتعليمهم، لأن تقديم المعلومات والمعارف العلمية والتعليمية، ولو بشيء من التبسيط والاختصار والإخراج الجيد المناسب، لا يمكن أن يُعدّ أدبًا بأي حال من الأحوال.

قصص للتعليم أم لاستلاب العقول؟!

ولئن أطنبنا في القول في تبيان الأهمية التربوية لقصص الخيال العلمي للأطفال، وفي الإشادة بدورها التربوي في تنمية مخيلاتهم وتعويد عقولهم البحث والتفكير، وهي كلها أهداف يدعو إلى تحقيقها المربون والمؤلفون، فإن ذلك لا يعني أننا لا نَعْدَمُ في بَعْضهَا أحيانًا، وخاصة في الأجنبية المستوردة منها على إقبال الأطفال عليها، عديدًا من المآخذ التي تُلحق الضرر بالأطفال، ذلك أنها تعمل على استلاب الطفل العربي، وتلغي قيمة الإنسان العادي، وتجره للحلول الهروبية والانهزامية، وتدفع الأطفال إلى محاكاة أبطال لا وجود لهم في

الأهمية التربوية لقصص الخيال العلمي للأطفال



واحدة من قصص الخيال العلمي التي تمزج بين العلم والخرافة

الواقع، إضافة إلى مظاهر العنف والإجرام الجنوني والأعمال الخارقة للطبيعة البشرية، وإلى إمكان اندماج الأطفال السريع مع أبطال هذه القصص وتقمص أدوارهم وتأثرهم بهم، وإن التقمص في حدٍّ ذاته، هو عملية لا شعورية، يتبنى فيها الطفل - لا شعوريًا - صفات البطل الذي يكنّ له الإعجاب أو الحب أو التقدير، بقطع النظر عن تلك الصفات سواء أكانت سلبية أم إيجابية، وقد لا يكون التقمص دائمًا سلبيًّا، بل قد يكون مجديًا في عديد من الحالات، لأنه يُكسب الطفل أنماط السلوك المختلفة والكثير من العادات والتقاليد والقيم المرغوب فيها، لذا وجب اختيار أبطال القصص التي نقدمها للأطفال ممن تتوافر فيهم الخصائص الأخلاقية والسلوكية التي تتماشى مع أهداف التربية، وتؤكد الجوانب القيمة في نفوس الأطفال. وَقَدْ تكون بَعْضُ أنماط التقمص الأخرى ضارة، بل بالغة الخطورة على الطفل، إذ تنتج منها آثار عاجلة أو آجلة بحسب درجة التقمص والتأثر، وبحسب شخصية البطل وسماتها ودرجة تأصل نزعة الشر فيها، ويندرج في هذا الإطار قصص القراصنة والمخبرين والمجرمين، وقصص الرجل الخارق للعادة «السوبرمان»، وقصص الوقائع العنيفة والحروب الدامية والمعارك الطاحنة.

إن الأطفال ينبهرون بمثل هذه القصص المحببة إلى قلوبهم وبسرعة تلاحق الأحداث فيها وبالحركة والمؤثرات، ويتأثرون بصفات ذلك البطل الذي يستثير لديهم دوافع العنف والتعصب والعدوان، كما تؤدي بهم هذه القصص إلى فهم مجتمعهم والمجتمعات الأخرى فَهْمًا خاطئًا(5) وتخلق منهم أناسًا شواذًّ غير سَوِيِّين، لأن البطل فيها هو الذي يأتي بالمعجزات، وهو شخصية غير إنسانية عادة، لا يعيش كسائر البشر، ولا يحمل همومهم، وهو بطل صامد على الدوام، لا يُقهر، ولا يُغلب، ولا يهرم، ولا يموت، إضافة إلى أن أغلب الأحداث في هذه القصص، تقوم على المصادفة والمفاجآت والمعجزات، وليس لها تعليلات منطقية أو أسباب موضوعية، وهي «تلجأ إلى تبسيط الشخصيات، بحيث تجعل بعضها ممثلاً للخير المطلق، وبعضها للشر المطلق، على الرغم من مخالفة هذا طبيعة البشر»(6).

لقد نبهت اليونسكو في تقريرها عن جمهور الأطفال الذي كتبه فيليب بوشار وترجمه إلى العربية محمد أنور الحناوي إلى خطورة الرجل الخارق للطبيعة في قصص الغزو الأجنبي، وحذر الكاتب من أسطورة هذا البطل، ودعا إلى مواجهتها فكريًا وفنيًا، كما أوصى بضرورة اختفاء هذه النماذج الخارقة غير الإنسانية (شخصيات الإنسان الآلي) لتحل محلها مخلوقات إنسانية معقولة قريبة إلى الواقع(7).

السينما والتلفاز أوسع تأثيراً

أما الخيال العلمي في السينما والتلفاز فهو يعد أكثر تأثيرًا من الناحيتين السلبية والإيجابية من سواه في قصص ومجلات الأطفال، نظرًا للدور المهم الذي أصبحت تؤديه الوسائل السمعية والبصرية في عصرنا اليوم في التبليغ والإيصال، ونظرًا لإمكانات الإخراج الواسعة والخدع السينمائية والمؤثرات المختبرية وما تمتلكه من فنيات عالية في الصوت والصورة، ومن سرعة حركة الأحداث وتلاحقها. وقد تخصصت في إنتاج هذا النوع من الأشرطة عديد من شركات الإنتاج، فلاقت نجاحًا منقطع النظير، حيث استطاعت أن تستقطب جماهير الأطفال في كل مكان من العالم، وقد حملت إحدى الصحف في الأسبوع الأول من عام 1983م خبرًا يقول: «في ستوكهولم قامت أول مظاهرة من نوعها للأطفال، فقد تجمَّعوا أمام إحدى دور السينما احتجاجًا على قرار الرقابة بمنع دخول الأطفال الذين تقل أعمارهم عن 11 سنة لمشاهدة أحد أفلام الخيال العلمي؛ لأنه مملوء بكثير من مناظر العنف، وتدور أحداثه حول مخلوق عجيب على شكل طفل»(8).

أما الخيال العلمي في بعض وسائط ثقافة الأطفال الأخرى كالشعر والمسرح وغيرهما، فيكاد لا يُذْكَرُ له شأن، نظرًا لنُدْرة حضوره في مثل هذه الأجناس الثقافية مما لَا يسمح لنا البتة بالوقوف عنده والتعرض له بالنقد والبحث والدراسة.

وخلاصة القول إننا نريد لطفلنا العربي أدبًا علميًّا، يرمي إلى صنع أفضل للإنسان العربي، هذا الإنسان الذي نريده فاعلاً مبدعًا قادرًا على مواجهة التحديات، مشدودًا لواقعه في غير انبتات، حاملاً للفكر العلمي النقدي وسباقًا إلى التعلق بأسباب العلم والتقدم التقني (التكنولوجي).

وإنه لجدير بكتابنا ومبدعينا ومؤلفينا المتوجهين للأطفال تكثيف جهودهم الإبداعية في هذا المجال لتحقيق ما نصبو إليه، كما أنه لَحَرِيٌّ بالهيئات الإقليمية المتفرعة من منظمة اليونسكو أو الجامعة العربية وبوزارات الثقافة والإرشاد والإعلام وسائر الجهات والاتحادات المهتمة بثقافة الطفل في الوطن العربي، أن تتبنى الاهتمام والتمويل لبعض المشروعات الثقافية المهمة لتأليف الكتب والسلاسل الإبداعية والموسوعات العلمية في هذا المجال، وأن تنجز العديد من الأفكار والطموحات والتصورات عبر سائر وسائط ثقافة الأطفال باختلاف وسائلها وإمكاناتها وأهدافها.

الهوامش:

1- يعقوب الشاروني: «الآثار السلبية لكتب الأطفال المترجمة»، مجلة العربي، العدد 359، السنة 1988م.

2- المصدر السابق.

3- أحمد نجيب: «المضمون في أدب الأطفال»، دار الفكر العربي، القاهرة 1979م.

4-5- عبدالبديع عبدالله: «رحلة في عقل الطفل العربي»، مجلة الفيصل، نيسان/أبريل 1979م.

6-7- أحمد محمد عطية: مجلة العربي، العدد 248، تموز/يوليو 1979م.

8- د. هاني نعمان الهيتي: «ثقافة الأطفال»، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مارس 1988م. م.

من أشهر المدارس الإسلامية القديمة

3

إعداد: الزبير مهداد



المدرسة الضيائية المحاسنية

بدمشق، بناها محاسن بن عبدالله بن علي بن نجا التنوخي الحموي ثم الدمشقي الصالحي أبو إبراهيم ضياء الدين الفقيه الحنفي المتوفى عام 643هـ. وقد وقف هذه المدرسة على الحنابلة.



مدرسة الطالعة

بسلا، بناها السلطان أبو الحسن المريني عام 733هـ، وتم البناء عام 742هـ. وهي غير بعيدة من المسجد الأعظم، وكان بظاهرها سقاية ماء. ويوجد داخل الفناء بيت الصلاة، وبها أربعة وعشرون غرفة لإقامة الطلبة موزعة بين طابقين، تُعدّ هذه المدرسة من روائع الفن المعماري المريني. عين لها أوقافًا كثيرة للإنفاق على المدرسين والطلبة. بهذه المدرسة استقبل شعراء البلاد الوزير الأديب ابن الخطيب السلماني حين نزل بها. كانت المدرسة تعقد فيها دروس في مختلف العلوم والفنون الشرعية والأدبية والفلسفية وغيرها.



المدرسة الظاهرية

1- **المدرسة الظاهرية بالقاهرة:** بناها الظاهر برقوق بين القصرين بجوار المدرسة الكاملية، فجاءت في نهاية الحسن والعظمة، وجعل فيها خطبة وقرر لها صوفية على عادة الخوانق ودروسا للأئمة.

2 - **المدرسة الظاهرية بالقاهرة أيضا:** بناها الظاهر بيبرس بين القصرين، بجوار المدرسة الصالحية، سنة 662هـ. وكانت مكونة من أربعة أواوين. خصص الإيوان القبلي للشافعية والبحري للحنفية والشرقي لدراسة الحديث والغربي للقراءات السبع. وجعل بها خزانة كتب كبيرة، وبنى بجانبها ميتما لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله وقرر لهم الخبز والكسوة، كما أنشأ بها مساكن للطلبة والأساتذة. وتعرف هذه المدرسة اليوم بجامع مظهر.



المدرسة العادلية الكبرى

بدمشق، شمال غربي الجامع الأموي، شيدها الملك العادل سيد الدين أبو بكر محمد بن أيوب، وشرع في بنائها عام 612هـ وأتم البناء ابنه. تضم المدرسة غرفا للمدرسين وأخرى للتلاميذ. أصبحت مقرا للمتحف الوطني في دمشق، ثم مقرا للمجمع العلمي العربي قبل انتقاله إلى مقره الجديد.

المدرسة العصرونية

بالقاهرة، أنشأها قاضي القضاة شرف الدين أبو سعيد عبدالله بن محمد بن أبي عصرون المتوفى عام 585هـ.

مدرسة العطارين

بفاس، وتسمى المدرسة العظمى أيضا. بنيت عام 723هـ، في عهد أبي سعيد عثمان على يد الشيخ عبدالله بن القاسم المزوار. حضر السلطان أبو سعيد وضع الحجر الأساسي لبنائها واشترى لها عددا من العمارات، وكان بها ما بين 30 و 50 غرفة لإقامة الطلبة، وكان بها أساتذة نظاميون.

المدرسة العظمى

بالقاهرة، بناها الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون تحت القلعة، وهي التي لم يُسبق إلى مثلها ولا سُمع في مصر من الأمصار بنظيرها، ويقال إن إيوانها يزيد في القدر على إيوان كسرى بأذرع، وتتألف من أربعة مدارس بعدد المذاهب الفقهية الأربعة، وتعرف اليوم باسم جامع السلطان حسن.

المدرسة العمرية الشيخية

بدمشق، أنشأها الشيخ المجاهد أبو عمر أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي. شرع في بنائها عام 603هـ بعد بناء جامع الحنابلة. وتقع هذه المدرسة في الصالحية جنوب جامع

الحنابلة. وأوقفها على علوم القرآن، ثم أصبحت تدرس فيها جميع العلوم.

عرفت المدرسة توسعات وإصلاحات وزيادات في بنائها، حتى أصبحت تضم 360 غرفة تستوعب 500 طالب علم. فيها قسم لتعليم العميان وآخر لتعليم الصبيان. كانت بها مكتبة كبيرة استخدامها مباح للجميع، وأوقاف كثيرة. وكانت تفتح مطابخها للناس في رمضان.



المدرسة الغادرية

بالقدس، شمالي ساحة الحرم، عمرتها زوجة الأمير ناصر الدين محمد بن دي الغادر شمالي ساحة الحرم سنة 836هـ.

كانت مشروطة للترك الأفاقية من الأروام وغيرهم من الترك القاطنين في القدس، وسكنها كان مشروطا للشيخ بها أو للناظر في أوقافها. وهي اليوم شبه أنقاض. فيها بقية من غرفة كانت تحفظ فيها نعوش الأموات. من أوقافها خان الغادرية بسوق القطانين.

المدرسة الغزالية

أو النصرية بالقدس. أسست في عهد نورالدين محمود زنكي، واهتم صلاح الدين بإصلاحها، وجعل قرية حزم من أعمال حوران وقفا عليها وعلى المشتغلين بها في العلوم الشرعية. وجعل النظر والتدريس فيها لقطب الدين مسعود النيسابوري الشافعي.

تعرف بالغزالية نسبة لأبي حامد الغزالي الذي اعتكف فيها وأتم بها كتابه إحياء علوم الدين. أصبحت زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو.

مدرسة الغوري

مدرسة ومسجد الغوري بالقاهرة، أنشأه السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري عام 911، يتكون من مكتب وخانقاه ومدفن ومقعد.

يقع مدخل المدرسة في الجهة الشرقية، يقابله التربة والخانقاه.

مدرسة غياث الدين

بمكة المكرمة، بناها سلطان البنغال غياث الدين بجوار دار أم هانئ، لتدريس المذاهب الأربعة.



المدرسة الفارسية

بجوار المسجد الأقصى، منسوبة لوقف المدرسة الفارسية التي شرقي المسجد، وقفها الأمير فارس البكي، وهي عامرة، فيها دار كتب المسجد الأقصى. من أوقافها أراضي قرية الشوكية قضاء نابلس.



مدرسة قايتباي

1ـ **مدرسة قايتباي بمكة المكرمة قرب المسجد النبوي:** بناها السلطان قايتباي، كانت في الأصل دار للشريفة شمسية من بني حسن. اشتراها وكيل السلطان قايتباي في مكة. وكانت لتدريس المذاهب الأربعة ورباطا لسكنى الفقراء، بها 72 خلوة للأيتام. وألحق بها مكتبا لتعليم الصبيان اليتامى، وخصص للفقراء ما يكفيهم من القمح. وأوقف عليها بعض الدور بمكة المكرمة وبعض القرى والضياع بمصر للإنفاق عليها. أدخل الشيخ محمد بن سليمان المغربي ـ خلال توليته إمارة مكة ـ تعديلات كثيرة على نظمها واستبدل بدرس الحنفية درس الحديث.

2 ـ **مدرسة قايتباي بالقاهرة:** تُكَوِّن مع ملحقاتها من سبيل ومكتب والتربة والجامع مجموعة نادرة من المباني. أنشأهاالسلطان الأشرف أبو النصر قايتباي عام 880هـ.



مدرسة الكرامين

بتازموت ضاحية تارودانت بسوس المغرب، وتسمى مدرسة تازموت، أحيا الدراسة بها عبدالله بن يعقوب، ولعل أول من جلس للتدريس فيها إبراهيم بن سعيد الكرامي المتوفى عام 927هـ.



مدرسة لوقاش

مدرسة وجامع لوقاش بالغرسة الكبيرة بتطوان، بها سكنى للطلبة. وما زال المسجد والمدرسة المعروفين بهذا الاسم قائمين إلى اليوم.



المدرسة المؤيدية

بالقاهرة، مدرسة وجامع وخانقاه، أنشأها «المؤيد شيخ» قرب باب زويلة. شرع في بنائها عام 808هـ مكان خزانة شمائل حيث سجن ذات مرة، وكان تخطيط المدرسة والجامع هو أحد حلقات التطور المعماري في مصر المملوكية، افتتحها عام 822هـ في احتفال كبير، وأوصى عند موته بمبلغ ثمانين ألف دينار تصرف في مصالح المدرسة. قبره موجود بها.

المدرسة الماردينية

تقع بدمشق في حي الصالحية. أنشأتها عزيزةالدين خاتون، زوجة السلطان الملك المعظم عيسى بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين عام 610هـ. بها مسجد ذو مئذنة صغيرة. أصبحت الآن مسجدا.

المدرسة المحمودية

المدرسة المحمودية بالمدينة المنورة، أنشأها السلطان محمود خان عام 1237هـ، وزودها بنفائس الكتب. تجدد بناؤها عام 1287هـ وزيد فيها الكثير من الغرف الدراسية. وكانت من أحسن المدارس تنظيما ورونقا.

مدرسة مراد باشا

بالقدس، أسسها مراد باشا، دفتر دار خزينة دمشق في أواسط القرن الحادي عشر، خلال الحكم العثماني

المدرسة المصباحية

بفاس، من بناء أبي الحسن، وتحمل اسم أول

أساتذتها وهو أبو الضياء مصباح بن عبدالله اليصلوتي. وكان اسمها مدرسة الرخام. وبها 117حجرة، وتشتمل على ثلاث طبقات زيادة على السفلى، ولها ثلاثة أبواب.

المدرسة المعزّية

بالقاهرة، بناها السلطان الملك المعز أيبك التركماني، أول ملوك الترك. بناها برحبة الخروب سنة 654هـ.

مدرسة الملاحة

بالرباط، بنيت أيام الموحدين بجوار القصبة، وهي المعروفة في وقتنا الحاضر بالمدرسة. اتخذها الأندلسيون فيما بعد لتعليم فن الرماية والملاحة وباقي الفنون الحربية.

المدرسة المنتصرية

1ـ المدرسة المنتصرية بتونس، قرب جامع الزيتونة: وهي أول مدرسة تنشأ باسم أمير حفصي. شرع الأمير الحفصي محمد المنتصر (ت 833 هـ) في بنائها عام 832هـ، وأكملها بعده سلفه السلطان أبو عمرو عثمان، وأوقف عليها فكملت سنة 841هـ.

2 ـ المدرسة المنتصرية بطرابلس: نسبة إلى السلطان الحفصي أبي عبدالله محمد المنتصر الذي حكم من 647 إلى 675هـ. وأنشأ المدرسة ما بين 655 و 658هـ. ولعلها المدرسة التي زارها الرحالتان التجاني وابن رشيد السبتي.

المدرسة المنصورية

بالقاهرة، بناها المنصور قلاوون من داخل بيمارستانه، وأتمها مع البيمارستان والقبة عام 648هـ. وكان يلقى بهذه المدرسة إلى جانب الدروس الدينية درس في الطب، وكان الطلبة يتلقونه نظريا في المدرسة وعمليا في المستشفى بجانبها. وتقع اليوم بشارع المعز لدين الله فيما بين القصرين. يشغل مساحة كبيرة منها مستشفى قلاوون للرمد.

المدرسة الميمونية

بالقدس، قرب باب الساهرة من داخل السور. وقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون القصري خازن دار صلاح الدين الأيوبي سنة 593هـ. وهي اليوم مدرسة للتعليم الثانوي، رغم أن مبناها الأصلي اندثر منذ زمان. كانت تتألف من أربعة أواوين.

مدرسة المواسين

مدرسة المواسين بمراكش، بناها الملك السعدي مولى عبدالله بين عامي 970 و 980هـ.

المدرسة النحوية

بالقدس، أنشأها الملك المعظم عيسى سنة 604هـ. كان يدرس فيها الكتاب لسيبوية.

المدرسة النصرية

1ـ المدرسة النصرية بالقدس: انظر الغزالية.

2 ـ المدرسة النصرية بغرناطة: تعرف باسم المدرسة، هي بكر المدارس على تعبير ابن الخطيب . أنشئت عام 750، في حضرة السلطان يوسف النصري أبي الحجاج، بمبادرة من رضوان النصري الحاجب.



المدرسة الواثقية

في زبيد ، بنتها الأميرة ماء السماء بنت السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي (ت 724هـ)، وأنفقت على بنائها مبلغا كبيراً ووقفت عليها أوقافا صالحة من أملاكها.

مدرسة ويجان

بسوس المغرب، في أكدير أوفلا بويجان، إحدى قرى بعقلية العريقة في العلم والصلاح. والمدرسة دَرَّسَ فيها الفقيه عبد الرحمن بن موسى المسكدادي الوجائي.



المدرسة اليعقوبية

بتلمسان، بناها أبو حمو موسى بن يوسف الثاني من أمراء الدولة الزيانية. على ضريح والده أبي يعقوب بقرية العباد نحو عام 756هـ. وعين للتدريس فيها أبا عبدالله محمد بن أحمد الشريف العلوي الحسني. وكان افتتاح الدرس بها في اليوم الخامس من صفر من السنة نفسها. وحضر الأمير نفسه الافتتاح. أورد الأستاذ المحقق عبدالوهاب بن منصور صورا لها في كتاب روضة النسرين في دولة بني مرين، وذكر أن المدرسة هي من إنشاء بني مرين.

المدرسة اليوسفية

بغرناطة، ذكرها المقري في نفح الطيب، ولعلها النصرية.

المراجع:

الكتب:

إسماعيل بن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين. تحقيق: عبدالوهاب بن منصور. الرباط، القصر الملكي، 1962م.

حجي، محمد: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. الرباط، الدار المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1978م.

حركات، محمد: المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984م.

الزركلي، خير الدين: الأعلام. بيروت، دار العلم للملايين، 1986م.

الساعي، أحمد: تاريخ مكة. مكة المكرمة، نادي مكة الأدبي، 1979م.

السويسي، عبدالله: تاريخ رباط الفتح، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1979م.

الضعيف، محمد الرباطي: تاريخ الضعيف، تحقيق وتعليق: أحمد العماري. الرباط، دار المأثورات 1986م.

العيني، بدر الدين: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق وتعليق: عبدالرزاق الطنطاوي القرموط. القاهرة، الزهراء للإعلام 1989م.

القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين. بيروت، دار الكتب العلمية 1987م.

الماحي، علي حامد: المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني. الدار البيضاء، دار النشر المغربية 1986م.

مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية الميسرة. بيروت، دار نهضة لبنان 1986.

الوزان، الحسن بن محمد (ليون الإفريقي) وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. بيروت، دار الغرب الإسلامي 1983م.

يوسف، شريف: المدخل لتاريخ العمارة العربية والإسلامية وتطورها. بغداد، دار الرشيد للنشر 1980م. سلسلة الموسوعة الصغيرة 67.

الدوريات:

الأنصاري، ناجي محمد حسن: مجلة المنهل، جدة، عدد 499 [1413] ص128.

بنعبدالله، محمد: مجلة دعوة الحق، الرباط، عدد 270 [1408] ص 229.

تاجا، وحيد، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، عدد 357 [1416] ص 20.

حجي، محمد: مجلة المناهل، الرباط، عدد 26 [1980].

شراب، محمد حسن: مجلة المنهل، جدة، عدد 467 [1409] ص 69.

العسلي، كامل جمال: المجلة العربية للثقافة، تونس، عدد 2 [1402] ص 99.

غرايب، محمد الرحيل: المجلة العربية للثقافة، تونس، عدد 26 [1414] ص 187.

القاضي، وداد: مجلة الفكر العربي، عدد 21 [1981] ص 61.

معنينو، أحمد: مجلة الفنون، الرباط، ديسمبر 1977م ص 111.

جحا والمسمار

محمد جميل فضلية

لم تكن شهرتي من اسمي. إنما من الأدوار التي أديتها حقيقة في حياتي، والمزعومة بعد مماتي. أسبلوا علي أوصافًا لم أكن أتحلّى بها، حميدة كانت أو سيئة. ومنحوني هويات لا علم لي بها. وحمّلوني ألقابًا لم أحملها أبدا. وأصبحتُ نموذجا للدهاء مرة وللغباء والغفلة مرة أخرى، وللحكمة الظريفة مرات.

ومن تجنيهم وتهكمهم، أن جعلوا لي صديقًا بريئًا هو الحمار. وأصبح اسمي مقترنًا باسمه إلى الأبد. وهكذا تكنيت بحمار..

كانت الدواب وسيلة انتقال في الماضي. فعلا كان عندي حمار.. ولكني وحدي من اختص وتفرّد بصداقة الحمير.. وهذا ظلم وتجاوز لحدود اللياقة والاعتبار.

إذا قلت: اسمي جحا.. يقولون فورًا: جحا وحماره.. لقد تخلصت منه وبعته. ولكن ما الفائدة؟ لقد ارتبطنا، ولا فكاك من هذا الحسب والنسب.

أما المسمار، أي قصة مسمار جحا، فهذه قصة أخرى. ليس فيها إهانة، إنما فيها أوجاع. لقد مضى على موتي مئات السنين، واسمي مصلوب على جدار بهذا المسمار. أنا الآن في العالم الآخر أنتظر يوم الحق والدين، أدعو الله من كل قلبي، ألا يكون المسمار والحمار رفيقي يوم القيامة.

قصة المسمار ليست مضحكة، ولا للتفكه، فهي حقيقة مثلي. كان اسمي: الخوجة نصرالدين جحا. كان المسمار مدقوقًا في أحد جدران بيتي، وأصبح مشهورًا أيضا مثل حماري.

ولكن العابثين المحبين للهزل عكسوها. أسموها: مسمار جحا.. والحق أن تسمى: جحا والمسمار. وإليكم القصة: اسمعوها وأمعنوا النظر في مقاصدها. إنها طرفة الطرف وعبرة لمن خلف..

كنت أسكن في إحدى المدن التابعة لإحدى الولايات، ولا يهم إن كانت في شرق البلاد أو غربها. المهم أنها على الخريطة..

كنت أملك قطعة أرض ورثتها عن أبي. تقع خارج المدينة. لقد بنى والدي غرفة عليها، يمكن السكن فيها. قررت أن أعيش في هذه الأرض. وقد تعبت من السفر والترحال والطواف في البلاد. ويعلم أهل ذلك الزمان أني صاحب علم ودين وأدب، وكان علمي نحسًا علي وأدبي شؤمًا. أما تقواي فكانت سببًا في خلاصي من الأزمات، وحصنًا في الملمات.

وغرابتي التي تميزت بها في نظر الناس، سببها أني لم أداهن، ولم أتملق.. ولم أخضع لأي سلطان إلا بالحق. وتنقلي في البلدان كان سببه الجور والتعسف والجهل والاعتداء من بعض الولاة. وأنا أعترف أن غرابتي من استقامتي وجهري بالحق.. وتكسرت مرارا من هذا اليباس..

كنت أزرع الأرض وأعيش على محصولها. خضرًا وبقولاً وغيرها. وتفرغت للأرض بعد أن يئست من تفرغي لتعليم الناس.

كنت أتردد على بعض الأصدقاء في المدينة وأزورهم، وكنت عند أصدقائي محل إعزاز واحترام. فاقترح عليّ أحدهم أن أبيع الأرض، وأشتري بثمنها بيتا في المدينة أجعل منه مسكنًا ومتجرًا.

اقتنعت بالفكرة. بعت الأرض، واشتريت بيتًا. فاستقرت أحوالي بعد أن كانت الأسفار والأخطار قد هدت كياني. لكن الهناءة لا تدوم لأحد، والأحوال تتبدل بتبدل الرياح على السفن.

عند شراء البيت وقعت في خطأ فادح، سببه طيبتي وحسن ظني بالناس، وبعضهم يحسب الطيبة غفلة وقلة إدراك.

اشترط عليّ البائع، أن له الحق في دخول البيت ليتفقد المسمار المدقوق في الجدار، في أي وقت يشاء. ولا يحق للمشتري أن ينتزع المسمار من مكانه.

والحقيقة، كان قبولي هذين الشرطين عين الغفلة. والذي أعمى قلبي موقع البيت وسط المدينة. كان البائع يزور المسمار مرة واحدة في اليوم ويرحل.. وكان أحيانا يبكي تحت المسمار. واستمر الحال على ذلك أياما عديدة، تارة يأتي في الليل وتارة قبل طلوع الشمس.

ثم زادت الزيارات اليومية، حتى ضاق صدري وخفت أن أنفجر..

قلت له يوما: أليس لك عمل يشغلك إلا هذا المسمار، كنت تزوره مرة واحدة في اليوم فسكتنا احتراما للشرط بيننا، ثم زاد عدد الزيارات.

إذا كنت تظن أنني سأنزعج، وأترك البيت، فلا تضع هذا في حسابك، ولا تظن أنني مغفل.

أنا أعرف مقاصدك ونواياك. ثم إني أسألك: لماذا البكاء؟

قال البائع: إن قصتي مع هذا المسمار سر من أسرار الأسرة. كان البيت لجدي بالوراثة، ثم ورثه أبي عن جدي، وورثته أنا عن أبي. إننا نعتبر هذا البيت إرثا تاريخيا. جدنا الأكبر هو الذي دق المسمار وأوصى بعدم نزعه من الجدار. هكذا توارثنا البيت والوصية.

إنني أبكي لأن ولدي لن يرث البيت بعدي.. وبذلك يصيبنا الغضب الأكبر، وتحل بنا الكوارث والمذلات.

قلت: ما دخلي أنا في غضب جدك أو رضاه. اشتريتُ البيت منك وانتهى حقك فيه. اعلم يا هذا، أن البيت أصبح ملكي. وكنت متسامحًا معك، فقد كنت أظنك مغفلاً، مسكينًا. قبلتُ بشروطك تسهيلاً للأمور. وقلت دعه يزور المسمار حتى ينفلق فلابد أن يضجر يوما..

اسمع: إن الثعالب بكت قبلك. لقد ضجرت منك، وضاق صدري. لا تأمل أن أترك البيت وأهرب. أنا باق هنا إلى الأبد..

ليس بعيدًا ذلك اليوم الذي أقطع فيه ذيلك أيها الثعلب وأضعه في فمك. سأملأ عينيك يومًا بالدموع الحقيقية. يا دجال.. يا ابن الدجالين..

لقد اشترى البيت منك كثيرون قبلي.. وهربوا.. سأنتزع هذا المسمار وأدقه في نعشك.. لقد نفد صبري وسترى..

البائع: أيها السيد لا تفهم قصدي خطأ. أنا صادق النوايا.. أنا ملتزم تعهدات الجدود. انظر.. انظر.. إنني أبكي من حسرتي وندمي..

قلت: لماذا بعته إذن؟! لم تكن بحاجة إلى بيعه. أنت منافق وكذاب. أنت لم ترث وصية، أنت ورثت لصوصية ومذلة.

إنك تبكي لأنك لم تغلبني ولم أهرب، كما فعل غيري.. أنا باق هنا. اخرج وإلا قبرتك تحت المسمار.

قال: سأخرج.. سأخرج. لم أكن أظنك هكذا.. كنت أحسبك درويشًا. لست كما ظننت.

مرت أيام وأيام.. وانقطع خبره.. سمعت أنه مات..

أعزائي: هذه قصة المسمار. مكتوبة على الوجه الأصح. أنا من انتزع المسمار وليس من دقه. وليس كل من كتب تاريخا استقام.

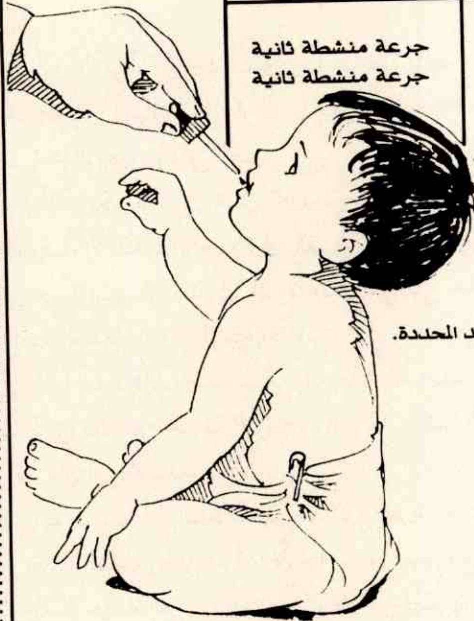
عزيزي الأب .. عزيزتي الأم

سلامة أطفالكما وصحتهم ..

بإعطائهم التطعيمات في مواعيدها ..

جدول التطعيمات الأساسية المقررة من وزارة الصحة

المراجعة	العمر	نوع اللقاح	الجرعة
الأولى	عند الولادة	الدرن الإلتهاب الكبدي (ب)	الجرعة الأولى
الثانية	عند اكمال ٦ أسابيع	الثلاثي البكتيري شلل الأطفال الإلتهاب الكبدي	الجرعة الأولى الجرعة الأولى الجرعة الثانية
الثالثة	عند اكمال ٣ شهور	الثلاثي البكتيري شلل الأطفال	الجرعة الثانية الجرعة الثانية
الرابعة	عند إكمال ٥ شهور	الثلاثي البكتيري شلل الأطفال	الجرعة الثالثة الجرعة الثالثة
الخامسة	عند إكمال ٦ شهور	الحصبة الإلتهاب الكبدي (ب)	جرعة أساسية الجرعة الثالثة
السادسة	عند إكمال ١٢ شهراً	الثلاثي الفيروسي الحصبة النكاف الحصبة الألمانية	جرعة منشطة أولى جرعة أساسية جرعة أساسية
السابعة	عند إكمال ١٨ شهراً	الثلاثي البكتيري شلل الأطفال	جرعة منشطة أولى جرعة منشطة أولى
الثامنة	(٤ - ٦ سنوات) عند دخول رياض الأطفال عند دخول المدرسة الإبتدائية	شلل الأطفال الثلاثي البكتيري إلتهاب كبدي (ب) للذين لم يسبق تطعيمهم	جرعة منشطة ثانية جرعة منشطة ثانية



ملاحظات :

١ - هذه التطعيمات ضرورية للحصول على شهادة ميلاد الطفل.
٢ - التطعيم ضرورة صحية تحتمه مصلحة الفرد والجماعة ..
٣ - التطعيم يقي طفلك من أمراض خطرة وقاتلة..
٤ - يجب التأكد من أن طفلك قد أعطى جميع الجرعات المذكورة في المواعيد المحددة.



قصة قصيرة

الوجه الآخر

جان ألكسان

انتشر الخبر في القرية بسرعة غريبة، فأحدث انتشاره ضجة لا تعرف القرية مثلها إلا في أيام الأحداث المهمة، كأن ينهمر سيل من الجبال الشرقية، أو يشبّ حريق في الحقول أيام الحصاد، أو تأتي هيئة تفتيشية في مهمة رسمية، أو يتزوج ابن المختار. ولكن الخبر الجديد، كان بالنسبة لأهالي قرية «الوردية» ذا أهمية خاصة، فصاحبته الأرملة «حنيفة» سيدة متميزة بين سيدات القرية، بل رجالها أيضًا.

نقل الخبر أول الأمر أبو إبراهيم الذي يمثل محطة إذاعة متنقلة بين بيوت القرية، يتعرف أخبارها وأخبار الدنيا قبل محمود المختار، وقبل الشيخ خضر إمام الوردية، وقبلي أيضًا.

نسيت أن أقدّم لكم نفسي: اسمي خميس مطر. وأنا مدير ومعلم وحاجب المدرسة الابتدائية الوحيدة في القرية، ومع أنني أزور المدينة بمعدل مرتين في الشهر الواحد؛ إلا أن الأخبار التي في جعبتي هي دائمًا أخبار مستهلكة وقديمة بالنسبة للأخبار التي ينقلها أبو إبراهيم. بالإضافة إلى أن أخباره دائمًا صحيحة. ومع هذا فقد استغرب الناس النبأ الجديد الذي نقله عن حنيفة الأرملة، وإن كان أكثر الذين نقل إليهم الخبر قد مال إلى التصديق.

أما الخبر فهو لا يثير أي استغراب لو حدث في قرية أخرى، أو في أية بقعة من بقاع الدنيا، إنه يؤكد أن الأرملة حنيفة ستتزوج، وحنيفة ليست الأرملة الوحيدة التي تزوجت بعد وفاة زوجها، ولكن وجه الاستغراب في الموضوع أن حنيفة هذه سيدة متميزة، بل أرملة متميزة، ولها مع أهل القرية، ومع ذكرى زوجها الذي أصبح أشهر مُتَوَفّى في المنطقة كلها، قصة ذات شأن خاص.

تبدأ الحكاية منذ عشرين سنة، يوم حل أبو نايف مع زوجته حنيفة في القرية، وكانا يومئذ عروسين يقصدان المدينة لشراء بعض الحاجيات، ففاجأهما الشتاء وقطع المواصلات، فاضطرا للمبيت في قرية الوردية، حيث أُقيمت لهما وليمة في دار المختار محمود، وحول الجدي المحمّر بالزيت تمت في الوليمة صفقة غريبة؛ إذ اشترى أبو نايف أرضًا من المختار في قرية الوردية الشهيرة بخصب تربتها، وقرر أن يستقر فيها مع زوجته في حياة جديدة، وهكذا كان. ومرت السنون، فنسي أهل القرية أن أبا نايف وزوجته كانا وافدين غريبين على القرية، وأصبح الاثنان بفضل شهامة أبي نايف وأنس زوجته حنيفة، من المقربين للمختار ولأعيان القرية، وكان منزلهما بيت الكرم والجود، فالمال وفير بين أيديهما، وهما محرومان من الأولاد، ولهذا كانا يعطفان عطفًا خاصًا على أطفال القرية، حتى إن أبا نايف تبرع بغرفتين من داره لتكونا مدرسة لأطفال القرية، وهاتان الغرفتان هما اللتان جعلتُ من إحداهما مدرسة، ومن الثانية مسكنًا لي.

وفجأة، صوّحت الواحة، وسقط أبو نايف ميتًا خلف محراثه. كان ذلك منذ خمس سنوات، ولم أكن يومئذ أعرف حتى اسم هذه القرية.

كانت الفجيعة مروّعة، خرج أهل القرية كلهم خلف النعش، وتناوب الرجال حمله على الأكف، وشقّت حنيفة ثوبها حزنًا على زوجها الشهم الكريم الذي لم يزعج خاطرها في يوم واحد، ولم يخلّف عدوًا واحدًا، كما كانت تقول بصوت منغوم وحزين من خلال صراخها.

وظن الناس يومئذ، كما قالوا لي، أن حنيفة ستلحق بزوجها، فحزنها على فقده كان أكبر من أن تنفع فيه كلمة عزاء.

ومرت الأيام، ولم تلحق حنيفة بزوجها، بل ألحقت جميع أهل القرية بذكراه، فهي لا تنفك تتحدث عنه في كل مكان، نذرت نفسها للباس الأسود طوال حياتها مما جعل شهرتها تطبّق آفاق المنطقة المحيطة بقرية الوردية كلها، فأصبح الناس يضربون المثل بإخلاص الأرملة حنيفة لذكرى زوجها الراحل.

لهذه الأسباب كلها كان خبر اعتزامها الزواج خبرًا مثيرًا انتشر في القرية بسرعة غريبة، وانعقدت من أجله جلسات الهمس. وكان يتردد بين حلقات الهمس هذه اسم نعيم العطّار.

هنا، اكتملت أسباب الدهشة، فنعيم هذا كهل رثّ الثياب كالح المحيا، في حدود الخمسين من عمره، يسوق أمامه حمارًا عليه حمل من حاجيات متنوعة اشتراها من سوق المدينة، كالسكر والصابون

وشفرات الحلاقة والخيوط الملونة، وينتقل بين القرى، ومنها قرية الوردية، ليقايض بضاعته بأشياء أخرى من منتوجات القرية كالصوف والبيض والسمن والذرة والدجاج وغير ذلك.

أما حنيفة، فإلى جانب أنها ما تزال في الأربعين من عمرها، ولديها مال وفير أورثها إياه زوجها أبو نايف، فهي جميلة، وكثيرًا ما حسدتها الصبايا على جمالها، فهل من المعقول أن تقبل نعيمًا العطار زوجًا لها؟

أبو إبراهيم يؤكد الخبر، ويصرّ عليه، والدلائل تشير إلى أن أخبار أبي إبراهيم صادقة دائمًا، فنعيم العطار وصل القرية ذلك المساء، وفي الصباح كانت حنيفة تستدعي المختار وتفاتحه في أمر تصفية أملاك زوجها في القرية؛ لأنها قررت الرحيل إلى المدينة. ولأول مرة منذ خمس سنوات تختفي سيرة أبي نايف من الجو، ولا تُذكر فضائله وشمائله، ولهذا كان لا بد لي أن أتأكد من الأمر بنفسي، فَسِرْتُ إليها، وكانت في الغرفة الغربية تجمع الأثاث في صندوق كبير.

- خيرًا إن شاء الله يا حنيفة.

- ما تقشع إلا الخير، الدنيا حظوظ يا أخي.

- هل أنتِ على سفر؟

- قرية الوردية غالية على قلبي، ولكن للضرورة أحكامها.

- يقول أبو إبراهيم إنك ستتزوجين، ويقول المختار إنك ستبيعين أملاكك.

- هل تخشى أن يطردكَ الذي يشتري المدرسة، لا تخف، لقد اشترطتُ على الذي يشتري منزلي أن يتنازل عن هاتين الغرفتين للمدرسة.

- ولكنك كنت سعيدة بيننا، وأهل القرية كلهم يحبونك، كما أنك قريبة من تراب أبي نايف.

- ليرحمه الله، كلنا على هذا الدرب، بالأمس مات أبو نايف، وغدًا أنا، وأنت، وكل الناس، لا أحد يخلد على هذه الأرض الفانية.

- يظهر أن نعيمًا العطار قد حالفه حظ مفاجئ.

- كل شيء قسمة ونصيب، وفوق هذا، فالرجل كريم وشهم، لا تنخدع بمظهر لباسه الرث، لقد جمع مالاً وفيرًا واشترى بيتًا جميلاً في المدينة، وسوف نسكنه معًا، سيكون لي نصف البيت، لقد دفعت له نصف ثمن البيت واشتراه لي، وسيعود بعد أسبوع ليأخذني إلى المدينة.

- أخشى أن يكون متلاعبًا، كيف تدفعين له مثل هذا المبلغ من المال من دون سند أو قيد؟

- لا تسئ الظن بالناس يا أستاذ، نعيم إنسان طيب وشهم، وهو ينشد حياة الاستقرار بعد كل هذه السنين الطويلة من التعب.

- قلبي يحدثني يا حنيفة أن الرجل مخادع، كوني حذرة منه.

- لا تخف، لقد ربطته من يديه ورجليه.

- كيف ؟

- ذهبت لعند أبي درويش في قرية طالعة، وهو أفضل من يكتب الحجب ويهيّئ وسائل السحر، وقد أعطيته مئة ليرة ودجاجتين لقاء حجاب خاص كتبه لي، قال إنه سيربط نعيمًا العطار من يديه ورجليه وسيجعله طائعًا لمشيئتي طوال عمره.

هنا، كان لا بد من أن أنهي النقاش مع الأرملة حنيفة، فإن أية محاولة إقناع بعدم جدوى مثل هذا الحجاب لن تصل بي إلى نتيجة.

ومرّ أسبوع، وجاء اليوم المحدد، وكان الخبر قد شاع بين الجميع، وخفت دهشة الاستغراب ليحل محلها نوع من الترقّب ليوم قدوم صهر القرية الجديد نعيم العطار، ولكن اليوم مر ولم يبدُ في الأفق أحد.

ومرّ يوم آخر، ويومان وأسبوع. وبدأ الهمس من جديد يدور بين أهالي القرية: لماذا لم يأت؟ لقد ضحك عليها، لقد خدعها، أخذ أموالها وهرب! لماذا لم تظل وفية لذكرى أبي نايف؟ نعيم إنسان لئيم، نعرفه جيدًا.

أما حنيفة فقد ظلت تكابر وتدّعي أن المرض ربما أقعده عن المجيء، وهو سيحضر في يوم قريب ويفرك حصرمة في عيون الحساد والحاقدين.

ومرّ شهر كامل، وبدأت علامات الخيبة والتوجس تبدو جلية على وجهها، فأعطت سائق الباص بعض المال ورجته أن يسأل عن نعيم العطار في المدينة، وانتظرت أسبوعًا آخر على أحرّ من الجمر، قبل أن يعود سائق الباص ليخبرها أن نعيمًا العطار مجهول محل الإقامة، ولا أثر له في المدينة.

وهنا لم تتمالك الأرملة نفسها، فانفجرت باكية مقهورة، وراحت تستنجد بأهل القرية ليعينوها على بلواها، ويرشدوها إلى طريقة تسترد بها المبلغ الذي دفعته له من أصل ثمن البيت الذي قال لها إنه اشتراه ليسكنا فيه. تردد المختار في مد يد العون للأرملة المغلوبة على أمرها.

اتهمها بالعقوق ونكران الجميل والخبز والملح أمام أهل القرية، وترحّم أمامهم على أبي نايف الذي كان شهمًا وشجاعًا لا يعق إخوانه، ولا ينكر الخبز والملح.

الشيء الوحيد الذي لم تستطع الأرملة حنيفة تفسيره حتى الآن هو: كيف لم يفعل الحجاب الذي كتبه لها أبو درويش مفعوله مع أنها أعطته مئة ليرة ودجاجتين!



النادي الثقافي العماني يعلن عن تأسيس جائزة للإبداع القصصي

1500 عالم وخبير من مختلف أنحاء العالم يشاركون في وضع موسوعة عن «دعائم الحياة على الأرض»

تأجيل ندوة اتحاد المجامع اللغوية العربية في دمشق

القاهرة تستضيف مؤتمرا عربيا عن السكان والغذاء والهجرة والعرب في أوربا

وفاة سعاد ماهر وعفيف دمشقية وعلي جواد الطاهر

إعلان أسماء الفائزين بجائزة نوبل 1996م في السويد

السعودية

معرض التصوير الفوتوغرافي


الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز

شارك 37 فنانًا وفنانة في المعرض الجماعي الثاني عشر للجنة التصوير الفوتوغرافي الذي استضافه مركز الفنون التشكيلية في جدة، وافتتحه صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز.

اشتمل المعرض على 70 عملاً عبَّرت عن تفاعل الفنانين مع بيئتهم، وفاز بالمركز الأول الفنان سلطان منديلي، تلاه أحمد الحميدي، وجاءت الشريفة نها فؤاد آل غالب في المركز الثالث.

وقام سمو الأمير سلطان بن سلمان بتسليم دروع للجنة التحكيم، وتكريم الفنان حسين قنوع الذي يعد أقدم مصور فوتوغرافي سعودي.

الصحافة العربية على شبكة الإنترنت


الأمير أحمد بن سلمان بن عبدالعزيز

رعى صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن سلمان بن عبدالعزيز افتتاح أول موقع إعلامي للصحافة العربية المشتركة على شبكة الإنترنت، مما يُشكِّل انفتاحًا إعلاميًا عربيًا على العالم. ويتيح الموقع لشركات النشر العربية الاستفادة من خدمات الشبكة الدولية، كما يسمح للكُتَّاب والمفكرين بوضع مقالاتهم على شبكة عرب نت.

مهرجان هجر الثقافي

يتم حاليًا الإعداد لإقامة مهرجان هجر الثقافي الذي ينظمه فرع الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بالإحساء.

يُنتظر أن يشتمل المهرجان على أمسيات شعرية وقصصية، إضافة إلى ندوات ثقافية، ومحاضرات متنوعة، وعروض فنية شعبية.

مسابقة للأطفال المعاقين لحفظ القرآن الكريم

تنظم الجمعية السعودية الخيرية لرعاية الأطفال المعاقين أول مسابقة من نوعها للأطفال تحت عنوان «مسابقة الأمير سلطان بن سلمان لحفظ القرآن الكريم للمعاقين».

ترمي المسابقة إلى تحقيق أكثر من هدف سام، منها تشجيع الناشئة من المعاقين على حفظ القرآن الكريم وتدبر معانيه، وصولاً لربطهم بدينهم وكتاب ربهم، وتأهيلهم لمواكبة غيرهم من حفظة كتاب الله.

اكتشاف شجرة متحجرة من ملايين السنين

عثر في منطقة السليل - التي تقع على أطراف الربع الخالي - على شجرة متحجرة يُظنّ أن تاريخها يعود إلى ملايين السنين.

ويرى الآثاريون أن هذا الاكتشاف من شأنه أن يعين الباحث على معرفة التاريخ القديم للربع الخالي، التي كانت قبل ملايين السنين تزدان بالخضرة والجنان الفيحاء وتعيش في أطرافها أنواع عدة من الحيوانات والطيور.

مجلة الفروسية

أصدرت المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق العدد الأول من مجلة أسبوعية جديدة تحت اسم «الفروسية».

تُعنى «الفروسية» - كما يدل عليها اسمها - بكافة النشاطات المتعلقة بهذه الرياضة العربية الأصيلة، وتصدر كل يوم ثلاثاء لتُوزَّع مجانًا لقراء مجلة «عالم الرياضة» الأسبوعية التي تصدرها المجموعة.

الترشيح لجائزة علي وعثمان حافظ الصحفية

أُعلن عن فتح باب الترشيح لجائزة علي وعثمان حافظ الصحفية لعام 1996م في مجالات: مفكر العام، المقالة، العمود الصحفي، التحقيقات الصحفية، الكاريكاتير، الصورة الصحفية، والدراسات والبحوث التي

نالت درجتي الماجستير والدكتوراه عن الصحافة.

ويحق لكل صاحب نتاج صحفي نُشر خلال عام 1996م في صحيفة أو مجلة تصدر باللغة العربية التقدم للحصول على الجائزة بإرسال 3 نسخ أصلية من النتاج الذي يرشحه، موضحًا عليه مكان الصدور وتاريخه، مع إرفاق أصول ما نُشر معه من صور ورسومات، إضافة إلى بياناته الشخصية، في موعد غايته نهاية شهر يناير/ كانون ثاني 1997م.

كتب جديدة

نزهات في رياض الصالحين، كتاب مسموع بصوت الشيخ علي الطنطاوي، صدر ضمن سلسلة «كتب مسموعة» عن مؤسسة سنا في جدة.

مفاهيم يجب أن تُصَحَّح، تأليف بغداد سيدي محمد أمين، صدر عن قطاع الثقافة والإعلام في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

الخدمات المرجعية والإرشادية في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض.. دراسة تقويمية، إعداد د. سالم محمد سالم، صدر عن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض.

بعض الظن، مجموعة قصصية لخليل إبراهيم الفزيع، صدرت عن نادي القصة السعودية.

الضبط الببليوجرافي والتحليل الببليومتري في علم المكتبات والمعلومات: دراسة تطبيقية على مجلة شعر، تأليف د. أمين سليمان سيدو، صدر ضمن سلسلة «كتاب الرياض» عن مؤسسة اليمامة الصحفية بالرياض.

معجم ما أُلِّف عن المدينة المنورة قديمًا وحديثًا، تأليف د. عبدالرزاق فراج الصاعدي، صدر عن المكتبة العصرية بجدة.

دليل الدراسات العليا (طبعة جديدة لعام 1996/ 1997م)، صدر عن كلية الدراسات العليا بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران.

بين معيارية العَروض وإيقاعية الشعر، نماذج من الشعر القديم، تأليف د. عبدالمحسن فراج القحطاني، صدر عن نادي جدة الثقافي الأدبي.

الموعد المؤجل، مجموعة قصصية لرقية حمود الشبيب، صدرت عن نادي الطائف الأدبي.

في محيط الجامعات، تأليف د. مازن عبدالرزاق بليلة، تقديم د. رضا عبيد، صدر عن الغرفة التجارية الصناعية بجدة.

المركز القانوني الدولي لمدينة القدس، تأليف جعفر عبدالسلام، صدر عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

البحرين

معرض لكتب الأطفال

نظمت جمعية المكتبات البحرينية ـ مؤخرًا ـ معرضًا لكتب الأطفال شارك فيه عدد من دور النشر العربية.

وأقيمت على هامش المعرض ندوة خاصة بكُتَّاب البحرين، رمت إلى تعرُّف مدى اهتمام الكاتب البحريني بالطفل في بلاده ووطنه العربي، ومدى نجاحه في تلبية احتياجات الطفل.

ندوة التعليم ومتطلبات التنمية الشاملة

أقيمت في المنامة ـ مؤخرًا ـ ندوة متخصصة حول «التعليم في الدول الإسلامية ومتطلبات التنمية الشاملة».

عالجت الندوة ـ التي شارك في أعمالها تربويون وعلماء متخصصون من الدول الأعضاء في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ خمسة محاور رمت إلى استشراف آفاق المستقبل والتخطيط لدخول العالم العربي القرن الحادي والعشرين مزودًا برؤية جديدة ومناهج مبتكرة، متمثلة في تقويم دور التعليم في التنمية الشاملة.

الإمارات

كتب جديدة

أبو ظبي.. وردة زايد، إعداد عبدالله الطنيحي، صدر عن دائرة الخدمات الاجتماعية والمباني التجارية في أبو ظبي.

دراسات في التراث الشعبي لمجتمع الإمارات، تأليف موزة عبير غباش، صدر عن المركز الوطني للدراسات والنشر والطباعة في دبي.

الكويت

ندوة حول أعمال عبدالعزيز حسين وفكره


عبد العزيز حسين

تُدرس في الكويت حاليًا فكرة عقد ندوة علمية تتناول أعمال وفكر رائد الثقافة والتعليم الراحل عبدالعزيز حسين.

يُنتظر أن يتولى تنظيم الندوة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وأن يشارك فيها عدد من المفكرين العرب، تقديرًا للفكر المستنير للرائد الراحل.

المهرجان الثقافي الثالث في الجهراء

أقيم المهرجان الثقافي الثالث في الجهراء خلال النصف الأول من شهر جمادى الآخرة المنصرم، واستمر ثلاثة أيام.

تضمن المهرجان معرضًا للكتاب وآخر لرسوم الأطفال، وأمسيات شعرية، ومحاضرة حول «الثقافة وقيم التسامح».

كتب جديدة

البحث الجغرافي في الكويت، تأليف د. عمر الفاروق، صدر عن جامعة الكويت.

الشمس في برج الحوت، والحياة وجه آخر، الكتابان الأولان من السباعية الروائية «إحداثيات زمن العزلة»، للروائي إسماعيل فهد إسماعيل، صدرا عن دار الوطن.

دروب في المنفى، الديوان الأخير للشاعر الراحل بلند الحيدري.

جرة على حافة القلب، مجموعة شعرية لعبد اللطيف أطيمش.

صدر الكتابان السابقان عن دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع.

عالم يفيض بسكانه، تأليف سير روي كالن، ترجمته إلى العربية ليلى الجبالي، وصدر ضمن سلسلة «عالم المعرفة» عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

سلطنة عمان

جائزة للإبداع القصصي

أعلن النادي الثقافي العماني في مسقط عن تأسيس جائزة سنوية باسمه تُخَصَّص للإبداع القصصي في سلطنة عمان.

يُشترط للترشيح لـلجائزة أن تكون المجموعات القصصية المقدمة غير منشورة، ولم يسبق التقدم بها لنيل جائزة أخرى، وأن تصل إلى النادي قبل نهاية مايو/ آيار 1997م، وسوف تنال الأعمال الثلاثة الفائزة 1500 ريال عماني تُوزَّع بالتساوي.

مصر

كشف أثري يكشف كذبة إسرائيلية

دحض كشفٌ أثريٌّ لبعثة مصرية في جزيرة فرعون بجنوب سيناء مزاعمَ إسرائيلية بعثورها في أثناء الحفائر التي أجرتها خلال احتلالها لسيناء على أحجار ادَّعى الصهاينة أنها بقايا رصيف ميناء كان يُستخدم - حسب زعمهم - في نقل البضائع إلى القدس في عهد النبي سليمان عليه السلام؛ استنادًا إلى وجود بقايا معدن الحديد المنصهر، وهو ما فسروه بأنه يؤكد انتماء المنطقة إلى عصر الحديد، الذي يتزامن مع عصر الملك سليمان.

وجاء الكشف الآثاري المصري المتمثل في العثور على منشآت وتحصينات عسكرية بُنيت في عصر الناصر صلاح الدين الأيوبي لينفي جميع المزاعم الإسرائيلية، وليؤكد أن وجود الحديد المنصهر يعود إلى استخدامه في فرن تصنيع الأسلحة المُكتَشف على الجزيرة.

افتتاح متحف طه حسين ومركزه الثقافي

افتُتح - مؤخرًا - متحف د. طه حسين والمركز الثقافي الملحق به في فيلا «رامتان» التي كان يقيم فيها د. طه.

وقد تم تحويل الفيلا لتكون متحفًا وفقًا لأحداث القواعد العلمية والفنية والتقنية، حيث تتكون من طابقين على مساحة 860 مترًا مربعًا، وخُصِّصَ الطابق الأرضي لمكتب د. طه حسين، وجزء من مكتبته إضافة إلى قاعة الاستقبال، أما الطابق العلوي ففيه غرف النوم، كما أُجري حصر شامل لمكتبة الراحل لعرضها كاملة في المتحف.

أما المركز الثقافي فقد أقيم في مواجهة الفيلا كجزء من حديقة المتحف الغربية، حيث يضم قاعة للمحاضرات وعروض الفيديو والسينما، بالإضافة إلى المكتبة. ويقدم المركز نشاطات متعددة تشمل مجالات الأدب والفنون التشكيلية والمناظرات.

أول مؤتمر إقليمي لسكان العالم العربي

يشارك علماء وباحثون وممثلون لهيئات ومنظمات عربية ودولية في أول مؤتمر إقليمي لسكان العالم العربي، تستضيفه القاهرة خلال المدة من 27 رجب الجاري إلى 2 شعبان المقبل (8 - 12ديسمبر 1996م).

يناقش المؤتمر عبر 28 جلسة علمية قضايا حيوية تتعلق بالسكان وإنتاج الغذاء، والهجرة إلى الدول العربية المُصدِّرة للنفط، والسكان العرب في أوروبا، والتاريخ الديموجرافي للدول العربية، والنازحين واللاجئين في العالم العربي وقضايا الفقر، وغير ذلك من الموضوعات ذات الصلة.

أدباء الأقاليم يناقشون أدب المقاومة

شارك 240 أديبًا من مختلف محافظات مصر في المؤتمر الحادي عشر لأدباء الأقاليم الذي استضافته - مؤخرًا - مدينة السويس.

ولوحظ أن موقع انعقاد المؤتمر قد فرض نفسه على موضوعاته، حيث دارت المناقشات حول محورين رئيسين، أولهما: ثقافة المقاومة وأدبها، والثاني: الواقع الأدبي في مدينة السويس في مجال المقاومة.

محاضرات وندوات

«من أحداث الإسراء والمعراج»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع ابن حاصلة بمنطقة عسير، الشيخ عبدالله بن علي بن مفرج.

«تطور نظام الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي القصيم الأدبي ببريدة، د. عبدالعزيز بن إبراهيم العمري.

«الأوضاع العسكرية في منطقتي الشرق الأوسط والخليج»، موضوع محاضرة ألقاها في كلية الدفاع الوطني الهندي في نيودلهي، الفريق أول ركن متقاعد صاحب السمو الملكي الأمير خالد بن سلطان بن عبدالعزيز آل سعود.

«الأدب ومدارس الفن التشكيلي»، عنوان محاضرة ألقاها في النادي الأدبي بالرياض، عبدالجبار علي.

نظم الصالون الثقافي في دار الأوبرا المصرية بالقاهرة أمسية شعرية للشاعر محمد الفيتوري ألقى خلالها عددًا من قصائده.

أقيمت في بيت ثقافة بولاق الدكرور في مصر أمسية لمناقشة ديوان «الأحاديث» للشاعر أحمد الشهاوي، شارك فيها كل من: ربيع مفتاح، وعبدالعزيز موافي، ومحمد الفارس، ومجدي إبراهيم.

«من يكتب الدراما حول حرب أكتوبر؟»، عنوان ندوة أقيمت في نادي القصة في مصر، شارك فيها كل من: حمدي الكُنَيِّسي، وعبدالعال الحمامصي، ووحيد حامد، ونبيل عبدالحميد، ومحمد قطب.

«اللغة العربية: كيف بدأت وكيف تطورت عبر العصور؟!»، عنوان محاضرة ألقاها في منتدى أصحاب القلم بالكويت، خالد الشايجي.

«الشعر الوجداني عند أمير الشعراء أحمد شوقي»، موضوع ندوة نظمها مركز النقد والإبداع بكرمة ابن هاني (منزل أحمد شوقي بالجيزة)، شارك فيها الدكاترة: رجاء عيد، وعلي عشري زايد، وإبراهيم عبدالرحمن، وأدارها د. عبدالقادر القط.

وكرَّم المؤتمرون قائدَ الجيش الثالث الميداني خلال حرب أكتوبر 1973م الفريق عبدالمنعم واصل، وعددًا من أبطال المقاومة الشعبية في السويس.

كما نظمت هيئة قصور الثقافة على هامش المؤتمر معرضًا لأعمال الفنان التشكيلي عزالدين نجيب ضم ثلاثين لوحة زيتية.

مؤتمر دولي لفناني الفسيفساء

شارك خمسون فنانا من اثنتي عشرة دولة في المؤتمر الدولي الخامس لفناني الفسيفساء المعاصرين، الذي استضافته مدينة الإسكندرية في مطلع شهر جمادى الآخرة المنصرم.

صاحب المؤتمر إقامة معرض للفنانين أعضاء الجمعية الدولية لفناني الفسيفساء، ودارت المناقشات حول أحدث اكتشافات الموزاييك الأثرية في الإسكندرية ومشروع مكتبتها العالمية.

وفاة سعاد ماهر وجاويد وحسين فهمي

نعى الوسط الثقافي ثلاثة من أبرز رموزه بوفاة الباحثة د. سعاد ماهر، وشيخ المترجمين عبدالعزيز توفيق جاويد، والكاتب الصحفي حسين فهمي.

وتعد د. سعاد ماهر واحدة من أبرز المتخصصين بمجال دراسة الآثار المصرية، حيث تخرجت في معهد الآثار بجامعة القاهرة عام 1954م، وكانت أول عربية تحصل على درجتي الماجستير والدكتوراه في الآثار الإسلامية، كما كانت أول من درس الفنون القبطية دراسة شاملة. ولعل أبرز أبحاثها وأكثرها شهرة، هو ذلك البحث الذي أكدت فيه نسبة السيف المحفوظ في مسجد الحسين بحي الأزهر إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -، حيث أُهدي إليه - عليه الصلاة والسلام - من الصحابي سعد بن عبادة رضي الله عنه.

كما نفت د. سعاد صحة نسب المصحف المنسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب والموجود ضمن مجموعة آثار المسجد الحسيني، وقامت بدراسة آثار الجزيرة العربية مدة تسعة أعوام، عملت خلالها في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، أستاذة زائرة.

وكانت - يرحمها الله - عضوًا في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وعضوًا في اللجنة الدائمة للآثار، وكان لها دور واضح في تأسيس كلية مستقلة للآثار بجامعة القاهرة، حيث تولت عمادتها. وهي حاصلة على وسام هيئة مارتيني العالمية، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى. ومن أبرز مؤلفاتها كتابها «محافظات مصر وآثارها» الذي تطور - فيما بعد - ليصبح موسوعة «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» و«العمارة الإسلامية على مر العصور»، إضافة إلى دراستها القيمة عن أسوار مدينة مسقط وقلاعها.

أما شيخ المترجمين عبدالعزيز توفيق جاويد، فقد تخرج في مدرسة المعلمين العليا وعمل بالتدريس، وشغف بالترجمة، وأعجب خاصة بالكاتب الإنجليزي هـ .ج. ويلز فترجم له كتبه «معالم تاريخ الإنسانية» في أربعة أجزاء، و«موجز تاريخ العالم». كما ترجم كتاب المستشرق جوستاف فون جروني «حضارة الإسلام أو إسلام العصور الوسطى»، وكتاب المؤرخ الهولندي يوهان هويزنجا «اضمحلال العصور الوسطى: دراسة لنماذج الحياة والفكر والفن في فرنسا والأراضي المنخفضة»، إضافة إلى مترجمات أخرى كثيرة.

وقد حاز جاويد جائزة الدولة التشجيعية في الترجمة لعام 1951م ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.

ويُعدّ حسين فهمي - الذي توفي عن عمر ناهز 80 عامًا - أحد شيوخ الصحافة المصرية، وهو نقيب سابق للصحفيين خمس مرات، وقد تخرج في كلية الحقوق عام 1937م، وعمل في وظائف حكومية قبل أن يتفرغ للعمل الصحافي عام 1946م؛ حيث بدأ الكتابة في صحيفة «الزمان» اليومية المسائية التي ترأس تحريرها عام 1951م. كما ترأس تحرير جريدة «الجمهورية»، وصحيفة «الشعب»، وصحيفة «الأخبار»، وظل حتى قبيل وفاته بأسابيع يكتب في أخبار اليوم زاوية بعنوان «نحو الغد».

وشارك فهمي في تأسيس منظمة التضامن الأفرو - آسيوي، ومُنح وسام الاستحقاق عام 1988م.

أقيمت في فندق مريديان بالكويت أولى أمسيات الشعر باللغة الإنجليزية، شارك فيها عدد من الشعراء والشاعرات الذين ينظمون الشعر بهذه اللغة، منهم فايزة المفتي، ونورا صادق، وعبيد ناصر حسين، وحازم صلاح الدين.

«الثقافة والعنف»، موضوع ندوة أقيمت في أحدية المبارك في الأحساء شارك فيها كل من: عبداللطيف عثمان الملا، وإبراهيم الحاوي، وسعد الدريبي، وآخرون.

«الحداثات في الاختلاق العربي»، موضوع محاضرة ألقاها في معهد العالم العربي في باريس، إدوار الخراط.

«متاحف مصر والقرن الحادي والعشرون في تحدي الحاضر وآفاق المستقبل»، عنوان ندوة أقيمت في المسرح الصغير لدار الأوبرا المصرية، تحدث فيها د. أحمد نوار.

أقام اتحاد كُتّاب الشارقة بدولة الإمارات العربية أمسية للأديب محمد صالح القرن تحدث فيها عن تجربته الخاصة في ترجمة رباعيات الخيام.

«الفكر النير والموقف الجريء لعبدالرحمن الكواكبي»، عنوان محاضرة ألقاها في النادي العربي في بريطانيا، جان داية.

«مؤثرات عربية في القصة الحداثية الغربية»، عنوان محاضرة ألقاها في ديوان الكوفة في لندن، خلدون الشمعة.

«من أسباب السعادة المحافظة على الصلاة»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع الغيل بالأفلاج في السعودية، الشيخ عبدالله بن سعود المعجب.

«المرأة العربية والغزو الثقافي»، عنوان محاضرة ألقاها بدعوة من مكتب الثقافة والإعداد في الاتحاد العام النسائي بمدينة حمص السورية، د. طيب تيزيني.

«فلسفة الحب عند الإمام الغزالي»، عنوان ندوة أقيمت في اتحاد كتاب الإمارات وأدبائها في أبو ظبي، شارك فيها نخبة من الكتاب والأدباء.

أقيم في مركز بلدية إيلينج في لندن حفل تأبين للشاعر الراحل بلند الحيدري، أُلقيت خلاله بعض قصائده.

تحقيق «منتهى الطلب من أشعار العرب»

انتهت لجنة الأدب في مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية من تحقيق نصف الأجزاء المخطوطة الموجودة حاليًا من كتاب «منتهى الطلب من أشعار العرب» لابن ميمون.

وتُعدّ هذه المرة الأولى التي يُحقَّق فيها هذا الكتاب الذي يضم مجموعة مختارة من الشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام، وقد ضاع نصفه - للأسف - وما يتم تحقيقه حاليًا هو النصف الموجود، وسيصدر تباعًا في أجزاء.

يُذكر أن الكتاب يضم - كما ذكر ابن ميمون في مقدمته - أكثر من ألف قصيدة في عشرة أجزاء، ضم كل جزء مئة قصيدة، منها قصائد لشعراء لم تذكر كتب الأدب واللغة إلا أبياتًا قليلة لهم، مما يعين على استجلاء شخصياتهم، ويُعدّ الكتاب بهذا المضمون موسوعة شعرية ضخمة.

الملتقى الأول للأطفال العرب

استضافت القاهرة الملتقى الأول للأطفال العرب الذي شارك فيه سبعون طفلاً موهوبًا يمثلون اثنتي عشرة دولة عربية في النصف الثاني من شهر جمادى الأولى الماضي.

وأقيمت على هامش الملتقى ندوة حول «توجيه الاستثمارات العربية لخدمة الاقتصاديات الخاصة بالتقدم في مجال الطفولة» شارك فيها عدد من المهتمين برعاية الطفل.

موسوعة دولية تتناول دعائم الحياة على الأرض

يشارك 1500عالم وخبير متخصص من مختلف أنحاء العالم حاليًا في الإعداد لإصدار الموسوعة الدولية «دعائم الحياة على الأرض»، ويُنتظر أن ينتهي العلماء من إعداد التقريرالنهائي للموسوعة خلال شهر رمضان المبارك المقبل (يناير 1997م) تمهيدًا لصدورها في أوائل عام 1998م، حيث تتكون من نحو 60 ألف صفحة، وتساعد الباحثين وصانعي القرار على التخطيط لموضوعات دعائم الحياة.

يُذكر أن الموسوعة تمولها دولة الإمارات العربية المتحدة، ويتولى منصب المنسق لمنطقة الشرق الأوسط وإفريقيا د. مصطفى كمال طلبة، الذي يشغل - في الوقت نفسه - منصب رئيس المركز الدولي للبيئة والتنمية.

وصفة طبية يابانية لعلاج أبي الهول

يدرس المجلس الأعلى للآثار حاليًا تقريرًا قدمته البعثة الآثارية اليابانية حول تمثال أبي الهول، وكيفية حمايته من الأخطار التي قد يتعرَّض لها بفعل العوامل الطبيعية والمحيطة به.

وكانت البعثة اليابانية قد قامت بتصوير التمثال من الداخل كهربائيًا لمعرفة تأثير المياه الجوفية والرطوبة في جسمه وتحديد أماكن الضعف فيه.

يُذكر أن أبا الهول يخضع حاليًا لعمليات ترميم بعد أن تعرَّض في السنوات العشرين الماضية لأخطار كثيرة نتيجة للتلوث والمياه الجوفية والرطوبة.

معرضان تشكيليان سودانيان بالقاهرة

أقام الفنان التشكيلي السوداني محمود سيف الإسلام معرضًا بقاعة «جاليري القاهرة - برلين الفن» في القاهرة، ضم مجموعة من أعماله الحديثة، كما أقام الفنان التشكيلي محمد سعيد معرضه في الجامعة الأمريكية.

كتب جديدة

قراءة في عيون المستقبل، تأليف فتحي سلامة، صدر ضمن سلسلة «مكتبة الأسرة» بمهرجان القراءة للجميع 1996م، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

د. جمال حمدان.. صفحات من أوراقه الخاصة، إعداد وتقديم د. عبدالحميد صالح حمدان، صدر عن دار الغد العربي.

التشريعات الصحفية في فلسطين، تأليف منى أسعد، تقديم عبدالقادر ياسين، صدر ضمن سلسلة «كتب ودراسات إعلامية» عن مؤسسة الأهرام للصحافة والنشر.

شرح المشكل من شعر المتنبي، تأليف علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق مصطفى السقا ود. حامد عبدالمجيد، طبعة جديدة، صدر عن دار الكتب والوثائق القومية.

من أعلام العصر، تأليف د. محمد رجب البيومي، صدر عن الدار المصرية اللبنانية.

المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر، تأليف عبدالمتعال الصعيدي.

الإيضاح في علوم البلاغة، تأليف الخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبدالرحمن، تحقيق د. عبدالقادر حسين.

صدر الكتابان السابقان عن دار الآداب.

عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جـ1، تأليف موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة (ت 688هـ)، تحقيق د. عامر النجار، صدر عن دار المعارف.

«آفاق المعاصرة في الرواية العربية»، تأليف د. محمد حسن عبدالله، صدر عن مكتبة وهبة بالقاهرة.

شبابيك، مجموعة قصصية لهدى أحمد إبراهيم، قدم لها د. شكري محمد عياد، وصدرت عن الدار العربية للطباعة والنشر.

الأسس الفنية للحديث الصحفي، تأليف د. غازي زين عوض الله، صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

شطف النار، تأليف جمال الغيطاني، صدر عن هيئة قصور الثقافة.

السودان

الشاعر جيلي عبدالرحمن.. في كتاب

يعكف مركز الدراسات السودانية بالقاهرة على إعداد كتاب عن الشاعر السوداني الراحل الدكتور جيلي عبدالرحمن، يتناول سيرته الذاتية، كما يضم مقالات وحوارات مع عدد من المبدعين من الشعراء والكتاب والنقاد في السودان ومصر، إضافة إلى دراسات وأبحاث ونصوص للشاعر الراحل لم تُنشر في حياته.

«الرأي العام» تعاود الصدور

عاودت صحيفة «الرأي العام» الصدور مرة أخرى بعد توقف دام قرابة 25 عامًا في أعقاب تأميمها في عهد الرئيس السابق جعفر نميري.

يرأس مجلس إدارة الصحيفة السيد إسماعيل علي القباني، وهو ذاته مؤسسها عام

1945م، فيما يترأس تحريرها صلاح محمد إبراهيم، ويدير التحرير أبو بكر وزيري.

الأردن

معرض للكتاب

شاركت مائتا دار نشر أردنية وعربية وأجنبية في معرض عَمّان السنوي الدولي للكتاب.

ضم المعرض أكثر من 600ألف كتاب في مجالات المعرفة المختلفة، وأُقيمت على هامشه ندوة حول «حقوق الملكية الفكرية في العالم العربي».

أشرف على المعرض الاتحاد العام للناشرين الأردنيين بالتعاون مع وزارة الثقافة.

قسم خاص لصيانة المباني التراثية والحفاظ عليها

استحدثت الحكومة الأردنية قسمًا خاصًا للتراث المعماري بوزارة الشؤون البلدية والقروية والبيئة، تناط به مهمة الحفاظ على المواقع والمباني ذات الطابع التراثي وصيانتها.

كما يضطلع القسم بإعداد المسوح التراثية وصولاً لتحديد المناطق المتميزة معماريًا وتاريخيًا، والحفاظ على المباني الأثرية القديمة وتحديد استعمالاتها ومواقعها، وبحث توظيفها لخدمة الحركة السياحية.

كتب جديدة

اللاجئون الفلسطينيون: قضية تنتظر حلاً، تأليف فالح الطويل، صدر عن مطبعة ابن خلدون في عمان.

خيط الزعفران، مجموعة قصصية للدكتور محمد طلال الرشيد، صدرت عن دار البشير.

مكان تحت الشمس، تأليف بنيامين نتنياهو، ترجمه إلى العربية محمد عودة الدويري، وصدر عن دار الجليل للنشر.

عيسى ومريم في القرآن والتفاسير، تحرير رياض أبو وندي وآخرين، إشراف يوسف قزما خوري، صدر عن دار الشروق.

اليهود في الشرق الأوسط، الخروج الأخير من الجيتو الجديد، تأليف مأمون كيوان، صدر عن الدار الأهلية للنشر والتوزيع.

المسيحية في العالم العربي، تأليف الأمير الحسن بن طلال، صدر عن مكتبة عمان.

العراق

وفاة شيخ النقاد د. علي جواد الطاهر


د. علي جواد الطاهر

توفي الكاتب والناقد المعروف د. علي جواد الطاهر، عن عمر ناهز 77 عامًا.

وُلد الطاهر عام 1919م في مدينة الحلَّة، وتخرج في دار المعلمين العليا ببغداد عام 1945م، وحصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة عام 1948م، ودرجة الدكتوراه من جامعة السوربون الفرنسية عام 1954م.

واعتمد المنهج النقدي للراحل على النص، كما كان لا يُخفى عدم تحمسه للمدارس النقدية الجديدة التي تعتمد على دراسة الشكل دون الجوهر. وتعلمت على يديه أجيال من الأدباء والنقاد، وأشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وترك تراثًا زاخرًا متمثلا في عشرات من البحوث والكتب التي قام بتأليفها، ناهيك عن المقالات التي نُشرت له في صحف العالم العربي ومجلاته، ومن بينها «الفيصل» التي كتب فيها سنوات متتاليات.

مهرجان بابل للثقافة والفنون

شاركت 22 دولة عربية وأجنبية في أعمال مهرجان بابل الثامن للفنون والثقافة الذي اختُتم - مؤخرًا - في العاصمة العراقية بغداد، بعد أن استمر خمسة عشر يومًا.

تضمن المهرجان معارض للصور وأخرى للكتب، وحلقات أدبية ونقدية، وندوات علمية، وأمسيات شعرية وقصصية وفنية.

أما الدول العربية التي شاركت فيه، فهي: قطر، والأردن، وفلسطين، واليمن، والمغرب، وتونس، والسودان.

سورية

ندوة المجامع العربية

تقرر تأجيل ندوة اتحاد المجامع اللغوية العربية إلى الثامن والعشرين من شهر رجب الجاري - 9 ديسمبر 1996م بدلاً من العشرين من شهر رجب، تلبية لطلب رئيس اتحاد المجامع العربية ورئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة د. شوقي ضيف.

تستمر الندوة أربعة أيام، وتقرر تخصيصها لمناقشة معجم البيولوجيا في علوم الأحياء والزراعة الذي صدر في جزأين عامي 1984، 1988م.

اكتشاف أقدم سنبلة مدجَّنة

عُثر في منطقة تل حالولة على سنبلة قمح مدجَّنة يعود تاريخها إلى نحو عام 8700 قبل الميلاد.

ويحمل اكتشاف هذه السنبلة إشارات ودلالات على بداية عصر ما سُمّي بـ «الثورة الزراعية» واستقرار الإنسان في المنطقة، حيث إن السنبلة المكتشفة مدجَّنة، بينما يُقدَّر عمر أقدم سنبلة اكتشفت قبلاً بعشرة آلاف سنة، وكانت سنبلة برية.

وتتواصل حاليًا بالمنطقة عمليات البحث والتنقيب والاختبارات بغية كشف المزيد من أسرارها وأسرار الإنسان الذي قطنها.

كتب الأطفال الأكثر بيعًا في معرض الكتاب العربي

احتلت كتب الأطفال تليها الكتب السياسية ثم القواميس والموسوعات المراكز الأولى في مبيعات معرض الكتاب العربي الثاني عشر بدمشق الذي شاركت فيه 338 دار نشر عربية وأجنبية قدمت 34 ألف عنوان.

وحققت النشاطات الثقافية المصاحبة للمعرض إقبالاً جماهيريًا فاق الاهتمام باقتناء

الكتب، حيث شارك في محاضرات المعرض وأمسياته وندواته مجموعة من أبرز الأدباء والكتاب والمفكرين والعرب.

كتب جديدة

ثقافة الطفل.. واقع وآفاق، تأليف مجموعة من الباحثين، تحرير عبدالواحد علواني.

تاريخ القضاء في الإسلام، تأليف د. محمد الزحيلي.

صدر الكتابان السابقان عن دار الفكر

رؤيا الغائب، رواية لسلام إبراهيم، صدرت عن دار المدى.

معجم المسرحيات السورية المؤلفة والمعرّبة 1865- 1989م، إعداد د. هيثم يحيى الخواجة، صدر عن دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

فلسطين

الإيسيسكو تدعو لإنقاذ المؤسسات الثقافية الفلسطينية

أجرت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - مؤخرًا - اتصالات مكثفة مع المنظمات الدولية والإسلامية والعربية لتنسيق الجهود للقيام بحملة دولية ترمي إلى إنقاذ المؤسسات التربوية والثقافية والتعليمية والعلمية في فلسطين من خطر الانهيار التام الذي يتهددها نتيجة لممارسات السلطات الصهيونية.

كما دعت المنظمة إلى وقف العقوبات التي فرضتها سلطات الاحتلال على الشعب الفلسطيني، ووقف الإجراءات التعسفية التي تستهدف المؤسسات الثقافية في فلسطين، حيث أغلقت سلطات الاحتلال بأوامر عسكرية مؤسسات تربوية وتعليمية في مناطق مختلفة من فلسطين مدة ستة أشهر.

تجيء هذه الاتصالات استجابة لنداء عاجل تلقته المنظمة من اللجنة الوطنية الفلسطينية للتربية والعلوم والثقافة.

لبنان

وفاة الأديب واللغوي عفيف دمشقية

فقد الوسطُ الثقافيُّ الفكريُّ العربيُّ المترجمَ الأديبَ اللغويَّ د. عفيف دمشقية، بعد صراع طويل مع المرض عن عمر ناهز 65 عامًا.

يعد دمشقية - المولود في بيروت عام 1931م والحاصل على الدكتوراه من السوربون عام 1972م، والذي عمل أستاذًا بالجامعة اللبنانية، كما تولى منصب الأمين العام لاتحاد الكتاب اللبنانيين بين عامي 1985- 1987م - أحد أبرز المهتمين باللغة العربية والتراث الإسلامي، إضافة إلى إسهامه في مجال الترجمة من خلال تعريف القارئ العربي بكتابات وروايات كبار كُتَّاب العالم عبر ترجمته لأعمالهم، ومن الذين ترجم لهم جورج أمادو، ومرجريت يورسنار، وإسماعيل كادارية.

كما ترك الفقيد مجموعة من الكتب والأبحاث، لعل أشهرها: «الإبلاغية في القرآن» و«المنطلقات التأسيسية والفنية للنحو العربي»، و«أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي»، و«خطى متعثرة على طريق تجديد النحو العربي»، و«الانفعالية والإبلاغية في بعض قصص ميخائيل نعيمة».

كتب جديدة

قِصَر الأمل، تأليف أبي بكر عبدالله بن محمد أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، صدر عن دار ابن حزم في بيروت.

اليهود في تركيا، تأليف صالح زهرالدين، صدر عن دار الصداقة.

أسماء وحرقة الأسئلة، قصائد لصالح الحربي، صدرت عن دار الجديد.

أبواب العشق، مجموعة شعرية لفوزي

رسائل جامعية

«موقف القيادات الإدارية من تفويض السلطة وأثره على إنجاز الأعمال.. دراسة نظرية وميدانية على عينة من قيادات الإدارة الوسطى بمنظمات الخدمات العامة بمدينة جدة»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، تقدم بها عائض سعدون العتيبي.

«أثر الفن الحركي على تصميم المنتجات ذات الصفة الهندسية»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الفنون التطبيقية بجامعة حلوان في مصر، تقدمت بها صفاء إبراهيم عبدالفتاح.

«الصراع بين الشك والإيمان عند الرومانسيين العرب»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب في طنطا بمصر، تقدم بها عبدالستار وصال.

«الإمام حميدان بن حميدان وآراؤه الكلامية والفلسفية»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بمدينة بنها المصرية، تقدم بها السيد عبدالرحمن.

«القيم الروحية في الشعر في عصر المماليك»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، تقدمت بها هدى علي الكومي.

«القص في شعر المقاومة.. مقارنة بين لويس أراجون ومحمود درويش»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدمت بها رانيا فتحي.

«إخراج الإعلان الصحفي في كل من الصحافة المصرية والأمريكية»، عنوان رسالة دكتوراه في الإعلام نوقشت في كلية الآداب بجامعة الزقازيق المصرية، تقدم بها إبراهيم خليل العطار.

«البناء الشعري عند صالح الشرنوبي»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت

الدهان، صدرت عن دار الكنوز الأدبية.

مكانة السيدة مريم العذراء مقارنة بنساء العالمين في القرآن الكريم، إعداد نعمة ناصر الشعراني، صدر عن دار ابن حزم.

دنيا الدين في حاضر العرب، تأليف عزيز العظمة، صدر عن دار الطليعة.

الجواهري: رؤية غير سياسية، تأليف حسن العلوي، صدر عن ميسوبوتيميا للأبحاث والنشر في زحلة.

تونس

تونس عاصمة ثقافية إقليمية

اختيرت العاصمة التونسية «تونس» لتكون عاصمة ثقافية إقليمية للعام الميلادي المقبل 1997م.

وقد أعدت وزارة التربية التونسية روزنامة متكاملة من التظاهرات الثقافية تحت شعار «تونس عاصمة إقليمية 97م» لتنفيذها خلال العام الميلادي المقبل.

من ملامح التظاهرات اشتمالها على برامج ثقافية وندوات عن التربية والتسامح.

كتب جديدة

النص الفكاهي في درس النحو، تأليف محمد صالح بن عمر، صدر عن الشركة التونسية للنشر.

المغرب

مؤتمر الاستشراق والدراسات الإسلامية

تستضيف مدينة تطوان مؤتمرًا دوليًا حول الاستشراق والدراسات الإسلامية تنظمه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) بالتعاون مع جامعة عبدالمالك السعدي خلال المدة من 15إلى 17 رجب الجاري (26 ـ 28 نوفمبر 1996م) بمشاركة مستشرقين ومفكرين مسلمين.

يناقش المؤتمر منهجية المستشرقين بناحيتيها السلبية والإيجابية، ودورهم في إحياء التراث الإسلامي، والاستشراق المعاصر، وحوار الحضارات، وموضوعات أخرى ذات صلة.

جائزة الإيسيسكو للإبداع النسوي

أعلن ـ مؤخراً ـ عن اسمي الفائزتين بجائزتي الإبداع الأدبي النسوي في مجال الشعر والقصة القصيرة لعام 1996م، والممنوحتين من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو).

فازت بجائزة الشعر الشاعرة المصرية علية الجعار عن قصيدتها «إسلام وأمومة»، فيما نالت جائزة القصة القصيرة الطالبة المغربية خديجة يكن، وهي طالبة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك الحسن الثاني بالدار البيضاء، عن قصتها «عندما تنساب كارمينا بورانا».

كتب جديدة

تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، تأليف د. محمد المختار ولد أباه، صدر عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو).

رعشات المكان، ديوان للشاعر محمد عنيبة الحمري، صدر عن دار قرطبة للطباعة والنشر بالدار البيضاء.

تضاريس الزمن الإبداعي، مقالات لمحمد أديب السلاوي، صدرت عن منشورات البوكيلي للطباعة والنشر في القنيطرة.

عوائق النهضة الإسلامية، جـ1، تأليف الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش، ترجمه

في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، تقدم بها مصطفى عبدالشافي.

«تقييم سياسات الاختيار لشغل الوظائف القيادية.. دراسة على عينة من وحدات القطاع العام بمدينة جدة»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة، تقدم بها مرزوق عايد المطيري.

«روايتا: «الأحمر والأسود» للكاتب الفرنسي ستاندال و«عودة الروح» لتوفيق الحكيم»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الألسن بجامعة عين شمس، تقدمت بها إيمان السعيد كامل.

«السلام والأمن الدولي في نظام الأمم المتحدة»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في جامعة ويستمنستر في بريطانيا، تقدم بها أحمد عبدالحميد نافع.

«علاقة الخط بالأشكال العضوية في أعمال الحفر»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الفنون الجملية بالقاهرة، تقدم بها بدرالدين عوض.

«تأثير بعض المتغيرات الطباعية على جودة الصحف المطبوعة بالأحبار المائية»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة ليبزج الألمانية، تقدم بها يحيى زكريا شريف.

«تطور ركن الأطفال فنيًا في الصحف اليومية المصرية»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، تقدمت بها سكينة أحمد الغريب.

«مصابيح الجامع للدماميني من أول: هل تُنبش قبور المشركين ويُتخذ مكانها مساجد، إلى نهاية باب الصفوف على الجنازة.. تحقيق ودراسة»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى، تقدم بها يحيى محمد الحكمي.

«أزمة المياه في الشرق الأوسط وتأثيرها على الأمن القومي العربي والمصري»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، تقدم بها اللواء محمود محمد خليل.

إلى العربية حسين عمر سباهيتش، وصدر ضمن سلسلة (الحوار) عن دار نشر الفرقان والجمعية المغربية لمساعدة البوسنة والهرسك.

تركيا

مؤتمر التقاء الثقافات

نظمت الجمعية الدولية للتداخل الثقافي - مؤخرًا - مؤتمرًا دوليًا في استانبول تحت عنوان «نقاط التقاء الثقافات».

دارت مناقشات المؤتمر حول قواعد الثقافات العالمية، ونقاط التقائها واختلافها في مجالات الإبداع المختلفة، وشارك في المناقشات أكاديميون من مصر، والمغرب، وتونس، والجزائر، وتركيا، والهند، والسنغال، والنمسا، والولايات المتحدة الأمريكية، والبرازيل، واليابان، ونيوزيلندا، وبولندا.

البوسنة

الإيسيسكو تشارك في ترميم كلية الدراسات الإسلامية

تسلمت السلطات البوسنية مبلغ خمسين ألف دولار مساهمة من المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (إيسيسكو) في عملية ترميم كلية الدراسات الإسلامية في سراييفو.

وكانت الكلية قد لحقتها أضرار فادحة من جراء القصف الصربي خلال الحرب التي شنها الصرب على امتداد الأعوام الماضية على البوسنة.

يُذكر أن المنظمة كانت قد أهدت إلى كلية الدراسات الإسلامية في سراييفو - مؤخرًا - مكتبة متكاملة تضم مراجع أساسية في مختلف فنون المعرفة.

أذربيجان

مؤتمر للثقافة الإسلامية

نظمت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالتعاون مع وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الأذربيجانية - مؤخرًا - مؤتمرًا في باكو للثقافة الإسلامية.

رمى المؤتمر إلى تأكيد تأثر الثقافة الآذرية بحضارة الإسلام وقيمه، حيث نوقشت عدة أبحاث حول هذا الموضوع، من أبرزها بحث بعنوان «الإسلام والثقافة الأذربيجانية» قدمه د. رفيق عليوف، تناول فيه الخصائص الرئيسة للتطور الثقافي في أذربيجان قديمًا وحديثًا، وتأثره بالحضارة الإسلامية.

الصين

إسرائيل تعلِّم الصينيين اللغة العربية!!

في إطار محاولاتها لاجتذاب مثقفي الصين ومسلميها، فاجأت إسرائيلُ العربَ بتخصيص منح دراسية للصينيين لدراسة اللغة العربية في معاهدها!!

تشكل هذه الخطوة محاولة لاختراق الثقافة العربية في أعمق أعماقها وهي اللغة العربية، وإظهار إسرائيل في صورة الدولة المتسامحة الراعية للثقافة حتى ولو كانت ثقافة أعدائها.. فهل يتنبه العرب إلى خطورة هذه المنح؟!

بريطانيا

أحدث الكتب

عند دخول البحر، قصائد لنزار قباني، ترجمة لينا الجيوسي وشريف موسى وآخرين، صدر عن دار كانونجيت بوكس في اسكتلندا.

تفتيش: أوراق شخصية، تأليف د. لطيفة الزيات، ترجمته إلى الإنجليزية صوفي بنيت، وصدر عن دار نشر كوارنت بوكس في لندن.

خبط الأجنحة؛ سيرة المدن والمقاهي والرحيل، تأليف أمجد ناصر، صدر عن شركة رياض الريس.

حياة آخر الأنبياء، تأليف الداعية الإسلامي يوسف إسلام، صدر عن دار نشر مونتاين لايف بيليشر.

القدس اليوم: أيّ مستقبل لعملية السلام؟ تحرير غادة الكرمي، صدر عن دار نشر إيشاكا برس.

عبدالوهاب البياتي: ما يبقى بعد الطوفان: آراء، مختارات شعرية، سيرة وحوار، تأليف عدنان الصائغ، ومحمد تركي النصار، صدر عن نادي الكتاب العربي في بريطانيا.

الولايات المتحدة

جائزة أحسن ترجمة من العربية لـ «رباعية الفرح»

فازت ترجمة ديوان الشاعر محمد عفيفي مطر «رباعية الفرح» بجائزة جامعة أركنسو لأحسن ترجمة شعرية من اللغة العربية.

الترجمة قام بتنفيذها فريال غزول، وجون فيرلندن، وسوف يتقاسما الجائزة - وقدرها 15 ألف دولار - مع الشاعر صاحب الديوان، الذي يُنتظر صدوره مترجمًا إلى الإنجليزية في إطار مشروع الجامعة لترجمة الأدب العربي.

فرنسا

متحف للفنون البدائية

أعلن الرئيس الفرنسي جاك شيراك عن اعتزام حكومته تأسيس متحف كبير خاص بالفنون البدائية في باريس.

والفنون المقصودة هي الفنون المهملة حاليًا في باريس، وتحديدًا فنون إفريقيا وأوقيانيا، والفنون الهندية والأهلية في الأمريكتين.

كما يُنتظر أن يتم تخصيص نحو مليار فرنك فرنسي من أجل توسيع «متحف الإنسان» و«متحف الملاحة» الموجودين في قصر «تروكاديرو» بباريس ليحل محلهما «متحف الحضارات والفنون الأولى» المتوقع أن يفتتح أبوابه للزوار في عام 2002م، حيث سيضم المجموعات المبعثرة في إطار واحد، علمي وحديث، إضافة إلى مكتبة وصالتي موسيقى وسينما، ومكتبة فيديو، ومخازن أثنوجرافية ومختبرات.

اليونسكو تكرم سنجور

احتفت منظمة اليونسكو العالمية في مقر المنظمة بباريس ببلوغ رجل الدولة الشاعر المفكر السنغالي ليوبولد سيدار سنجور عامه التسعين، بحضور عدد من المفكرين ينتمون إلى دول من

مختلف قارات العالم.


سنجور

وأقيمت في هذا الإطار ندوة ناقشت أشعار سنجور وآراءه، إضافة إلى ثلاثة معارض قدم أولها كتب سنجور التي تُرجمت إلى ثلاثين لغة، وعرض الثاني من خلال الصور والشهادات المختلفة لمسار سنجور الأدبي والسياسي، فيما خُصِّص المعرض الثالث لنماذج من الفن السنغالي المعاصر.

نشاطات ثقافية وفنية أردنية عام 1997م

تشهد العاصمة باريس خلال عام 1997م تنفيذ عدة تظاهرات وعروض ثقافية وفنية أردنية، اتُّفق عليها خلال زيارة الرئيس الفرنسي جاك شيراك للأردن.

تتضمن البرامج إقامة معرض للفنون التشكيلية والرسم الأردني المعاصر في قاعة بلدية باريس، ومعرض للآثار في معهد العالم العربي، وعرض مكتبة صغيرة تتحدث عن الأردن.

جائزة فرنسا ـ لبنان لـ «دواعي الإمبراطورية»

مُنح الكاتب اللبناني غسان سلامة «جائزة فرنسا ـ لبنان» لعام 1996م عن كتابه «دواعي الإمبراطورية»..

حاز كتاب سلامة الجائزة بإجماع الآراء من بين كتب عديدة رُشِّحت لنيل الجائزة.

أحدث الكتب

التاريخ السري لنعمان عبدالحافظ، رواية محمد مستجاب، ترجمتها إلى الفرنسية نشوى الأزهري وستيفاني دوجول، وصدرت عن دار نشر أكستود.

الدولة والمجتمع في ليبيا، تأليف منصف جزيري، صدر عن دار نشر لامارتان.

الهند المعاصرة، تأليف كريستوف جافريل، صدر عن دار نشر فايار.

التحديات (الجزء الثالث من كتاب: السنوات العشر في حياة ميتران)، تأليف بيير فافييه، وميشيل مارتن رولان، صدر عن دار نشر سوي.

مدن السحر (كتاب تسجيلي تركز حول مدينة سمرقند وأشهر معالمها)، صدر عن المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (اليونيسكو).

صوت آخر من أجل الجزائر، تأليف لويزا حنون، صدر عن دار نشر ديكوفرت.

أساطير أمريكية، تأليف إبراهيم وردة وماري كومبسك، صدر بالفرنسية عن منشورات دوفلين.

روسيا

جنازة رمزية للثقافة الروسية!

شهدت موسكو جنازة رمزية طريفة شارك فيها فنانون ومثقفون، أعلنوا خلالها على أنغام موسيقى «اللحن الجنائزي» لفريدريك شوبان عن «تشييع الثقافة الروسية إلى مثواها الأخير!».

جاءت الجنازة الرمزية احتجاجًا على خفض النفقات المخصصة للثقافة بنسبة 65٪ مع أن احتياجات القطاع الثقافي مهملة منذ سنوات. ورفع المشاركون وعددهم أربعون فنانًا ومثقفًا لافتات كُتب عليها: «يا أعضاء الحكومة: مَنْ منكم حاول أن يستمر في الحياة بـ 300 دولار شهريًا!».

السويد

الفائزون بجائزة نوبل

أُعلنت ـ مؤخرًا ـ أسماء الفائزين بجائزة نوبل لعام 1996م في مجالات: الآداب، والسلام، والطب، والفيزياء، والكيمياء، والاقتصاد.

فازت بجائزة الآداب الشاعرة البولندية فيسلافا شيمبورسكا (73 عامًا) الملقبة بموتسارت الشعر، وجاء في حيثيات قرار اللجنة: إن شعر فيسلافا يعتمد «السخرية الدقيقة لكشف الحقيقة الإنسانية».

وتعد فيسلافا تاسع امرأة تنال هذه الجائزة، وقد بدأت كتابة الشعر عام 1945م بقصيدة عنوانها «أفتش عن الكلمة في الملحق الأسبوعي لجريدة يومية»، وأشعارها ـ عامة ـ تتميز بالأسلوب المصقول الخالي من التكلف، والسخرية الهادئة، والتعبير الرومانسي، وقد أصدرت لها دور النشر البولندية خلال نصف قرن 12 مجموعة شعرية.

كما مُنحت جائزة السلام لكل من الأسقف الكاثوليكي كارلوس بيلو، وجوزيه راموس هورتا، وجاء في حيثيات قرار المنح «لعملها من أجل إيجاد حل سلمي عادل للصراع في تيمور الشرقية».

ونال جائزة الطب كل من: الاسترالي د. بيتر سي. دوهيرتي (56 عامًا)، والسويسري د. رولف. م. زينكر ناجل (52 عامًا) تقديرًا لأبحاثهما الطبية المشتركة التي أجرياها بين عامي 1973ـ 1975م في مدرسة جون كورتن للأبحاث العلمية في كانبيرا بأستراليا، والتي كان لها الفضل في إدراك طريقة عمل جهاز المناعة في الجسم البشري واستدلالاته على الخلايا المريضة، وكيفية رده على الفيروسات والميكروبات التي تخترق المناعة، بما في ذلك مرض السرطان.

ومُنحت جائزة الفيزياء إلى ثلاثة علماء أمريكيين هم: د. ديفيد. م. لي (65عامًا)، د. دوجلاس دي أوشيروف (51عامًا)، د. روبرت. سي. ريتشاردسون (59عامًا) تقديرًا لاكتشافهم فرط السيولة في الهيليوم 3، وهو تقدم رئيس في فيزياء الحرارة المنخفضة، مما جعل التعرّف إلى خصائص هذا الغاز أمرًا ممكنًا، ومن ثم أسهم في دراسة الكثير من المجالات وعلى رأسها الفضاء الخارجي، وأنواع الغازات في المجرات الأخرى.

وفاز الأمريكيان روبت كورل وريتشارد سمولي والبريطاني السير هارولد كروتو بجائزة الكيمياء تقديرًا لاكتشافهم عام 1985م أشكالاً جديدة لعنصر الكربون يختلف فيها ترتيب الذرات.

ونال البريطاني جيمس كيرليز، والكندي وليم فيكري (توفي الأخير بعد إعلان فوزه بأيام)

جائزة الاقتصاد تقديرًا لإسهاماتهما المهمة في الدراسات الاقتصادية المتعلقة بالعواقب الاقتصادية المترتبة على توافر معلومات مالية غير مكتملة.

عربة للثقافة في القطارات

تشجيعًا للثقافة خصصت هيئة السكك الحديدية السويدية عربة للثقافة ضمن عربات خطي مالمو - ستوكهولم، ومالمو - جوتنبورج.

تضم العربة الثقافية مكتبة ومعرضًا يتم استبداله مرة كل شهرين، ويمكن لمرتادي العربة - من خلال مضيفها الخاص - الحصول على معلومات عن النشاطات الثقافية في المناطق التي يمر بها الخطّان، إضافة إلى الاطلاع على الصحف والمجلات والكتب مجانا.

أحدث الكتب

السيرة الذاتية.. دراسة نقدية، تأليف مؤيد عبدالستار، صدر عن دار المنفى.

بلجيكا

الشعر والحلم.. موضوع البينالي العالمي

عُقد - مؤخرًا - في مدينة لييج البلجيكية البينالي العالمي للشعر، تحت شعار «الشعر والحلم».

ترأس هذه الدورة الشاعر أدونيس، وتفرع محور المناقشة إلى ثلاث مسائل: الحلم والتجربة الميتافيزيقية، الحلم والوضع الإنساني، الحلم والمجهول، ومُنحت جائزة البينالي هذا العام للشاعرالأمريكي جون أوشبوري.

يُذكر أن البينالي أسسه عام 1952م أرتورهولو، ويرمي - كما يقول المؤسس - إلى تجاوز الفروق اللغوية والعرقية. واستضاف حتى الآن نحو 1200 شاعر وشاعرة من مختلف دول العالم.

إيطاليا

مكتبات روما مفتوحة 24 ساعة يوميا

أصبح بإمكان محبي الثقافة في روما الحصول على كتاب لقراءته في أي ساعة من ساعات اليوم بعد أن أصدرت محافظة روما قرارًا يسمح للمكتبات العامة والتجارية بفتح أبوابها على مدار 24 ساعة يوميًا.

وتضمن القرار العمل بنظام نوافذ البيع الآلية أسوة بماكينات بيع الدخان وأشرطة الفيديو.

مئوية جان بياجيه

يُختتم اليوم (غرة رجب 1417هـ) في جنيف المهرجان الثقافي الذي أقامته جامعة جنيف بالتعاون مع منظمة اليونسكو العالمية بمناسبة مرور مئة عام على ميلاد جان بياجيه، أحد أبرز علماء التربية والنفس المعاصرين.

وقد تركت أعمال جان بياجيه (1896-1980م) المتميزة علامات مضيئة في ميداني التربية وعلم النفس، ومن أبرز الآراء التي نادى بها وجود مدرسة من دون إكراه، يقوم فيها التلميذ بالاختيار والتجريب لينتهي بنفسه إلى صياغة ما ينبغي أن يتعلمه، عبر مؤلفات مرجعية، وفي غيبة من وجود أية كتب إلزامية.

إسبانيا

جائزة «لارا» لتيرنس مو

مُنح الروائي تيرنس مو جائزة «فرناندو لارا» الأدبية عن روايته الأخيرة «نفرتيتي الجميلة» التي نشرتها دار نشر بلانيتا.

يُذكر أن الجائزة أسسها الناشر الإسباني جوزيه مانويل لارا في العام الماضي في ذكرى مرور عام على وفاة ابنة فرناندو.

معرض دولي للتصوير ومقتنياته

استضافت مدينة كولون - مؤخرًا - لمدة ستة أيام معرض «فوتو كينا»الدولي لتقنيات التصوير، الذي يُعقد مرة كل عامين.

شارك في معرض هذا العام 1500 شركة تنتمي إلى أربعين دولة، قدمت أحدث ما أنتجته مصانعها من أجهزة التصوير الفوتوغرافي والفيديو التقليدية والرقمية للمحترفين والهواة؛ إضافة إلى أدوات التحميض وتقنياته، والإضاءة والمعامل والاستوديوهات والاتصالات المرئية. وعُقدت على هامش المعرض ندوات ودروس عمل لمناقشة آخر ما استحدثه العلم في هذا المجال.

ألمانيا

مجلة ثقافية عربية

أسس الكاتب العراقي صلاح عبداللطيف مجلة ثقافية فصلية عربية أطلق عليها اسم «تافوكت».

ضم العدد الأول من «تافوكت» إبداعات لمجموعة من الكتاب والمبدعين العرب من بينهم: أمجد ناصر، ومصطفى عبدالله، ومحمود شريح، إضافة إلى حوار مع الكاتبة السورية غادة السمان.

جائزة جديدة

أعلنت الحكومة الألمانية عن تأسيس جائزة جديدة للتعليم تحت مسمى «الجائزة الدراسية الألمانية».

ومن المقررأن تُمنح الجائزة في عامها الأول 1997م تشجيعًا للدارسين داخل ألمانيا وخارجها على تجاوز حدود اختصاص أبحاثهم إلى العلوم الأخرى، ويحق للدارسين من داخل ألمانيا وخارجها التقدم لنيل الجائزة التي تصل قيمتها إلى نصف مليون مارك.

أحدث الكتب

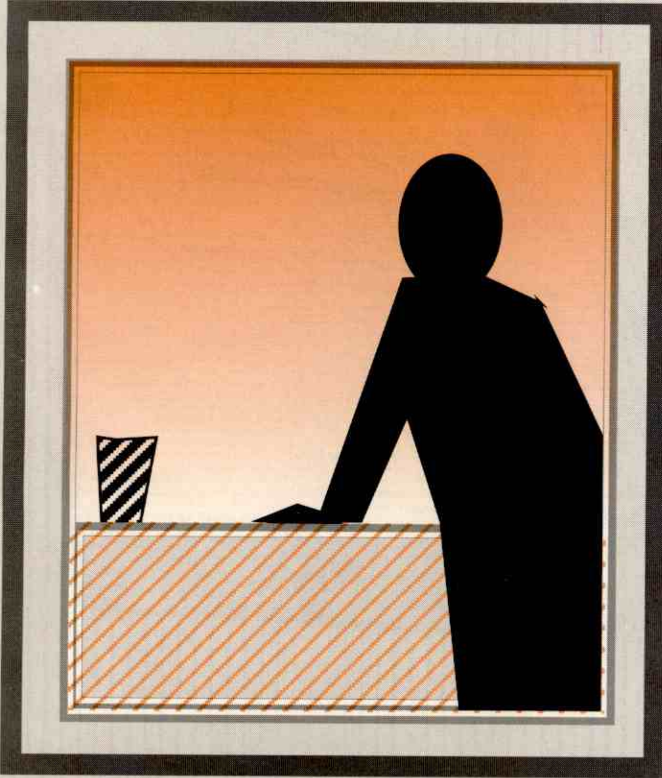
كوميديا الأشباح، رواية لفاضل العزاوي.

سماء وأرض، للشاعر كريستيان مورجنشتيرن، ترجمها إلى العربية فاضل العزاوي.

جورج حنين؛ أعمال مختارة، اختيار بشير السباعي.

صدرت الكتب الثلاثة السابقة، عن منشورات الجمل.

قلبي أبيض هكذا، رواية لخافيير مارياس، صدرت عن دار نشر كليف توتا.



الشظية

رضا إمام

كان وهو متكوّم على نفسه، يرقب من فرجة النافذة ارتعاشات الخطوط الأولى البيض على خيمة الليل الداكن، فقد حان موعدها، ولم يأته صخبها الجماعي الجميل.

القطرون السلطاني وبذور الخله وفصول اللبان، المنقوعة في الكوب، موضوعة كما هي منذ البارحة على حافة النافذة، تنتظر في العراء.

قال له الشيخ: ارم وراء ظهرك كل ما جربت، واتبع تلك الوصفة تكن من الرابحين، هذا الشراب يا بني إن اجتمع فيه الندى وقت شقشقة العصافير الصباحية، فهو الدواء لذات الداء، والشفاء - أكيد - من ربّ العباد. ذَنبُ الشظية لأبدٌ في تلافيف الرأس، منذ أن سقطت على الفصل كتلة الحديد الملتهبة، وملأت النجمة السداسية - التي على ذيل الطائرة - كل فضاءات السماء.

سقطت؛ فزلزلت الأرض، وتبخر من الأولاد من تبخر، ومن بقيت فيه بقية غاصت بقاياه داخل حفرتها العميقة، عيون وآذان وأصابع مفصولة مازالت مطبوعة، تبرق ما بين طباشير السبورة والنوافذ والسقف والأبواب. وهو، عندما أفاق من غيبوبته، كان الجُرح العميق ماثلاً في رأسه، شظية مما تطايرت، تم استخراجها، لكن بعد كل هذا الوقت، ظل الألم رابضًا، متنقلاً من قاع إلى قاع، لا يبرح الجسد. لقد تركت لها في الرأس بقية، قالت الأشعة الصوتية وتحت الحمراء وفوق البنفسجية. والجراحة غير مضمونة، قال المختصون؛ لأنه لا مكان لها بالتحديد، ولا وقت بعينه لتسكعها عبر بوابات الجسد، كل الأماكن، والأوقات ملك لها وحدها.

في المرة الأولى كان قد أعد كل شيء، فتعطلت وسط الشارع العربة «الفورد» الكبيرة، وحينما قامت بعد جهد جهيد، فرّت كل العصافير، طغى صوت محركها على صوت أذان الفجر في كل ميكروفونات الجوامع المحيطة، وتربعت على سطح الكوب طبقة زيتية سوداء من دخان العادم. أحس بها تتحرك، تنخر زوائدها في عصب الدماغ، فيخبط رأسه في الحائط، تهبط إلى قاع العين؛ فيطفر الماء المالح، تنشطر الرؤية، للأذن فينطلق الصفير، العواء. يضع كفًا على عين والأخرى على أذن، يتخبط كما الفراشة من حائط لحائط، يحس بها تنزلق إلى الصدر، فيضغط على صدره بكلتي يديه، يرتدي ملابسه في حركات دائرية سريعة، فتتقاطع ظلال البوابات، مع براويز الحوائط وفراشه المبعثر والمقعد المستدير، والكتب المتناثرة على الطاولة الباهته اللون. حين واجهها؛ أفزعته الفرجة وقد كساها البياض، فخرج للشرفة، جاور الكوب، تطلع للفضاء الشمعي، فهاله السكون المطبق.

حين تدحرجت عيناه عبر امتداد الشارع، لمحه من ظهره، وقبعته العسكرية على رأسه، وماسورة البندقية تلمع على كتفه، وعلى الكتف الآخر كان يتدلى طوق العصافير، ومن خلفه كان يشب الكلب الضخم، ليلعق الرقاب المجذوذة، حاول كتمان الصرخة الفائرة في صدره، لكنها خرجت مشدوخة كالعويل، واندفع من الفم خيط من الدم.



الجزيرة تكفيك



المسائية

تثري مساءك

تصدران يوميا عن «مؤسسة الجزيرة» للصحافة والطباعة والنشر.. ص.ب: ٣٥٤ الرياض: ١١٤١١ هاتف: ٤٠٢٥٥٥٥ .. تلكس ٤٠١٤٧٩ جزاتي اس جي.



الحصيلة اللغوية أهميتها- مصادرها- وسائل تنميتها

دراسة تتناول موضوع اللغة بمفهومها العام ومفهومها الخاص المتمثل في لغة الكلام، ثم العناصر الأولى المكونة لهذه اللغة، ولا يقتصر الكتاب الذي قام بتأليفه د. أحمد محمد المعتوق، على اللغة العربية، وإن كان يجعل منها المحور الأساسي، ولا يتناول القضية من طرف واحد أو بعد واحد، وإنما تناولها من جوانب مختلفة، أحاط بها من أبعاد متباينة.

اعتمد المؤلف منهجًا نظريًا تحليليًا نقديًا، يقوم بصورة أساسية على خلفية قوامها التجربة والعمل الإجرائي، والفحص النظري، والربط بين الواقع العقلي المحسوس، والجانب العقلي المنظور. وقد عالج المؤلف موضوع دراسته من خلال ثلاثة أبواب، الباب الأول: اللغة ومكانة الثروة اللفظية منها، وقد ناقش في الفصل الأول منه تعريف اللغة، وناقش في الفصل الثاني أهمية ثراء الحصيلة اللغوية، وقد جاء الباب الثاني بعنوان: مصادر الثروة اللغوية، وشرحها المؤلف في أربعة فصول، الأول: الاتصال الاجتماعي، الثاني: المادة المقروءة، الثالث: المدرسة، الرابع: المعاجم اللغوية، وخصص الباب الثالث لتناول وسائل تنمية الحصيلة اللغوية وشرح الوسائل من خلال فصلين، الأول: ممارسة النشاطات اللغوية، والثاني: وسائل إجرائية.

يقع الكتاب في 382 صفحة من القطع المتوسط، وقد صدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة.



توظيف العمالة المواطنة في القطاع الخاص: المعوقات ومداخل الحلول

بحث ميداني شارك في إجرائه كل من الدكتور محمد عبدالله الغيث، والأستاذ منصور بن عبدالعزيز المعشوق. وقد حاول الباحثان، من خلال هذه الدراسة، تعرف الأسباب الموضوعية وغير الموضوعية التي أدت إلى بروز مشكلة تدني توظيف العمالة المواطنة في القطاع الخاص السعودي، وأبرزا تداخلات المشكلة وأبعادها، والحلول الملائمة للتعامل مع المشكلة.

وضع الباحثان تسعة معايير أساسية انطلقا منها لإجراء دراسة موازنة تحليلية للأسباب الجاذبة والطاردة للعمالة المواطنة في القطاع الخاص السعودي، والمعايير التسعة هي: التأهيل العلمي والتدريب المهني، والخبرة، والإنتاجية، والتكلفة والتأثير الاقتصادي، والتكيف مع بيئة العمل، والتأثير الاجتماعي، والتأثير الأمني، والمعالجة النظامية، وأخيرًا معيار التوعية.

استخدم الباحثان أسلوب الاستبانة لجمع معلومات البحث، فقد وزّعت 600 استبانة لأرباب العمل والعاملين، من مواطنين ووافدين، في الشركات والمؤسسات. ومن خلال التحليل والموازنة توصل الباحثان إلى أن معظم المعايير التسعة التي انطلقا منها تأتي في مصلحة التوسع في توظيف العمالة المواطنة في القطاع الخاص، كما توصلا إلى أن ما يشاع عن تفوق العمالة الوافدة على العمالة المواطنة، في نواحي الانضباط في العمل وعدم التغيب من دون عذر، والاستقرار في العمل، واحترام أنظمته، وارتفاع مستوى الإنتاجية ليس صحيحا، ولا يقوم على دليل أو برهان.

صدر الكتاب عن الإدارة العامة للبحوث في معهد الإدارة العامة بالرياض 1417هـ- 1996م.



تراتيل للغد الآتي

مجموعة شعرية للدكتور محمد حكمت وليد تضم 31 قصيدة، تناول فيها موضوعات متنوعة، وعالج قضايا عربية إسلامية مختلفة عبّر عن موقفه منها، واستنتج من خلال قراءة الواقع، واستقراء الأحداث، ما قد يحمله المستقبل من تطورات. وقد وظف الشاعر البحور الخليلية والأوزان الحديثة وشعر التفعيلة لمعالجة القضايا التي تصدى لها، وإبراز الصور الشعرية، ومن ذلك في «دموع وآمال»:

أيها القلب المُعَنّى ... لا تسلني كيف كنا
إنني ودعت أشواقي ... إلى ليلى ولُبنى
وأنا اليوم حزين ... أنشد الآهات لحنا
وأنادي كيف بات الـ ... ناس في الدنيا وبتنا
كيف صرنا إمّعات ... خانعات كيف صرنا

وقال في «مدن الصمت»:

مدن الصمت استراحت ... في سرير من حجر
تتمطى في ضجر ... تمضغ العجز قضاء وقدر

المجموعة هي الديوان الثالث للشاعر بعد مجموعتي «أشواق الغرباء» و«حكايات أروى»، وتقع في 259 صفحة من القطع الكبير، وقد صدرت عن دار البشير في جدة.



في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها

كتاب يكشف جانبًا مهمًا من مشاركة العرب في إرساء وترسيخ المنهج العلمي التجريبي في طب الأسنان. وأصل الكتاب مخطوطة نادرة دوّنها رائد الترجمة من اليونانية إلى العربية، حنين بن إسحق العبادي (ت 264هـ)، وقد قام الدكتور محمد فؤاد الذاكري بدراسة المخطوطة وتحقيقها وإخراجها في كتاب هو الأول في موضوع طب الأسنان في التراث العربي.

ووصف الدكتور خالد ماغوط مدير معهد التراث العلمي العربي ورئيس الجمعية السورية لتاريخ العلوم الذي قدم للكتاب، الدراسة بأنها: إضافة نوعية في التراث العلمي العربي والإسلامي، وهو الأول على الصعيدين العربي والأجنبي الذي يُؤلَّف في طب الأسنان عند العرب والمسلمين.

اعتمد الباحث في تحقيقه على نسخة المخطوطة الموجودة في المكتبة الظاهرية - مكتبة الأسد بدمشق -، فضلاً عن النسخة التي اكتشفها الباحث نفسه في مكتبة البودليان بلندن. وقدم في مستهل التحقيق والدراسة تعريفًا بالمؤلف صاحب المخطوطة، ومساهماته في مجال الترجمة والتأليف. واستعرض مضمون المخطوطة الذي قسمه قسمين اثنين، الأول: يدور حول سبل وقاية الأسنان وحمايتها، والثاني: علاجي، دوائي، تناول فيه حُنين بن إسحق الأعراض المرضية التي تصيب الأسنان واللثة، ووصف العلاج المناسب من الأدوية والسنونات. وقد توصل الباحث إلى نقاط عديدة تؤكد أهمية المخطوطة بحسبانها أول عمل مستقل مفرد يبرز في طب الأسنان في الحضارة العربية الإسلامية، كما أفرد الباحث صفحات عديدة تشرح المفردات والمصطلحات الواردة في المخطوطة، كما شرح مفردات الأدوية النباتية، وخصص معاجم لكل من الأدوية المركبة، والأدوية المعدنية، والأدوية الحيوانية، والأطعمة والأمراض السنية، والأدوية والسنونات الواردة في المخطوطة.. وختم دراسته بإيضاح ثبت المراجع.

يقع الكتاب في 150 صفحة من القطع المتوسط، وقد صدر عن دار القلم العربي، دمشق ضمن سلسلة: من روائع الطب الإسلامي.

مسابقة مجلة الفيصل

١ـ جوائز المسابقة :

جوائز كثيرة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ ـ ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريال، ١٥٠ ريال)

ب ـ خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج ـ عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د ـ خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢ـ شروط المسابقة :

أ ـ الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية ـ وليس نسخة مصورة ـ للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثياً أو رباعياً ـ إن أمكن ـ وعنوان المراسلة.

ب ـ ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة «مجلة الفيصل»
ص.ب. (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ ـ أية إجابات تصل بعد ٤٥ يوماً (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د ـ من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد 238

ج1 : ليوم الجمعة فضل عظيم وأثر كبير في حياة المسلمين، وقد ورد أنه خير أيام الأسبوع. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة: فيه خُلق آدم عليه السلام، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة». رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وصححه. وعن أبي لُبانة البدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «سيد الأيام يوم الجمعة وأعظمها عند الله تعالى، وأعظم عند الله تعالى من يوم الفطر ويوم الأضحى، وفيه خمس خلال: خلق الله عز وجل فيه آدم عليه السلام، وأهبط الله تعالى فيه آدم إلى الأرض، وفيه توفى اللهُ تعالى آدمَ، وفيه ساعة لا يسألُ العبدُ فيها شيئًا إلا آتاه الله تعالى إياه ما لم يسأل حرامًا، وفيه تقوم الساعة، وما من ملك مقرَّب ولا سماء ولا أرض، ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة». رواه أحمد وابن ماجة، وقال الحافظ العراقي: إسناده حسن.

ج2 : من المواضع التي نهى الشارع الحكيم المسلمين عن الصلاة فيها: الصلاة عند المقبرة، والصلاة في البيعة والكنيسة، والصلاة في المزبلة، والمجزرة، وقارعة الطريق، وأعطان الإبل، والحمّام، وفوق الكعبة. وإن كان بعض الصحابة والتابعين لا يرون بأسًا في الصلاة في البيعة والكنيسة بعد تنظيفها وتطهيرها، منهم: عبدالله بن العباس، وأبو موسى الأشعري، وعمر بن عبدالعزيز، والشعبي، وعطاء، وابن سيرين.

ج3 : لا يقبل الله ـ عز وجل ـ الصدقة إذا كانت من حرام، كما حثّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين على التصدق من طيب المال، فقال: «أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال عز وجل: *يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم*. وقال: *يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم*.ثم ذكر الرجل يُطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب، ومطعمه حرام،

نتائج مسابقة العدد 238

أ ـ فاز بالجائزة المالية الأولى، وقدرها 500 ريال سعودي، المصطفى بن عبدالسلام أزوين، مراكش، المغرب.

وفازت بالجائزة المالية الثانية، وقدرها 350 ريالاً سعوديًا، سجى عبدالله يوسف، عمّان، الأردن.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها 150 ريالاً سعوديًا، حسن محمد أبو نعسة، البقاع، لبنان.

ب ـ وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (24 عددًا)، كل من:

1ـ سعدية سعد عابد الشريف، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

2ـ محمد عبدالعزيز علي حمزة، القاهرة، مصر.

3ـ عائدة أحمد الحسين عبدالفتاح، الخرطوم، السودان.

4ـ إسماعيل يحيى حسين، تيزي وزو، الجزائر.

5ـ سجى محمد صالح العبوش، دير الزور، سورية.

ج ـ وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (12 عددًا)، كل من:

1ـ غيداء محمد الشقفة، الدوحة، قطر.

2ـ مصطفى ملاطف محمد الوعرة، صنعاء، اليمن.

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)

الاسم: ....
العنوان: ....

أسئلة مسابقة العدد 241

السؤال الأول:

كرَّم المولى - سبحانه وتعالى - الإنسانَ تكريمًا عظيمًا، وحرَّم دمه وماله وعرضه. اذكر آية من كتاب الله - تعالى - في تكريم الإنسان، وآية أخرى تدل على حرص الشريعة على حماية النفس.

السؤال الثاني:

حثَّ الشارع الحكيم على وجوب التزام الجماعة المؤمنة، ونبْذ الفرقة والاختلاف. اذكر ثلاث آيات من كتاب الله - تعالى - تنهى المسلمين عن التفرق.

السؤال الثالث:

حرَّم الإسلام الربا، وتوعَّد المرابين بالعذاب الشديد إن لم يتوبوا. اذكر حديثين شريفين في النهي عن الربا.

السؤال الرابع:

حصن وسجن في مدينة باريس، شُيِّد في القرن الرابع عشر الميلادي، وأصبح رمزًا للاستبداد. حطمه الثوار الفرنسيون في 14 يوليو/ تموز 1789م. ما اسم هذا الحصن؟

السؤال الخامس:

عندما ينتقل شعاع ضوئي من وسط إلى آخر يخالفه في الكثافة الضوئية بحيث يكون مائلاً على سطح الانفصال فإنه ينحرف عن مساره الأصلي. ماذا تُسمَّى هذه العملية؟

ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام فأنَّى يُستجاب له». رواه مسلم. وقال عليه الصلاة والسلام: «من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلاَّ الطيب - فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه ثم يُربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل». رواه البخاري.

ج4: لأمرٍ ما جدع قصير أنفه، أو: لمكرٍ ما جدع قصيرٌ أنفه، مثلٌ ورد في قصة عربيةٍ طويلة تدل على دهاء قصير بن سعد اللخمي، وكان أثيرًا عند جذيمة بن مالك بن نصر الذي يُقال له: جذيمة الأبرش وجذيمة الوضّاح. وهي قصة طويلة، ما نظن أن قصة مثلها حفلت بالعديد من الأمثال التي أطلقها العرب في مواقف مختلفة.

والقصة باختصار هي: أن جذيمة كان ملكًا على شاطئ الفرات، وكانت الزبّاء ملكة الجزيرة. وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها، فاحتالت حتى قدم عليها في ملكها وقتلته، مع أن قصيرًا نصحه بألا يذهب إليها؛ فعصاه جذيمة، وكان مصيره القتل. ثم أراد قصير أن ينتقم لمقتل جذيمة؛ فجدع أنفه وضرب ظهره حتى أحدث به آثارًا، ثم قدم على الزبّاء موهمًا إياها أن ما فيه هو من فعل عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة ووارثه في ملكه، فصدقته وأمنت جانبه. ثم مكث قصير عندها مدة يروح ويغدو عليها بالتحف والنفائس، إلى أن أتاها بعمرو بن عدي وجنوده في الخفاء، ولما أراد عمرو قتلها امتصت سُمًّا كان في خاتم معها، وهي تصيح: بيدي لا بيد عمرو.

والقصة طويلة حافلة بالعديد من الأمثال البليغة، ومن شاء الاستمتاع بها كاملة فليرجع إلى كتاب «مجمع الأمثال» لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، ج1، ص 413.

ج5: السنجاب، حيوان ينتمي إلى فصيلة SCIURIDAE وهي تابعة لرتبة القوارض. وهو حيوان صغير له فراء سميك وذيل كث، وهو نهاري وشجري، يختزن طعامه عادة للشتاء في الأرض أو في قرم الشجر. يستوطن الأمريكتين وأوربا وآسيا وأفريقيا، وعدد أجناسه يناهز الستين، في حين أن أنواعه تصل إلى مئتين وستين نوعًا. يتراوح طوله ما بين 4- 35 بوصة (من 10- 90 سنتيمترًا). له فراء جميل لونه بين الرمادي والأزرق، ومن أشهر أنواعه السنجاب الأوراسي الأحمر.

3- فهد سعد محسن الزهراني، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

4- محمد عبدالله الشيباني لكبار، نواكشوط، موريتانيا.

5- خلود حلاّوي هاشم، البديع، البحرين.

6- الخاتم محمد محمد المهدي، الخرطوم، السودان.

7- ويدراوغو هارون، القيروان، تونس.

8- خالد بن عبدالعزيز العيسى الحصان، الولايات المتحدة الأمريكية.

9- جيهان بكري القبيطري، دمشق، سورية.

10- أحمد بن الحاج محمد خياط، الجزائر العاصمة، الجزائر.

د- كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، كل من:

1- شمس الهدى بن شمس الإسلام، نوشهره، الباكستان.

2- باسل عيد أبو مسيمير، الزرقاء، الأردن.

3- عبدالحميد عبدالله عرواني، العين، الإمارات العربية المتحدة.

4- تهاني الزنفلي إبراهيم علي، الدقهلية، مصر.

5- حسين بن محمد بن عبدالرحمن بن عروس، منزل تميم، تونس.

قسيمة
مسابقة مجلة
الفيصل
العدد 241
مجلة الفيصل - ص.ب: (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

ويأتيك بالأمثال:

أَبْدَى الصَّرِيحُ عَنِ الرِّغْوَةِ

أي وضح الأمر وبان المستتر

قال بعضهم:

ألم تَسلِ الفوارس يوم غولٍ
بِنَضْلة وهو موتور مُشيحُ
رأوه فازدروه وهو حرٌ
وينفع أهلَهُ الرَّجلُ القبيحُ
ولم يخشوْا مَصَالَتَهُ عليهم
وتحت الرِّغوة اللبنُ الصريحُ

أي رأوه فازدروه لدمامته، فلما كشفوا عنه وجدوا غير ما رأوا ظاهرًا.

قالوا:

أنت لست في حاجة إلى أن تنظر في السماء لتقول: آمنت بالله. ولكن يكفي ما تراه تحت قدميك: أية ورقة شجر، أية زهرة، أية حشرة، خذها وتفرَّج على الإعجاز.

أنيس منصور

قَيَّدت الحرب كل شيء إلا لسان زوجتي.

جان جاك روسو

شيخوخة الصقر أحسن من شباب الببغاء.

محسن محمد

لقد أنعم الله عليَّ بما لا أستطيع إحصاءه.

د. زكي نجيب محمود

إن الله موجود، وهو أقرب جدًا مما نعتقد إلى القلوب والعقول والبصائر.

كريس موريسون

إن عظمة الأمة تُستَمَدّ من استقامة الأسرة.

كونفشيوس

ما عناه أبو العلاء

كان أبو العلاء المعري يومًا في مجلس الشريف المرتضى، فقام الأخير بذكر المتنبي منتقصًا إياه، وذاكرًا معايبه، فقال المعري: لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله:

لك يا منازل في القلوب منازلُ
أقفرت أنتِ وهُنَّ منك أواهلُ

لكفاه فضلاً وشرفًا.

فغضب المرتضى وصرف أبا العلاء من مجلسه، ثم قال لمن حوله: أتدرون ماذا أراد الأعمى؟ قالوا: لا. قال: إن للمتنبي أجود من هذه القصيدة، لكنه أراد بذكرها ما قاله المتنبي فيها:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كاملُ

الحق أولى

سُئل أرسطو يومًا: لماذا تناقض أفلاطون، وتمعن في نقده، وتسقط بعض آرائه، على كونه صديقك وأستاذك؟!

قال: نعم هو كذلك، لكن الحق أولى منه بالصداقة.

أفضل الملوك

قيل لكسرى يومًا: أي الملوك أفضل؟ قال: الذي إذا جاورته وجدته عليمًا، وإذا خبرته وجدته حكيمًا، وإذا غضب كان حليمًا، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيمًا، وإذا اشتُكيَ إليه وُجد رحيمًا.

نصيحة

سُئل حكيم عن دعاء يتجه به إلى الله، فقال لسائله: سل الله أن يعصمك من صغر النفس الذي تضخم له الأجسام، ومن ضيق العقل الذي تتسع له البطون، ومن قِصَرِ الأمل الذي تمتد له أسباب الغرور.

من وصايا لقمان

أوصى لقمان الحكيم ولده يومًا فقال: لا كنز أنفع من العلم، ولا ثروة أربح من الأدب، ولا قرين أزين من العقل، ولا غالب أقرب من الموت، ولا عار أقبح من البخل.

أطول رحلة

سُئل الكاتب والفنان الفرنسي جان كوكوتو عن أمتع لحظات حياته فقال: تلك التي أقضيها مع كتاب جديد ممتع، فقيل له: وماذا تصنع في أوقات فراغك؟ قال: أبحث عن كتاب جديد لأقرؤه! قيل: ومتى تكتب إذن؟! قال: عندما أشعر أن رأسي قد امتلأ، ولم يعد يتسع للمزيد من المعرفة، عندئذ أبدأ في تفريغ الوعاء، لكي أفسح مكانًا للون جديد من ألوان العلم والمعرفة، إن الكتابة هي المحطة التي يتوقف عندها الجواد المتعب لكي يستريح، ثم لا يلبث بعدها أن يستأنف نشاطه من جديد، إن القراءة هي أطول رحلة في التاريخ.

من نوادر شو

قيل لبرنارد شو يومًا: لقد فقدت الناقدة روث قدرتها على الكلام، لعل هذا مدعاة لسرورك. قال: تمامًا، فإنها آفة إنسانية لا تستحق نعمة النطق!

الوقت بحساب الفلوس

كان الرئيس الأمريكي الأسبق هاري ترومان مشهورًا بأنه «بلاعة فلوس» لا تشبع أبدًا، وحدث أن كان يومًا يتحدث عن السياسة مع بعض الطلاب، فسأله أحدهم: كيف أبدأ الاشتغال بالسياسة يا سيدي؟! قال ترومان: لقد بدأت بالفعل يا عزيزي، فأنت تنفق الآن وقت وأموال شخص آخر!

ثلاثة ضحك منهم

قال أبو الدرداء: أضحكني ثلاثة: مؤمل في الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول

استراحة العدد

عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أراض الله عنه أم ساخط عليه.

بخيل

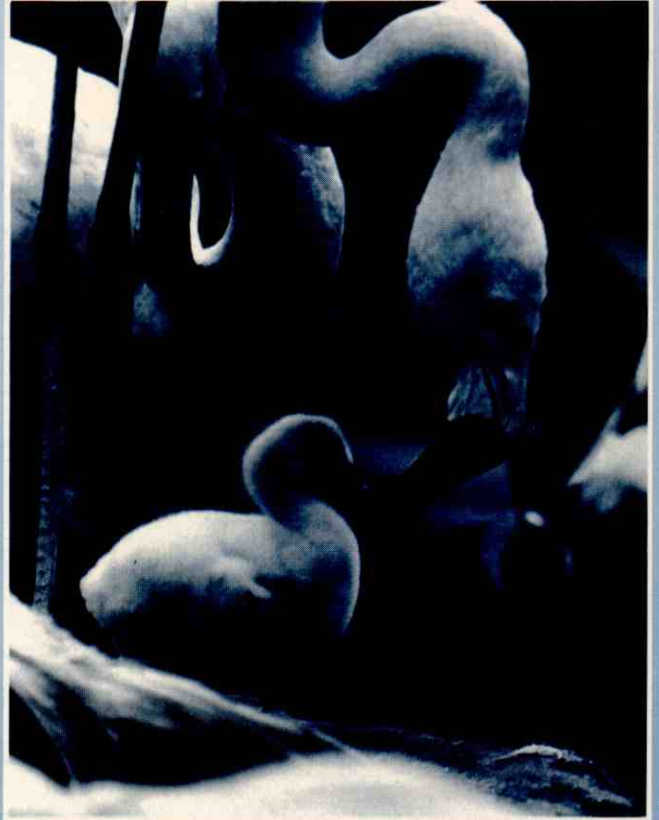
اشتهر السيناتور الأمريكي تيودر جرين، عضو مجلس الشيوخ عن رود أيلاند ببخله الشديد برغم ثرائه الطائل. وقبل وفاته قال صحفي لأحد مساعدي السيناتور الذي يبلغ التسعين من عمره: ألا تستطيعون إقناع السيناتور بأنه لن يأخذ الأموال معه عند رحيله عن العالم، فيأمر - على الأقل - بصرف عدة ملايين للأعمال الخيرية؟! قال المساعد: لا يا سيدي إننا لا نستطيع حتى إقناعه بأنه سيضطر إلى الرحيل عن الدنيا يومًا!!

خُلق الإسلام

ذهب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ومعه غلامه قنبر يومًا إلى السوق، ووقفا أمام غلام يبيع أثوابًا، فقال له عليّ: يا غلام، أعندك ثوبان بخمسة دراهم؟! قال: بلى. فأعطى علي - رضي الله عنه - غلامه قنبر ثوبًا بثلاثة دراهم، وأخذ لنفسه الثوب ذا الدرهمين، فقال له قنبر: خذ هذا أنت يا أمير المؤمنين، فأنت تعلو المنبر وتخطب الناس. فقال الإمام: لا، بل هو لك، فأنت شاب ولك نبرة الشباب، وأنا - والله - أستحي من ربي أن أتفضل عليك، وقد سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «ألبسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تأكلون».

الأكثر ضجيجًا

تُعَدّ قردة «الواتا»، وموطنها وسط أمريكا وجنوبها، أكثر الحيوانات ضجيجًا، إذ إن ذكورها مزودة بتجويف عظمي في القصبة الهوائية يحدث دويًا هائلاً عند صراخها الذي يشبه مزيجًا من عواء الكلب ونهيق الحمار، فإذا تجمع فريق من هذه القردة واشتركوا في الصياح أمكن سماع صياحهم بوضوح من على بعد 16 كيلاً.



الأمومة.. نهر يفيض بالحنان.. حتى في عالم الحيوان!

نوادر الزمان

قيل لحكيم: ما نوادر زماننا؟ قال: هي كثيرة، إلا أن أبرزها: من طلب في هذا الزمان عالمًا غير عامل بعلمه، بقي بلا علم، ومن طلب طعامًا بلا شبهة بقي بلا طعام، ومن طلب صديقًا بغير عتب، بقي بلا صديق.

الوالي والشاعر واللص

يُروى أن الخصيب بن عبدالحميد كان واليًا على مصر، وأتاه يومًا شاعر ومدحه فلم يعطه شيئًا، وانصرف الشاعر فلقيه لص شهير في عرض الطريق، أمسك به وطلب منه أن يعطيه مما أعطاه الخصيب وإلا...

فلما صارحه الشاعر بأنه لم يعطه شيئًا، لم يصدقه اللص وأخذ يضربه بالعصا حتى أدمى جلده، ثم أوصله إلى قصر الخصيب، فدخل الشاعر وأنشده، فلم يعطه شيئًا، فبكى الشاعر بكاءً مرًا، مما حدا بالخطيب أن يسأله عن سر بكائه، فأخبره بما حدث له على يد اللص، ورجاه أن يمنحه شيئًا ليعطيه اللص المتربص به في الخارج. فضحك الوالي، وأعطاه مبلغًا له وآخر ليقدمه إلى اللص!!

القصيدة طفل

سُئل الشاعر كارل ساندبرج، عندما طلبت منه إحدى المجلات أن يكتب لها مجموعة من القصائد على غرار قصائده المشهورة عن الحياة في مدينة شيكاغو، ماذا هو صانع؟ فقال: هل سبق لكم أن سمعتم عن أمر يصدر إلى امرأة حامل بأن تلد طفلاً ذكرًا له شعر أحمر؟! إنه شيء من صنع الله، والقصيدة طفل لا أحد يعرف - حتى صاحبها - متى تُولد، وكيف سيكون مولدها.



يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع.
وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.

أهازيج الصمت

شعر: يوسف عبدالله العبد الكريم

الرياض

أخشى الكلمات إذا كانت ... عينانا تتناجا سرا
فلهنّ حديث يغنيني ... عن شجن تبعثه الذكرى
وبهن غموض ومعانٍ ... ما تفتأ تملأني سحرا
لا أعجب منها تسكتني ... وبصَمْتٍ تبني لي جسرا
قيد الكلمات يعذّبني ... وسكوتي يطلقني حرّا
فأذوب بشوقي لا أدري ... لحظات مرت أم دهرا
لا تخشي مني وانطلقي ... يكفينا يا روحي صبرا
فحديثُ الناس وهمسُهمُ ... وعيون ترمقنا شزرا
قدرٌ مازال يعذبنا ... يجرحنا.. يبعدنا قسرا
لا تكتئبي يا فاتنتي ... فالناس لهم دنيا أخرى
فتعاليْ ننسج ملحمة ... في العشق أساطيرًا تروى
وهلم نصوغ أمانينا ... أبياتًا ننشدها شعرا

التعليق:

«أهازيج الصمت» أبيات نُسجت في بحر المتدارك وقافية المتواتر. استهلّها الناظم بخشيته من الكلمات إذا تناجت عيناهما سرًا. وأكّد أنّ حديثًا لهما يغنيه عن ذلك الشّجن الّذي تبعثه ذكراه. وإنّه يملؤه سحرًا من غموض تلك العينين ومعانيها التي تخفيها. وهو الّذي مُلئ سحرًا فلا يعجبُ والكلمات تُعذّبه، ويصمت وهو ذائب بشوقه، ولا يدري أهو دهرٌ مَرَّ أم لحظاتٌ. وهو الصّابر. وبدأ النّاس يتهامسون وهنالك عيون تنظر إليه شزرًا. وما زال في عذابه وهو الّذي أُبعد قسرًا. ثمّ بدأ مخاطبًا لها لتطمئنّ وتترك الكآبة والحزن، لأنّ دنيا النّاس دنيا تختلف تمامًا. ثمّ طلب منها أن تُقبل كي ينسجا ملحمة في العشق تُروى أساطيرها على الألسن، ثمّ يصوغانِ الأماني أبيات شعر تُنشد وتُروى.

وقد جاء استهلاله لأبياته متماسكًا جيّدًا في مطلع الأبيات؛ حيث صمت عن الكلام وأفسح المجال للعيون كي تتحدّث، وكان هاشًا باشًا فرحًا، ولكنّ الكآبة بدأت تدبُّ في روحه وسط

الأبيـات، وبدأ يُسلّي نفـسه بالـصّبـر. ولكنّ مناجاته لم تفـتر ولم تهدأ، إلى أنْ ختم أبياته يطلب منـهـا أن تسـعى للمـجـيء ويكتبـانِ أبيات شعر من الأماني.

ولعلّ المآخذ التي تؤخذ عليه، هي أنّه في بيته الحادي عشر جاء عجزه:

في العشق أساطيرا تُروى

وفي هذا عـيبٌ من عيـوب القـافيـة وهو الإكفاء الذي هو اختلاف حرف الرّويّ في قـصـيـدة واحـدة، وأكـثـر مـا يقع ذلك في الحروف المتقاربة المخارج مثل قول جواس بن هزيم:

قُبّحتِ من سالفةٍ ومن صُدغ
كأنّها كشية ضبٍّ، في صُقع

ورويّ أبياتك يا يوسف راءٌ. ويمكنك أنْ تقول: في العشق أساطيراً تترى!!

وها هو السَّهم مشـدودٌ على قوسك فما عليك إلاّ أن تحدّد جـبهة رميك وتتّخـذ اللّغة ميدانًا فسيحًا تجري فيه إطلاقها.

د. محمد أحمد سليمان إدريس



متابعات

الأخ غاندي عبدالباقي عوض الله، مدني، السودان:

امتلاك ناصية اللغة يحتاج إلى جهـد طويل، وهذا ما ننصحك به، وقصيـدتك «التوق إلى الوطن» فيها مـا يبشر بمولد شاعر، إذا ما واظبت على المسير في الدرب من دون تكاسل أو ملل.

الأخ جبر ع.ج، الدوحة، قطر:

نشكر لك ثناءك على المجلة، أما بخصوص مـوضوعك «رسالة العانس الجميلة»، ففيه خـصوصية لا تتناسب مع رسالة مجلة عامـة، وإن كنا نحييك على جـمال الأسلوب وسلامة اللغة، ونأمـل أن نتلقى منك مشاركات أخـرى قريبًا. ونأسف إذ لم نرد عليك كتابيًا كما طلبت في رسالتك.

الأخ علي مدني رضوان الخطيب، قنا، مصر:

موضوع مـقالتك «ثروات مهدرة» كان يسـتحق منك عمقًا أكـثر في التناول، فعدم الجـدية والتسرع وذبول المواهب، كلها حقائق في حياتنا، تقتضي منا بحثها ودراستها بعمق وموضوعية، فنأمل أن تقوم بذلك مستقبلاً.

الأخ عثمان بيطار، جامعة دمشق، سورية:

قصـيدتك «عـيناك» تخالف في بنائهـا تقاليـد الشعـر العربي في أهم عناصره، وهو المحافظة على وحـدة القافية التي اخترقتهـا بعد البيت الخامس، فجاءت قوافيك متعـددة: فهي كافية تارة، وقافية تارة، وميمـية ودالية مرات أُخرى، فضلاً عن تكرار كلمة «عيناك»، وعدم التقيد بالوزن في بعض المواضع.

الأخ جعفر علي الخلف، العمران، الأحساء:

خاطرتك «بعـد الغروب» غيـر محكمة البناء الـدرامي، ولاسيما فـي القسم الأخيـر منها، كـمـا أن بها بعض الأخطاء النحوية التي ينبـغي أن تتفاداها في المرات القادمة، ولـن يكون ذلك إلا بالمواظبة على القراءة، والمداومة على مـعرفة قواعد النحو العربي، حتى تأتي لغتك سليمة في بنائها، سلسلة في أسلوبها.

الأخ شفيق مثبوت، جبلة، سورية:

لك أسلوب جمـيل، ولغة لا بأس بهـا، إلا أن موضوعك الذي اخـترته لا يرقى إلى مـستوى النشـر، فنأمل أن توظف ملكاتك اللغـوية والأسلوبيـة في موضـوعات تجـذب القـارئ، وتكون محـور اهـتمـامـه، ونأمل أن يكون ذلك في القريب، إن شاء الله.

الأخ محمد بن سالم بن عمر، حمام الأنف، تونس:

موضوعك «جدلية الاستكبار والتخلف» يكاد يكون موعظة مدعـمة بالآيات القرآنية أكثر منه قصة، كما أن أسلوبك وعظي إرشادي. ونحن إذ نشيد بغيرتك الدينية؛ إلا أن المباشرة في الخطاب ـ كما تعلم ـ لا تؤدي الغرض المنشود منها، ما لم يكن الخطاب محكمًا في بنائه سلسًا في أسلوبه، ونتوقع أن يتم ذلك في محاولات أخرى.

الأخ عبدالله هادي العلفي، صنعاء، اليمن:

في قصيدتك «سعادة بائس» نفس شعري حسن وروح إسلامية وثابة، غير أنك تميل في بعض الأحيان إلى نحت صيغ حروفية عـلى غير ما ألف العرب في النحت، وقد يكون ذلك لـلضرورة الشعرية، إلا أن امتلاك ناصية اللغة يغنيك عن اللجوء إلى مثل هذا النوع من النحت.

الأخت سوسن محمد أحمد الحبيشي، صنعاء، اليمن:

بَدأَت قصتك ـ التي لم تضـعي لها عنوانا ـ بالإرشاد، وختمتـها بالوعظ والتوجه باللوم إلى ذوي القلوب القـاسية، أما قصّة «البقرة» فقد جاء رتيبة السياق، فاترة الحل. فنأمل مداومة القراءة والإطلاع في هذا الفن، حتى تمتلكي أدواته، ويكون في مقدورك التعبير عن نفسك من غير تقليد لأحد.

الأخت جميلة شحادة، دمشق، سورية:

قصتك الأولى «الـغمامة» طويلة تحتـاج إلى حبكة محكمة أكـثر مما صنعت، لأن الحل المفاجئ الذي انتهـت به القصة لا يتوازى مع التطويـل والإسهاب الذي لجـأت إليه في صلب القصـة، أما اللغة فـلا بأس بها، وإن كـانت بعض الجمل تحتاج إلى إحكام أكثر. والقصة الثانية «الإحسان والغيرة» التي تناقش ظاهرة الغيرة في المجتمع الريفي، لم تحسني فيها اختيار الأشخاص الذين يديرون الصراع، ويحملون الفكرة، فلهذا لم يأت الحل مقنعًا، وكانت الخاتمة ضعيفة.

رُدُودٌ خَاصَّة

الأخ عبدالعزيز قحطان الحداد، أب، اليمن:

سوف ندرس طلبك بزيادة نسخ المجلة التي توزع في اليمن، وهناك طلبات وردت من أقطار عربية أخرى، مما يستدعي دراسة وافية لتلبية هذه الرغبات الكريمة من القرّاء الأعزاء على امتداد عالمنا العربي. أما طلبك الأعداد الماضية من المجلة، فيصعب تلبيته لكثرة هذه الأعداد، ولكن سوف نحاول إرسال بعضها إليك في القريب، إن شاء الله،.

الأخ محمد كوداد، وهران، الجزائر:

العدد المتضمن ملف الترجمة صدر في شهر جمادى الأولى ورقمه 239، ونشكر لك مساعيك التي بذلتها للحصول على هذا العدد، وذكرتها في رسالتك. ونأمل أن تجد في هذا الملف مبتغاك الذي بذلت من أجله كل ذلك الجهد، ونشكر لك ثقتك بالمجلة.

الأخ محمد بن سالم بن عمر، حمام الأنف، تونس:

نشكر لك كلمتك المعنونة «النقد الأدبي ضرورة حضارية»، وكنا نأمل منك تناول هذا الموضوع بعمق أكثر حتى يجد طريقه إلى النشر في المجلة، ونظن أنك قادر على ذلك. فمرحبًا بمشاركاتك التي نتوقعها في القريب.

الأخ خيال جيلالي، وهران، الأخت نبيلة جلال، البويرة، الجزائر:

التعارف بين قُرّاء مجلة «الفيصل» يتم من خلال تبادل الأفكار والحوار على صفحات المجلة حول قضايا الفكر والعلم. ونعتقد أن هذا أفضل تعارف يمكن أن يتم، لذلك لا نجد ضرورة لوجود ما يُسمَّى «ركن التعارف» وغيره، مما درجت عليه بعض المجلات.

الإخوة: السيد عادل ناجي السودي، اليمن، تركي عبدالله المعراجي، الرياض، سمير الجميلي، بنزرت، تونس، يعقوب أحمد دوكارا، كلية أمين كانو للدراسات الشرعية الإسلامية، نيجيريا:

كتاب الدكتور علي شلش «الأدب المقارن بين التجربتين الأمريكية والعربية» قيمته 15 ريالاً سعوديًا يمكن إرسالها أو ما يعادل قيمتها بالدولار الأمريكي بشيك على عنوان المجلة.

الإخوة: أحمد المطيري، الكويت، إبراهيم طاهر، كوماسي، غانا، محمد أحمد الرقيوق، شفشاون، المغرب، مزوز موسى، حبش لطفي، أولاد جلال، الجزائر:

نشكر لكم ما ورد في خطاباتكم من كلمات إعجاب وإطراء، ونأمل أن تكون المجلة دومًا عند حسن ظنكم بها، ومرحبًا بمشاركاتكم واقتراحاتكم التي سوف تثري المجلة، وتعين على تطويرها.

الأخ كمال أحمد آدم عبدالصمد، نيالا، دارفور، السودان:

سوف تصل إليك بعض أعداد المجلة حسب طلبك، ولكن نعتذر من عدم القدرة على تلبية الطلبات الخاصة بالكتب والمراجع العلمية، فهذا ليس في استطاعة المجلة، فنأمل المعذرة، وشكرًا على حسن ظنك وثقتك.

الأخت ريمة محمود الحصري، دمشق، سورية:

أحيل طلبك إلى القسم المختص، وسيتم الرد عليك بريديًا.

الأخت إلوالى محمد، فرنسا:

نشكر لك ثقتك بالمجلة، ونعتذر من عدم القدرة على تلبية طلبك، مقدرين مشاعرك في ديار الغربة، ونرجو أن يوفقك الله إلى ما تريدين.

الأخ سائر عوض بذارة، إدلب، سورية:

نفضل دائمًا أن يرسل الكاتب مقالته أولاً، حتى يمكن تحديد موقفها من النشر، إذ يتم إبلاغه كتابيًا بذلك، أما شروط النشر فمدونة في صفحة 3 من المجلة، ولا يتم تحديد مكافأة للكاتب قبل النشر، وإنما تطبق قواعد خاصة بذلك تعتمدها المجلة.

الأخ محمد عبدالمحسن الحربي، المدينة المنورة:

نشكر لك ثناءك على العدد 236 المتضمن للكتيب «الفيصل.. الملك الإنسان» لصاحب السمو الملكي الأمير الشاعر خالد الفيصل. أما طلبك إجراء استطلاع عن المدينة المنورة يتناول تاريخها عبر العصور؛ فهذا اقتراح يستحق الاهتمام، وسوف نرسل إليك بعض الأعداد التي تناولت جانبًا من تاريخ هذه المدينة الطاهرة على ساكنها أزكى الصلاة والسلام.

الأخ جامع بشير، ولاية قالمة، الجزائر:

أحيلت رسالتك إلى القسم المختص لبحث شكواك من عدم وصول الأعداد الخاصة بالاشتراك، وسوف تصل إليك الأعداد السابقة ابتداءً من تاريخ سريان الاشتراك.

الأخ محمد علي مشوط الأحمري، بللسمر، أبها:

نشكر لك اقتراحاتك، وسيتم بحث إمكان تنفيذ بعضها حسب خطة التحرير، ومرحبًا باقتراحات جميع الإخوة القُرّاء.

الأخ عبدالكريم العجم، دمشق، سورية:

ما يكتبه الدكتور حسن ظاظا عن الفكر اليهودي هو سلاح فكري وثقافي ينبغي أن نتزوَّد به في عصر الانفجار المعلوماتي الذي يتطلب وعيًا فكريًا للتعامل مع الآخرين بما يحفظ للأمة شخصيتها وهويتها.

بين القارئ والقارئ

أرجو من قراء الفيصل الأفاضل مساعدتي في الحصول على مجلة «الهلال» المصرية عدد أول يوليو من السنة الأولى 1883م، الموافق 17/ 12/ 1310هـ، وكذلك مجلة «تراث الشعب» الصادرة من طرابلس - ليبيا عدد ديسمبر 1983م، وإن شاء الله سأرد على الواهب بمثل مبادرته الكريمة.

محمد العلوي الباهي
73 مجموعة 3، ساحة الطيران
ص.ب 98، مدينة تازة، المغرب

أرغب في زيادة حصيلتي من المعرفة الدينية والفكرية، وآمل أن يهدي إليَّ قراء «الفيصل» كتابين: الأول يتحدث عن «القرامطة»، والآخر يتناول سيرة «الحاكم بأمر الله».

محمد حسني منصور
دمشق، ص.ب 14125، سورية

أرجو من قراء الفيصل الكرام، والإخوة المغاربة منهم خاصة، تزويدي بالأجزاء 18، 20، 22، 23 من كتاب «التمهيد» لابن عبدالبر، الطبعة المغربية، وإني على استعداد لتقديم أي شيء مناسب مقابل ذلك.

عبدالله التميمي
ص.ب 488 الرمز البريدي 31411
الدمام، السعودية

أرجو من قراء الفيصل الأكارم مساعدتي في الحصول على ديوان الشاعر أبي الفتح محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك المعروف بكشاجم (350هـ)، تحقيق وشرح وتقديم خيرية محمد محفوظ، وطباعة دار الجمهورية، بغداد 1970م، - أو أية نسخة أخرى - وذلك في مقابل تسديد الثمن، أو المبادلة بكتب ألمانية أو إنجليزية. مع جزيل الشكر والامتنان.

محمد زهير شرف
MOHAMMED ZOUHEIR SHARAF
STOECKLESTER 36/505
72070 TUEBINGEN
GERMANY

ملحوظة:

تهدف هذه الزاوية «بين القارئ والقارئ» إلى إيجاد قناة مباشرة بين القراء أنفسهم لتبادل المعلومات عن الكتب النادرة أو المجلات التي توقفت عن الصدور أو نفدت أعدادها.

عناوين

الأخ هشام مرسي، السيدة زينب، القاهرة، مصر:
«الهداية» مجلة تصدر عن وزارة العدل والشؤون الإسلامية في دولة البحرين، وعنوانها:
ص.ب 450، المنامة.

الأخ مازن محمد السيد، دمشق، سورية:
مجلة الثقافة النفسية التي تصدر عن مركز الدراسات النفسية، عنوانها:
بيروت، لبنان.
ص.ب 749 - 11
الهواتف: - 309830
303816

الأخ عبدالكريم صالح الطويل، مسقط، سلطنة عمان:
عنوان مركز دراسات الوحدة العربية:
بناية سادات تاور، شارع ليون
ص.ب 6001 - 113
بيروت، لبنان.
الهواتف: -802234
801587 - 801582

الأخ عثمان نمر، الخرطوم، السودان:
مجلة شؤون عربية تصدر عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وعنوانها:
جامعة الدول العربية،
ص.ب 11642
ميدان التحرير، القاهرة، مصر.
الهواتف: - 5752966
5750511
فاكس: - 761017
5740331

إيضاحات

تعتذر المجلة سلفاً من عدم تقديم اشتراكات مجانية، ومن عدم التجاوب مع طلبات للحصول على إصدارات أخرى (كتب ومجلات) لاعلاقة لها بها.

المسائل الشخصية كطلب وظائف أو مساعدات مالية أو إعانة على زواج، أو ماشابه ذلك والتعارف بين هواة المراسلة، ليست من اختصاصات المجلة ولا اهتماماتها، ومن حقها عدم الالتفات إلى رسائل تختص بهذه الأمور أو الرد عليها.

يتعذر على المجلة الرد الشخصي البريدي على جميع القراء الذين يراسلونها وذلك لكثرة الرسائل، وتكتفي بالرد عليهم من خلال «ردود خاصة»، أو بنشر مشاركاتهم في الصفحات المخصصة لذلك.

الرسائل ذات العلاقة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية أو بأي نوع من خدماته، يُرجى توجيهها إليه مباشرة على عنوانه: ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية.

عند مراسلة الصفحات المخصصة للقراء (مناقشات وتعليقات، بريد، المسابقة، تباشير، ردود خاصة - بما في ذلك زواياها الجديدة: بين القارئ والقارئ، عناوين) يرجى ذكر اسم الباب أو الزاوية على المظروف، مع شكرنا للجميع.



خطة عربية لبناء فكر الأمة



أثارت إطلالة رئيس التحرير: «العرب أمة بلا ذاكرة» بالعدد 236 من «الفيصل» الغرَّاء أحزاننا وأشجاننا، وسلَّطت، بعمق ووعي كبيرين، الأضواء على مأساة الوعي العربي المفقود. فالقراءة الصحيحة لما حدث للعرب في القرن العشرين الذي أوشك على المغيب تؤكد أن هناك تداعيات كثيرة تقودنا إلى منزلق شديدالانحدار؛ أبرزها تكاتف الغرب وإسرائيل ضد الأمة العربية ومصالحها الحيوية، لوأد محاولاتها في التقدم والرقي وصنع المستقبل المشرق لأبنائها في كل شبر على الأرض العربية، وذلك لفهم الغرب العميق، ما يعنيه اجتماع كلمة العرب وتوحد أهدافهم، ولنا فيما حدث في حرب العاشر من رمضان ـ السادس من أكتوبر المجيد خير أسوة ومثال.

ومن هنا، فإننا نجد أنفسنا أمام معضلة حقيقية تتجسد في حدة وقسوة ما يُدبَّر ضد أمتنا العربية والإسلامية، وخاصة أن النسيج الاجتماعي والثقافي للكيان الإسرائيلي يتناقض تمامًا مع نسيج الدول العربية كلها، وستظل تؤرقه دومًا صعوبات اندماجه ثقافيًا وحضاريًا داخل النسيج العربي. ولهذا ستظل المحاولات الإسرائيلية لكسب التعاطف الدولي والتأثير في الآخرين لبث سموم الحقد والكراهية ضد الأمة العربية نهجًا فريدًا في التعامل الخبيث، حتى لا تجتمع إرادة الأمة العربية الإسلامية على عمل جدي يقض مضاجع الإسرائيليين.

من هنا، فإن الأمة العربية مُطالَبة اليوم بضرورة وضع خطة شاملة لبناء فكر الأمة تتضمن:

أولاً: تجنب الوقوع فيما تدبره إسرائيل دائمًا، بالاعتداء على دولة عربية ما في محاولة لانتظار رد فعل استفزازي من الدول العربية الأخرى كي تكرر ما فعلته في عام سبعة وستين المشؤوم.

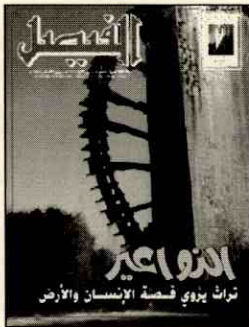
ثانيًا: ضبط النفس دائمًا، وتجميع القدرات العربية في المجالات كافة لتكوين قوة ردع عربية تتمتع بأساليب التقنية الحديثة لضمان ليس التوازن العسكري فقط، بل تحقيق التفوق الفعّال القادر على الردع.

ثالثًا: بناء الإرادة الجمعية للشعوب العربية بنشر الدراسات العلمية والثقافية والتاريخية التي تُعنى بدراسة أحوال اليهود والتعريف بعلومهم وآدابهم وفكرهم التوسعي الصهيوني؛ لخلق أجيال مستقبلية أكثر وعيًا بقضايا أمتهم وأكثر قدرة على مواجهة الدعايات الإسرائيلية المغرضة.

رابعًا: إننا أمام معركة من نوع جديد ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين، معركة بناء العقل العربي والأخذ بأسباب تقوية ذاكرته؛ بدءًا من الذاكرة العربية لأطفالنا في المهد، وحتى الآليات الأخرى كافة التي تحقق لنا المكاسب السياسية والاقتصادية والحياتية التي نأملها.

مهندس/ عبدالمقصود السعيد عبدالمقصود
الإدارة الزراعية بالمنصورة، محافظة الدقهلية
جمهورية مصر العربية

النواعير وقصة التصنيع



بكل السعادة طالعنا العدد 237 من مجلتنا «الفيصل»، وكم كانت تلك الرحلة الشائقة التي صحبنا بها الكاتب وليد قنباز محط إعجابنا وتقديرنا، وقد عرض فيها نشأة النواعير وطريقة صناعتها، وأشهر النواعير في مدينة حماة الجميلة.

يقول الكاتب في الصفحة 11: «ولعل أقدم أثر تاريخي وصل إلينا عن النواعير هو لوحة فسيفسائية للناعورة نفسها عُثر عليها في شارع الأعمدة في مدينة أفامية الأثرية، وهي موجودة الآن في حديقة متحف دمشق، ويرجع عهدها إلى القرن الخامس الميلادي، في حين رأى بعض

الدارسين أنها تعود إلى القرن الثاني الميلادي».
ولتوضيح هذه الفقرة نقول: بعد أن توفي الإسكندر المكدوني (356 - 323 ق.م)، تقاسم كبار قواده تلك الإمبراطورية الشاسعة، فاستقل أنتيغون في مكدونية واليونان وآسيا الصغرى، وكانت مصر من نصيب بطليموس، وكان الشرق من نصيب سلوقس، ويضم بلاد الشام والعراق وبلاد فارس حتى السند، وأخذ أنتيباتر بقية أملاك الإسكندر في أوربا. وقد قام سلوقس ببناء العديد من المدن، فمنها ما حمل اسمه مثل سلوقية (السويدية)، أو اسم أبيه أنطيوخوس (أنطاكية)، أو اسم أمه لاوديسّا (اللاذقية)، أو اسم أحد المقربين إليه، مثل كالسيس (قنسرين)، أو اسم زوجته الأميرة الفارسية أبامي (أفامية). وهناك العديد من المدن التي حملت اسم أفامية: أفامية كيبوتوس وأفامية زوغما البابلية على نهر دجلة شمالي العراق، وأفامية راجيانا في شرقي إيران، وأفامية العاصي في شمال غربي بلاد الشام التي تبعد من مدينة حماة نحو 95 كم إلى الشمال الغربي. وأفامية العاصي هي التي وُجدت فيها لوحة الناعورة. وتشير أغلب الدراسات إلى أن تلك اللوحة تعود إلى القرن الثاني الميلادي، وأن تاريخ إنشاء شارع الأعمدة(1)، الذي وجدت فيه اللوحة يعود إلى 116 - 117م في قسمه الشمالي، وبقية الأقسام إلى أعوام 138-169م. إن هذا الشارع يبلغ طوله 1850م، أما عرضه فهو 22,5م وعلى جانبيه رواقان عرض كل منهما 7,5م، وهما مبلطان بالفسيفساء، ويستند كل رواق إلى صف من الأعمدة التي يبلغ ارتفاعها مع القاعدة 10,5م وقطر كل عمود منها 120سم، وعددها على الجانبين 1200 عمود. إن ضخامة هذا الشارع وفخامته هما اللذان أعطيا أفامية العاصي شهرتها العالمية.
ويُعدّ القرن الثاني الميلادي من التاريخ الروماني من أهم الحقب من الناحية العمرانية، وقد توافرت الثروات الطائلة لدى الرومان الأمر الذي ساعدهم على الإكثار من الآثار العمرانية. وقد تأثر الفن الروماني بالفن اليوناني، واستخدم الرومان الأعمدة اليونانية: الدورية البسيطة والأيونية والكورنثية والمزيجة، كما طور الرومان تلك الأعمدة بإدخال الكثير من التزيينات على تيجانها وقواعدها، واهتموا بزخرفة الجدران والسقوف على شكل نقوش أو فسيفساء تمثل مناظر الطبيعة أو بعض الأساطير، وقد قلّد الرومان مشاهير النحاتين الإغريق أمثال ميرون وفيدياس، بإبراز جمال الجسم الإنساني وحركته. وجاء في الصفحة 12: «هناك مراحل زمنية طويلة مرت بها الناعورة، حتى اتخذت شكلها النهائي». ويرى أغلب الباحثين أن الناعورة اخترعت واستعملت في بلاد الشرق، وأن العلوم والمعارف اليونانية تأثرت بمعلومات ومعارف حضارة وادي النيل والحضارة البابلية، وقد قال آدم متز، إن «هذا النوع من المنشآت الذي يحتاج إلى تيار ماء سريع اختُرع في سورية منذ عهد باكر، ثم انتشر بسرعة بفضل العرب».
ويجمع أغلب العلماء على أن العرب من الشعوب السباقة والمتفوقة في استخدام الطاقة المائية، لتشغيل المطاحن وعصر الزيتون والسيرج وقصب السكر...، وقد اشتهر الكثير من العلماء العرب في هذا المضمار، منهم الرياضي الفلكي المهندس قيصر بن أبي القاسم المتوفى في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. ويعدّ هذا العالم الأكثر تألقًا في أذهان المعنيين بالتقنية العربية الإسلامية. وفي عام 1974م أصدر المستشرق الإنجليزي المهندس دونالد هيل الترجمة الإنجليزية لمخطوط المهندس بديع الزمان أبي العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري، مع مقدمة عن التقنية الإسلامية، فأحدث الكتاب ضجة في الأوساط العلمية العالمية، وقد قام معهد التراث العلمي العربي في حلب بإصدار هذا الكتاب عام 1979م. وقد كني المهندس بديع الزمان بالجزري، لأنه من أبناء الجزيرة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، عاش في مدينة آمد من ديار بكر، في النصف الثاني من القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري، أي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادي. وقد ألف هذا العالم كتابه القيم «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل». وتكمن أهمية هذا الكتاب في الرد على بعض الباحثين الذين عابوا التقنية الآلية العربية، وهو يبحث في الساعات وآلات رفع الماء والأبواب والأقفال وغيرها من الأشياء. مما حدا بسارتون لأن يعده أكثر الأعمال تفصيلاً في مجاله، ويمكن عدّه الذروة في هذا المجال بين الإنجازات الإسلامية. أما المستشرق المهندس دونالد هيل، فيعد كتاب الجزري وثيقة لم تقدم الحضارة البشرية مثيلاً لها حتى وقت قريب. فيقول: «لم يكن بين أيدينا حتى العصور الحديثة أي وثيقة من حضارة أخرى في العالم، فيها ما يضاهي ما في كتاب الجزري من غنى في التصاميم وفي الشروحات الهندسية المتعلقة بطرق الصنع وتجميع الآلات». لقد كان هذا العالم الفذ مبدعًا في فن الرسم الصناعي، وفي وصف أدق الآلات وأكثرها تعقيدًا، بلغة علمية دقيقة واضحة، في حين أن أقدم منشأة مائية مشابهة في الغرب هي تلك التي وصفها اغريكولا عام 1556م، أي بعد قرنين ونصف القرن من منشأة الجزري التي وصفها، بأنها ساقية ذات زنجير ودلاء تدور بمحرك مائي بالمسننات المتعامدة(2).
وختامًا نقول: إن عصيان نهر العاصي بأن يسقي تلك الحدائق والأراضي، ولم يصبح مطواعًا إلا بتلك الحيلة العبقرية، ومروره في ذلك الخانق الصخري العميق من الرستن حتى شيزر التي تقع شمال غربي حماة، لا يكفي كي يُطلق عليه اسم العاصي. إن عصيانه هو في اتجاهه من الجنوب إلى الشمال، بخلاف الأنهار في مختلف أنحاء الأرض، وهو على تمرده على قوانين الطبيعة، يبقى النهر المطواع الذي يفيض بالخير والبركة(3).

أحمد حسين الجهماني
نوى، درعا، سورية

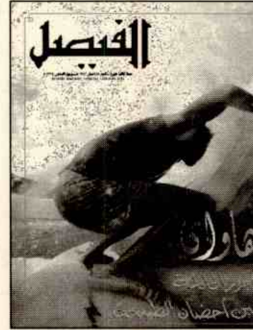
الهوامش:

1- لمزيد من الاطلاع يُراجع: أفامية العاصي وقلعة المضيق، مدينة وتاريخ، وليد قنباز، مجلة الفيصل العدد 72، جمادى الآخرة 1403هـ - آذار/ نيسان 1983م.

2- شدو النواعير له حكاية، حسن محمد يوسف، مجلة العربي، العدد 374، جمادى الآخرة 1410هـ - كانون الثاني 1990م.

3- لمزيد من الاطلاع انظر: تاريخ العلم: جورج سارتون، تاريخ العلوم في الإسلام: أنور الرفاعي، قصة الحضارة: ول ديورانت، شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه.

تصحيحات حديثية



في أثناء اطلاعي المعتاد على مجلة الفيصل الغراء استرعى نظري ورود بعض الأحاديث في تضاعيف بعض المقالات في العددين 236، 237 دونما تخريج وتحقيق؛ مما يستلزم التصويب والاستدراك عليها، وهي كالتالي:

أولا: في باب «من نوادر التصنيف» - وهو باب طريف شائق - تحت عنوان: الأرج في الفرج، جاء الحديث الذي أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن أبي الدنيا، عن ابن عباس، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب».

والحديث محل البحث صحيح المعنى جدًا، ولكنه ضعيف سندًا، وكما هو معلوم فقد يصح الحديث معنى، ولا يصح سندًا، ومما لا شك فيه أن العبرة بصحة السند لا صحة المعنى.

وقد حكم العلامة الألباني في سلسلته «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وأثرها السيء في الأمة»، على الحديث بالضعف (حديث رقم 705)، حيث ذكر أن الحديث مروي عن الحكم بن مصعب: حدثني محمد بن علي بن عبدالله بن العباس عن أبيه، عن جده مرفوعًا.

وقال: سنده ضعيف، الحكم بن مصعب مجهول، كما قال الحافظ في التقريب. ثم ذكر تعقب الحاكم للذهبي، حيث قال الذهبي: «الحكم فيه جهالة».

وقد حكم عليه بالضعف أيضًا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق كتاب «رياض الصالحين»، حيث ذكر في الحاشية (هامش الحديث رقم 1873) ما نصه: «وفي سنده الحكم بن مصعب، قال أبو حاتم مجهول، وذكره ابن حبان في الضعفاء، وقال الأزدي: لا يُتابع على حديثه».

ثانيًا: في مقال «القصة الإسلامية في المغرب» نسب الكاتب القول «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها».

والحديث ضعيف جدًا كما أورده الشيخ محمد عمرو عبداللطيف في سلسلته «تبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة»، حيث ذكر أنه مروي من طريق إبراهيم بن الفضل المخزومي المدني عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عنه به وإسناده ضعيف جدًا.

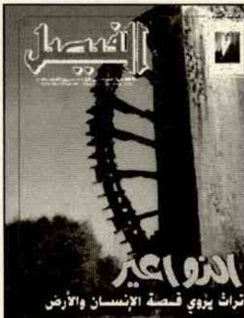
قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المخزومي ضعيف في الحديث. وقال البيهقي: تفرَّد به إبراهيم بن الفضل وليس بالقوي، وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح. قال يحيى: إبراهيم ليس حديثه بشيء. وكذلك أورده كل من العقيلي في الضعفاء الكبير، وابن حبّان في المجروحين، وابن عدي من جملة ما استنكر عليه. وقال الحافظ: متروك. والحديث قال العلامة الألباني في ضعيف الجامع: ضعيف جدًا.

ثالثًا: في حوار المجلة مع الشاعر فرّاج الطيب السراج نُسب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - القول المشهور جدًا على الألسنة، وهو: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي». قال عنه العجلوني في كتابه «كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»: حديث ضعيف. وحكم عليه بالضعف شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «مجموعة الرسائل الكبرى» (336/2)، وقال «معناه صحيح ولكن لا يُعرف له إسناد ثابت»، وأيده السخاوي والسيوطي. كما حكم عليه كذلك بالضعف الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة.

وبعد؛ فإني مازلت أنادي من فوق هذا المنبر ومن فوق غيره من المنابر بأن يتحرّى الكتاب والمحاضرون والخطباء والمؤلفون الدقة بصدد السنة النبوية المطهرة؛ لأن هذا الأمر خطير جدًا لتعلقه بالكلم الطيب، والمصدر الثاني للشريعة الإسلامية وأحد الوحيين الكريمين. وإني ليحدوني كبير أمل في أن يستجيب الكتاب والمحاضرون والخطباء والمؤلفون لذلك. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

محمد نجيب لطفي
العدوة، الفيوم، مصر.

شاعر بين مدينتين



اطلعت في العدد 237 من مجلتنا الفيصل الغراء على كلمة أثارتني قراءتها للأديب سعيد بوعطه عن الشاعر والمدينة حاول فيها جاهدًا الإلمام بموضوعه، وإن كان هذا

الموضوع سبق أن نُشر من قبل في مجلة عالم الفكر، ولا أقول اقتبسه أو سطا عليه بل أضاف إليه كثيرًا. ولكن الذي أريد أن أقوله للأديب بوعطة: ما أكثر من تناولوا المدينة في قصائدهم وقلما نجد من لم يتناولها؛ والمدينة ليست هي مدينة الشاعر كما رأيت بل هي موقفه من السلطة يسقطه على مدينته التي هي بلاده ووطنه العربي الكبير من المحيط إلى الخليج.

كم شاعر رمى مدينته بهذه السوداوية الموحشة القاتلة لحاجة في نفسه يريدها، لكن أليس هناك من يراها براءة طفولة وابتسامة صباح مشرق وتفتح زهور ربيع؟!!

كان أولى أن تلقي الضوء على الجانب المضيء في علاقة الشاعر بالمدينة لا بالجانب السوداوي الحزين الموحش فقط.

وأنا ليس لدي ما استشهد به عن الجانب المضيء لقلة ثقافتي مع كثرة اطلاعي على الشعر، وكأنه داء مقيم بداخلي. لكن الذي لا شك فيه أن هناك من تناول هذا الجانب، وأظن أنك تعرف كثيرين ممن تناولوه من الشعراء، وأظن - كذلك - أنك تجاهلت ذلك تأكيدًا للسوداوية، وكأن الشاعر يجب أن يظل على النقيض من مدينته.

وهكذا يُفتح الباب لصغار الشعراء ليقلدوا غيرهم ويصطنعوا الاغتراب ويعايشوه كأنه هو الصواب. وأحالك قرأت للشاعر عبدالرحمن أبو المجد صالح الذي تناول المدينة برؤيتين مختلفتين، يقول في رؤيته الأولى في قصيدة «الضياع مدينتي» من ديوانه الأول «أشعار ملتهبة»:

ومدينتي ليل طويل ظلامه
ليل طويل بلا نجوم لنهتدي
مازلت أنتظر الديوك لكي تصيح
لكن ديوك مدينتي كانوا دجاج

ويقول:

ومدينتي حمقاء رغم نضوجها...
ومدينتي تشتاق للفجر القديم طريقها
قالوا عقيم وشرَّقوا...
قالوا عقيم وغربوا...
ضلوا وضلونا وميض الفجر
وأنا سجين مدينتي
سجنٌ كبير مدينتي
فيها الضياع ثماره قد أينعت...

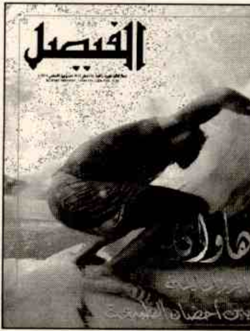
لكنه غيَّرَ موقفه من مدينته بعدما غَيَّر مدينته نفسها، فاختلفت رؤيته تمامًا. يقول في قصيدته «وجه مدينتي أشرق» من مجموعة قصائده «قصائد غير عادية»:

... ونور مدينتي أشرق
يضيء قلوبنا نورا
نهارٍ مدينتي بالشمس يُطرد ليل خلف حدودها حومٍ
وحول تخومها عشعش
وشمس مدينتي تشرق ولن تغرب
تظل تظل يحفظها لنا الرحمن
ومنبرك يا رسول الله شمس مدينتي بالطبع
بداية نهضة الإنسان
مدينة أشرقت بالنور بالإيمان
ومن منّا له عينان... قلوب على عليها دان..
ليدرك نورها الدائم
تعبت تعبت في قومي أوضح ومضة التنوير
وجئت إليك جئت إليك قربني هنا قربة
تبعث مشاعري وأتيت
لم أشعر هنا بالضيق
أو بمشاعر الغربة..

لقد عبَّر الشاعر حقًا عن حيرة المثقف العربي عندما تتفاعل مشاعره بالمدينة المنورة صلى الله على ساكنها وآله وسلم.

زينب الطيب
أسوان، مصر

سهل بن هارون من جديد



طالعت باهتمام بالغ الدراسة الأدبية التي قدمها محمد كرزون في العدد 236 وكانت بعنوان «الأدب وإعادة تفسير التاريخ، كتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون نموذجا».

لقد طُرِحَت في المساجلات الفكرية والمشهد الثقافي العربي منذ عشرات السنين ثلاثة اتجاهات للتعامل مع التراث: فذهب الاتجاه الأول إلى رفض كامل لهذا التراث، بينما فضّل الاتجاه الثاني أخذه كاملاً دون أي إهمال أو غربلة، في حين دعا الاتجاه الثالث إلى ترك بعضه لعدم مناسبته للراهن، ولمظاهر الركاكة والحشو والجمود التي يتصف بها بعض ما تُرك لنا من تراث، والدعوة إلى التعامل مع التراث الأصيل/المتجدد الذي يعبر عن تجربة إنسانية غنية، بكل احترام وجدية، وتأكيد عدم إمكانية القفز فوقه، مع ضرورة «تطويره» لبناء المستقبل.

وأعتقد أن الرأي الأخير هو المناسب للحياة بتنوعها وتجددها، وهو رأي ينسجم مع العلم ومع طبيعة الإنسان المتجددة. ورأيي أن كتاب «النمر والثعلب» يندرج ضمن التراث الأصيل الجدير بالاهتمام، وأن كثيرًا من مقولاته، ومنها إبراز الصفات الشخصية لرموز هذا العمل الأدبي بكل ألوانها ومسبباتها، نجاحها وإخفاقها. إن هذه الأجواء مازالت تحدث في حياتنا الحالية، وسيبقى جزء منها إلى المستقبل على الأقل.

وتأتي أهمية هذه الدراسة في أنها أزاحت الغطاء عن هذا العمل المنسي، وأجزم أن كثيرًا من الكنوز التراثية ما زالت مغطاة. وكل الشكر والاحترام لمجلة «الفيصل» المتميزة التي تفتح نوافذ

الحوار بين الكُتّاب والتراث، وبين الكُتّاب والقراء.

ولن أدخل في كل تفاصيل الكتاب، ولكن أقول: بعد أن نصَّب النَّمِرُ الذئبَ حاكماً في إحدى الولايات، وكان هذا من تخطيط الثعلب، أصبح الذئب يماطل في تسديد ما يطلبه منه النمر، وتعددت وسائل التهديد والوعيد للذئب، وهنا نلاحظ تمكن الكاتب من بناء الحدث القصصي بشكل منطقي ومقنع إلى أن يصل النمر المسمى المظفر بن منصور إلى قتل الذئب الخارج عن الطاعة.

وأود أن أشير إلى أن اسم النمر مختار بعناية فائقة، ويدل دلالة واضحة على دور هذه الشخصية وقوتها.

ومن مظاهر نجاح الكتاب أيضًا فكرته الشمولية المنطلقة من شخصية الكاتب ذاتها الذي غلّب انتماءه الإسلامي على انتمائه القومي الفارسي، بدليل أنه على الرغم من إبعاد البرامكة من الحكم، فقد تقرّب سهل بن هارون من الرشيد وأصبح كاتب ديوانه، ثم أمين مكتبة دار الحكمة لابنه المأمون. فسهل ينتمي إلى الحضارة الإسلامية بكل مقوماتها.

ومن حوار جرى بين النمر والثعلب، ولشدة إعجاب النمر برجاجة عقل الثعلب استوزره:

«قال الملك (النمر):

ـ فمن أحقّ الناس بالرحمة؟

قال الثعلب:

ـ عالم يجري عليه حكم جاهل.».

نجد أن هذا الكلام يحمل في مضمونه الدعوة إلى التسلح بالعلم وإبعاد الجهل، وهذا جوهر سموّ الإنسان، وبذلك يبلغ الكتاب عالمية المضمون والمنهج. وهناك كتب كثيرة أخرى في المكتبات والمتاحف العالمية، ومنها «دار الكتب الوطنية» بباريس، ولولا وجود هذا الكتاب المخطوط هناك لما تمّ إيصاله إلى القراء وإلى الأجيال القادمة، وهذا يعني أن الحضارة الإسلامية قد قدّمت كنوزًا عظيمة اهتم بها الغرب قبل الشرق، وهو دور إيجابي يُحسب في صالح أوروبا لحفاظها على التراث العربي والإسلامي. ولا يخفى أن بعض الغايات كانت استعمارية أحيانا في نظر البعض. ومهمتنا ـ نحن الكتّاب والمثقفين ـ دراسة هذه الكنوز التراثية وتحقيقها وإيصالها إلى أبناء الأمة العربية وإلى الشعوب الأخرى لتكون من أسس نهضتنا القادمة، ولكن مع الاعتماد على الأساليب العلمية الحديثة والاستفادة من تجارب الأمم الأخرى لتعود الأمة العربية سيدة القلم والساح كما كانت، وبذلك تأخذ دورها الطبيعي في سياق الحضارة الإنسانية.

وأنا مع الكاتب محمد كرزون في أحقية تسمية الكتاب «النمر والثعلب»، أي إغفال اسم الذئب، مع أن الأحداث كانت تشمل النمر والذئب والثعلب، وفي هذا تأكيد دور العقل الذي يمثله الثعلب، وتأكيد أن توحّد العقل مع القوة لا بدّ أن يفضي إلى النجاح والانتصار كما حصل للنمر، وأن الحماقة والغرور نهايتهما نهاية الذئب.

لقد أكدت الدراسة أن «الفكر لا يُقارَع إلا بالفكر، وكثير عليه حدّ السيف» وهو تأكيد مهم جدا، ولاسيما في الأحوال الآنية التي تحياها الإنسانية ومنطقتنا العربية، كما يعدّ هذا الطرح ظاهرة صحية في المشهد الثقافي العربي الذي نلحظه لدى أكثر من كاتب وفي أكثر من موقع ثقافي. ونرجو أن تتنوع مثل هذه الأفكار النيّرة وتكثر.

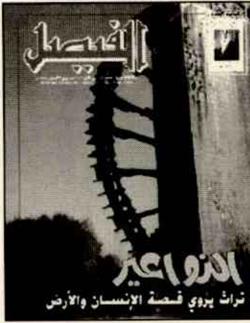
يبقى أن أنبّه على أن سهلاً من حقه أن تُجمع أعماله في النثر والشعر مع دراسة وافية عنه. وأظن أن الباحث محمد كرزون هو أجدر من يقوم بهذه المهمة نظرا لما تمتّعت به دراسته عنه من جدية وموضوعية وتحليل عميق.

أمين استانبولي
ص.ب 3404، سيف الدولة، حلب
سورية

المعيار الإسلامي

ومجموعة قصص:

«الرقص على الجراح»



كنت أطالع في مجلة «الفيصل» الغرّاء في عددها 237 موضوعًا شائقًا وجادًا بعنوان: المعيار الإسلامي في النقد الأدبي، للدكتور عبدالرحيم الرحموني، قال في افتتاحيته: «إن المتتبع للمراحل التي قطعها الأدب العربي ونقده يدرك بكل وضوح أن المنطلقات الإسلامية كانت تشكل أساسًا مهمًا في كل خطوة من خطوات الإبداع والنقد، وهو نتيجة طبيعية لما كان يتسم به المتلقي ـ السامع/القارئ ـ المسلم من تشبع بالروح والتطورات الإسلامية، فكان يستحسن ما هو مُستحسن من الوجهة الإسلامية ويستقبح ما هو مُستقبح من الوجهة الإسلامية أيضًا أسوة بما كان يفعله المصطفى ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ الذي كان يستنشد الشعراء وينشدونه، فيستحسن ما هو حسن ويشجع عليه ويرفض ما هو قبيح ويوجه صاحبه نحو ما هو أحسن».

وقد اتفق لي في الآن نفسه قراءة مجموعة قصصية بعنوان: «الرقص على الجراح» للقاصة

السعودية وفاء حسن منصور، نُشرت في مكة المكرمة، مطابع الصفا، الطبعة الثانية 1412هـ. تقول الكاتبة في مقدمتها للمجموعة (ص 6): «وعندما تقدمت بالمشاركة في المسابقة السنوية لجائزة أبها الثقافية لصيف عام 1410هـ فرع القصة القصيرة وإبداعاتها حازت المجموعة هذه - بفضل من الله وتوفيقه - على المركز الأول بالمناصفة ضمن عدد من المجموعات القصصية المقدمة من القاصين والقاصات بمدن مملكتنا الحبيبة، فكانت جائزة صاحب السمو الملكي الأمير الشاعر خالد الفيصل، والتي دلت على مكانة الفكر والأدب في بلادنا الغالية، واهتمامات المسؤولين الجادة بالأدب والأدباء وحرصهم الشديد على تقدمه وازدهاره».

وأول ما يسترعي النظر في هذه المجموعة القصصية أنها نموذج إبداعي معاصر ينبع في موضوعه من بوتقة المبادئ الإسلامية التي تتلخص في الآية القرآنية الكريمة: كنتم خير *أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله*. **آل عمران: 110.**

ولعل هذه الوشيجة الفكرية هي التي ربطت بين مجموعة «الرقص على الجراح»، ومقال «المعيار الإسلامي في النقد الأدبي»، ومراعاة للمساحة المحدودة المخصصة «للمناقشات والتعليقات» في مجلتنا «الفيصل» رأيت أن أجمل ملاحظاتي حول هذه المجموعة القصصية التي تقع في دائرة المعيار الإسلامي الذي أقرّه نقادنا منذ صدر الإسلام - وما زال يتبناه الغيورون منهم على الإسلام ومبادئه في عصرنا الحاضر - في الأفكار الآتية:

أولاً: أول ما يسدهنا في العمل الأدبي: العنوان، وقد اختارت القاصة لمجموعتها عنوان «الرقص على الجراح»، وهو عنوان إحدى قصص المجموعة أيضًا، ويمثل - في رأيي - بؤرة تجربتها القصصية ومحور البنية الفكرية في جميع قصصها، كما أن بناءه اللغوي عبّر عن ذلك كله في وضوح، إذ جاء جملة اسمية، والجملة الاسمية عند البلاغيين لها دلالة الثبات والاستقرار، وتكمن قوة التأمل والحكمة في هذا الثبات وهذا الاستقرار أيضًا. ثم جعلت «الرقص» في موقع المبتدأ من هذه الجملة الاسمية، ولعل الرقص يوحي ههنا بالنشوة والفرح وتجاوز الهموم، وجاء الخبر فيها شبه جملة يتكون من جار ومجرور«على الجراح»، وحرف الجر على يفيد الاستعلاء، فأرادت تجاوز الجراح وآلامها، وكأن عنوان المجموعة «الرقص على الجراح» مسكون بقوة شعرية يختبئ في رَحِمه معنى إيماني عميق في مواجهة معاناة الإنسان، تدعو القاصة من خلاله إلى التفاؤل وتجاوز الآلام، ثم تفويض الأمر لله سبحانه وتعالى، وهذا المعنى ألفيناه ينبعث من مشكاة: *وأفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصيرٌ بالعباد*. **غافر: 44.**

ثانيًا: إنّ أبطال المجموعة يهرعون إلى الله - سبحانه - في المآزق والملمات يطلبون العون منه. ويتوخون الأمن والأمان في كنفه، ففي قصة «شفاء النفوس» ص 59 - على سبيل المثال - نجد البطلة التي أصيبت بمرض عضوي ترك آثاره وبصماته في نفسها، تقول عنها: «واليوم، وبعد معاناة طويلة، وقاسية مع سنوات المرض تتكوم بغرفتها النائية من الأسرة والمجتمع. يغلف الحزن جدار الغرفة، وتنصبّ الكآبة على نضارة المعاني بدواخلها، فيقيدها الانطواء في زاوية مظلمة، السقم يتمركز بجسدها وبروز العظام شوه دقة الملامح بوجهها الجميل، تصرخ بين الحين والآخر، تبكي بحرقة، تصدر آهات عميقة، تمتزج بحرارة الدموع، تتأمل بصمت كل ما حولها، أوراقها، كتبها، زينتها، ملابسها، وتعود لتدفن نظراتها في أحشاء وسادتها المبللة بدموعها».

ثم لا تلبث أن تتبدد غيوم الكآبة والقلق من نفسها، وتحل محلها بارقة الأمل والتفاؤل، لماذا؟ تجيبنا البطلة قائلة: «يتبدد سؤالي وسؤالهم في عدد بسيط من الدقائق، أين يجدون العلاج لحالتي؟ ها قد وجدته في رحاب بيت الله، وفي قرآنه المنزل. الحمدلله الذي جعل بالدين الطمأنينة والأمان، وجعل في القرآن الشفاء لما في النفوس المريضة، فليت النفوس تعود بإيمان صادق لتجد شفاءها، وتجد راحتها. ومن ماء زمزم أرتوي، وأغسل وجهي وأنا أحمد الله وأشكره، أن عافاني وجعل شفاء نفسي في هذه الثلاثة: كلامه، وبيته، وماء زمزم»!

وقصص المجموعة - في جملتها - تقدم همومًا نسائية غالبًا تسبكها الكاتبة في قالب من الخطاب الإبداعي الذي ينبثق من رؤية إسلامية، ويمكننا أن نقرأ هذه الهموم في سهولة ويسر من خلال عناوين قصص المجموعة: زوجة مغترب، مشاغل زوج، العانس، مهام زوجة عاملة، رجل غير مسؤول، ليلة بنصف العمر، شفاء النفوس، سارة.... وهكذا.

ثالثًا: إذا ما استعرضنا بنية السرد الحكائي في المجموعة، ألفينا الكاتبة - كذلك - تستقي مفرداتها وجملها من معجم إسلامي خالص، ففي القصة الأولى «الوصية»، وهي قصة مناضل يجاهد في سبيل الله والوطن والعودة والحرية، يقول البطل في وصيته مستبشرًا بالشهادة ص 17: «أخي باسم، ما أروع الشهادة، واعذرني، لا وقت لديّ الآن للمقدمات، فأنا أشعر الآن بشيء مشع يتسحب من قدمي، وأحس بسعادة بالغة، لعله الروح..». ثم إن القاصة قد قدمت هذه القضايا الإنسانية في جملة شعرية مكثفة مشحونة بالمشاعر التي تجعلنا نحس بمعايشة الكاتبة لأبطالها وواقعها وموضوعاتها، وهذا كله يرشح المجموعة القصصية لأن تكون نموذجًا للأدب الإسلامي، من وجهة نظري على الأقل.

وأكتفي بهذه المقاربة الأولية جدًا للمجموعة على أمل أن يمدّني الله بالعون في وقت قريب بمشيئة الله، كي أسطّر حولها بحثًا متكاملاً يتناول جوانب الخطاب الإبداعي فيها.

د. بهاء الدين سليم عايش
جامعة صنعاء، صنعاء،
ص. ب. 3220
اليمن

على موعد

التقانة (التكنولوجيا) والإنسان والمخترعات الحديثة

ياسر الفهد



من بعد أن ثبت ما للنفايات الذرية والإشعاعية وغيرها من تأثيرات ضارة جسيمة في البيئة وصحة الإنسان، أخذت تبرز اليوم، هنا وهناك، وفي هذا المكان من العالم أو ذاك، آراء جديدة تحذّر من أخطار التقانة (التكنولوجيا) والمخترعات الحديثة، وترى فيها شرًا مستطيرًا وشيطانًا مريدًا، وبعضها يدعو إلى التوقف عن تطويرها، ومواجهتها بالطريقة التي نواجه بها أعداء الإنسانية. وفي مقابل ذلك نجد نظرة متفائلة تعدّ التقانة الوسيلة الأساسية لتقدم مسيرة الحضارة البشرية، وحل العديد من المشكلات الاقتصادية والطبية والإدارية، وتحسين مستويات الحياة، وزيادة أداء التعليم وتطوير مرافق المجتمع. وهناك رأي ثالث متوسط ينظر إلى التقانة بوصفها خيرًا وشرًا في آن واحد.

فأين نحن من هذه الآراء والنظرات المتباعدة؟ أنا - شخصيا - أقف في مكان ما من الخط الفاصل بين الرأيين المتطرفين، المتفائل والمتشائم، وهذا المكان أقرب ما يكون إلى موقع الرأي المتفائل ولكن مع قليل من التحفظات. فلولا التقانة، لكانت أوضاعنا تختلف جذريًا عما هي اليوم، ولظلت كثير من مظاهر حياتنا تفتقر إلى الوجه الحضاري، ولحُرمنا من إنجازات رائعة لا تقع تحت حصر. أمّا تأثيرات (التكنولوجيا) الضارة فتتعلق بالإنسان نفسه، إذ هو الذي يوجهها نحو الخير أو صوب الشر. والإنسان المعني هنا، أكثر من غيره، رجل السياسة أو الخبير التقني (التكنولوجي). فهذان أقدر من غيرهما من الناس، على إبعاد (التكنولوجيا) من التردي في مهاوي الشر ومزالق التخريب، وتوجيهها، بدلا من ذلك، نحو الخير وخدمة مصالح البشرية. ولو أننا أخذنا بالرأي الذي يظلم (التكنولوجيا)، بسبب احتمال استخدامها بطريقة هدامة، فإن معنى ذلك، أننا نستطيع أن نوجّه إصبع الاتهام إلى كل إنجاز علمي أو صناعي أو طبي أو غيره.

فالكهرباء، مثلا، وهي نعمة من أكبر النعم البشرية، يمكن لتيارها الصاعق أن يفتك بحياة الإنسان. وأن يسبب الحرائق والدمار. فهل معنى ذلك أن الكهرباء شر؟!

ولنأخذ، أيضًا، عقار الأنسولين الذي لولاه لكان معظم مرضى السكري في أسوأ حال. ولكن حدوث خطأ في مقدار الحقنة الدوائية الأنسولينية، يمكن أن يورد المريض مورد التهلكة. فهل ينبغي، من أجل ذلك، أن نعدّ الأنسولين نقمة ولعنة؟!

وحتى السكين التي لا يمكن الاستغناء عنها في الأعمال والاستعمالات المنزلية المختلفة، يحتمل أن تُستخدم أيضا في ذبح إنسان. فهل يتوجب التوقف عن إنتاج السكاكين؟

وهناك، كذلك، أشعة الليزر. ففي مقدورها أن تنقذ شبكية العين عند مرضى السكري من النزيف المُفضي إلى العمى... كما يمكن لها، إذا استخدمها طبيب غير كفيٍّ، أن تخرب خلايا الشبكية... فهل على طب العيون أن يتخلى عن استخدام أشعة الليزر، بسبب أخطارها؟!

ونذكر أيضًا الأدوية التي تشفي الكثير من الأمراض من ناحية، وتقود إلى أضرار بالغة إذا أُسيء استعمالها من ناحية ثانية. فهل نطلب من معامل الأدوية بسبب ذلك، أن تغلق أبوابها؟

إن التقانة والمخترعات الحديثة وجميع الإنجازات العلمية والصناعية، هي في ذاتها خير محض، ولولاها لكُنّا نعيش في عصور الجهالة ونرزح تحت أثقال الظلام. وإذا كان لها من أضرار فإن هناك لذلك سببين: أولهما: النوايا السيئة للإنسان الذي قد يستخدم منجزات العلم والتقانة في طريق التدمير. وهذه مسألة أخلاقية وليست مسألة تقنية. ولا شك أن الإنسان إذا أراد أن يؤذي الآخرين، فإنه يستطيع أن يفعل ذلك (بالتكنولوجيا) أو من دونها.

وثانيهما: سوء الاستعمال أو عدم إتقان صناعة الأدوات التقنية. وهذه المشكلة يمكن أن تُحلّ بتحسين الصناعة التكنولوجية والتدريب الجيّد على الاستعمال.

وبتعبير آخر، فإن مساوي (التكنولوجيا)، يمكن مواجهتها على صعيدين: صعيد أخلاقي، وصعيد يتعلق بترقية التقدم التقني.

وبعد، فإن الإنسان هو الأساس، وهو الذي يصنع الخير والشر.. أما التقانة، فإنْ هي إلاّ أداة طيعة بين يديه.. وإذا كان لها من أخطار؛ فإن علينا أن نواجه ذلك، بالأخلاق أولا، وبمزيد من التقانة ثانيًا.